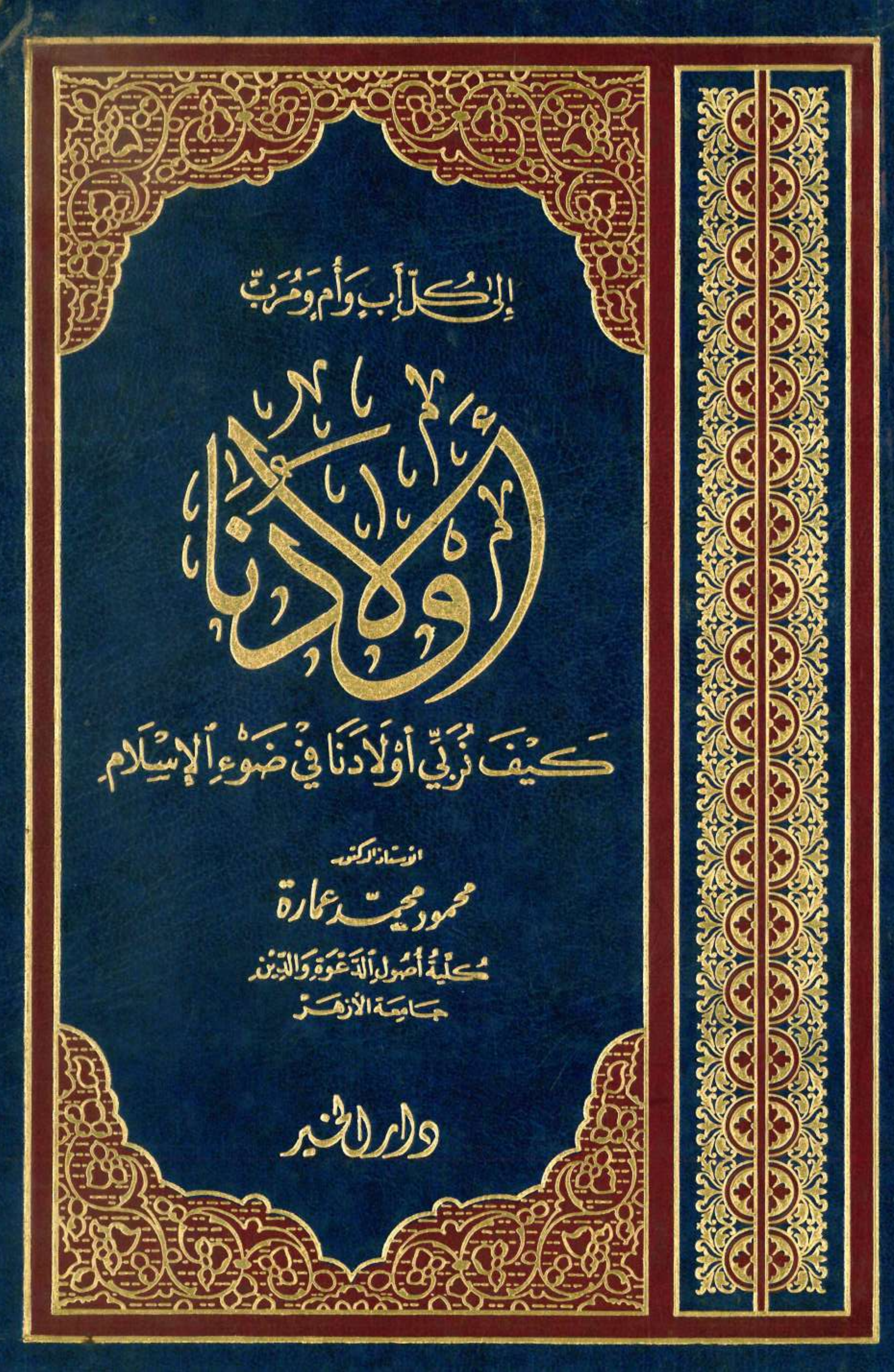

إلى كل أب وأم ومُربّ
أولادنا
كيف نربي أولادنا في ضوء الإسلام
الأستاذ الدكتور
محمود محمد عمارة
كلية أصول الدعوة والدين
جامعة الأزهر
دار الخير


أولادنا

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م






بيروت - فردان - جنوب سيار الدرك - بناء الشامي
هاتف: ٨١٠٥٧١ - ٨٦٥٦٩٧ - ص.ب: ١١٣/٥٦٣٠
فاكس: ٨٦٥٦٩٧ - تلكس: ٢١٦٣٢

دمشق - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف: ٢٤٥٨٢٢ - ٧٥١٩١٥ - ص.ب: ١٣٤٩٢
تلكس: سامتل سي: ٤١١٣٧٣

إلى كل أب وأم ومرب




# كيف نربي أولادنا في ضوء الإسلام

الأستاذ الدكتور
محمود محمد عمارة
كلية أصول الدعوة والدين
جامعة الأزهر

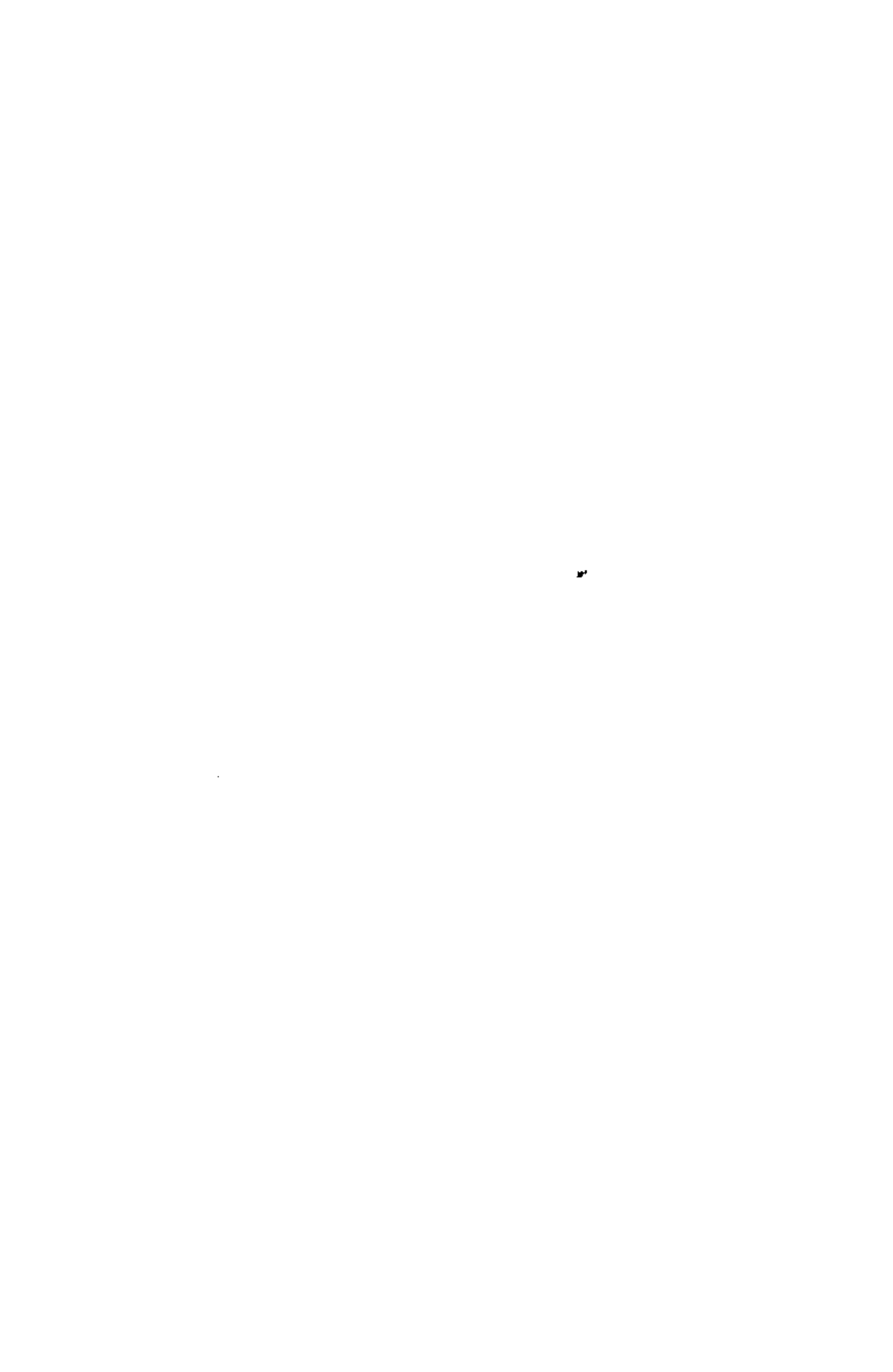
دار الخير



بسم الله الرحمن الرَّحيم

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا لِلْمتَّقِينَ إمَاماً﴾

«صَدَقَ اللهُ العَظِيم»



# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقـــدمـة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . .

وبعد :

فقد كان من رحمة الله تعالى بالإنسان أن خلقه في أحسن تقويم . وصوره فأحسن صورته على نحو يمكنه من تحقيق رسالته كخليفة لله في أرضه .

**﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك ﴾**[1] .

وبهذه الفطرة السوية النقية امتاز الإنسان على كثير ممن خلق الله :

**﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾**[2] .

لقد وهبه الله الغرائز لتكون عوناً له في أمر معاشه . ثم منحه العقل . ليميز به الخبيث من الطيب .

وكان من تمام نعمته سبحانه وتعالى أن سلحه بالإرادة . لتضبط الغرائز المندفعة إلى الاشباع . . والتي يعجز العقل فلا يستطيع وحده كبح جماحها .

ومن خلال المعركة الناشئة بين الغرائز والعقل . تباشر الإرادة سلطتها فتنجح أو

---

(١) الإنفطار / الآية : ٦ ـ ٨ .

(٢) الإسراء / الآية : ٧٠ .

تفشل في تحقيق التوافق بين حاجات الإنسان ومطالب الجماعة . وعلى قدر نجاحها أو فشلها . يكون نصيب الفرد من السعادة التي يسعى إليها . وحتى لا تزل قدم بعد ثبوتها . بدت الحاجة ماسة إلى قواعد ثابتة توازن بين رغبات الإنسان . وتشد من أزره في محاولة ترويض الغرائز وإعلائها . لتحقيق مصلحة الفرد والمجموع على سواء .

وهنا يبرز دور التربية . . من أجل أن تضع الحرب أوزارها بين غريزة ناشز ، وعقل عاجز ، وليخرج الإنسان من خلال تجاربه ، وفي ظل هذه التربية أقدر على تحمل مسؤولياته .

وهنا أيضاً مفرق الطريق بين مدارس التربية الحديثة ومنهج الإسلام الراشد في نظرته إلى الإنسان :

فالنظريات الحديثة تركز على الجوانب المادية في كيان الإنسان . متجاهلة أشواق الروح . من أجل ذلك لم تخفف من أعباء الإنسان ـ بل إنها لتزيد من شقائه . ولكن الإسلام بمنهجه المتكامل . ونظرته الشاملة إلى الإنسان ـ جسماً وعقلاً وروحاً ـ يخاطب أقطاره كلها .

ومن ثم . وجدت كل نفس فيه ما يحقق سعادتها . ويواكب رغباتها المتجددة بلا إفراط أو تفريط . والنتائج الضخمة التي حققها الإسلام في مجال التربية بهذه النظرة الشاملة . راجعة في بعض جوانبها إلى طبيعة الجماعة الإسلامية ودورها في الحياة .

بقدر ما كان فشل المذاهب الأرضية أيضاً مردوداً إلى طبيعة الأمم هناك ولون أهدافها : أن الأمة الاستعمارية مثلاً تعد أفرادها للغزو الخارجي كهدف أصيل تقيم عليه حياتها .

وقد لا يكون لأمة مذهب سياسي خاص . فهي تريد حمل الناس عليه . فيجيء أسلوبها في التربية على وفق تلك الغاية .

وهذه الأهداف المتباينة تترك ولا شك آثارها في طبيعة الأفراد .

ولكن الأمر بالنسبة لأمة الإسلام مختلف جداً :

فأمة الإسلام صاحبة رسالة إصلاحية شاملة . تخاطب الناس في كل عصر ومصر .

فهي إذن تخضع في تنشئة أفرادها لأهداف رسالتها السامية .

ومن ثم برئت من العيوب التي تمخضت عنها المذاهب الشيوعية والرأسمالية حين حصرتها أهدافها الإقليمية في دائرة ضيقة فلم تنجح في إسعاد الإنسان .

ويبقى الإسلام دائماً بلسم جراحنا الشافي . لأنه مع هذا وقبل هذا من لدن حكيم خبير يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. فهو وحده سبحانه القادر بدينه القويم على إسعاد الإنسان دنيا وأخرى بما أنزل من كتاب يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

فلا أحد أصدق في وصف الإنسان من خالق الإنسان :

**﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً ﴾**[١] .

ولا أحد أحكم منه سبحانه في وضع منهج إرشاده لإسعاده :

وذلك قوله تعالى بعد ذلك :

**﴿ إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل المحروم . والذين يصدقون بيوم الدين ﴾**[٢] .

وهذا سر النجاح الساحق الذي أكدت به التربية الإسلامية فعاليتها . بل وهيمنتها ـ هو نفسه العامل الأساسي في دخول الناس أفواجاً في دين الله . .

وتوارت بالحجاب فلسفات ومذاهب هيمنت على الفكر الإنساني زمناً .

ولكن الغزو الفكري الاستعماري لم يفقد الأمل بعد رغم الهزائم المتكررة التي مني بها . وربما كان تفوقه في مجال المادة داعياً بعض السطحيين إلى الاطمئنان إليه والأخذ عنه . حاسبين خطأ أن التفوق في باب الاختراع يستلزم صدق مذاهب المخترعين في مجال الاجتماع .

مع العلم بأن هذا التلازم غير مسلم . كما تفيد التجربة التي نراها اليوم في هذه الدول المتقدمة . وما تحكيه من قصور في مبادىء التربية بقدر النجاح في دنيا الاختراع .

ومن هنا بدت الحاجة ماسة إلى توعية يستعيد بها المستغربون رشدهم . ليروا

---

(١) المعارج /الآية : ١٩ ـ ٢١ .

(٢) المعارج /الآية : ٢٢ ـ ٢٦ .

عظمة المبادىء الإسلامية . ومدى قدرتها على إسعاد الحياة . بعد أن أعلنت المذاهب الأرضية إفلاسها .

وخاصة في مجال تربية النشء ـ وهو الأمر الذي كثر فيه المقلدون والأدعياء ـ وقد كان طبيعياً أن يفتن الجمهور بما في هذه الدعاوى من بريق ليتملق عواطفهم . والمغلوب دائماً مولع بتقليد الغالب .

وقد ركز الاستعمار حملته في مجال الطفولة ـ في محاولات متكررة لتعكير هذا النبع الصافي . في مستهل حياته حتى يمارس دوره بعد ذلك بشخصية مشدودة إلى مذاهب معوقة تنسيه عمله الرئيسي في هذه الحياة كخليفة لله في أرضه وتطفىء في كيانه جذوة الحماس للحق الذي أقام الله عليه الكون .

بل أن خطة الاستعمار قد اشتد تركيزها على تربية « البنت » المسلمة فيما أنشأت من مدارس تبشيرية تصوغها على هواه .

حتى إذا صارت بعد ذلك أماً . رحل عن بلادها قرير العين . بعد أن خلف من ورائه ربة البيت . تنشىء أولادها على ما كان عودها الماكرون . وهو الأمر الذي فتح أبصاراً وبصائر . فوعت الدرس وشمرت عن ذراعيها لتفوت على الاستعمار غرضه بعد أن تاه دليله . وقاد الناس من عذاب إلى عذاب صارت به الحياة جحيماً لا يطاق .

ونهض رجال مؤمنون ونساء مؤمنات . ليضربوا ضربتهم . والإنسانية المعذبة تتلفت باحثة عن الخلاص .

وقد بذلت جهود مخلصة في هذا المجال . استبان بها سبيل الإسلام في تربية النشء . وصولاً إلى إنسان سوي يتحمل تبعة البلاغ ، ثم تبعة الجهاد وشاء الله سبحانه وتعالى أن يوقظ في قلبي الرغبة للقيام بدوري . تجاوباً مع هذه الجهود المبذولة . في وقت تشتد فيه وطأة المذاهب الأرضية في محاولات مستميتة تمكنها على الأقل إن لم تحقق نصراً ألا تترك الإسلام وحده فوق الساحة الكبرى . يرثها مجدها الغابر !!

وقد رجعت إلى الكتاب والسنة . وسيرة الصحابة والصالحين أستلهمها جميعاً مبادىء الإسلام التي تشكل في مجموعها نظريته المتكاملة لإعداد النشء إعداداً نستعيد به صفاء الحياة يوم أن كانت للإسلام دولة غالبة . وكلمة مسموعة . وقد تكشفت لي أبعادها هذه النظرة الإسلامية الشاملة على نحو يزري بما يدلي به الأجانب .

بل إن كثيراً مما يزعمونه من قواعد في باب التربية المنسوبة إليهم . . أمكن إرجاعه إلى الإسلام الذي سبق كل هذه المذاهب إلى وضع الخطة المثلى لإسعاد البشر . بما قعد من قواعد ، وما أصل من أصول .

وربت في صدري مشاعر الرضا. والإحساس بنعمة الله عز وجل ، الذي اختص هذه الأمة بدينه القويم . فكانت به خير أمة أخرجت للناس .

وفي صحبة هذه المشاعر. لاحقت قدر طاقتي كثيراً مما يضيفه السطحيون جهلاً أو تجاهلاً إلى المذاهب الأجنبية . لينتسب إلى أبيه الشرعي . . الإسلام !

ودعوت الشباب المفتون بأنماط الحياة هناك . ليواجه حقائق دينه . ووقائع تاريخه . لترداد حجة الحق في وعيه اتضاحاً. بقدر ما ترداد شبهة الباطل افتضاحاً .

ثم يزهو معتزاً بهذا الدين . ليغالي به في معركة القيم . ثم ليكون بعد ذلك صورة له . ودليلاً عليه . ومدافعاً عنه ضد مبادىء مستوردة تحاول إقصاءه عن عقيدته . وهي سرقوته .

وقد احتكمت في تقرير الحقائق إلى آيات القرآن الكريم . ثم الاستشهاد بأقوال الرسول ﷺ وأفعاله بما يزيد معنى الآيات وضوحاً في الأذهان . وخلال ذلك واجهت الواقع الماثل بما استبان الحياة التي يمارسها . وقيمتها في ميزان هذه الحقائق ، وقد ركزت على دور المسلمين الكبير بما وضعوه من قواعد التربية السليمة كالغزالي وابن سينا وابن خلدون . إلى حد يتقاضانا المغالاة بهذا التراث العظيم .

ونحن في دعوتنا إلى هذه الرجعة المخلصة الواعية . لا نحاول العودة بالحياة إلى وراء ! . .

ولكنها العودة إلى مرفأ الأمان !

إلى نظرية الإسلام المتكاملة لتكون حكماً فيما شجر بيننا من خلاف بدد كثيراً من طاقاتنا في غير ما خلقت له .

وقد آن الأوان لنستلهم دستور حياتنا اليومية من هذه المبادىء . لنستأنف السير من جديد على الطريق المستقيم .

ولنقف بهذه الاستقامة على مفترق الطرق . شاهدين على الناس . مهيمنين بهذا الدين . وبهذا الكتاب . على كل دين . وكل كتاب . والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴾[1] .

**محمود محمد عمارة**

* * *

---

(١) الأحقاف / الآية : ١٥ .

# تمهيد

## المراد بالنشيء

( النشيء والنشأة : إحداث الشيء وتربيته . وقوله : ﴿ أو من ينشؤا في الحلية ﴾[1] ، أي يربى تربية كتربية النساء )[2] .

فالناشيء بهذا المعنى هو الطفل المأخوذ بالتربية والإعداد حتى يبلغ الحلم . وهي الفترة التي تتحدد فيها ملامح شخصيته الرئيسية . ويستعد باستكمالها لتسلم زمام نفسه . ومواجهة الحياة وحده . بحصيلة من هذه التربية التي تقف به على أعتاب الرجولة .

وقد فصّلت التربية الحديثة فترة الطفولة بما لا يخرج عن هذا المعنى فجعلتها .

**ثلاث مراحل رئيسية :**

الأولى : من الولادة إلى سن ثلاث سنوات .

والثانية : من سن ثلاث سنوات إلى حوالي الثامنة .

وتنتهي الثالثة عند بدء المراهقة[3] .

أي أن فترة التنشئة والتربية تواكب الطفل من ولادته . . وتنتهي بتكون عناصر الشخصية . ثم تبدأ بعدها مرحلة تثمر فيها تلك التربية ثمرتها في نفس الفرد

---

(١) سورة الزخرف /الآية : ١٨ .

(٢) مفردات غريب القرآن للأصفهاني .

(٣) التكامل النفسي للدكتور يوسف مراد ، ص ٩٠ .

والمجتمع . وهي المرحلة المعروفة في الشرع بالتكليف . والتي يتحمل فيها الفرد مسؤوليته . ويحاسب فيها على كل ما قدمت يداه .

* * *

## * معنى التربية :

في تحديد معنى التربية يقول صاحب مفردات غريب القرآن إنها : ( إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام ) .

والمربي بهذا المعنى هو : الذي يتعهد الولد بالرعاية والتأديب حتى يستوي بعد ذلك رجلاً .

يقال : « رب زيد الأمر رباً من باب قتل إذا ساسه . وقام بتدبيره . ومنه قيل للحاضنة ربّة » .

ويسمى كل من كان سبباً في إيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره . . أباً . ولذلك يسمى النبي ﷺ أباً للمؤمنين .

قال تعالى :

﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم** ﴾[١] .

فالله سبحانه وتعالى هو الرب . . لأنه أوجد وأبقى على هذا الوجود كله .

والوالد والمعلم كلاهما أبِ :

فالأب سبب في الوجود . . ودوره في التربية معروف .

والمعلم هذب وأصلح فكان جديراً بهذا الوصف .

يقول صاحب المفردات :

« ويسمى معلم الإنسان أباً . لما تقدم من ذكره . . وقد حمل قوله تعالى : ﴿ **وجدنا آباءنا على أمة** ﴾[٢] على ذلك . . أي : علماءنا الذين ربونا بالعلم . . بدلالة قوله تعالى : ﴿ **ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** ﴾[٣] .

وقيل في قوله : ﴿ **أنْ أشكر لي ولوالديك** ﴾[٤] .

---

(١) سورة الأحزاب /الآية : ٦ .
(٢) سورة الزخرف /الآية : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) سورة الأحزاب /الآية : ٦٧ .
(٤) سورة لقمان /الآية : ١٤ .

إنه عني الأب الذي ولده . والمعلم الذي علمه .

وإذ يَقرن الحق سبحانه شكره بشكر الوالدين . . فإنه تعالى يلفت الأنظار إلى ما للتربية من خطر عظيم يستدعي الشكر الدائم لمن قام بها .

لأنها إعداد للإنسان يمكنه من عبادة ربه . . وعمارة حياته . . وبدونها يكون هملا . .

* * *

*** فضل التربية :**

عن ثوبان أن النبي ﷺ قال : « **أفضل الدينار دينار ينفقه الرجل على عياله . . ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله ، ودينار ينفقه الرجل على أصحابه** » .

قال أبو قلابة[1] : بدأ بالعيال . ثم قال :

« **وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال له صغار . . يعفهم الله به . ويغنيهم الله به** »[2] .

فأنت ترى الإنفاق على الذرية يقف على رأس القائمة . . فإذا كان المسلم مأموراً بالإنفاق على كل مستوى . . فإن الدينار ينفقه على ولده أعظم صور الإنفاق . .

وليس المقصود فقط ملء البطن بالطعام . .

لكنه الإنفاق الذي يحقق أمرين :

١ ـ إنقاذ الطفل من الضياع في حال إهماله . . لا سيما حال الصغر تنقش فيها الطباع . . وتغرس العوائد . .

٢ ـ تسليحه بالأخلاق الفاضلة :

عفة تنأى به عن مواطن الابتذال . .

وقناعة لا تحوجه إلى الآخرين . .

بحيث يشب عن الطوق سوى الخلق . مستقل الشخصية . حتى إذا تخطى عتبة البيت . وتعامل مع المجتمع كان مزوداً بهذه الفضائل . والتي يصب منها في

---

(١) من التابعين واسمه : عبد الله بن زيد بن عمرو .

(٢) الترمذي ، باب أدب الولد . حديث حسن صحيح .

مجرى الحياة الاجتماعية . فإذا هي تمضي به وبغيره على أوفى معاني العفة والإباء .

* * *

*** تربية الروح قبل تربية الجسم:**

ومعنى ذلك أن الوالد المكلف بإعداد الجسم . . مكلف أيضاً بتربية الروح - قبل ذلك . .

وإذا رصدت الأسرة مالها وأعصابها ليتفوق الولد في مراحل التعليم . . فإن هذا التفوق ضئيل الأثر إذا لم يستهدف تقويم خلقه . وصقل روحه . بربطه بالرافد الأعظم . . وهو القرآن الكريم :

« إن القرآن يأتي أهله يوم القيامة أحوج ما كانوا إليه . فيقول للمسلم : أتعرفني ؟

فيقول : من أنت ؟

فيقول : أنا الذي كنت تحب ، وتكره أن يفارقك . . الذي كان يشجيك ويذيبك .

فيقول : لعلك القرآن ؟ . .

فيتقدم به على ربه عز وجل . فيعطي الملك بيمينه والخلد بشامله . ويوضع على رأسه السكينة . وينشر على أبويه حلتان لا تقوم لهما الدنيا - أي لا تساويها .

فيقولان : لأي شيء كسينا هذا . . ولم تبلغه أعمالنا ؟

فيقول : هذا بأخذ ولدكما القرآن »(١) .

وإذا استعظم الوالدان هذا الجزاء المبارك فإن مُنزّل القرآن سبحانه يعلم ما يصيب الذرية من خير يصلح به الولد في دنياه وأخراه . .

ولا بأس أن يكون الولد ضابطاً أو مهندساً أو طبيباً . . ما دام موصولاً بمدد القرآن الذي يجعل من هذه الوظائف رحمة مهداة . .

---

(١) جمع الجوامع وجاء في الهامش : قال الهيثمي في مجموع الزوائد ج ٧ ص ١٢٠ : وفيه سويد بن عبد العزيز وهو متروك . وأثنى عليه هيثم خيراً . وبقية رجاله ثقات .
ومعنى ذلك أن الولد الصالح خير ميراث للوالدين . . وأربى في الميزان من كل صور البر جميعاً . . حتى الصدقة على ما لها من خطر .

قال ﷺ : « **لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع** » .

إن القرش تتصدق به ليسد الجوعة . ويستر العورة . لكن أثر ذلك قد يذهب مع الأيام . .

لكن المبادرة الطيبة تصلح بها من شأن ولدك . . الـذي يمكن أن يصلح به مجتمع بأسره :

روى الترمذي : « ما نحل والد ولداً من نحلة أفضل من أدب حسن » .

فلا بأس أن يخلف الوالد من بعده ثروة وضياعاً . . وأفضـل من ذلك كله : حسن تأديبه لولده . . ليوجه الثروة بهذا الأدب لخدمة دينه ومجتمعه .

ولو تأملنا لفظ ( نحل ) لوجدناها تعني : الهبة . . عن طيب نفس . . وربما جاز لنا أن نقول :

إن الوالد الذي ينفق على ولده ليكون بالذات طبيباً ، أو مهندساً يدر عليه ربحاً وفيراً . . يكون قد وهب ولده فعلاً لكنها الهبة التي تحول الأمر إلى تجارة تتوخى الربح ! . .

ومفروض عليه أن يعينه على أمر الله ليخرج إلى الحياة رجلاً . . بغض النظر عن طبيعة الوظيفة .

* * *

*** خطر الإهمال:**

وعلى الطرف الآخر نرى الإهمال في التربية سيىء العقبى :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أعينوا أولادكم على البر . ومن شاء استخرج العقوق من ولده** » .

إن مهمة الوالدين لا تنتهي بإلقاء دروس التربية إلقاء . . بـل لا بد أن يعينـا ولدهما على برهما بحسن التطبيق وجميل المعايشة . .

فإذا أهمل الوالد . لا يجني إلا الشوك . لأن بر ولده له . لا ينشأ من فراغ .

* * *

*** فضل تربية البنت:**

وللبنت في المنهج الإسلامي اعتبـارها الخـاص . . لقد وقف الإسـلام إلى

جانبها . . وشدد النكير على إهمالها . وضاعف الجزاء لمن أعطاها حقها .

وكان لهذه العناية ما يبررها :

١ ـ أنها ضعيفة رقيقة المشاعر .

٢ ـ ليس في طباع الآباء ما يدعو إلى الترحيب بها .

٣ ـ ما تحققه تربيتها من أثر مبارك . . ينسحب على الذرية التي تجيء امتداداً لها .

روي الحاكم في المستدرك . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

« من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن[1] وضرائهن أدخله الله الجنة برحمته إياهن .

فقال رجل : وإن بنتان يا رسول الله ؟

قال : « **وإن بنتانٍ** » .

قال رجل : وإن واحدة يا رسول الله ؟

قال : « **وواحدة** » .

والتنصيص على الثلاث أولاً . . إشارة إلى قمة الفضل في هذه الصورة .

فالعدد الكثير ، يتيح وجود المتناقضات داخل البيت . ومن ثم يكون خطر التربية حينئذٍ . وفضلها أيضاً :

ففي البنات الذكية والغبية .

وفيهن الجميلة ومتوسطة الجمال .

وفيهن الصحيحة والمريضة .

فإذا استطاع الوالد قيادة السفينة بنجاح . وأن يجانس بين هذا الاختلاف بلا صدام .

إذا استطاع التغلب على حدة التنافس ـ وما أظهره في الوسط النسائي استطاع في نفس الوقت أن يحقق نجاحاً . . لا يقدره قدره إلا الحق سبحانه .

ولعلنا نفهم الآن عناية أعداء الإسلام بتربية البنت . .

---

(١) اللأواء : الشدة .

البنت المسلمة - !! - بإعداد دور التعليم الخاصة بها :

إنها أم المستقبل . . فإذا استطاع أن يصوغ شخصية البنت المسلمة وفق مناهجه وثقافاته يكون قد أصاب من أمتنا مقتلاً . .

والأمة الإسلامية مطالبة بأن تفتح أعينها جيداً لتفوت على أعداء الدين فرصة نقدمها لهم لغفلتنا عن سنة رسولنا ﷺ .

* * *



# الفصــل الأول
# شروط الإسلام في بناء الأسرة

« ما هو تعريف الزواج قبل أن يعرفه القرآن الكريم ؟

هل هو صفقة تجارية بين شريكين في المعيشة ؟

هل هو وسيلة من وسائل الضرورة لإسكات صيحات الجسد . والاستراحة من غوايته الشيطانية ؟

هل هو تسويغ الشهوة بمسوغ الشريعة ؟

هل هو علاقة عدمها خير من وجودها إذا تأتى للرجل أو المرأة أن يستغنيا عنها ؟

كان هذا وأشباهه أعلى ما تصورته المجتمعات والعقائد من صور الزواج قبل الإيحاء بالقرآن الكريم .

هو الزواج الإنساني في وضعه الصحيح . من وجهة المجتمع . ومن وجهة الأفراد :

فهو واجب اجتماعي من وجهة المجتمع . وسكن نفساني من وجهة الفرد . وسبيل مودة بين الرجال والنساء »[1] .

وما ذهب إليه العقاد رحمه الله هو بعض ما يفهم من قوله تعالى في سورة الروم :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة

---

(١) الفلسفة القرآنية للعقاد ط لجنة التأليف ص ٦٣ .

**ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾**[1] .

لقد استبعد الإسلام كل مفهوم خاطىء للزواج .

ثم حدد طبيعته وأهدافه المحققة لوجود الفرد بين أسرته . . وليسهم بهذا الوجود في ترقية الحياة . . على نحو يتخطى كل هذه المفاهيم القاصرة . ليبقى له معناه الإلهي كآية من آيات الله تعالى :

فالزوجة من جنس الزوج . . فهي إذن تقف معه على قدم المساواة من هذه الحيثية . .

مدفوعة بمسؤوليتها معه في تكوين الأسرة . .

ثم إن التجانس المشتق من وحدة النوع من شأنه أن يحقق الوفاق بينهما .

وهذا هو معنى الاستقرار .

ومنطق اللغة يدعم ذلك . . يقال :

« سكن إليه إذا مال . فإن المجانسة من دواعي التضامن والتقارب . كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر »[2] .

« أي أن الجنسية توجب السكون » كما يقول الفخر الرازي .

وحتى يستمر هذا الوفاق ويأخذ مجراه في الحياة . . فوق المشاكل اليومية العارضة يتلطف الحق سبحانه وتعالى فيجعل بينهما مودة . . ورحمة . ( يجعل ) : هو سبحانه ولا يترك ذلك لمزاجهما الشخصي . .

وإذا كانت المودة ( محبة الشيء وتمني وجوده )[3] فإن العلاقة بين الزوجين لا تقف عند هذا الوجدان القلبي . . بل يتحول الوجدان إلى خلق إيجابي هو الرحمة . وهي :

( رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم ) .

أي حكمة الله عز وجل تقف بكلا الزوجين في مقام التضحية . . إبقاء على أسرة لا تقيمها المشاعر وحدها .

---

(١) سورة الروم/ الآية : ٢١ .
(٢) الألوسي في شرحه للآية الكريمة .
(٣) مفردات غريب القرآن .

فبالرحمة يحسن الزوج إلى زوجه إحساناً ينسيه ما في صاحبه من نقض ربما كان نعمة لا تظهر آثارها للعين المجردة .

يقول الرازي في تفسيره للآية الكريمة :

( وذكر هنا أمرين أحدهما يفضي إلى الآخر :

فالمودة تكون أولاً . ثم إنها تفضي إلى الرحمة . ولهذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها ) .

ويشجب الرازي بمنطقه ما تعارفت عليه المدنية الحديثة من بناء الأسرة على جسر من المتعة العابرة . . ليبقى بناء الأسرة محكماً بما قعد الإسلام من قواعد . وحتى في اللحظة التي تخلو فيها المرأة من كل إغراء . لا يليق بالزوج أن يتخذ وسيلة إلى أخرى إرضاء لشهوته . . فالتعدد هنا ليس هو البديل . .

ولكن هناك موقف إنساني آخر . . يتسلح فيه الزوج الوفي بخلق الرحمة يربطه بتلك التي قاسمته سراء الحياة وضراءها . فيقف معها . ويقاسمها آلامها . وفي وقفته متعة لا يحس بها إلا الذين أوتوا من الرحمة قدراً يمكنهم من التحليق إلى فوق دائماً . . متجاوزين السفوح الهابطة لطلاب المتعة . من أي سبيل . ومهما كان الثمن . وبهذا المفهوم تتميز الأسرة الإسلامية بطابعها الفريد وهدفها البعيد . إزاء الأسرة في الغرب والتي صارت غايتها :

التلاقي العابر على متعة شخصية قلقة . لا استقرار معها ، لأنها لا قداسة لها .

حتى المواليد في مفهوم الأسرة لا أثر لهم في تكوين أي ضرب من الروابط الروحية بين أعضائها :

لأنهم غير مسموح لهم بالخروج إلى الدنيا . ولا البقاء فيها إلا ضمن حدود المصلحة المادية نفسها .

فإذا بلغوا حدود القدرة الذاتية فصلوا عن جسم الأسرة بقسوة ليضربوا في جوانب الأرض على غير هدى .

ثم لا يبالي أحدهم أن يلقي الآخر أو يطمئن على وجوده . .

حتى إذا وافى أحد الوالدين شبح الموت . ورغب في مشاهدة ولده له لجأ إلى الإذاعة الخاصة يناديه .

وقد يبلغ الإنفصام في الواحد من هؤلاء الأعضاء أن يوصي بثروته كلها لكلب أو

قط . دون أن يشعر بأية عاطفة نحو قريب له . مهما تبلغ حاجة هذا إلى عطفه[1] .

وقد استشرى هذا الجفاف إلى حد دعا حكومة ألمانيا إلى استجلاب العطف على أطفالها المساكين . وذلك فيما نشرته جريدة ( الجمهورية )[2] :

السلطات الألمانية في همبورج اكتشفت أن أطفال المدينة يعيشون حياة ( الأقلية ) داخل المجتمع الألماني .

ومن ثم بدأت في المدينة حملة واسعة النطاق تحت شعار :

كن عطوفاً على الأطفال .

في محاولة لإشعارهم بالانتماء إلى المجتمع الألماني المنصرف عنهم تماماً . إلى جانب انصراف الأزواج الجدد عن التناسل ـ تماماً ـ مما يهدد بوجود اختلال في التوازن في مستوى الأعمار داخل المجتمع الألماني .

الحملة أيضاً تطالب الأزواج الجدد : بطفل آخر من فضلك ! !

ولكن الوضع في المجتمع الإسلامي يختلف . . فلا حاجة به إلى استجداء هذا العطف . والأمر متروك إلى وجدان المسلم المتصل بالقادر سبحانه وتعالى وبهذا الوجدان الحي يظل مصدر خير وبر بولده . وبكل طفل ينمو في مجتمعه .

بل إن المسلم ليقف على مفترق الطرق فلا يلهيه تعلقه بولده عن ارتباطه بوالديه .

إن الحياة المندفعة قد تلفت المرء بقوة إلى أمام . إلى المستقبل في شخص ولده . وقد ينسى والديه في غمرة الصراع . ولكن الإيمان يقف به على سواء الصراط فيتسع قلبه للحياة الغاربة والمقبلة على سواه محققاً بذلك أرقى ما وصلت إليه الإنسانية في مجال الترابط العائلي الأسري .

وذلك قوله تعالى :

**﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في**

---

(١) الأستاذ محمد المجذوب ـ مجلة الوعي الإسلامي العدد ٨٥ .

(٢) في ٢ إبريل سنة ١٩٧٣ .

**ذريتي ، إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴾**[1] .

بيد أن ذلك المستوى الأسري الراقي لا يتحقق في يوم وليلة . ولكنه محكوم بمنهج راشد ضمن به الإسلام سعادة الإنسان في مجتمعه الصغير والكبير معاً .

وذلك إجمال نفصله فيما يلي :

## مقصود الزواج

قبل أن نلم بشروط الإسلام لاختيار شريك الحياة . لا بد لنا من بيان مقصود الزواج الأصلي . .

ما هو ؟ . .

فإن معرفة المقاصد أعون على اختيار أنسب الوسائل لتحقيقها .

فما هو مقصود الزواج في الإسلام ؟

إنه الولد الصالح . . كما يفهم من قوله تعالى :

**﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾**[2] .

يقول ابن كثير : يعني الولد .

وهو رأي القرطبي القائل : معناه : وابتغوا الولد .

وهو أيضاً ما ذهب إليه الغزالي حين يذكر فوائد النكاح فيقول : الفائدة الأولى : الولد .

وهو الأصل . وله وضع النكاح . والمقصود إبقاء النسل . وأن لا يخلو العالم من جنس الإنس . وإنما الشهوة باعثة مستحثة[3] .

بل إن الزواج من أجل الذرية من سنة المرسلين مع ما فرض عليهم من البلاغ :

يقول سبحانه :

**﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾**[4] .

---

(١) سورة الأحقاف /الأية : ١٥ .

(٢) سورة البقرة /الأية : ١٨٧ .

(٣) الإحياء- باب الولد .

(٤) الرعد /الآية : ٣٨ .

والإحاطة بهذه السنة . . والإذعان لها يعين الإنسان على حفز الهمة لها لتحقق الغرض منها . . وليتجاوب الإنسان بهذه الزوجية مع الكون الذي أقامه الله تعالى على نفس القانون . . قانون الزوجية :

يقول الأستاذ البهي الخولي :

( إذا عرف المرء أن الزواج سنة أزلية . . ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين** ﴾[1] وأنه هو فطر على ما يوائم هذه السنن . فقد وقف على رأس أمره . وهدى إلى ما يصلحه ويسعد عاقبته . وقد سن الزواج للنسل والسكن النفسي . والالتقاء على ما يثمر المودة والرحمة ومشاعر الخير والتواصل .

ومن البديهي أن أفضل الزوجات هي ما يتوفر فيها من خصائص النفس ومزايا الروح ما يجعلها أقرب من غيرها إلى تحقيق مقاصد الزواج الحسية والمعنوية على خير وجه )[2] .

وفي قوله تعالى :

﴿ **نساؤكم حرث لكم فائتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم** ﴾[3] ما يؤكد واقعية الإسلام وتجاوبه مع فطرة الإنسان :

أن ( التقديم للنفس ) يعني استهداف غايات أبقى من وراء الزواج ... وعلى رأسها :

إنجاب الولد الصالح .

ومن ثم . . فالوقوف عند حد الإرواء الجنسي ـ كما هو الحال في المذاهب الأخرى ـ لا يعدو أن يكون وضعاً حيوانياً تأباه طبيعة الإنسان . . وبالتالي فهو قاصر عن تحقيق الغاية من الزواج . . ولكن الإسلام يرفض هذا السلوك الحيواني البحث . . أن يكون هو الغاية وحده .

وفي الوقت الذي يستجيب فيه لنداء الفطرة الإنسانية المتطلعة إلى الإرواء الجنسي . . لا يقف بالإنسان عند هذا الحد . . بل يلبي فيه أيضاً أشواقه إلى المودة والسكن . . إن الزوجة ـ كما تشير الآية الكريمة ـ ملك يديك . . وعلى أي وضع

---

(١) سورة / الذاريات / الآية : ٤٩ .
(٢) الإسلام وقضايا المرأة ص ٧٨ وما بعدها .
(٣) سورة البقرة / الآية : ٢٢٣ .

شئته . . شريطة أن يكون المأتي هو مكان الحرث المحقق لمقصود الزواج .

وحتى في مثل هذه اللحظات التي تعزل الإنسان عن الحياة العادية . . عليه وأن يتذكر جيداً أنه أمام أرض . . في حاجة إلى حرث . . وبذر يرجى أن يورق بعد حين بإذن ربه . .

ومن ثم كان الاستفتاح باسم الله تعالى بين يدي لقاء الزوجة معبراً عن هذا المعنى ودافعاً إليه .

أي إن الآية تعبر بالكلمة الموحية عن الموقف أصدق تعبير يجد فيه الجسد والروح مما ما يلبي حاجتهما إلى الإرواء والسكن .

جاء في تفسير المنار شرحاً للآية الكريمة :

( فهذه أمور تدل على أن هناك شيئاً يرغب فيه . ويحذر منه .

أما ما يرغب فيه :

فهو ما يقدم للنفس . وهو ما ينفعها في المستقبل . ولا أنفع للإنسان في مستقبله من الولد الصالح . فهو ينفعه في دنياه كما هو ظاهر . وفي دينه من حيث أن الوالد سبب وجوده وصلاحه . وقد ورد في الحديث :

أن الولد الصالح من عمل المرء الذي باختيار المرأة الودود الولود . التي تعين الرجل على تربية ولده بحسن خلقها وعملها . . كما يُختار الزراعة في الأرض الصالحة التي يرجى نماء النبات فيها . وايتاؤه الغلة الجيدة . ويتضمن الأمر بحسن تربية الولد وتهذيبه .

وأما ما يحذر منه ويتقي الله فيه :

( فهو إخراج النساء عن كونهن حرثاً بإضاعة مادة النسل في المحيض . . أو بوضعها في غير موضع الحرث . وكذلك اختيار المرأة الفاسدة التربية . . وإهمال تربية الولد )[1] . .

ونستطيع بعد ذلك أن نقول :

إن العلاقة الغريزية ـ رغم أهميتها ـ لا تصلح وحدها أساساً للبيت الصالح .

---

(١) تفسير المنار ط الشعب ص: ٢٨٨ .

لأن إشباع حاجات الإنسان إلى السكينة والقرار ضرورة من ضرورات الحياة أيضاً .

وهذا ما تكفل به الحق سبحانه حين جعل من المودة والرحمة رابطة لا تنفصم عراها حتى لو تقدمت السن بالزوجين ولم يعد أحدهما محل رغبة فإن هذه العلاقة لا تضعف . . بل ربما زادها القدم رسوخاً .

ثم إن اللقاء الجنسي أمر شخصي ينعكس على الزوجين كليهما .

أما فضائل المودة والرحمة فهي أمور لازمة لتنشئة الذرية على نحو يعدها للحياة في المجتمع الكبير . .

ولو وقفت بالإنسان آماله عند قضاء شهوته لسقط في درك من الهوان ليكون أقل من ذلك الحيوان . الذي يحقق وجوده بالنسل في وقت يجتهد فيه ( التقدميون ) لحرمان أنفسهم من هذا الفضل الذي سبقهم إليه الحيوان الأعجم ! . .

* * *

## قواعد الاختيار

إذا كان مقصود الأسرة الرئيسي هو الولد الصالح . . فلا يمكن أن يكون مجرد لقاء رجل بامرأة محققاً لهذا المقصود . . بل لا بد من قواعد وأسس يعلو فوقها البناء . وذلك ما قرره الإسلام بما فصل من أمور لا بد منها عند اختيار شريك الحياة المعين على تحقيق هذا المقصود .

لقد فسدت مقاييس الاختيار بعد الغزو الثقافي الوافد . والذي يستهدف التشكيك في قيمنا وأصول الحياة في إسلامنا .

وكان الواقع أصدق أنباء حين قضى بفشل التجربة التي تنكبت طريق الإسلام في نظام الأسرة . وزادت نسبة الطلاق في بيوت تعيش في مستويات اقتصادية عالية .

إن الذين جمعتهم الدنيا . تفرقهم الدنيا . والذين تلاقوا بدافع الطمع في الجمال أو المنصب فرقتهم أيضاً بروق المطامع .

والذين حاولوا إرساء بيوتهم على نظرة فابتسامة تهدمت بيوتهم بعد أن غابت الابتسامة . وتحولت العين باحثة عن صيد جديد .

وانكشفت الرغوة العائمة عن طبيعة معتمة لا تصلح لعمارة البيوت .

بيد أن موقف الإسلام في الاختيار . يتجاوز كل هذه الصغائر لينفذ إلى الجوهر المخبوء . فيضع قواعده في اختيار الزوجة أو الزوج على نحو تستقيم به الحياة .

وقد سئل ابن عيينة عن معنى : ( تخيروا لنطفكم ) ؟ فقال : يقول : لأولادكم . وذلك أن يضع ولده في الحلال . ألم تسمع إلى قوله تعالى :

﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾[1] ؟ .

وأول صلته أن يختار له الموضع الحلال . . فلا يقطع رحمه ولا نسبه . فإنما للعاهر الحجر . يختار الصحة . ويجتنب الدعوة . ولا يضعه موضع سوء يتبع شهوته وهواه بغير هدى من الله[2] .

وإلى هذا المعنى يرجع ما قرأناه لبعض كتاب الغرب :

أن تربية الطفل قد ترجع إلى ما قبل ولادته بخمسين عاماً :

فإن الإنجليز مثلاً لكي يقوموا بواجبهم نحو طفل الغد فإن الوالد يبحث عن زوج لم يعرف عن أبيها وجدها أن واحداً منهما مريض بالرئة . أو أنه من ضعاف العقول .

وقد سبق ابن عيينة هؤلاء جميعاً بما قرره من ضرورة اختيار الصحيحة في جسدها فراراً من خطر الوراثة .

لكنه بحكم إسلامه يضيف ضرورة أن تكون صحيحة أيضاً في تدينها وخلقها . ليمكنها بذلك الرصيد أن تحسن تبعلها لزوجها . وتربيتها لولدها .

وقد حان الوقت لنقف بين يدي آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ . . نستلهمها قواعد الاختيار السليمة . . ثم نقدمها للذين ابتعدوا عن هديهما في هذا الموطن فوقعوا بسوء اختيارهم في مشكلات لا نجاة لهم منها إلا بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

* * *

(١) النساء /الآية : ١ .

(٢) الكشاف عند تفسير قوله تعالى : ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به﴾ .

## قواعد الاختيار
## من القرآن الكريم والسنة المطهرة

ونقرر هنا بادىء ذي بدء :

أن الاختيار سبب عادي للسعادة .. وإلا .. فقد يكون الزوجان كلاهما صالحين ومع ذلك تجيء ذريتهما فاسدة .

وإلى هذا يشير قوله سبحانه :

**﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾**[1] .

يقول الخطيب الشربيني تفسيراً للآية الكريمة .

ومن ذريتهما محسن أي : مؤمن وطائع .

وظالم : أي كافر وفاسق .

لنفسه مبين : أي ظاهر ظلمه .

وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال . وأن الظلم في أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة وعيب .

ومن هنا تشتد الحاجة إلى التربية .. وواجب الزوجين إزاءها خطير .. لما لهما من الأثر المباشر فيها .

وعن قواعد الاختيار يتحدث القرآن الكريم في كثير من آياته :

**﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض ، فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ، فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشي العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم ﴾**[2] .

**﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو**

---

(١) الصافات /الآية : ١١٣ .
(٢) النساء /الآية : ٢٥ .

**أعجبكم ، أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾**[1] .

**﴿ وأنكحوا الأيامىٰ منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم ﴾**[2] .

ومن هذه الآيات نستخلص ما يأتي :

١ ـ الأفضل أن تكون الزوجة ـ والزوج طبعاً ـ مؤمنة حرة لتستعين بإيمانها وحريتها على إدارة بيتها بما فيه ومن فيه .

٢ ـ فإذا لم تسمح الظروف بزواج على هذا المستوى . فيباح التزوج من الأمة شريطة أن تكون مؤمنة . . على جانب من الخلق يعصمها من الزلل واتخاذ الأخدان . من حيث كان وضعها الاجتماعي يعرضها للانحراف .

٣ ـ على أن يكون ذلك الزواج ضرورة **﴿ لمن خشي العنت ﴾** والوقوع في المعصية ، مع العلم بأن الصبر أفضل . حتى يسمح الوضع الاقتصادي بالزواج من الحرة .

٤ ـ وإذا كان زواج الأمة لا تتقبله النفوس بسهولة . فإن الآية تذكر الشباب بأن **﴿ بعضكم من بعض ﴾** .

فلا مفر من الرضا بها . ومحاولة التوافق . لأن الحرية إذا فاتت فقد بقي الإيمان عنصراً له أهميته في تحقيق التجانس .

٥ ـ ولكن هذه الأمة بإزاء المشركة خير ألف مرة ومرة ـ وكذلك العبد المؤمن إزاء المشرك ـ لأن الشرك وما يورثه من فساد خلقي وفكري لا يجعل بين المسلمة أو المسلم وبين المشرك نقطة لقاء بعد أن اشتط المزار بينهما :

فالمسلم يدعو إلى الجنة . .

والمشرك يدعو إلى النار . .

وشتان بين الغايتين . .

---

(١) البقرة /الآية : ٢٢١ .

(٢) النور /الآية : ٣٢ .

وإذا كان المفروض في الأمة أن تكون فقيرة . فلا بأس . فالله واسع عليم وسوف يغنيهما من فضله .

على أن المبادرة إلى زواج كهذا توفرت دواعيه . يمهد للقضاء على سنة الله ورسوله ﷺ فراراً من لقاءات محرمة كان يمكن أن تتم لو لم نفتح ذلك الباب .

٦ - والآية الأخيرة تضع وصف ( الصلاح ) أساساً لشخصية الزوجة والزوج معاً :

والصلاح ضد الفساد كما يفهم من قوله تعالى :

﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** ﴾[1] .

وقد عبر قدماء الفلاسفة ( بالكون والفساد ) فأرادوا بالأول : تآلف عناصر الشيء على نحو يحقق الغرض منه .. فإذا تحللت هذه العناصر واختلت نسبها واضمحلت روابطها كان هذا هو الفساد .

وإذن فوصف الصّلاح هو ( أكسير الحياة ) كما يقولون .. وهو يعني صلاحية الزوج والزوجة من الناحية الخلقية والخلقية لتكوين أسرة متوازنة متجانسة تصلح محصناً لجيل المستقبل .

فإذا انخدش هذا الوصف ترك بمقداره من الآثار في جو الأسرة بما فيها من ذرية تتأثر قطعاً بما ترى وما تسمع .

وهذا الانسجام في ظل من صلاحهما يكون منهما شركة تنتهي بذرية صالحة بقدر ما يؤدي إلى رخاء اقتصادي لم يكن للعين المجردة أن ترى مباديه .. ولم يكن للظن أن يتنبأ به .. مع أن ذلك حقيقة واقعة :

جاء في تفسير ابن كثير للآية الكريمة :

( بلغني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال :

أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح .. ينجز ما وعدكم من الغنى . قال : ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾[2] .

ثم يروي قوله ﷺ :

---

(١) الأعراف / الآية : ٥٦ .
(٢) النور / الآية : ٣٢ .

« **ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله** » .

والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية له . . ولها ) .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك : أن المعهود أيضاً من تجارب الحياة أن تكفل الله تعالى بالرزق إنما يكون قد توفر أسبابه من صلاح النفس والجسم معاً بالنسبة للطرفين مجتمعين . وتجنب معصيته سبحانه فإن ( للسيئة ظلمة في القلب . وسواداً في الوجه . ووهناً في البدن . ونقصاً في الرزق . وبغضاً في قلوب الخلق . كما روي ذلك عن ابن عباس )[1] .

وإذا كان للسيئة هذا الأثر الواضح في واقع الإنسان : في صحته ورزقه ووضعه الاجتماعي . . فإن للصلاح أثره العكسي في واقع الإنسان أيضاً :

يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾[2] . وفي الآية أمر بالاستعفاف إذا لم تتوفر لدى الراغبين مؤنة الزواج[3] .

فقد يتخلى الشاب عن شرطه في شريكة حياته إذا لم تواته الظروف المالية .

وتحت وطأة الغريزة يندفع للزواج ممن لا تصون عرضاً ولا تحوز خلقاً .

وهنا يكون الخطر الذي حذر منه علماؤنا حين شددوا النكير على الاقتران بسيئة الخلق .

( قال بعض العرب : لا تنكحوا من النساء ستة :

لا أنانة . ولا منانة . ولا حنانة . . ولا تنكحوا حداقة . ولا براعة . ولا شداقة . .

أما الأنانة :

فهي التي تكثر الأنين والتشكي وتعصب رأسها كل ساعة . فنكاح الممراضة أو نكاح المتمارضة لا خير فيه .

---

(١) تفسير سورة النور لابن تيمية تحقيق صلاح عزام ص: ١٢ .
(٢) النور /الآية : ٣٣ .
(٣) يقال : مؤونة ومؤنة .

والمنانة :

هي التي تمن على زوجها فتقول : فعلت لأجلك كذا وكذا .

والحنانة :

التي تحن إلى زوج آخر . أو ولدها من زوج آخر . وهذا أيضاً مما يجب اجتنابه .

والحداقة .

التي ترمي إلى كل شيء بحداقتها تشتهيه . وتكلف الزوج شراءه .

والبراقة : تحتمل معنيين .

أن تكون التي تصقل طول النهار وجهها وتزينه ليكون لوجهها بريق محصل بالصنع .

والثاني : أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها )[1] .

فانظر كيف ذهب بالتدين . . فذهب معه الصلاح ـ وتعذر الاصلاح ـ ولم يبق بال فارغ . أو مزاج معتدل .

وإذا تعذر الوفاق مع هذه العيوب على فرض أن الزوجة مسلمة . . فإن الزواج من المشركة بطبيعة الحال يكون مرفوضاً . . لأن الشرك لا يبقى فرصة للتفاهم بين زوجين اختلفت غايتهما . . بين مؤمن يمضي به إيمانه على الجادة ومشركة حرمها شركها من عناصر الاستقرار . . وما يترتب على ذلك من فساد الذرية بين يديه .

جاء في تفسير المنار :

( المؤمن والمؤمنة كل منهما عبد الله يطيعه ويخشاه . ولذلك كان خيراً ممن يشرك به فكان في التعبير بالأمة والعبد إشعار بهذه الخيرية ) .

بيان ذلك :

أنه ليس المراد بالزوجية قضاء الشهوة الحسية فقط . وإنما المراد بها تعاقد الزوجين على المشاركة في شؤون الحياة والاتحاد في كل شيء .

وإنما يكون ذلك بكون المرأة محل ثقة الرجل : يأمنها على نفسه وولده ومتاعه . عالماً أن حرصها عليه كحرصه . لأن حظها منه كحظه .

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٢ ص: ٣٤ .

وما كان الجمال الذي يروق الطرف ليحقق في المرأة هذا الوصف .

ولكن قد يمنعه التباين في الاعتقاد . الذي يتعذر معه الركون والاتحاد .

والمشركة ليس لها دين يحرم الخيانة . ويوجب عليها الأمانة . ويأمرها بالخير وينهاها عن الشر . فهي موكولة إلى طبيعتها . وما ترتب عليه في عشيرتها وهو خرافات الوثنية وأوهامها . وأماني الشياطين وأحلامها .

فقد تخون زوجها . وتفسد عقيدة ولدها . فإن ظل الرجل على إعجابه بجمالها . كان ذلك عوناً لها على التوغل في ضلالها وإضلالها[1] .

إن الإسلام لا يحرم الإنسان من التمتع بالحياة عن طريق امرأة . . ولكنه يرتفع به إلى مستوى أعلى حتى لا يقف به إعجابه عند مالها أو جمالها ناسياً عقيدتها التي تشكل حياته وحياتها . وحياة ذريتهما .

والمتعة الحقيقية في صلاح المرأة التي يصلح بها البيت :

يقول ﷺ :

« **إن الدنيا متاع . . وخير متاعها المرأة الصالحة** »[2] .

وعناصر صلاح المرأة تكمن في حسن أدائها لرسالته كربة بيت تدير شؤونه بالحكمة والصبر .

وقد تحدث عنها ﷺ في قوله :

« **إن خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش : أحناه على ولد صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده** »[3] .

فحنان الأم ـ وهو ما تميزت به نساء قريش ـ يهيىء الجو النفسي اللازم لنمو الصبي .

ورعاية شؤون البيت أمر يعتدل به مزاجه . . فيعتدل تبعاً لذلك مزاج البيت كله .

إن تفرغ الزوجة لبيتها يؤتي أطيب الثمرات . . ولا يعوضه مال ولا منصب .

---

(١) تفسير المنار ط الشعب ص: ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

(٢) رواه مسلم والنسائي .

(٣) البخاري . كتاب النكاح .

ومن هنا كان تركيز الرسول ﷺ على صفات المرأة الذاتية المراد تزوجها والتي لا بد منا للقيام بواجب الحنان . . وحسن التبعل . . بغض النظر عن القشرة البادية من مظاهر الحياة التي لا تشكل عنصراً فعالاً في شخصية الفتاة . . ولا تسهم في حل مشكلات البيت . . ولا تفرز الحنان المطلوب .

يقول ﷺ :

**« تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك »**(١) .

فالتدين هو جوهرها الذي سينتقل معها إلى بيت الزوجية . . وعلى أساسه تكون السعادة المنشودة . . وربما احتاج الأمر إلى تحذير من يتغاضى عن هذه الحقيقة تحت ضغط الهوى المتسلط وهذا ما نجده في قوله ﷺ :

**« من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه . بارك الله له فيها وبارك لها فيه »**(٢) .

وما قيمة هذا الزواج الذي يثمر الذل أو الفقر والهوان ؟

لا شك أن تجربة من هذا النوع لها أثرها المباشر على الأسرة كلها بما فيها الذرية التي يصيبها كفل من هذا الوبال .

على أن الإسلام يحيل المسلم إلى التجربة اليومية فهي أصدق أنباء . . بما تحمل من شواهد على صدق نظرة الإسلام . . الذي يحول بين الفراش المندفع إلى النار دون تدبر للعواقب .

هذه التجربة الشاهدة بما قد يجره الجمال الطاغي من عذاب الغيرة والشك المنتهي بالأسرة إلى الانهيار . . وما قد يتأتى من وراء غنى الزوجة من دلال بغيض يجرح كبرياء الرجل فلا يستقر على حال من القلق .

وهو بعض ما يفهم من قوله ﷺ :

**« لا تزوجوا النساء لحسنهن . فعسى حسنهن أن يرديهن . ولا تزوجوهن**

---

(١) البخاري . كتاب النكاح .

(٢) رواه ابن حبان .

**لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن . ولكن تزوجوهن على الدين . . ولأمة خرقاء سوداء ذات دين أفضل »**[1] .

وليس معنى ذلك أن الإسلام يعلن الحرب على المال أو الجمال وهما من خلق الله تعالى .

لكنه يساعد الإنسان ليوسع أفقه فيختار شريكة حياته على نحو يحقق مطالب الحياة كلها ، من غض البصر وإرواء الغريزة وصلة الرحم . لتجيء البركة نتيجة طبيعية .

أما القصد إلى الحسن فقط . . والمال فقط . . فهو الدنيا التي تتجاهل مطالب الروح . وتوقع الإنسان في فخ العبودية من حيث لا يحتسب .

وكان يمكنه أن يعيش حراً . لو تزوج ( الحرة ) التي تظلل بطلاقتها جو البيت فإذا هو قطعة من الفردوس . يعيش ناعماً في دنياه نِقياً من كل عقد الساعين وراء زهرة سرعان ما تذبل . .

وما أصدق قول الرسول ﷺ :

**« من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر »**[2] .

وليس أقدر من الحرة على حسن رعايتها لبيتها . وتربيتها لذرية تجيء صورة لها . ثم تعوض بهذه الذرية ما فاتها من منصب أو مال . وجمال .

* * *

*** الجمال . . من خلال التجربة :**

في دوامة الاعجاب بالفتاة الجميلة . . وتحت وطأة الحب الذي يعمي ويصم . . لا يرى الخاطب آثار الدماء في معارك الطلاق . .

ولا يسمع صوت النذير يقيد خطاه . . فيندفع وراء زهرة حسناء في المنبت السوء ! جاهلاً أو متجاهلاً سوء عقباه . وموقف كهذا لا يعالج فقط بموعظة من كاتب . . محسوب على الدعوة الإسلامية .

وإنما المفيدهنا :

---

(١) رواه ابن ماجة .

(٢) رواه ابن ماجة .

أن نسوق إليه تجربة حية . . يحكيها شاعر عايش المرأة دارساً . . وعاملاً معها في كل موقع ليتأكد صدق ما قرره الرسول ﷺ حين حذر من توخي الجمال وحده .

« **فعسى الجمال أن يرديهن** » .

يقول الأستاذ صالح جودت في مجلة حواء :

( الشابة التي رأيتها هذا الأسبوع ، صاحبة وجه من أجمل الوجوه التي رأيتها في حياتي . .

وهي فوق هذا ذكية وأنيقة ومرحة ، وخفيفة الدم وذات ثقافة جامعية . .

وهي لم تتجاوز العشرين بكثير وقبل أن تنفرج شفتاها لتروي مأساتها وقبل أن تقع عيناي على أناملها ، قلت لها :

ـ أنت مطلقة . . أليس كذلك ؟ قالت لي :

ـ وكيف عرفت . . مع أنني لم أخلع ( الدبلة ) من يسراي بعد !

قلت :

ـ لأن الكثيرات من المطلقات يفضلن أن يحتفظن بالدبلة في أيديهن إذا كانت من الماس . لأنها أرقى وأجمل من الخاتم . كما أن الكثيرات من المطلقات يؤثرن أن يستبقين الدبلة ، إذا كن جميلات . لكي يتخلصن من مضايقات الرجال السخفاء الذين يعتقدون أن المطلقات أسهل وقوعاً في الفخاخ من الأخريات . .

ـ وبعد هذا . . أقول لك إن الجميلات أكثر تعرضاً للشقاء الزوجي ، وللطلاق ، من النساء العاديات ، متوسطات الجمال ، ومن الدميمات أيضاً . .

هذه ظاهرة ملحوظة في كل زمان وفي كل مكان . .

وقد حاولنا هنا ـ في دار الهلال ـ منذ أكثر من عشر سنوات ، أن نتقصى المصير اللاتي فزن بلقب ملكات الجمال ، بعد بضع سنوات من فوزهن بهذا اللقب ، فوجدنا أنهن أتعس نساء الأرض ! . .

ومنذ عامين أو ثلاثة ، قامت إحدى المجلات الأمريكية بمثل هذه المحاولة على نطاق واسع ، وتتبعت عدداً ضخماً من ملكات الجمال على الشاشة ، وعلى المسرح ، وفي مسابقات ( فتاة الغلاف ) بالمجلات الكبرى ، وفي المسابقات الدولية لعرش الجمال ، فوجدت أن نسبة الطلاق بينهن تبلغ ثلاثة أمثالها بين النساء العاديات ! . .

وأكثر من ذلك . . تبينت الحقائق الآتية :

● أن أكثر من نصفهن تزوجن أكثر من مرة ، ولم يحالفهن التوفيق .

● وأن سبعين في المائة من المتزوجات منهن غير سعيدات في حياتهن الزوجية .

● وأن الكثيرات منهن ، تعرضن لأمراض نفسية قاسية أدت ببعضهن إلى الجنون أو الانتحار .

● وأن تسعين في المائة منهن ، بعد انقضاء عشر سنوات على فوزهن باللقب ، يحيون حياة بعيدة عن الرفاهية ، وتغلب عليهن الكآبة والتشاؤم والخوف ! . .

● ونسبة غير قليلة منهن ، جنى عليها الجمال ، فلاحقتها الألسنة والشائعات والأقاويل ولم تتزوج رغم كثرة المعجبين . . لأن المعجبين قلما يتزوجون . .

وكما يقول مثلنا البلدي : ( من كثر خطابها . . بارت ) .

الجمال نعمة . .

ولكنه قد يكون نقمة في نفس الوقت . . ولا سيما إذا اقترن بالذكاء والأناقة والمرح والثقافة وخفة الدم . كالشابة التي حدثتك عنها يا سيدي ، لأن كل هذه المفاتن مجتمعة لا بد أن تشحن النفس الإنسانية بشيء من الغرور .

وأنا لا أقول عن هذه الشابة بالذات أنها مغرورة ، فقد تكون استثناء من القاعدة أو لا تكون ، وقد تكون هذه التجربة الحزينة ، تجربة الزواج التعس والطلاق المرير ، قد كسرت من حدة غرورها . .

ولكني أقول إن القاعدة العامة ، هي أن تشحن هذه المفاتن كلها نفس صاحبتها بالغرور ، فتعتقد أنها من طينة النساء الأخريات ، وأن الرجل الذي يستحقها لم يخلق بعد ، وأنها حين تقبل أحد الرجال كزوج ، فإنما تقبله من قبيل التنازل والتواضع فهي أحسن منه ، وهي متفضلة عليه ! . .

ويزيدها ثناء الرجال عليها ، ونظراتهم إليها في الطريق وفي المجتمع ، شحنة من الغرور كل يوم .

وتغار النساء الأخريات منها غيرة تكاد تفصلها عن المجتمع ، وتقيم بينهن وبينها حجاباً يحول دون إحساسها الكامل بالمحبة والمودة والصداقة والثقة بالناس .

وتشعر أن عيون الرجال في مكان تنظر إليها نظرات محمومة، كما ينظر الجائع إلى لحم حمامة بيضاء ، فتزداد انفصالاً عن المجتمع وخوفاً من الناس ، وسوء ظن بالجميع وتتزوج . .

ولكن الزواج لا يعصمها من نظرات العيون . .

وتلتهب غيرة الزوج من هذه النظرات ، فيسير بها في الطرقات ، ويدخل بها إلى المجتمع والمسرح والسينما وهو يتلفت حوله ورأسه يدور في حركة لولبية كأنما أن يحجب عنها نظرات الناس أو يضرب من أجلها جميع الناس .

وتتفاقم الكارثة حينما تطبع طبيعتها المرحة ابتسامة في شفتيها أو نظرة حلوة في عينيها ، لا تستطيع أن تغيرهما بيدها ، فيسري إلى ظن زوجها أنها تبتسم لجميع الناس ، أو لواحد منهم بالذات .

ويتابعها زوجها بهذا الاتهام حينما تنظر نظرة بريئة من الشباك ، أو حينما تتحدث إلى أحد أصدقائه ، فتضطرب شياطين الشك في صدره .

وقد لا يتصور هذا الزوج أن زوجته ـ وهي بكل هذه الطاقة من المفاتن ـ لم يكن لها ماضٍ ، وقد يتضخم هذا التصور في رأسه إذا لمح منها أية حركة بريئة أو غير مقصودة في السينما أو المسرح أو النادي أو على البلاج أو في أي مكان .

وهكذا تثور المواقف العصبية ، مواقف الغيرة الضارية ، بين الزوجين كل يوم وتفسر الزوجة في أول الأمر على أنها حب شديد من زوجها لها ، ثم لا يلبث هذا التفسير ـ على مر الزمن ـ أن يتحول إلى تفسير آخر ، هو عدم الثقة .

ولا شيء يجرح كرامة المرأة قدر عدم الثقة .

ومن هنا تبدأ جدران البيت في الانهيار ، وتتحطم الحياة الزوجية على صخرة الوهم )[١] .

* * *

*** مثل . . من هناك :**

قبل أن يتقدم الشاب ليطلب يد الفتاة فإنه يصر على أن يرى أمها يتحدث إليها ويجلس معها ويعرف نوع الحياة التي تحياها الأم .

---

(١) صالح جودت . مجلة حواء .

ومهما بلغت الرابطة العاطفية بين الفتى والفتاة فإنه يرى أن لقاءه بحماته ـ قبل الزواج ـ هو العامل الحاسم الذي قد يؤدي به إلى أن يتزوج أو يعدل نهائياً عن الزواج من هذه الفتاة . . بالذات .

والسبب في ذلك ما أثبتته الإحصائيات والتجارب وأبحاث علماء الاجتماع .

إن مأساة البنت هي أن تصبح مثل أمها . . بعكس أخيها .

إن الابن يظل ابناً للأسرة حتى يتزوج . . فالأبناء يحمون أنفسهم من تقليد الآباء . .

أو أنهم يتمتعون بحياة طبيعية ولذلك فإنهم يشقون طريقاً آخر مختلفاً عن الآباء . .

أما الفتيات فإنهن يقلدن أمهاتهن ويصبحن مثلهن مهما كانت البنت تحب أمها . تخشاها . أو حتى تكرهها .

ولذلك يقال أن البنت قد تمثل انتصار للأم . وقد تكون ضحية لها .

إذا كانت الأم كثيرة الشكوى فإن ابنتها لن تكف يوماً عن إثارة المتاعب للزوج .

وإذا كانت الأم مسيطرة على ابنتها فمعنى ذلك أن الابنة ستشب بلا شخصية . . لا يمكن أن تبتعد عن الأم أو عن حصارها النفسي .

وإذا كانت الأم قاسية بلا حنان فإن قسوة الابنة ستكون متشابهة أو مضاعفة .

أما إذا حرصت الأم على أن تترك الحرية لابنتها وتنمي شخصيتها واستقلالها فإن الابنة تكون زوجة مثالية .

ولذلك قالوا لي في كتب الارشاد الزوجي في لندن إن مشكلتهم هذه الأيام مع البنات اللاتي فقدن الأمهات . . فإن كل خطيب يسأل ويحقق كيف كانت حماته . . والناس هناك مثل الناس هنا . . يذكرون الأموات بالخير مما يجعل الشبان مترددين . . وعجز مكتب الارشاد الزوجي عن الوصول . . إلى حلول )[1] .

ويهمنا أن نثبت أن ما قررته التجربة الإنسانية من أهمية دور الأم . . هو ما سبق إلى تقريره ﷺ . . حين وصى بحسن تربية البنت في الحديث الذي مر بك آنفاً . .

---

(١) محسن محمد . الجمهورية ١٩٨١/١/٣١ .

وما بينه من فضل ثواب القيام بأمورها . . لأنها ـ بعد قليل ستكون أماً ثم ( حماة ) فإذا استوفت حقها ـ كما يقول الإسلام ـ أصلح الله بها كل بيت تقدم إليه زوجة تجيء صورة أمينة لأمها .

* * *

* فاظفر بذات الدين :

وهي التي تحدث عنها أحمد أمين فقال :

( رحم الله زماناً كان الأب فيه الآمر الناهي ، والحاكم المطلق والملك غير المتوج . ينادي فيتسابق من في البيت إلى ندائه ويشير فإشارته أمر وطاعته غنم . .

تحدثه الزوجة في خفر وحياء ويحدثه الابن في إكبار وإجلال ، من سوء الأدب أن يرفع إليه بصره أو يرد عليه قوله ، أو يراجعه في رأي أو يجادله في أمر أما البنت فإذا حدثها لف الحياء رأسها وغض الخجل طرفها ، قليلة الكلام ، متحفظة الضحك ، خافضة الصوت ، تتوهم أنها أخطأت في التافه من الأمر فيندى جبينها ويصبغ الخجل وجهها ، وإذا جاء الحديث عن الزواج فإلى أمها الحديث لا إلى أبيها بالتلويح والتلميح لا بالتصريح .

والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض وفيما يفعل ، وما لا يفعل )[1] .

وقال الشيخ عبد العزيز البشري :

( كانت البنت من أوساط الناس إذا تزوجت لا تكاد تجشم الزوج أو أولياءه شيئاً ، فطعامها من طعام أهل الدار ، وكسوتها إزاران ورداءان في العام . وما حاجتها إلى حذاء وهي جلس خدرها طوال الأيام ؟ إذ في الكوث ـ الشبشب ـ على رأي أستاذنا العلامة الشيخ مهدي الخليل ، غنى وكفاية .

ثم أنها توفر على الأحماء أجور الخدم وسائر تكاليفهم بما تقوم به من العجن والخبز ، والطهي ، وغسل الثياب ، وكنس الأرض . ونفض الأثاث وتقديم القهوة للزائرات ، وصنعها للزائرين وخدمة الطفل . . إلخ .

والآن لا تحسن البنت الحضرية شيئاً من هذا ، وقد لا تعرفه ، وإن عرفته وأحسنته لا ترضى بأن تعالجه أنفة وحفظاً للكرامة ، ودعنا من الأنفة والكرامة وحدثني بعيشك ، متى تضطلع البنت أو الزوجة الحضرية بهذا أو ببعضه ، ولا بد لها كل يوم

---

(١) أحمد أمين .

من غشيان السينما أو غيرها من دور التسلية والترويح ؟ ولا بد لمن يسهر الليل من أن ينام صدراً من النهار .

ولقد ينصرم سائره في الاختلاف إلى الخياطة ، ومتاجر الثياب والزينة وزيارة الأصدقاء والأتراب ، والتفرج في المتنزهات في صحبة الزوج أو بعض ذوي الأصدقاء ، واستقبال الضيفان . وناهيك بما يستهلك من الوقت ، بعض النهار ومهبط الليل ، في التجمل والتزين ، وتصفيف الشعر طوعاً لآخر بدع ـ مودة ـ سواء جرى ذلك في البيت أو دكان الحلاق ، ولا بد أن يكون لقراءة الروايات من مساحة اليوم حظ غير قليل )[1] .

* * *

## زواج الكتابية

ولا يتخلى الإسلام عن شرطه وهو يبيح زواج الكتابية . . لأن زواجها مقيد بوصف الإحصان المانع من الانحراف .

والتدين على نحو ما ـ وإن كان كفراً بالقرآن وبرسالة الرسول ﷺ ـ قد يعصم من الزيغ .

والأصل في ذلك قوله تعالى :

**﴿اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ، ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾**[2] .

ونلاحظ أن إباحة الكتابية هنا مسبوق بحل المحصنات المؤمنات . . لأنهن الأصل في هذا الباب . . والترغيب في زواجهن موصول .

وإذا كان الإسلام قد اشترط العفة في الزوجة المؤمنة حرة أم أمة . فإن الأمر بالنسبة للكتابية أدخل في الاحتياط . . لأنها إذا لم تكن عفيفة وهي مع ذلك غير مسلمة . صارت بانحرافها على خطر عظيم .

---

(١) الوعي الإسلامي . مارس ١٩٧٢ .

(٢) ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة ـ والآية من سورة المائدة / الآية : ٥ .

جاء في المنار :

( ويحتمل أن يكون أراد بالحرة : العفيفة . . كما قال مجاهد في الرواية الأخرى عنه . وهو قول الجمهور هنا . وهو الأشبه : لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة فيفسد حالها بالكلية . ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل ( حشفا وسوء كيله ) ـ مثل لمن يضرب بين خصلتين مكروهتين .

والظاهر من الآية : أن المراد بالمحصنات : العفيفات عن الزنا كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** ﴾[1] .

وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية . ويقول :

لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول : إن ربها عيسى . وقد قال الله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن** ﴾[2] .

فالتي تقول إن ربها عيسى . أو إن عيسى ابن الله . قد حصلت وصف الشرك ودخلت في مضمون الآية الكريمة .

أما إذا كانت عقيدتها توحيد الله والاعتراف برسالة عيسى دون محمد عليهما السلام فإنها الكتابية التي يحل زواجها . وقد ( تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأساً )[3] .

يقول صاحب المنار :

( ويوشك أن يظهر للمرأة من معاشرة الرجل حقيقة دينه . وحسن شريعته . والوقوف على سيرة من جاء بها . وما أيده الله تعالى به من الآيات البينات . فيكمل إيمانها ويصح إسلامها . وتؤتي أجرها مرتين . إن كانت من المحسنات في الحالين .

ومثل هذه الحكمة لا تظهر في تزويج الكتابي بالمؤمنة :

فإنه بما له من السلطان عليها ، وبما يغلب عليها من الجهل والضعف في بيان ما تعلم لا يسهل عليها أن تقنعه بحقيقة ما هي عليه بل يخشى أن يزيغها عن

(١) سورة النساء /الآية : ٢٥ .

(٢) سورة البقر /الآية : ٢٢١ .

(٣) المنار ، ط الشعب ص: ٢٨٠ .

عقيدتها . ويفسد منها دون أن تصلح منه )[1] .

* * *

*** تعقيب بعض ما جاء في المنار:**

أما ما يقوله صاحب المنار في نفس الموضع :

( أما الكتابية فليس بينها وبين المؤمن كبير مباينة :

فإنها تؤمن بالله وتعبده . وتؤمن بالأنبياء . وبالحياة الأخرى وما فيها من الجزاء وتدين بوجوب عمل الخير وتحريم الشر .

والفرق الجوهري العظيم بينهما هو الإيمان بنبوة النبي محمد ﷺ .

ومزاياها من التوحيد والتعبد والتهذيب ) .

أما هذا القول ففي النفس منه شيء :

أولاً : فلهذا التناقض البادي بين قوله : ( ليس بينها وبين المؤمن كبير مباينة ) ، وقوله : ( والفرق الجوهري العظيم بينهما هو الإيمان بنبوة النبي ﷺ ومزاياها من التوحيد ) .

وإذا فرق الخلاف بين اثنين فأقام أحدهما حياته على تصديق الرسول ﷺ . . والآخر على عدم الإيمان به . . فلم تعد المباينة قليلة . . لكن مسافة الخلاف هنا كبيرة جداً . .

ثانياً : يجب التسليم ببعد الشقة بين الاثنين لكنا اشترطنا الإحصان مع فقد الإيمان تمكيناً للأسرة من الترابط إلى حد ما .

ولهذا التسليم أثره في وضع هذه العلاقة في إطارها الصحيح حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها . وحتى لا تفعل الأيام فعلها في تناسي هذا الخلاف . وما قد يترتب على ذلك من تهاون يضر بالناشئة .

وقديماً حاول بعض نساء أهل الكتاب استغلال هذه الآية الكريمة لصالح دينهن على ما يقول القرطبي في تفسيره للآية الكريمة : لما قال تعالى : ﴿ **والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾[2] ، قال نساء أهل الكتاب :

---

(١) المرجع السابق .

(٢) سورة المائدة /الآية : ٥ .

لولا أن الله تعالى رضي ديننا لم يبح لكم نكاحنا . . فنزلت : ﴿ **ومن يكفر بالإيمان** ﴾ أي بما أنزل على محمد ﷺ .

ويجب أن نذكر دائماً أن هناك خلافاً في الدين . . ونحن نتحدث عن حل زواج الكتابية . . وما يفرضه ذلك من حذر ونحن نخطو إلى مثل الزواج الذي يجيء استثناء من قاعدة الإسلام في إقامة الأسر . . قاعدة الإيمان بالله عز وجل .

ولقد كان الإمام أحمد متشدداً في نكاح البغي فأبطله لخلوه من عناصر الصلاح اللازمة لسعادة البيت .

يقول ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة :

( ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغي حتى تتوب . وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف ) .

وإذا كان لخلق المرأة تقديره عند الإمام بحيث كان فساده مانعاً عن صحة الزواج . فكم يكون ثمن الإسلام غالياً . الأمر الذي يتقاضانا أن ننظر إلى هذه العلاقة بروح ديننا الذي يحل ويحرم على نحو لا يمس جوهره الأصيل . لا سيما والأنباء تترى عن خطة جديدة دبرها أعداء الدين . يحاولون بها تشجيع زواج المسلم من الكتابية ؟!!

أي إن الذي حرموه بالأمس . وعدوه من الإسلام تعصباً . يروجون له اليوم . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم عن طريق هذا اللون من الزواج الذي يغزون به بيت المسلم . وبالتالي يكون لهم التأثير في الجيل الجديد عن طريق أم تدين بالولاء لهم . وليت المسلمين يفهمون ! . .

ونظرة متأملة إلى قوله تعالى :

﴿ **اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب** . . ﴾ الآية تؤكد ضرورة الحذر في إنشاء مثل هذه العلاقة :

فقد كان المظنون أن تجيء إباحة الكتابية عقب إباحة طعام أهل الكتاب . لكن الآية تقدم ذكر : ﴿ **المحصنات من المؤمنات** ﴾ على المحصنات من أهل الكتاب تأصيلاً للزواج من المسلمة كقاعدة في هذا الباب . يعني أن الزواج من الكتابية أمر عارض لا يتم إلا في ظروف خاصة تفرض نفسها . . كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

* * *

## زواج الأقارب

يقول الحق سبحانه وتعالى :

**﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾** الآية[1] .

ونسائل الواقع فيؤكد صدق نظرة الإسلام في تحريمه هذه الأنواع . كما ذكرتها الآية الكريمة . حيث تفتر الرغبة الجنسية في حالة الزواج بالقريبة . وما قد يستتبعه من ذرية ضعيفة .

يقول الغزالي معللاً ذلك : ( فمن ذلك ـ زواج القريبة ـ يقلل الشهوة . . إن الشهوة إنما تنبعث بقوة الإحساس بالأمر المرغوب ، وإنما يقوي الإحساس بالأمر الغريب الجديد . فأما المعهود الذي دام النظر إليه مدة . فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به . ولا تنبعث به الشهوة )[2] .

وفي هذا يروي طلحة قال :

سمعت النبي ﷺ يقول : « **الناكح في قومه كالمشعب في داره** »[3] .

ويكشف العقاد عن حكمة أخرى مما استهدفته الشريعة من تحريم هذه الأنواع وذلك في قوله :

( فالغرض من شمول هؤلاء النساء جميعاً بالتحريم ظاهر : وهو زيادة ثروة الإنسان من العطف والمودة . وتعويده أن يعرف ألواناً من الشعور غير شعور الذكور والإناث في عالم الحيوان . وكل هؤلاء القريبات أو أشباه القريبات قد جعلت المودة بينهن وبين أقربائهن من الرجال .

فلا موجب لخلطها بالمودة التي تنشأ من العلاقة الجنسية . ولا لتعريضها للجفاء الذي يعرض أحياناً بين الأزواج والزوجات )[4] .

---

(١) سورة النساء /الآية : ٢٣ .

(٢) إحياء علوم الدين ط الشعب ج ٤ ص: ٧١٨ ـ ٧١٩ .

(٣) مجمع الزوائد ٤ كتاب النكاح ـ رواه الطبراني وفيه أيوب بن سليمان بن جدلم ولم أجد من ذكره هو ولا أبوه وبقية رجاله ثقات .

(٤) الفلسفة القرآنية ص: ٦٠، ٦١ .

وقد كان العربي منطقياً مع نفسه ـ وهو الذي يدخره ولده لغده ـ حين تجنب الزواج من قريبته رغبة منه في ولد صالح .

يقول الحسن البصري رضي الله عنه :

( وقد كان العرب ـ يختارون لمثل هذه الحال نكاح البعداء الأجانب ويرون أن ذلك أنجب للولد . وأبهى للخلقة . ويتجنبون نكاح الأهل والأقارب . ويرونه مضراً بالولد )[1] .

ثم يروي عن عمر بن الخطاب قوله :

( يا بني السائب : قد ضويتم ـ ضعفتم ـ فانكحوا في الغرائب ) .

وقال الشاعر :

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة مخافة أن يضوي على سليلها[2]

جاء في المصباح المنير:

( كانت العرب تزعم أن الولد يجيء من القريبة ضاوياً لكثرة الحياء من الزوجين . لكنه يجيء على طبع قومه من الكرم ) .

فإذا كان زواج القريبة لا يؤثر في وراثة خلق الكرم . فإن الناحية البدنية لها اعتبارها أيضاً .

وهو الأمر الذي يحذر منه بعض الباحثين في قوله :

( كلما كانت الزوجة ذات قرابة أوثق ظهر أثر الوراثة أكثر )[3] .

والسبب في ذلك :

أن جميع الصفات والاستعدادات السيئة في الأصول القريبة تنتقل إلى الذرية والأعقاب .

وهذه الظاهرة قد تشاهد بشكل ملحوظ في أبناء الأسر والقبائل المتعصبة الذين لا يتزوجون من غيرهم ولا يزوجون .

ويجب أن نلاحظ أيضاً :

---

(١، ٢) أدب الدنيا والدين ص: ١٥٣ .

(٣) البيت الإسلامي لمقداد بالجن ص: ٤٣، ٤٤ .

أن الابتعاد ليس قاعدة مطلقة : إذ قد تكون الأسرة الأخرى أكثر ضعفاً في القدرات العقلية . والجسيمة منها .

وفي هذه الحالة : فلا شك أن الذرية تأتي أضعف من ذرية الأسرة نفسها .

ولهذا . عند الابتعاد عن الأسرة ينبغي أن تختار الأسرة الأقوى منها في هذه القدرات حتى تكون الذرية الجديدة أحسن من ذرية الأسرة نفسها .

وكلما كان الطرفان أكثر قدرة . وأصح جسماً . أدى ذلك إلى ذرية أكثر قدرة وأصح جسماً .

والإسلام كذلك لا يجعل زواج القريبة مكروهاً على الإطلاق .

بل إنه أحياناً يشجع هذا اللون من الزواج إذا جاء صلة لرحم . . أو صيانة لعرض . لأن الأمر حينئذٍ يكون لأمر الله سبحانه بصلة الرحم وصيانة العرض .

وفي تلك الاستجابة بركة تظهر آثارها البعيدة في حياة الأسرة وفي مقدمتها الذرية . كما أشرنا إلى ذلك تعقيباً على حديث . « **من تزوج امرأة لعزها** . . » الحديث .

ولا يعتبر ذلك تخلياً عن شرط الإسلام في تكوين الأسرة الصالحة . . بقدر ما هو إبقاء على علاقة يجب أن تصان . وعهود ينبغي أن تحفظ .

فلا يعتبر تشجيع الزواج من البعيدة زهداً في القريبة . إذ لا يعقل أن يدعو الإسلام إلى وحدة القلوب وتآلف المشاعر . ثم يفتح باباً إلى الزهد في الأقرباء فيهدم ما بناه . ويخلخل ما بين الأقرباء من روابط الدم .

وإذن فلسنا مع المحدثين فيما يقررونه من أحكام مطلقة في هذا الباب .

فالقرب سبب عادي لضعف الذرية . وليس هو بمؤد حتماً إلى هذا الضعف .

وفي تجاربنا لمحات إسلامية تؤكد كيف تجيء النتائج على خلاف ما توحي به المقدمات .

وإن الأمر أولاً وأخيراً بيد القدرة الإلهية التي أقامت الكون على سنن من صنع الله وحده . وليس للبشر أمامها إلاَّ التسليم مع تلمس الحكمة . وبذل الوسع . والنتيجة بعد ذلك على الله سبحانه .

يقول الشاعر :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه | وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً
هذا الذي ترك الأوهام حائرة | وصير العالم النحرير زنديقاً

وإذا كان الشاعر هنا يكشف عن حيرة عالم قادته إلى الزندقة . فإن هناك حكماء آخرين . أبصروا في ضوء القرآن مواقع أقدامهم فقادتهم إلى تلمس حكمة الله في عباده . فالتقوا بها .

يقول أحدهم :

كم جاهل يملك دوراً وقرى | وعالم يسكن بيتاً بالكرى
لما قرأنا قوله سبحانه | نحن قسمنا بينهم . زال المرا

وعلى أثره اتضحت الحكمة لآخرين . فصاغوها شعراً :

ومن ذلك قول الشاعر :

ومن الدليل على القضّاء وحكمه | بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ومن هذا الوادي أيضاً قول الشاعر :

كم من قوى . . في تقلبه | مهذب الرأي عنه الرزق ينحرف
وكم من ضعيف . . ضعيف في تقلبه | كأنه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على أن الإله له | في الخلق سر خفي ليس ينكشف

وما أصدق قول الشاعر :

إذا طاب أصل المرء طابت فروعه | ومن عجب جادت يد الشوك بالورد
وقد يخبث الفرع الذي جاد أصله | ليظهر سر الله في العكس والطرد

فلو فهم الحكمة الشاعر الأول كهؤلاء العباقرة لانقلب صديقاً لازنديقاً .

فأنت ترى مما تقدم أن كل شيء يجري بقدر الله . وأن الزواج من القريبة ـ كحظوظ الدنيا ليست له قاعدة مطردة . بل إنه مردود لمشيئته سبحانه وحدها . التي تخلف ظنون الناس في كثير من الأحيان فتجيء ثمر هذا الزواج ذرية طيبة بعضها من بعض . مع التسليم ابتداء بأن العبد في الزواج مرغوب فيه كما قلنا .

والمعنى الجدير بالتأمل هنا : أن تشريع الله سبحانه وتعالى وما فيه من حكم . يلفت الأنظار إلى قدرته سبحانه . ويجرد الناس من حولهم وطولهم ليرتبطوا به تعالى

وحده . فتقوى فيهم العقيدة . ويرسخ الإيمان .

هذا من ناحية المرأة .

أما فيما يتعلق بالرجل :

فلا بد من خضوعه لشروط الإسلام في بناء البيوت. وأن يكون بأخلاقه محققاً لروح الإسلام في حرصه على سلامة الطرفين كليهما . لتتم بصلاحهما سعادة البيت .

يقول الإمام الغزالي :

( ويجب على الولي أيضاً أن يراعي خصال الزواج . ولينظر لكريمته فلا يزوجها ممن ساء خلقه أو خلقه . أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها . أو كان لا يكافئها في نسبها ) .

قال عليه السلام : « **النكاح رق . فلينظر أحدكم أين يضع كريمته** »[1] .

بل إن ضعف المرأة يفرض على الولي دقة خاصة في الاختيار . وفي ذلك يقول الغزالي في نفس الموضوع : ( والاحتياط في حقها أهم . لأنها رقيقة بالنكاح لا مخلص لها . والزوج قادر على الطلاق بكل حال . ومهما زوج ابنته ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو شارب خمر فقد جنى على دينه وتعرض لسخط الله . لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار ) .

وفي مجال التطبيق . نرى في تاريخنا الإسلامي مُثلاً حية تجعل من الأخلاق الكريمة وحدها عماد الأمر كله . ويبرز من خلال هذه الأمثال حرص الولي على توخي صلاح الخاطب المحقق لسعادة ابنته :

( روى بلال : أنا بلال . . وهذا أخي صهيب .

كنا ضالين فهدانا الله . وكنا مملوكين فأعتقنا الله . وكنا عائلين فأغنانا الله . فإن تزوجونا فالحمد لله . وإن تردونا فسبحان الله . فقالوا : بل تزوجان والحمد لله . فقال صهيب لبلال :

---

(١) الإحياء ط الشعب ج ٤ ص: ٧١٩ . وحديث : النكاح رق . رواه أبو عمر التوقاتي في معاشرة الأهلية موقوفاً على عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر . قال البيهقي : وروى ذلك مرفوعاً . والموقوف أصح .

لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ ، فقال : اسكت فقد صدقت ، فأنكحت الصدق )[1] .

فأنت ترى شابين مسلمين . تحركت في نفسيهما رغبة في الزواج . . فقصدوا بيتا غلب على ظنهما وجود طلبتهما فيه .

ولم يزد الولي على السؤال عن الخاطب . من هو . مكتفيا بجواب يحدد الشخصية . ويتم به التعريف . بعيدا عن كل إضافة تتعلق بالملك . أو النسب أو الوظيفة . لأنها أولا : أمور لم تكن تشغل بال الصحابة حينئذ .

وثانياً : فهي أمور ثانوية لا تشكل نسيجاً في علاقة زوجية يراد لها أن تقام على عنصر التدين والخلق المستقيم . ليمكن بعد ذلك أن تدوم .

وانبرى بلال . . الشاب الخاطب . . يبين ملامح شخصيته مع صاحبه . . في صدق وأمانة . ومن خلال تعريفه بنفسه . . تبرز شخصية شاب صالح يضع بين يدي والد الفتاة خلاصة حيلته من ألفها إلى يائها .

لقد كان ـ وصاحبه كذلك ـ ضالاً . مملوكاً . فقيراً . ولكن الله تعالى من عليه بالهداية . والحرية . والغنى . وهي قيم صالحة . وثروة غالية يعتز بها . ويجب أن يعتز بها كل راغب في سعادة ابنته . حريص على مستقبلها . بحيث تتوارى أمامها شهوات المال والوضع الاجتماعي .

ويوافق الولي على الزواج . ويتم عقد النكاح بكلمات معدودة . بالإيجاب والقبول . ثم تبدأ بهما قصة حياة مباركة . على الزوجين . والوالدين جميعاً : إنها بركة على زوجين التقيا على بساطة الإسلام . البعيدة عن مظاهر الدنيا .

ثم على والد دفع بكريمته إلى يد أمينة تصونها أبداً . في السراء والضراء . فوفر على نفسه مشكلات كان من الممكن أن تعكر صفو حياته لو أنه فتن بالدنيا . ورد الخاطب الصالح . تطلعنا إلى آخر يملك مالاً أو منصباً . بلا خلق .

ويا له من زواج ناجح لو أحسن الناس الفهم وأحسنوا التطبيق . إن بلالاً يحرص على أن يكشف من حياته نقط الضعف فيها : الضلال . الرق . الفقر .

وكان من الممكن أن يطوي هذه المعاني تملقاً لرب البيت . وإرضاء لنفس يفر

---

(١) المرجع السابق ج ٤ ص: ٧١٤ .

بها من العيب ليظهر في عيون الناس بريئاً من كل عيب .

بيد أنه يقول الحق . في محاولة لبناء البيت على الصدق الذي لا بد منه في بناء البيوت . لينعكس منه بعد ذلك ظل على ذرية تجيء أثراً له .

وحينما حاول أخوه صهيب أن يعاتبه لأنه لم يذكر مواقفهما المشهورة مع الرسول ﷺ . ودورهما البارز في خدمة الدولة والدعوة .

أسكته بلال الصادق الأمين . لافتاً نظره إلى ما أثمره صدقه من زواجهما معاً .

إن مواقف البطولة . رغم أهميتها . لا دخل لها في تحصيل السعادة الزوجية ولو أنه طوى ذكر الضلال والرق والفقر . وجاء حديثه فقط عن مزاياهما في البطولة والتضحية . فقد فتح على النفس باباً إلى الزهو . الذي يخدر إحساسها . فتطلب المزيد . وتختفي الحقيقة رويداً رويداً .

لأن هذا المزيد يجيء على حساب الحق المجرد . ويكذب الإنسان حين يبالغ ومن ثم يقام البناء على تضليل يأباه الإسلام . وترفضه النفوس الكريمة . التي رباها رسول الله ﷺ على الصدق الذي تعمر به البيوت .

على هذه الروح الإسلامية بنيت بيوت سباب المسلمين . على الصدق والبساطة معاً ولقد بقيت هذه الروح سارية المفعول إلى عهد قريب سمعنا فيه عن أهل الفتاة . وكيف كانوا يتكلفون بطعام ابنتهم وزوجها عاماً كاملاً حتى إذا جاء الوليد . استقبله عواطف كريمة في بيت أعمامه . وبيت أخواله .

عواطف الأسرة التي زايلتها المشكلات يوم أن انتقلت ابنتهم فانتقلت معها قلوبهم وأموالهم . فعاش الجميع بقلب واحد . وهذا سر سعادة هذه البيوت .

بيوت يجود فيها الأهل . ولا يجد الزوج سوى برد الراحة والأنس يرف حوله .

وأين هذا مما يحدث اليوم ؟

يتقدم الشاب . . وزاده صلاحه ونجاحه .

ويغالي أهل الفتاة في طلب المهر حباً في الظهور الذي يقصم الظهور . . وتحت وطأة عواطف المراهقة . يتم الزواج . لتبدأ المشكلات التي زرعها الآباء الحريصون على بناتهم حرص الدبة على صاحبها !! وتنوء الكواهل بالديون التي أنفقت في مظاهر تسر الناظرين فقط . لكنها اليوم لا تحقق سعادة ولا تجانساً بين زوجين أثقلتهما الهموم ـ فلم يعد متسع للإحساس بنعمة الزواج . وتفيض

المشكلات عن طاقة الزوجين لينصب على الآباء كفل منها . . يكون نوعاً من عقاب الله سبحانه . لأنهم تنكبوا طريقه . فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا . وناهيك بمصير يضيع فيه المال . ويشغل البال !..

ومن المؤسف حقاً أن بعض المتعلمين يجوسون خلال الدول مرة أو مرتين لاستيراد أحدث الأثاث لبناتهم . بناتهم اللاتي يتركونهن في سن خطرة تحتاج إلى الرعاية أكثر من حاجتها إلى الأثاث !..

تحتاج إلى ( الصلاة ) أكثر من حاجتها إلى ( الصلات ) !..

ولم يكن الآباء المخلصون قديماً يتنافسون في ذلك .

كان شغلهم الشاغل أن يصوغوا من تجربتهم حكماً بالغة يهدونها لبناتهم وأبنائهم نبراساً يضيء لهم دروب الحياة .

وما كانوا يبحثون عن الأثاث . بأشكاله وألوانه . فماذا تغني المادة إذا خلفت من ورائك ذرية لا ترعى وداً . ولا تحفظ عهداً .

وإنما كانوا يبحثون عن الفتاة المؤمنة المباركة . وتلك كانت وصاتهم لأولادهم . أن يحسنوا اختيار الزوجة الصالحة . التي تساعدهم على صون ثروة الفضائل التي عانوا في تزويدهم بها في حياتهم الأولى .

ونقرأ في ذلك هذه الوصية الذهبية من والد لولده . نضعها تحت سمع الذين يتلفتون يمنة ويسرة مقلدين .

لعلهم يلتفتون إلى تراثهم . يستلهمونه الرشاد :

قال الخطاب بن المعلى المخزومي لابنه وهو يعظه :

يا بني . . إن زوجة الرجل سكنه . ولا عيش له مع خلافها . فإذا هممت بنكاح امرأة . فسل عن أهلها فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة . واعلم أن النساء أشد اختلافاً من أصابع الكف . فتوق منهن كل ذات بذاء[1] مجبولة على الأذى . فمنهن المعجبة بنفسها . المزرية ببعلها[2] إن أكرمها رأته لفضلها عليه . لا تشكر على جميل . ولا ترضى منه بقليل . لسانها عليه سيف صقيل . قد كشفت القحة[3]

---

(١) ذات البذاء : السليطة اللسان .

(٢) المزرية ببعلها : العائبة لزوجها .

(٣) القحة : قلة الحياء .

ستر الحياء عن وجهها . فلا تستحي من أعوارها[1] ولا تستحي من جارها . كلبة هرارة[2] مهارشة عقارة[3] .

فوجه زوجها مكلوم . وعرضه مشتوم . ولا ترعى عليه لدين ولا لدنيا . ولا تحفظه لصحبة ولا لكثرة بنين .

حجابه مهتوك . وستره منشور . وخيره مدفون . يصبح كئيباً . ويمسي عاتباً . شرابه مر . وطعامه غيظ . وولده ضياع . وبيته مستهلك ، وثوبه وسخ . ورأسه شعث . إن ضحك فواهن . وإن تكلم فمتكاره .

نهاره ليل . وليله ويل .

ومنهن شفشليق شعشع سلفع . ذات سم منقع وإبراق واختلاف[4] .

تهب مع الرياح . وتطير مع كل ذي جناح . إن قال : لا ، قالت : نعم . وإن قال : نعم . قالت : لا .

مولدة لمخازيه . محتقرة لما في يديه . تضرب له الأمثال . وتقصر به دون الرجال . وتقله من حال إلى حال . حتى قلى بيته . ومل ولده . وغث عيشه[5] .

ومنهن الورهاء[6] . ذال الدل في غير موضعها . الماضغة للسانها . الأخذة في غير شأنها . قد قنعت بحبه . ورضيت بكسبه . تأكل كالحمار الراتع . وتنتشر الشمس ولما يسمع صوت . ولم يكنس لها بيت .

طعامها بائت . وإناؤها وضر[7] وعجينها حامض . وملؤها فاتر . ومتاعها مزروع[8] وماعونها ممنوع . وخادمها مضروب . وجارها محروب .

ومنهن العطوف الودود . المباركة الولود . المأمونة عيبها . المحبوبة في

(١) أعور الإنسان : أتى بالعوراء في منطقة . وهي الكلام القبيح .
(٢) هرارة : من الهرير وهو صوت يخرج من صدر الكلب دون نباح .
(٣) المهارشة : التي تهيج الشر . والعقارة : التي تعقر غيرها . أي تجرحه .
(٤) الشفشليق كزنجبيل : العجوز المسترخية ـ والشعشع كجعفر : الطويل . سلفع كجعفر : الصخابة البذيئة الخلق كالسلفعة ، والسم المنقع : المذاب المهيأ . والابراق : التهديد .
(٥) قلاه يقليه ويقلاه قلى : كرهه غاية الكراهة ـ غث عيشه : صار غثاً لا خير فيه .
(٦) الحمقاء .
(٧) فيه وسخ الدسم وغيره .
(٨) مطروح .

جيرانها . المحمودة في سرها وإعلانها . الكريمة التبعل[1] . الكثيرة التفضل . الخافضة صوتاً . النظيفة بيتاً . خادمها مسمن . وابنها مزين . وخيرها دائم . وزوجها ناعم . مموقة مألوفة . وبالعفاف والخيرات موصوفة )[2] .

* * *

(۱) رعاية الزواج .
(۲) روضة العقلاء لأبي حاتم البستي ص: ۱۷۸ ـ ۱۷۹ .

# الفصـــل الثـانـي
# مع الناشىء في مهده

*** تمهيد ـ الرغبة في الولد طبيعة الإنسان :**

الرغبة في الولد . والشوق إليه . فطرة فطر الله الخلق عليها . يبقى بها النوع . ويمتد بها العمر .

ويكشف القرآن الكريم عن هذه النزعة الإنسانية الرامية إلى ولد . . يحقق هذه النتيجة بشقيها .

ولن يحقق ذلك في دنياالواقع إلا إذا جاء صالحاً مصلحاً . وهو الأمر الذي توخاه الآباء الصالحون . حين تعلقت منهم الهمم بالذرية بوصف الصلاح والبركة . بغض النظر عن الذكورة والأنوثة .

يقول سبحانه :

**﴿ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا ﴾**[1] .

**﴿هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء ﴾**[2] .

ويقول تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :

**﴿ رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم ﴾**[3] .

---

(١) سورة مريم /الآية : ٥، ٦ .
(٢) سورة آل عمران /الآية : ٣٨ .
(٣) سورة الصافات /الآية : ١٠٠، ١٠١ .

﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ﴾[1] .

﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾[2] .

وعلى هذا النهج كانت دعوة الصالحين :

﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريَّاتنا قرَّة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾[3] .

ومعنى ذلك :

أن بقاء النوع . وامتداد العمر . لن تكون لهما قيمة إلا بذرية تحمل في كيانها كلمة التوحيد . رسالة تبلغها . وتدافع عنها .

* * *

*** فتنة الولد:**

والولد بهذا المفهوم نعمة تضاف إلى نعم أخرى يتقلب فيها العبد . ولابد أن تذكر فتشكر .

من أجل ذلك يركز الإسلام على علاقة الوالدين بولدهما . لتظل على معنى الاعتدال . فلا يشتط بها الحب لتورد الوالد موارد الهلاك .

ولا تبرد كما هو الحال في دول لا تدين بالإسلام . تتقطع فيها أسباب المودة إلى حد قد يوصى فيه الوالد بثروته لقط أو كلب ! ! .

يقول الله تعالى :

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وإن الله عنده أجر عظيم ﴾[4] .

والفتنة : المحنة والابتلاء . والجمع فتن . وأصل الفتنة من قوله :

( فتنت الذهب والفضة ، إذا أحرقته بالنار لتبين الجيد من الرديء )[5] .

وتكون الفتنة في الخير والشر على سواء .

---

(١) سورة إبراهيم /الآية : ٤٠ .
(٢) سورة البقرة /الآية : ١٢٨ .
(٣) سورة الفرقان /الآية : ٧٤ .
(٤) سورة الأنفال /الآية : ٢٨ .
(٥) المصباح المنير .

يقول سبحانه :

﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾[1] .

إن الولد نعمة من الله تعالى . فهو من فتنة الخير التي يمتحن بها العبد . ليرى : هل سيطغيه الفرح بها فينسى واجب الشكر عليها ؟ تربية وإعداداً ؟

أم سيقف بحبه لهم مواقف العدل والإصلاح ؟

يقول ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة :

( وقوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ ، إختبار وإمتحان لكم . إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها ؟

أو تشتغلون بها عنه . وتعتاضون بها منه ) ؟

وقد أشار ﷺ إلى صعوبة هذا الامتحان . وما قد يصيب الوالد بسبب ولده من رذائل البخل والجبن :

روى الترمذي بسنده :

( زعمت المرأة الصالحة : خولة بنت حكيم قالت : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وهو محتضن أحد بني ابنته . وهو يقول :

« **إنكم لتبخلون . وتجبنون . وتجهلون . وإنكم لمن ريحان الله** »[2] .

بل قد يسوق الإفراط في حب الولد إلى تحريف العلاقة عن موضعها فيكفر الأب .

يقول سبحانه :

﴿ **وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً** ﴾[3] .

يقول ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة :

( أي يحملها حبه على متابعته على الكفر .

قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد . وحزنا حين قتل . ولو بقى كان فيه

---

(١) سورة الأنبياء /الآية : ٣٥ .

(٢) الترمذي باب حب الولد .

(٣) سورة الكهف /الآية : ٨٠، ٨١ .

هلاكهما . فليرض أمرؤ بقضاء الله . فإن قضاء الله لمؤمن فيما يكره . خير له من قضائه فيما يحب ) .

ومع التسليم بمحبة الوالد لولده . لكن الإسلام يطامن من حدة هذه العاطفة . حتى لا تجر إلى الباطل أو الهلاك .

ولذلك جاءت السنة المطهرة فوضعت حداً للتعلق المسرف بالولد . وذلك فيما بشرت به من ثواب من مات ولده . ليكون ذلك كسراً لحدة الغريزة عن طريق بديل هو ثواب الله :

عن عبد الله بن مسعود قال :

قال رسول الله ﷺ :

**« ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث . إلا كانوا لهما حصناً من النار »** .

فقيل : يا رسول الله . . فإن كانا إثنين ؟ قال : « **وإن كانا إثنين** » . فقال أبو ذر : يا رسول الله . . لم أقدم إلا إثنين . قال : « **وإن كانا إثنين** »[1] .

وفي قصة إبراهيم عليه السلام مثال يبين كيف خلص قلبه لله بعد إجتيازه إمتحاناً عسيراً تعرض فيه لذبح ولده ليبقى له ارتباطه الوثيق بالباقيات الصالحات كما أمره ربه سبحانه . فالولد زينة . ولكن محبة الله والتضحية في سبيله أربى في الميزان من الولد وإن كان فلذة الكبد .

ولو عاش كل والد من أجل ولده فقط . لتوقف سير الحياة . وتهدم بنيانها .

يقول تعالى :

**﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾**[2] .

يقول ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة :

( وقوله : **﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾** كقوله : **﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة**

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ١ ص: ٣٧٥ .
(٢) سورة الكهف / الآية : ٤٦ .

**والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب ﴾**[1] .

وقال تعالى :

**﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾**[2]. أي : الإقبال عليه والتفرغ لعبادته . خير لكم من الاشتغال بهم . والجمع لهم . والشفقة المفرطة عليهم . . **﴿ والباقيات الصالحات ﴾** التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض ) .

ومنها بطبيعة الحال : الولد الصالح .

وهذه الباقيات الصالحات أنفع للإنسان من مجرد الاشتغال بالأولاد والتكاثر بهم . وإذا كان للولد من قيمة . فبقدر ما يكون صلاحه .

وحين اعتز اليهود بالمال والولد وظنوا بمفازة من العذاب لذلك قالوا :

**﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾**[3] .

وهذا تصور خاطىء رده القرآن الكريم في وجوه دعاته في كثير من آياته :

يقول سبحانه :

**﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأولئك هم وقود النار ﴾**[4] .

وكان من الحكمة لفت أنظار المؤمنين إلى فساد هذا الاتجاه وما قد يجره على أصحابه من عذاب وأن بدا للعين المجردة زينة تغري النفوس :

**﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾**[5] .

ثم يضع علاقة الوالد بولده في إطارها الصحيح على ركيزة من الإيمان والعمل الصالح . . وذلك في قوله سبحانه وتعالى :

---

(١) سورة آل عمران /الآية : ١٤ .
(٢) سورة التغابن/ الآية: ١٥ .
(٣) سورة سبأ /الآية : ٣٥ .
(٤) سورة آل عمران /الآية : ١٠ .
(٥) سورة التوبة /الآية : ٥٥ .

**﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾**[1] .

وبذلك ينقي هذه العلاقة من شوائب الفخر والأنانية ليكون الولد قرة عين لوالده في الإيمان . وحتى تحتفظ هذه الصلة بنقائها . يحذر القرآن الكريم من خطر الإنحراف بها عن خطها المستقيم .

وذلك في قوله تعالى :

**﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾**[2] . . الآية .

قال ابن عباس :

( نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي . شكا إلى النبي ﷺ جفاء أهله وولده . فنزلت . . )[3] .

ثم يقول الشربينيّ أيضاً رواية عن الطبري :

( كان ذا أهل وولد . وكان إذا أراد الغزو بكوه ورفقوه . وقالوا : إلى من تدعنا . فيرق فيقيم . فنزلت هذه الآية إلى آخر السورة ) .

فانظر كيف أوشكت محبة الولد أن تكون فتنة تودي بصاحبها . . الأمر الذي عالجه الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة . . فيما رسمته هذه الآية حين أمرت بالحذر أولاً من طاعتهم والنزول على هواهم . وإذا صارت الفتنة واقعاً فالعفو أصلح لكم ولهم . بأن توقعوا المجاوزة عن ذنوبهم . بعدم العقاب عليها .

فإنه لا فائدة في ذلك . فإن من طبع على شيء لا يرجع عنه . وإنما النافع الحذر الذي أرشد إليه تعالى لئلا يكون سبباً في الذم المنهى عنه .

والخطوة التالية هي : الصفح .

أي : الاعراض عن المقابلة باللسان لوماً وتثريباً فإذا تمت الخطوة الأخيرة بالغفران فسترتم ذنوبهم ستراً شاملاً . كان ذلك أدعى إلى صلاح حالكم ونجاح هذه

---

(١) سورة سبأ /الآية : ٣٧ .
(٢) سورة التغابن /الآية : ١٤ .
(٣) الخطيب الشربيني .

التربية في إصلاح أولادكم . فالله تعالى « غفور » أي بالغ المحو لأعيان الذنوب وآثارها جزاء لكم على غفرانكم لهم . وهو جدير بأن يصلحهم لكم . بسبب غفرانكم )[1] .

وإذن . فالتعامل مع الولد بقانون العدل يحقق مصلحة الطرفين معاً :

فقد يكون من أسباب عداوة الولد لأبيه : أن يرخي له الأب من حبال مودته حتى ينسيه ذكر ربه .

وفي هذا يقول أبو السعود مفسراً تلك العداوة :

( يشغلونكم عن طاعة الله تعالى ) .

ومتى شغله عن ذكر ربه وطاعته فقد خسر خسراناً مبيناً .

وفي ذلك يقول سبحانه :

**﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾**[2] .

وعلى هذا الأساس ـ أساس الإيمان والعمل الصالح ـ قامت علاقة الوالد بولده . . وهو بعينه أساس صلة الولد بأبيه .

حتى إذا تنكب الوالد طريق الحق . فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

يقول سبحانه وتعالى :

**﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إليَّ ، ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾**[3] .

إن حق الوالد في طاعة ولده يسقط في هذه الحال . وتبقى له فقط بقية من الود يصله بها في حدود ما رسم الإسلام . من بر ومودة لإنسان كان يوماً ما سبباً في وجوده . ويبقى ولاؤه الكامل . لأنصار الحق والداعين إلى الله .

---

(١) الخطيب الشربيني .
(٢) سورة المنافقون / الآية : ٩ .
(٣) سورة لقمان / الآية : ١٤ ، ١٥ .

يتلقى عنهم . ويتواصى معهم بالحق والصبر .

* * *

* مثال :

ولقد كان المسلمون عند حسن الظن بهم . فآثروا الله تعالى ورسوله على
علاقة تربطهم بأهلهم على ما كان لهذه العلاقة من قوة في نفوسهم قبل الإسلام

وفي قصة عبد الله بن أُبيّ شاهد على ما نقول :

( لما أرادعبد الله ـ أبوه أن يدخل المدينة اعترضه ابنه ( حباب ) وهو عبد الله
عبد الله غير رسول الله ﷺ اسمه وقال : إن ( حباباً ) اسم شيطان . وكان مخلصاً و
لأبيه :

وراءك . . والله لا تدخلها حتى تقول : رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل )[1]

وروي أنه قال له :

( لئن لم تُقر بالعزة لأضربن عنقك . فقال : ويحك . . أفاعل أنت ؟ قال
نعم . فلما رأى منه الجد قال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

فقال رسول الله ﷺ لابنه : « **جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً** »[2]

وقد أجمل الشربيني في تفسيره للآية الكريمة صوراً من هذا الولاء لل
فقال :

( مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير . . كما قتل عمر خاله العا
وهشام بن المغيرة يوم بدر . وعلي وحمزة وعبيدة بن الحارث قتلوا يوم بدر بني عم
عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ) .

ونهى الوالد عن الاسراف . . وأمر الولد بالإحسان ﴿ **وبالوال**
**إحسانا** ﴾[3] .

من شأنه أن يقف بعلاقتهما عند حد الاعتدال . . الذي تسلم به النفوس
الزيغ ويبقى الحق محور النشاط . ومناط الأمل .

---

(١) الكشاف .
(٢) الكشاف . الموضع السابق .
(٣) سورة الأسراء /الآية : ٢٣ .

وهذا الفساد الذي وقى الله الأمة منه بالإسلام . . هو ما تورطت فيه الأمم الحديثة حين تنكبت طريق الحق . . فذاقت وبال أمرها . وكان عاقبة أمرها خسراً . وبالذات في مجال الأسرة التي باتت تندب حظها . . وصارت علاقة الولد بوالده آلية لا تغذيها عواطف حسية . . ولا يشد من أزرها ضمير صاح . . وتلك هي الثمرة المرة للحياة المادية هناك .

إن المجتمع الذي في أساسه فنياً آلياً . . لا يكون سلوك الابن فيه نحو أبيه ذا قيمة اجتماعية كبرى ـ ما دام أمثال هؤلاء الأفراد يتحالفون في حدود اللياقة العامة التي يفرضها المجتمع . على صلات أفراده .

وبالتالي فإن الوالد الأوروبي يفقد كل يوم شيئاً من سلطته على ابنه .

وكذا الابن يفقد من احترامه لأبيه .

ولقد أصبحت صلاتهما المتبادلة مقضيا عليها .

وذلك لافتراض مجتمع آلي يميل إلى إلغاء كل إمتياز لفرد ما على آخر .

ثم ـ إذا ما اعتبرنا تطور هذه الفكرة منطقياً ـ إلى إلغاء الامتياز الناتج من القرابة في الأسرة .

إن الصلة القديمة بين الأب وابنه تصبح مع الأيام مهجورة )[1] .

من كل ما سبق . . يتضح لنا ذلك الخط الرئيسي المجوهري في منهج التربية الإسلامية وهو :

أن ينشأ الولد صالحاً . . على تقوى من الله ورضوان لتظل كلمة التوحيد باقية في الأعقاب . . عن طريق ذرية تدرج في جو إلهي مبارك .

وهو ما يتضح لنا فيما يأتي من توجيهات :

*** قبل الميلاد:**

يضع الإسلام حلوله العميقة لينشأ الولد صالحاً . حتى قبل أن يكون نطفة في رحم أمه . يقول ﷺ :

**«أما لو إن أحدهم يقول حين يأتي أهله : بسم الله . اللهم جنبنا الشيطان .**

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق عن مقال للسيد أبي الحسن الندوي بمجلة البعث الإسلامي ، العدد ٣ ـ ١٣٩٦ .

**وجنب الشيطان ما رزقتنا . ثم قدر بينهما في ذلك . أو قضى ولد . لم يضره شيطان أبداً »**[1] .

إن الاستفتاح باسم الله مأمور به في مثل هذه اللحظة التي تحتوي الإنسان فيها شهوة جامحة . آخذاً في اعتباره مقصود الأسرة وهو : الولد الصالح . . الذي ينجو بالدعوة الصالحة من كيد الشيطان .

ويلفت النظر هنا :

إن الإسلام لا يتخلى أبداً عن خطه الإنساني . . ويحاول الصعود بالمسلم إلى أفق الكمال . . فلا تستغرقه العواطف المشبوبة . . بحيث يظل وفياً لإنسانيته أبدا . .

وإذا كان لقاء الرجل بأهله مظنة التساهل والتجوز . فإن الإسلام يلفته بقوة إلى الحفاظ على أن يبقى الجو إنسانياً إسلامياً بما يأمره من الاستتار . . ليستنزل به دعاء الملائكة . الذي تتم به البركة المأمولة :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

**« إذا أتى أحدكم أهله فليستتر . فإنه إذا لم يستتر . استحيت الملائكة فخرجت . فإن كان بينهما ولد كان للشيطان فيه نصيب »**[2] .

وفي هذا المعنى يقول الشيخ رضى الدين أبو نصر[3] شارحاً وجهة النظر الإسلامية . . ليلة العرس :

( إذا أعرست بإمرأتك فخذ بناصيتها . . واستقبل بها القبلة . وقل :

اللهم بأمانتك أخذتها . وبكلمتك استحللت فرجها . فإن قضيت لي منها ولداً فاجعله مباركاً سوياً .

ولا تجعل للشيطان فيه شركاً ولا نصيباً ) .

إن الإسلام وهو يتجاوب مع غرائز الإنسان بأشباعها . . يعمل في نفس الوقت على أن يتم ذلك الاشباع في إطار من المعاني الإنسانية . بحيث يظل الطهر والصلاح سمة البيت . وروح العلاقة الزوجية . التي يراد لها أن تدوم بهذا الود الشائع في سماء البيت .

---

(١) البخاري كتاب النكاح .
(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ج ٤ ورواه البزار والطبراني في الأوسط .
(٣) مكارم الأخلاق ص : ٧٤ .

وإلا . . فإن توخي الإرواء الجنسي وحده لا يحقق الهدف . . بقدر ما يكون ضعيف الأثر في بقاء الأسرة قوية متماسكة .

وهو المعنى الذي كان يركز عليه ﷺ دائماً :

( عن جابر قال :

كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة . فلما قفلنا[1] تعجلت على بعير قطوف[2] . فلحقني راكب من خلفي . فالتفت فإذا أنا برسول الله ﷺ قال : « **ما يعجلك ؟**

قلت : إني حديث عهد بعرس .

قال : « **فبكراً تزوجت أو ثيباً** »؟

قلت : بل ثيباً .

قال : « **فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟** :

قال : فلما قدمنا ذهبنا لندخل فقال :

« **أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً أم عشاء . . لكي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة** » .

**قال : وحدثني الثقة أنه قال في هذا الحديث : « الكيس الكيس يا جابر »** يعني الولد[3] .

ويطالعنا الحديث الشريف بأمور :

١ ـ أعلن جابر رضي الله عنه رغبته الجنسية الحلال » . بلا تحفظ . . فلا حياء في الدين .

٢ ـ أعباء الجهاد لم تنسه حقه أو حق أهله في لقاء على كلمة الله عز وجل .

٣ ـ لم ينكر ﷺ ذلك . . لكنه يحاوره بحكمة حواراً ينتهي بتحديد الصورة المثلى للزواج . . الزواج بالبكر وما يحققه من مودة ومؤانسة فوق شهوة الجنس . . ومن شأن النفس أن تنبسط . والعواطف أن تستقر . فإذا جاء الولد كان له من هذا الاتزان العاطفي نصيب .

وإلا فالزواج بالثيب قد يكون مطلوباً في بعض الظروف .

---

(١) رجعنا .

(٢) بعير قطوف بضمتين : بطيئة السير .

(٣) البخاري كتاب النكاح . والكيس بفتح الكاف : العقل أو الرفق والتأني .

٤ ـ وإذا كان الإسلام يستهدف الأسرة الصالحة . فـأنه يختط لهـا السبيل . ويظهر ذلك فيما نصح به الأزواج في شخص جابر رضي الله عنه ألا يتعجلوا بالدخول على زوجاتهم إذا عادوا من أسفارهم ليلاً .

لماذا ؟ . .

للفرار من مغبة ذلك . وأثره الـوخيم على علاقـة الزوجيـة القائمـة . وعلى مستقبل الطفل أيضاً .

فإذا كان الإسلام يتوخى بالزواج الولد الصالح . . فإنه يأخذ في الاعتبار كل ما يحقق ذلك . . ومنه أن تتم المتعة في جو من الطهر والنظافة . إن طروق الأهـل ليـلاً مفاجأة للزوجة التي لا تكون على مستواها نظافة وتجملاً واستعداداً نفسياً . . وهذا ما أشارت إليه السنة المطهرة فراراً من رؤية الزوجة على نحو ينفر الزوج نفوراً يضعف الصلة . ويرسب في قاع النفس خيالات تتحول بالتكرار إلى موقف من الزوجة . . ولا يخفي ما لذلك من أثر على ما في البيت من صور العلاقات الاجتماعية .

وهنا نلمح ما في تضاعيف المنهج الإسلامي من السمو والكمال المؤديين إلى الاستقرار الأسري .

* * *

* **تعقيب:**

حكى جابر رضي الله عنه من قصة زواجه تلك وما تضمنته من معان إنسانية نبيلة . . حملته على أن يتجاهل ما يطمح إليه الشباب مثله من تزوج البكر للأسباب التي ذكرها ﷺ . مؤثراً أن يتزوج ثيباً تعينه على تربية أخواته اليتيمات :

روي مسلم « عن جابر بن عبد الله قال :

تزوجت إمرأة . فقال لي رسول الله ﷺ :

« **هل تزوجت** » ؟

قلت : نعم .

قال : « **أبكراً أم ثيباً** » ؟

قلت : ثيباً .

قال : « **فأين أنت من العذارى ولعابها** » ؟[1] .

---

(١) استحباب نكاح البكر .

وفي رواية أكثر تفصيلاً :

﴿ **إن عبد الله هلك وترك تسع بنات . أو قال سبع . فتزوجت إمرأة ثيباً** ﴾ .

فقال لي رسول الله ﷺ : « **ياجابر . . تزوجت** »؟

قال : « **قلت : نعم** ».

قال : «**فبكر أم ثيب** »؟

قال : قلت : بل ثيب يا رسول الله .

« **قال : فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك** ؟ أو قال : « **تضاحكها وتضاحكك** ؟ »

قال : قلت له : إن عبد الله هلك وترك تسع بنات ـ أو سبع ـ وإني كرهت أن آتيهن أو أجيئهن بمثلهن .

فأحببت أن أجيىء بإمرأة تقوم عليهن وتصلحهن . قال : « **فبارك الله لك** » .

وفي رواية ﴿ **وتمشطهن** ﴾[1] .

فلو أن جابراً رضي الله عنه قد استجاب لرغبته النفسية كشاب وتزوج بكراً . . لكان التقارب في السن بينها وبين أخواته داعياً إلى التغاير والتنافر بينهن . . مما ينعكس علي البنات أثره . . ويفشل الأخ في تقديم أمهات صالحات قانتات . . لكنه تنازل راضياً عن متعة حسية . . ليحقق له وللمجتمع فائدة ترجح ما فاته من دواعي الشباب .

وأنه ليستشعر سعادة حين يسهم بتضحيته في بناء بيوت على تقوى من الله ورضوان .

وتبدو أهمية الدور الذي قامت به زوجه في خدمة أخواته . الأمر الذي يلفت نظر المسلمين بقوة إلى ما يجب أن تكون عليه العلاقات الأسرية . . ليستيقظ الحياء في ضمائر نساء يؤسسن هذه العلاقات على قاعدة فصل الزوج عن أسرته وعزله عن أهله مهما كانت الظروف .

وفي هذا الموقف النبيل كما جاء في شرح النووي على مسلم :

« فيه فضيلة لجابر وإيثاره مصلحة أخواته على حظ نفسه .

وفيه الدعاء لمن فعل خيراً وطاعة . سواء تعلقت بالداعي أم لا .

---

(١) المرجع السابق .

وفيه جواز خدمة المرأة زوجها وأولاده وعياله برضاها .
وأما من غير رضاها فلا » .
وفي خيالي صورة ذلك الشاب ـ في عصرنا ـ والذي تمزقه الحيرة بين قلبه وعقله :

فزوجته جميلة . . وغنية .

وعلى الطرف المقابل ترقب أسرته معونته جزاء ما قدمت من جميل صار به ذا مركز مرموق . وبينما نداء الواجب يملأ سمعه لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً . . لأنه أسير ذلك الجمال . . وهذا المال ؟ !

أما جابر رضي الله عنه فقد حسم القضية . حين ظفر بذات الدين . والتجربة . والحكمة في تناول الأمور . وجاء بما يشبه أن تكون أما لأخواته . ترعاهن . وتحنو عليهن .

ولم يكن زاهداً في المال أو الجمال أو المنصب . بيد أنه أراد أن يعيش على الأرض . بقيم السماء ! . .

فاكتفى بجمال الطبع . وغنى النفس . وصدق التجربة . ثروة هي في الواقع أرفع . وأنفع أيضاً .

وغداً . وعندما تتزوج البنات . سينتقل الحب منهن إلى ذريتهن ليظل الولاء دائماً لخال ودود عطوف أعطى فأجزل العطاء . وبر فأكمل البر . . وأنت خبير بأن هذا الجزاء الدنيوي مقدمة لجزاء عند الله أوفى . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

* * *

*** النظافة . . والأناقة :**

وتلفت النظر هنا إلى الفرق الهائل بين النظافة . . والأناقة ! . .

فالنظافة أدب إسلامي يتحقق به التآلف والحب . . بين الزوجين . . ثم هو من الناحية الاقتصادية بسيط . يوفر المال . والجهد . والوقت جميعاً . أما الأناقة فهي قشرة ترتكز على المظاهر . دون اعتناء بقواعد النظافة التي قد تكون صور الأناقة عدواناً عليها ! ثم إنها عبء على ميزانية البيت . . يضيع بها الوقت . والمال . والعيال أيضاً :

لأنهم يجدون الأم هكذا . فينسجون على منوالها !!

والفرق هائل . والقفزة بعيدة بين أم تحس بقدوم عائلها فتنهض لاستقباله نظيفة المظهر . والمخبر . عائلها الذي لا يتلمس عيوبها بالمفاجأة ليلاً مثلاً . وإنما يعينها على أمر الله ليبقى الود موصولاً .

وأين منها تلك التي تلهث وراء أشكال الأناقة . فلا تترك لها وقتاً تستقبل فيه زوجها العائد من عمله مرهق الأعصاب مكدود الذهن ؟

إنه لا يشم منها داخل البيت إلا رائحة الشواء . فتضيف أثقالاً فوق أثقاله . وقد يحدث خلاف . ثم تتسع مع الأيام دائرته . ولن يقتصر أثره على الزوجين . وإنما سيمتد منه كفل يصيب الذرية الضائعة في دوامة الخلاف .

وأسرة على هذا النحو . لا تعرف إلى القرار سبيله . ومفروض علينا أن نعي مباديء الإسلام . لننقل الخطى على الطريق الواضح . إلى الهدف الأساسي من الزواج .

* * *

*** عناية الإسلام بالجنين:**

ركز الإسلام عنايته بالجنين في بطن أمه . ليخرج إلى الحياة سليماً معافى ومن توجيهاته في هذا الباب نهيه عن إتيان المرأة في المحيض وقاية للذرية من أضراره . وقبل ذلك صيانة للزوج والزوجة معاً . يقول الحق سبحانه :

**﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فائتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فائتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر المؤمنين ﴾**[1] .

إن المحيض أذى محقق الضرر .

ولأنه كذلك . تطالعنا الآية الكريمة بأكثر من تنبيه يتأكد به التحذير :

١ ـ فالزوج مأمور باعتزال زوجته أيام المحيض .

٢ ـ بل ومكلف كذلك بعدم الاقتراب . لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

---

(١) سورة البقرة /الآية : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

٣ ـ فإذا تحقق طهرها تماماً كما يفيد حرف الشرط « إذا » جازت المباشرة حينئذٍ .

٤ ـ الأخبار بمحبته سبحانه للتوابين والمتطهرين إغراء بإحترام آداب الإسلام هنا .

يضاف إلى ما سبق من ترهيب . تتم بهما الصورة المثلى للتربية . .

٥ ـ إن المرأة « حرث » وإذا كانت البذرة لا تنبت بين الأعشاب الطفيلية المانعة من النضج . فكذلك المباشرة بذرة توضع . ولا بد أن تكون التربة مستعدة للإنبات . ولا بد أن تكون التربة مستعدة للإنبات . لا بد أن يكون الرحم في أحسن أوضاعه مستعداً للإثمار .

* * *

*** مبررات التحذير :**

أن غشيان المرأة في المحيض أذى للرجل والمرأة معاً . وربما تحملت المرأة الخطر الأكبر .

فإنه على فرض سلامة الرجل « من هذا الأذى . فلا تكاد تسلم منه المرأة :

لأن الغشيان يزعج أعضاء النسل فيها . إلى ما ليست مستعدة له . ولا قادرة عليه . لاشتغالها بوظيفة طبيعية أخرى هي : إفراز الدم المعروف »[1] .

وقد فصل الطب الحديث نوع الأذى اللاحق بمن يطأ إمرأته في المحيض :

لقد ثبت « أن اتيان المرأة أثناء المحيض ضار جداً بها :

لأن أعضاءها التناسلية تكون في احتقان . والأوعية الدموية فيها تكون متمددة . فيسهل حصول نذيف بسبب حركة عنيفة . كما يسهل جداً دخول ميكروبات الأمراض فتحدث إلتهابات موضعية وغيرها . قد تذهب بحياة المرأة أو تورثها العقم الدائم .

والرجل كذلك لا يخلو من الضرر :

فقد يدخل بعض السائل من الحيض في مجرى البول فيحدث إلتهاباً يشبه السيلان »[2] .

---

(١) المنار ص : ٢٨٥ ط الشعب .

(٢) الإعتصام ـ رمضان ١٣٩٤ هـ .

وسوف تمتد آثار هذا الضرر إلى الذرية :

« عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **من وطىء إمرأة وهي حائض فقضى بينهما ولد . فأصابه جذام فلا يلومن إلا نفسه** »[1] .

وإذا عنى الإسلام بالجنين في بطن أمه بما نهى عنه من أوضاع تؤدي إلى الأضرار به فأنه قد يعفي المرأة من الصوم إذا كان في الصوم خطر على صحتها . وصحة الجنين في بطنها .

وقد أثبت الطب الحديث تأثر الجنين بأعراض أمه الجسمية والنفسية . . مما يؤكد صحة منهج الإسلام الرامي إلى الحفاظ على صحتها وقاية لحملها .

إن إصابة الأم مثلاً ـ في الأسبوعين الأولين من الحمل ـ « بالحصبة الألمانية » مدعاة إلى تعرض الجنين لإصابات في العين والأذن . أو القلب .

وقد يحدث في بعض حالات الولادة العسرة كدمات في المخ وجروح يتحول بسببها استعداد الوليد للذكاء المفرط ليكون طفلاً أبله »[2] .

وما أكثر ما تتعرض الأم في هذا العصر لأوضاع تنعكس آثارها على الجنين حتماً .

تقول الكاتبة عواطف عبد الجليل :

« من خطايا المجتمع الحديث أنه عندما دفع بالمرأة إلى مجالات العمل نسي أن حواء ما زالت . وستظل دائماً المنبع الوحيد للأجيال . ولهذا . فلا بد أن يظل المنبع هادئاً . سليماً . صافياً . حتى تخرج الذرية في حال طيبة .

الأم العاملة مرهقة الأعصاب . ممزقة القلب . حزينة النفس : ترى كثيراً من المتناقضات في البيت وفي العمل . فتحاول نسيان همومها بتناول الأقراص المهدئة . . وبسبب منها يخرج الأطفال للحياة مشوهين . وإن عملية التشوه قد تستمر حتى الشهر السادس من الحمل »[3] .

---

(١) مجمع الزوائد كتاب النكاح رواه الطبراني في الأوسط عن بكر بن سهل وقد ضعفه النسائي . وقال الذهبي : قد حمل الناس عنه وهو مقارب الحديث .

(٢) سيوكولوجية الطفولة والمراهقة د . مصطفى فهمي ص: ١٩ .

(٣) الجمهورية إبريل ١٩٧٣ .

ولقد وضع الإسلام القاعدة . وحدد المنهج . ورسم الطريق . وهذا هو العلم الحديث يؤكد صلاحية الإسلام للتطبيق . لتخرج به الإنسانية إلى بر الأمان .

* * *

*** الرضاعة . . الحمل:**

قال ﷺ : « **لقد هممت أن أنهي عن الغيلة حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم** »[٣] .

والغيلة ـ بفتح الغين وكسرها ـ أن ترضع المرأة وهي حامل . . أو اتيانها وهي ترضع . .

وقد هم ﷺ أن ينهي عن ذلك لما فيه من ضرر بالرضيع لولا أن الروم وفارس يفعلون ذلك . فلا يضر أولادهم .

قال العلماء :

« سبب همه ﷺ بالنهي عنها أنه يخاف منه ضرر الولد الرضيع . قالوا : والأطباء يقولون : إن ذلك اللبن داء . والعرب تكرهه وتتقيه »[١] .

* * *

## الـوليـد

إذا صار الجنين وليداً . فإن له في عنق والديه حقوقاً أرشد إليها الإسلام الذي أمر بحسن استقباله والاحتفاء به . . على نحو يضمن صحته الجسمية والنفسية معاً :

دعا إلى أن يؤذن في أذنه . . تيمناً بذكر الله تعالى . .

والمبادرة إلى تحنيكه . .

والدعاء له بالخير . .

وتكريمه باختيار اسم صالح يكون عنواناً صادقاً له . .

ثم ذبح عقيقة شكراً لله تعالى على نعمة الولد . .

وذلك كله اجمال يحتاج إلى تفصيل :

---

(١) مسلم . كتاب النكاح .

(٢) مسلم . الموضع السابق .

* **تحنيك المولود:**

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : « ولد لي غلام . فأتيت النبي ﷺ . فسماه إبراهيم . فحنكه بتمرة . ودعا له بالبركة . ودفعه إلي . وكان أكبر ولد لأبي موسى »[1] .

فانظر كيف طارت الفرحة بالرجل . . ثم حطت به بين يدي رسول الله ﷺ . .

إنه غلام . ثم هو باكورة الذرية . وأول الغيث . وذلك قوله :

« **وكان أكبر ولد لأبي موسى** » .

وقد بادر ﷺ بتسميته . . واختار له من الأسماء إبراهيم لعل ما يوحي به من معاني الفداء والبركة يكون له أثره في حياة الوليد . . ثم دعا له بالبركة في عمره وعمله .

وكان التحنيك من قبل رسول الله ﷺ بالذات براعة استهلال . . من حيث كان ريق رسول الله ﷺ أول شيء دخل في جوفه .

«عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة . قالت : فخرجت وأنا متم[2] .

فأتيت المدينة فنزلت قباء . فولدت بقباء . ثم أتيت به رسول الله ﷺ . فوضعته في حجره .

ثم دعا بتمرة فمضغها . ثم تفل فيه . فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ .

ثم حنكه بالتمرة . ثم دعا له فبارك عليه .

وكان أول مولود ولد في الإسلام .

ففرحوا به فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم : إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم »[3] .

وعن هذه الآثار نشأ اتفاق العلماء على استحباب تحنيك المولود عند ولادته

---

(١) البخاري . كتاب العقيقة .

(٢) أي شارفت تمام الحمل .

(٣) البخاري . كتاب العقيقة .

بتمر . فإن تعذر فما في معناه . . وقريب منه من الحلو .

فيمضغ المحنك التمرة حتى تصير مائعة . بحيث تبتلع . ثم يفتح فم المولود ويضعها فيه . ليدخل شيء منها في جوفه .

ويستحب أن يكون المحنك من الصالحين . وممن يتبرك به . رجلاً كان أو امرأة . فإن لم يكن حاضراً عند المولود حمل إليه[1] .

وقد كانت العاطفة الدينية حينئذٍ جياشة . . وكان الحرص على أن ينشأ الوليد على تقوى من الله ورضوان دافعاً حمل الوالدين على التوجه الى رسول الله ﷺ طلباً للبركة . . تأسيساً لحياته على أقوى ما يشاد عليه البناء . . وحين يشترط العلماء أن يكون المحنك صالحاً فإنه الشرط الذي يمليه الحرص على مستقبل الوليد . . الذي يجب أن تتلقاه بيئة طاهرة نظيفة . . بقدر ما يحشد جهود الوالدين لينشأ صالحاً . . لتتجه طاقتهما في الاتجاه الصحيح . . بعيداً عن معاني الجاهليـة الأولى . والتى كانت ترصد الولد للحرب والمفاخرة .

* * *

*** فائدة التمر :**

أما بالنسبة للتحنيك بالتمر بالذات . . فقد ذهبنا نسائل الطب الحديث لعله يكشف عن جوهر الحق في هذا الأمر .

وقد أكد الطب ـ وما زال ـ صدق نظرة الإسلام الذي لا يصوغ نظريته في التربية توجيهات مكتوبة . . تستذكر ثم تنسى . . وإنما يختط السبيل العملي منـذ اللحظة الأولى . . حفاظاً على صحة الوليد ثم على الأم . . التى ترتبط أساساً بصحة الوليد من ناحيتيها الجسمية والنفسية :

يقول الدكتور عبد العزيز شرف :

«يقول الله تعالى :

**﴿ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلي واشربي وقري عيناً ﴾**[2] .

---

(١) مسلم : باب استحباب تحنيك المولود .

(٢) سورة مريم /الآية : ٢٥ ، ٢٦ .

فقد فضل الله البلح لمريم . لما فيه من فوائد غذائية وقيمة طبية . وقد أفاض العرب في وصف النخلة والبلح والتمر .

وللتمر والبلح فوائد دوائية مختلفة . أقرها الطب العربي القديم . ثم حققها البحث العلمي الحديث » .

وبعد أن بين الباحث عناصر التمر الغذائية يقول :

نقرأ الآية :

﴿ وهزى إليك بجذع النخلة ﴾ من قصة مريم .

وقد نمر عليها من غير أن نربط بين الحالة التي هي عليها مريم . وهي في أيامها الأخيرة من حملها بعيسى عليه السلام . . وبين أمرها بأكل الرطب الذي يتساقط من النخلة . . حتى جاء العلم الحديث وفسر لنا هذا السر وما فيه من إعجاز قرآني :

« إن الله جلت قدرته يأمر مريم بأن تأكل البلح . لا لغذائها فقط . بل لأمر آخر يعلم الله كنهه وسره وهو مساعدتها في ولادتها لنبيه ورسوله عيسى عليه السلام .

وأراد لها ولادة سهلة في وحدتها . فوصف لها الرطب لتأكل منه ليقوم هذا الرطب الذي أمرها الله به بدور الدواء الذي غالباً ما يقدمه الأطباء في العصر الحديث للحامل قبل الولادة »[1] .

وقد أفاض المؤلف في بيان فوائد التمر للأمعاء . . والدم والبطن . . والصحة العامة مما يؤكد موقف الإسلام في حرصه على صحة الحامل . . في سبيل وليد يستقبل حياته صحيحاً بين أحضان أم تمنحه من صحتها النفسية والجسمية ما يساعده على النمو والتكيف .

وفي الوقت الذي يختار فيه الرسول ﷺ «التمر» بالذات . . ويركز عليه دائماً يلفت الأنظار الى ما لهذا الغذاء من فائدة طبية وغذائية تتصل بالمولود نفسه وبخاصة في هذه اللحظات التى يبدأ فيها مرحلة تغاير تماما رحم الأم . . وتحتاج إلى عنصر فعال يساعده على التكيف مع البيئة الجديدة . فكان الأمر بالتحنيك رحمة بالأم . وبالوليد . وكان أيضاً شهادة صادقة أن هذا الدين من عند الله .

---

(١) منبر الإسلام . العدد ٥ السنة ٣١ .

والآثار المستفيضة تؤكد أهمية التحنيك . . بل وضرورة الإسراع به . من حيث كانت حياة الوليد الجديدة . شديدة الاختلاف عما كان الحال عليه في بطن أمه . . ومن ثم فلا بد من الوقوف إلى جانبه ليحدث التكيف المطلوب . . و « ليتمرن على الأكل . ويقوى عليه » كما قرر ذلك بعض العلماء .

«عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

كان ابن لأبي طلحة يشتكي . فخرج أبو طلحة . . فقبض الصبي . فلما رجع أبو طلحة قال : ما فعل ابني ؟

قالت أم سليم : هو أسكن ما كان .

فقربت إليه العشاء . فتعشى . ثم أصاب منها .

فلما فرغ قالت : وار الصبي .

فلما أصبح أبو طلحة أتى النبي ﷺ فأخبره فقال : « **أعرستم الليلة ؟** »[1] .

قال : نعم .

قال : « **اللهم بارك لهما في ليلتهما . فولدت غلاماً** » .

قال لي أبو طلحة : احفظه حتى تأتي به النبي ﷺ .

فأتى به النبي ﷺ وأرسلت معه بتمرات . فأخذه النبي ﷺ فقال : « **أمعه شيء ؟** » .

قالوا : نعم . . تمرات . .

فأخذها النبي ﷺ . فمضغها ثم أخذ من فيه فجعلها في «في» الصبي . وحنكه . وسماه عبد الله »[2] .

وفي رواية « أن أم سليم قالت لي : يا أنس . . انظر هذا الغلام فلا تصيبن شيئاً حتى تغدو به إلى النبي ﷺ »[3] .

وإذا كنا نحاول بهذه اللمحات أن نؤسس قواعد الأسرة من الإسلام فلا يفوتنا هنا أن نقف وقفة متأملة أمام المرأة المسلمة . . أم سليم . . هذا الدور الذي كان له أثره في إرساء قواعد البيت السعيد :

---

(١) أعرس الرجل إذا بنى بامرأته .

(٢، ٣) البخاري . كتاب العقيقة ـ فتح الباري .

إن أنساً رضي الله عنه يحكي هنا بعض ذكرياته . . مع أخيه لأمه ! يحكيها بلا غضاضة أو تبرم من زواج أمه بغير أبيه !

بل إن حساسية الموضوع لم تمنعه من نشره بلاغاً للناس . . وماذا في زواج الأم بعد وفاة العائل ؟!

كثير من الأبناء يتحرجون . . ويرفضون بشدة مجرد التفكير فى هذا الموضوع . . وربما تعلق الأمر بالوالد الذى تجنح حياته إلى مغيب . . ويريد أن يتزوج بعد وفاة الصاحبة .

ويثور الأبناء حفاظاً على الثروة . وضنا بنصيب الزوجة المرتقبة ليبقى خالصاً لهم !

يحافظون على الثروة . . ولا يحافظون على كرامة الوالد !

إنه رجل . يبحث عن نصفه الآخر . فراراً من الوحدة القاتلة .

وصحيح أنه ضعيف . ولا يشكل زواجه ضرورة قصوى . ولكن ما رأيكم دام فضلكم ـ أيها الأبناء الأوفياء ـ لو منعتموه فوضع شهوته الباقية هذه . في الحرام ؟!

ماذا يبقى من كرامتكم جميعاً حتى لو كان هو الخطأ الأخير في حياته ؟ أيهما أكرم . . أن يضعها في حلال . . أم يضعها في حرام ؟

إن نصيب الزوجة المقترحة من الميراث ـ ضئيل . . ضئيل . . إلى جانب الخسارة الفادحة لو انحرفت به شهوة جامحة !

ومن يدري :

فلعل الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل . . حماية للميراث . . يموتون هم . . ويرثهم آباؤهم !!

ويرثون أيضاً ذرية ضعافاً يصيرون أمانة في يد جد يرعاهم . . مع زوجة لديها متسع من الوقت . . وفائض من الجهد تبذلهما راضية . .

ولو وعينا دروس الحياة من حولنا لوفرنا على أنفسنا أعباء معركة بين آبائنا. وقدمنا بالبر لغد لا نعلمه . يصبح الوالد فيه . مع زوجته الجديدة طوق النجاة في أولادنا من بعدنا .

إن « أنساً » رضي الله عنه « تربية » أم سليم . ومن ثم جاء صورة لأخلاقها . . وحكمتها .

ولقد نجحت المرأة فيما فشل في تحقيق مثله الرجال .

ثم . .

ما هو موقف أم سليم مع زوجها ! لنتم الرواية فصولاً ؟

إن أبا طلحة ـ زوجها ـ عاد من سفره . وفي خياله صورة ولده الذي تركه مريضاً .

وحرقة اللهفة على صحة الولد المريض لا يعرفها إلا أب أو أم .

ولكن الحقيقة المرة : أن الولد قد مات . .

فكيف تخبره . . بشرط ألا تكذب . . حتى في ظروف ربما جاز فيها الكذب ؟

قالت : هو أسكن ما كان . .

وصحيح : أنه هدأ . هدوءاً أبدياً . وهو أشد سكوناً من ذي قبل . والمرأة صادقة .

ومع صدقها فقد احتفظت بأعصابها كالحديد . . فأعدت الطعام . . وأكبر من ذلك : أعدت نفسها للقاء زوجها !!

بينما فلذة الكبد مسجى أو أهلك على وشك الرحيل كل ذلك لتحقق أمرين .

(أ) ألا تفاجىء الوالد بخبر فادح الوقع . . فتتأثر صحته .

(ب) وأن تتيح له مع ذلك أن يسترجع ويحسن استقبال العاصفة . فلو أنها فاجأته . لأضرت به : ديناً . ودنيا . بيد أنها . احتفظت بأعصابها وأدارت شؤون البيت بحكمة نادرة .

وكما تقول بعض الروايات : إنها أخبرته بأن الجيران رفضوا في غيبته أن يردوا أمانة لآخرين عندهم . . فلما أنكر أبو طلحة الموقف . . قالت كلمتها معلنة أن أمانتك . . أن ولدك وهو وديعة الله عندك . . في طريقه الآن الى خالقه سبحانه . .

فلم يسع الرجل إلا أن يسترجع بعد أن هيأت له الزوجة السبيل إلى الاسترجاع . . وكانت دعوة الرسول ﷺ مسك الختام . . ختام هذا الدرس البليغ . . وما أكثر ما في تراثنا من دروس .

* * *

*** التهنئة بالمولود:**

والمولود ـ ذكراً أو أنثى ـ نعمة من الله تعالى تستحق الشكر :

**﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ﴾**[1] .

ومن ثم فالتهنئة بالمولود تتم في هذا الإطار :

«ولد لرجل ولد . فهنأه رجل . فقال : ليهنئك الفارس[2] .

قال الحسن البصرى : وما يدريك ؟

قل : جعله الله مباركاً عليك وعلى أمة محمد »[3] .

فالذين يرخون لآمالهم العنان فيرجون أن يكون الولد فارساً . . أو ضابطاً . أو طبيباً . عليهم أن يعرفوا جيداً أن الخلق الفاضل ضروري لكل هذه الوظائف .

وأن البركة الحاصلة في الولد . هي النعمة الكبرى . لأنه بهذه البركة يستقيم في نفسه ليكون بعد ذلك رجلاً يخدم دينه وأمته .

وما قيمة الطيار أو الطبيب إذا فقد صلاح النفس وتمسكها بالإيمان بالله تعالى ؟

لقد أدرك الحسن البصرى بحسه البصير من وراء التهنئة تلك الروح القبلية التي كانت تنتظر الولد ليضيف إلى عدد القبيلة واحداً يحمل السلاح دفاعاً عنها ظالمة أو مظلومة .

فلفت نظر الرجل إلى ما يجب أن يكون عليه المسلم في نظرته إلى الولد :

فلا بأس أن يجيء فارساً . . بل إن مجيئة كذلك هدف من أهداف الإسلام .

ولكن الأهم من ذلك أن تكون فروسيته بركة على أبيه في أهله وماله ومستقبله وأن تدخر طاقاته لحساب الدين الذى أكرمه الله به والأمة التى أناط الله بها إظهار دينه على الدين كله . .

وبهذا المفهوم المتراحب تتوارى أحلام القبيلة . . ونوازع التعصب . . في نفس الوقت الذى يصبح فيه حادث الولادة فرحاً كبيراً تحس به الأمة كلها . . وقد مر بنا كيف أشاع اليهود . . أن المسلمين لن يولد لهم بعد اليوم لأنهم قد سحروا من قبلهم .

---

(١) سورة الشورى /الآية : ٤٩، ٥٠ .

(٢) أي سرني فهو هانىء .

(٣) أخرجه البخاري . الدين الخالص ٤١/٥ .

وجاء أول مولود في الإسلام . . وضعته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها رداً إلهياً على كيد اليهود . . يدخر منذ اليوم الأول لا لأبيه فقط . . بل ليكون جندياً يحق الحق ويبطل الباطل .

* * *

*** العقيقة :**

ومن آداب الإسلام : إظهار السرور بالوليد . . عن طريق العقيقة التي تذبح تكريماً له . . وشكراً لله عز وجل على نعمة الذرية . .

عن « سليمان بن عامر الضبي قال :

مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دما[1] وأميطوا عنه الأذى »[2] .

وحين سئل ﷺ عن العقيقة . . شجع الناس عليها . . وفي نفس الوقت لقنهم درساً في أدب النبوة العالي . . حين وافق على المبدأ وكره اسم العقوق لما فيه من معاني الفرقة التي ينبغي ألا نستقبل بها الصغير . . واختار بدلاً منه لفظ « النسك » :

« عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :

سئل رسول الله ﷺ عن العقيقة فقال : « **إن الله لا يحب العقوق !!** »[*] .

وكأنه كره الاسم .

قالوا : يا رسول الله إنما نسألك عن أحدنا يولد له . قال :

« **من أحب منكم أن ينسك عن ولده فليفعل عن الغلام شاتان مكافئتان . . وعن الجارية شاة** »[3] .

فالرسول ﷺ ينتقل بهذا العمل من مجرد إظهار السرور والتفاخر . ليأخذ أهميته ضمن العبادات التي يتقرب بها إلى الله ثم هو استبعاد لكل ظل من الفرقة يرف تحت سقف البيت . . مما يؤكد أهمية هذه اللمحات التي تبدو لنا صغيرة لا يلتفت إليها .

---

(١) يقال : هراقه ، والأصل : هريقه . وزان دحرجة . وقد يجمع بين الهاء والهمزة فيقال أهراقه يهرقه . والأمر هرق .

(٢) البخاري كتاب العقيقة .

(*) في الحديث «قولوا نسيكة . ولا تقولوا عقيقة» عن المصباح مادة عق .

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص: ١٨٢ ، ١٨٣ .

بينما هي لبنات يكبر بها البناء مع الأيـام . لتؤدي بعد ذلـك دورها في بنـاء شخصية الإنسان .

* * *

*** إيضاح :**

الحديث صريح الدلالة على أن نسك الغلام : شاتان مكافئتـان[1] . . وعن الجارية شاة . .

وأخراج البزار من طريق عطاء عن ابن عباس رفعه :

« للغلام عقيقتان . وللجارية عقيقة »[2] .

والسؤال الآن :

لماذا هذا التفريق بين الذكر والأنثى . . في الوقت الذي ترى فيه توجيهـات الإسلام الرامية إلى تكريم البنت لتأخذ مكانها ـ في ظل الإسلام ـ إلى جانب أخيها موفورة الكرامة ؟

وإجابة عن هذا السؤال :

« ذكـر الحليمي أن الحكمة في كـون الأنثى على النصف من الـذكـر : أن المقصود استبقاء النفس فأشبهت الدية »[3] .

وتسعفنا أحكام الميراث القاضية بتفضيل الرجل على المرأة في القسمة . . لتكون جواباً عن هذا التساؤل . . ولا يدع مجالاً لإنكار أن تكون الأنثى على النصف من أخيها في العقيقة . . ليظل الإسلام وفياً لمبادئه . .

وربما جاز لنا أن نقول :

إن فرحة الوالدين بالذكر تصل بهما الى درجة التشبع ـ إن صح التعبير ـ هذه الفرحة التي تنحسر موجتها قليلاً أو كثيراً في حال ولادة الأنثى .

ومعنى ذلك : أن واقعية الإسلام تعترف بهذه الفرحة . وتقدرها قدرها . وبدل أن ينفس الوالدان عنها بطرق غير مشروعـة . . يدعـو الإسلام إلى استيعـاب هذه

---

(١) أي : متشابهان . . أو مثلاً . . أو متقاربان في السن ـ فتح الباري .
(٢) فتح الباري .
(٣) المرجع والموضع السابق .

الفرحة . واحتوائها . وإفراغ شحنتها بهذه المظاهرة الأسرية أي بذبح شاتين لا شاة واحدة ! .

وفي نفس الوقت يوصى بأن تتم العقيقة تحت عنوان الشكر لله تعالى . . فلا مجال لمعاني التفاخر أو التكاثر . . ليبقى البيت مشدودا إلى قيم السماء في ذات اللحظة التي يعبر فيها عن فرحة غامرة يحسها فعلاً . . ويعبر عنها طاعة لله تعالى .

لقد مر بنا لفت الحسن البصري نظر الرجل المهنىء بمولود لتكون التهنئة المثلى :

« جعله الله مباركا عليك وعلى أمة محمد » .

ومعنى ذلك أن ما يحقق البركة يكون أثقل في موازين الخير ولو كان أنثى ممن يجيء فارغاً من هذه البركة . . ولو كان ذكراً ! .

وإذا كانت الصحة تاجاً على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المرضى . . فإن إنجاب البنات في كثير من الأحيان يكون تاجاً على رؤوس الوالدين . لا يعرفه إلا من ابتلوا بذكور أحبطوا أعمارهم . . وأعمالهم ! .

إن النجاح في تربية البنت يعني إعداد أم . . بل يعني إعداد أمة بأكملها .

* * *

*** ما يحدث اليوم:**

المفروض أن تتم كل هذه الظواهر الإسلامية بمشهد من الصغار والكبار في البيت . . وفي الحي .

ولا شك أنها تاركة آثارها على النفوس التي تستقبلها فتصطبغ حياتها باللون الإسلامي . وتتنفس روحه . فتتشرب مبادئه . ولكن الناس اليوم . يهربون جاهلين متجاهلين من هذه الآداب الإسلامية إلى صور أخرى مستوردة : فجعلوا الحلوى . والشموع . والورود . إعلاناً عن الفرح بالوليد . وأحيوا بذلك أيضاً ذكرى ميلاده إحياء يبلغ حد الوجوب العيني ! .

فخرجوا عن الجو الإسلامي . ودخلوا في أحوال غيرهم من أمم لا تدين بالإسلام . . وترهق ميزانية البيت بهذا السرف . بل وتضيع الوقت في مجاملات لا ترضي الناس أبداً .

والعودة إلى شرع الله تعالى . وما فيه من اقتصاد ومودة :

أولاً : طاعة له سبحانه تنعكس بركتها على الوليد .

وثانياً : احتفاظ بالشخصية الإسلامية متميزة في معركة القيم . . التي يجب أن نخرج منها منتصرين .

* * *

*** إختيار الاسم:**

لا تنتهي مسؤولية الوالد إزاء الولد باختيار أمه الصالحة . . بل إن ميلاد الطفل يكون بداية لمرحلة طويلة تبدو مسؤولية الوالدين فيها خطيرة . . كما مر بك .

ومن أهم الخطوات على هذا الطريق ـ بعد ما تقدم ـ أن يحسنا إختيار اسمه الذي هو شارته وسمته بين الناس .

وقد « اقتضت حكمة الله أن يكون بين الاسم والمسمى تناسب في الحسن والقبح . واللطافة والكثافة .

ومن ثم . غير ﷺ الاسم القبيح بالحسن وهو كثير .

وربما غير الاسم الحسن بالقبيح للمعنى المذكور[1] .

وقد كان الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء . ككلب وحنظلة وضرار . وحرب . وما أشبه ذلك .

وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء : كفلاح ونجاح . ونحوهما . والسبب في ذلك ما حكى أنه قيل لأبي الدفيش الكلابي :

لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء . نحو كلب وذئب . وعبيدكم بأحب الأسماء نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا ، وعبيدنا لأنفسنا . يريد أن الأبناء معدة للأعداء فاختاروا لهم شر الأسماء والعبيد معدة لأنفسهم فاختاروا لهم خير الأسماء »[2] .

ومن طريف ما يروى في التسمية بأسماء غير مستحسنة عرفاً : أن وائل بن قاسط مر بأسماء بنت دريم . وكان يقال لها أم الأسبع :

---

(١) السيرة الحلبية ٧٥ .

(٢) بلوغ الأرب للألوسي البغدادي ج ١٩٣/٣ .

« وكانت إمرأة جميلة . وبنوها يرعون حولها . . فهم بها . فقالت له : لعلك أسررت في نفسك مني شيئاً ؟ فقال : أجل . فقالت : لئن لم تنته لأستصرخن عليك أسبعي . فقال :

ما أرى بالوادي أحداً ! فقالت :

لو دعوت سباعي لمنعتني منك . وأعانتني عليك . فقال :

أو تفهم السباع عنك ؟ فقالت :

نعم . . ثم رفعت صوتها : يا كلب . يا ذئب . يا فهد . يادب . يا سرحان . يا أسد . . فجاءوا يتعادون ويقولون :

ما خبرك يا أماه ؟ قالت :

ضيفكم هذا أحسنوا قراه . ولم تر أن تفضح نفسها عند بنيها . فذبحوا به وأطعموه ، فقال وائل :

ما هذا إلا وادي السباع »[1] .

ولا شك أن حماس الأولاد في الدفاع عن أمهم . وحضورهم بين يديها . بمجرد ندائها . لم يكن فقط لأن كلاً منهم يحمل إسماً يثير الفزع . بل كان ذلك بالدرجة الأولى ثمرة تربية فذة . تميزت بها الأم العربية . قبل الإسلام وبعده .

هذه التربية التي تجيء « أم الأسبع » عنواناً لها . ودليلاً عليها :

إنها تعلم أن سمعة المرأة في البيئة العربية مثل الزجاجة : كسرها لا يجبر وأن مجتمعها الصارم يتردد ألف مرة قبل أن يتقبل توبة المرأة السيئة السمعة . وما دامت خواطر السوء قد ماتت في صدر الضيف اللئيم أمام حكمة المرأة ويقظتها . . وما دام درسها القاسي الذي ألقته عليه آتى أكله . وبقيت هي كما كانت طاهرة عفيفة . فلم الصراخ ؟ . . ولم التجريح ؟

فلتبق المرأة في نظر أولادها كما هي : البريئة النظيفة .

ولا داعي لأن تفرغ حماس الأولاد في قضية خاسرة . . وهو مثل بليغ نقدمه للأم العصرية كي تحسن قراءة تاريخها لترى في مثل هذا المشهد ما يوقظ ضميرها الغافي . ليشتد وخزه لها . حتى تستر ذراعيها . وساقها . وتستر معهما روح العصر

---

(١) المرجع السابق ج ١٩٤/٣، ١٩٥ .

التي جلبت إلى البيت كل عناصر التهاون التي تفسد الرجولة . . عن طريق الأم التي لم تستشعر خطورة مسؤوليتها إزاء ذرية . . ينظرون إليها فيسلمون زمامهم معها إلى كل فكرة وافدة . على نحو يبدد الحماس الموروث في معركة التقليد الأعمى . حتى إذا جد الجد . وكشرت ذئاب السوء عن أنيابها . وتعرضت سمعة البيت للقيل والقال . لم تجد في البيت « سبعاً » ولا حتى « كلباً » يعوي ! . .

لقد مات الإحساس في دوامة « العصرية أو التقدمية » وهجم « الضيف اللئيم » على الفريسة في محاولة لاقتناصها . والذرية هناك . كل حزب بما لديهم فرحون . كل يغني على ليلاه .

**﴿ ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴾** .

ولا نحب أن يكون حديثنا هنا دمعة نذرفها . . ثم نمضي . لأن هدفنا الأساسي هو إيقاظ الضمير لدى الأم بخاصة لتدرك أنها ليست حرة في ذات نفسها . . من حيث كانت عنواناً لبيتها وعائلتها . وكل خطأ ترتكبه يمتد أثره إلى الأبناء والأحفاد .

فلم تكن الأم العربية تجلب لولدها من السوق دمية تصور الأسد . . أو النمر ، لكنها كانت تغرس فيه شجاعة الإثنين ! . .

وهي مع ذلك تغرقه بموجبات من الحنين عن طريق أغنيات تبث فيه عناصر الرجولة . . والإنسانية الرحيمة في نفس الوقت .

فينشأ بطلاً . يضع بطولته لحساب الحق . يقسو ويرحم مشدوداً إلى قيم الخير التي زرعتها يد الوالدين في نفسه على نحو ما أثار حديثه ﷺ من تفرد نساء قريش بالحنان . . وصدق التجربة .

* * *

*** من توجيهات الرسول ﷺ :**

كان ﷺ يتخير في خطابه .

ويختار لأمته أحسن الألفاظ وأجملها وألطفها . وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش :

فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً . ولا صخاباً ولا فظاً .

وكان يكره أن يستعمل اللفظ الشريف المصون . في حق من ليس كذلك . .

وأن يستعمل اللفظ المهين المكروه في حق من ليس من أهله .

فمن الأول :

منعه أن يقال للمنافق يا سيدنا . وقال :

« **فإن لم يكن سيداً أسخطكم ربكم عز وجل** » .

ومنعه أن يسمي شجرة العنب كرماً . ومنعه تسمية أبي جهل بأبي الحكم »[1] .

ويلاحظ : أن المنافق ليس قطعاً . فالكلام من باب المداراة .

إن لفظاً معيناً قد يغري بالمعصية . ويساعد على الانحراف إلى حد ما .

من أجل ذلك نلمس حكمة الرسول ﷺ البادية في اختيار أسماء تلازم المرء طول حياته . . وأثرها على الشخصية ملموس .

وفي بيان علة ذلك يقول صاحب زاد المعاد في نفس الموضع .

« نهى رسول الله ﷺ عن تسمية العنب « كرماً » وقال :

« **الكرم قلب المؤمن** » .

وهذا . لأن هذه اللفظة تدل على كثرة الخير والمنافع في المسمى بها .

وقلب المؤمن هو المستحق لذلك . دون شجرة العنب « التي هي أصل الخمر » . . وذلك ذريعة إلى مدح ما حرم الله . وتهييج للنفوس عليه .

هذا محتمل . والله أعلم بمراد رسول الله ﷺ .

والأولى ألا يسمى شجر العنب كرماً »[2] .

فإذا ما تعلق الأمر بمستقبل الولد . . وهو حامل الأمانة بعد والده . . فإن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدقة في اختيار الاسم . . على قدر أثره في سلوك الطفل . . وتحديد علاقاته بالناس من حوله .

سئل رسول الله ﷺ عن « العقيقة » فقال : « **إن الله لا يحب العقوق** » .

وكأنه كرم الاسم .

قالوا : يا رسول الله إنما نسألك عن أحدنا يولد له . قال : « **من أحب منكم أن ينسك عن ولده فليفعل . . عن الغلام شاتان مكافئتان وعن الجارية شاة** »[3] .

---

(١) زاد المعاد ج ٢ / ٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص : ١٨٢ ، ١٨٣ .

فاستقبال الوليد بالسرور أمر مشروع . شكراً للنعمة . . وإظهاراً للمنة . . ومع صفاء النية . وسلامة العمل يكره الرسول ﷺ أن يذكر تحت اسم العقوق . . الذي يجب ألا يتردد في رحاب البيت . تطهيراً له من كل معنى غير كريم . ولو كان عارضاً يزول ـ كما تقدم ـ بل أن للأمم علاقة بتحديد شخصية الجماعة ينبغي الحرص عليه .

يقول ﷺ :

« **لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم . وإنها العشاء . وإنهم يسمونها العتمة** » . وهذا محافظة منه ﷺ على الأسماء التي سمى الله بها العبادات فلا تهجر ويؤثر عليها غيرها . كما فعله المتأخرون في هجران ألفاظ النصوص . وإيثار المصطلحات الحادثة عليها .

ونشأ بسبب هذا من الفساد ما الله به عليم .

وهكذا كما كان يحافظ على تقديم ما قدمه الله وتأخير ما أخره . كما بدأ بالصفا وقال : « **إبدأوا بما بدأ الله به** »[1] .

ومع أن القوم أعراب . . من بني جلدتنا . . إلا أن الرسول ﷺ يحذر من إيثار ألفاظهم على ما رضيه الشارع الحكيم لنا . .

وهذا دليل على أن الأمر ليس إجراء شكلياً يتعلق باستبدال كلمة بكلمة .

بل أنه أخطر من ذلك :

إنها مخالفة يسيرة في حد ذاتها . . لكنها تخلخل بقدرها من الاستمساك بالحبل المتين . على نحو يمهد لخطوة أخرى يخفف بها الارتباط بالعروة الوثقى .

ثم تنحل عرى الشخصية الإسلامية عروة عروة . من حيث لا نحتسب . وهنا ندرك لماذا يحذرنا الرسول ﷺ من أشياء قد تبدو لنا صغيرة . لكنها بما تخلفه من آثار في عالم الواقع تشكل خطراً يجب تلافيه .

فالذين يستبدلون الأدنى بالذي هو خير .

الذين يستنكفون المنطق بكلمة العم . والخال . إلى ما يفيد معناها بلغة الأجانب . والذين تثقل على سمعهم اسم « علي » . أو عبد الله . أو صالحة . أو

---

(١) زاد المعاد . الموضع السابق .

زينب . فيؤثرون عليها ما رق من أسماء أجنبية مجاملة للمجتمع . على ما تفيده الأسماء الأولى من قيم عليا . وما تفجره من مشاعر إنسانية .

هؤلاء جميعاً مخطئون في حق دينهم أولاً . ثم في حق أنفسهم وأولادهم ثانياً . مخطئون في حق الدين . لأنهم حين سمحوا لأنفسهم بالاستجابة لداعي المجاملة والتظرف . جرهم ذلك إلى التحلل من قيم الدين الكبرى . والتطلع إلى غيرها في الشرق أو الغرب .

وهكذا بدأ الخطر منذ الخطوة الأولى . وهو الأمر الذي حذرنا منه الرسول ﷺ .

ولقد قصروا في حق أولادهم حين يشبون عن الطوق فيتحرجون من الانتساب إلى أعلام وردت في شهادات ميلادهم . مع ما في هذه الأعلام من تكريم للإنسان . فإذا ما تمزقت أفكارهم حينئذٍ على مفترق الطرق . فإن هذا التمزق مردود إلى قصور الآباء والأمهات بالدرجة الأولى .

ومن آداب النبوة في التسمية أن يسمى الوليد في يومه السابع . كما في حديث عائشة رضي الله عنها :

« كل غلام رهين بعقيقة تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه ويسمى »[1] .

ويشير التوجيه النبوي الكريم إلى تفاعل الوليد مع بيئته منذ أيامه الأولى . وما لتسميته من أثر في تحديد وجوده ضمن أسرته بهذا العلم المميز .

وفي إرشاداته ﷺ ما يعين على تخير الاسم المناسب المحقق لمضمونه في نفس الصبي .

جاء في الاستعياب (١٢٤٩/٣) على لسان أحد الصحابة :

« أتيت النبي ﷺ بابن لي يقال له : حازم فسماه عبد الرحمن » ورغم شرف معنى « حازم » وما يوحي به من الصرامة والجد . إلا أن فيه ما يدل على الاعتزاز بالذات إلى حد يضعف معنى العبودية لله تعالى . . فما يجعل « عبد الرحمن » أعون على تجدد الصلة به . ودوام الالتجاء إلى رحمته والتعرض دائماً لنعمته . في ظل من الاسم الموحي . الذي يترك ترداده لقطباعات لا يقتصر أثرها على الصبي . . لكنها تتخطاه لتكون مع النية الخالصة عبادة يثاب الوالدان عليها .

---

(١) زاد المعاد ج ٢/٢ .

وقد تطرق ابن الجوزي إلى الحديث عن سر هذه التسمية فجاء بما يشفي الغليل . . فقال :

« ولما كان الاسم مقتضياً لمسماه . ومؤثراً فيه . كان أحب الأسماء إلى الله ما اقتضى أحب الأوصاف إليه كعبد الله وعبد الرحمن .

وكان إضافة العبودية إلى اسم الله واسم الرحمن أحب إليه من إضافتها إلى غيرها كالقاهر والقادر .

فعبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر . وعبد الله أحب إليه من عبد ربه .

وهذا لأن التعلق الذي بين العبد وبين الله . إنما هو العبودية المحضة .

والتعلق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة :

فبرحمته كان وجوده . وكمال وجوده .

والغاية التي أوجده لأجلها . أن يتأله له وحده . محبة وخوفاً . ورجاء وإجلالاً وتعظيماً . فيكون عبد الله . وقد عبده لما في اسم الله من معنى الإلهية التي تستحيل أن تكون لغيره . ولما غلبت رحمته غضبه . وكانت الرحمة أحب إليه من الغضب . كان عبد الرحمن أحب إليه من عبد القاهر »(*) .

أي أن الأدب الإسلامي يستهدف توفر مشاعر الولاء لله وحده . ثم تحويل مشاعر الرحمة لدى الإنسان لتكون خلقاً عملياً يلتزم به في صلته بالناس .

وعن أثر الاسم في الأسرة كلها يروي ابن المسيب :

« عن أبيه أن أباه جاء إلى النبي ﷺ فقال :

ما اسمك ؟ قال : حزن .

قال : أنت سهل . قال : لا أغير اسماً سمانيه أبي .

قال ابن المسيب : فما زالت الحزونة فينا بعد »[1] .

لقد صارت الخشونة سمة لأسرة « المسيب » لأنها خالفت توجيه الرسول . تمسكاً بتقليد الآباء . فمع أن الرسول لم يفرض على الرجل اسمه المقترح وترك

---

(*) زاد المعادج ٢/ ٦ .

(١) البخاري . كتاب الأدب .

الأمر لاختياره . إلا أن ذلك لم ينقص من درجة مخالفته للرسول ﷺ . فهو الرسول المبلغ عن الله وطاعته من طاعته . وإذا علم أن شريعته لمصلحة الإنسان أولاً وأخيراً . تبين لنا كيف تكون مخالفته عدواناً يوقعه المرء على نفسه . إلى جانب كونه معصية قد تؤدي به إلى الهلاك .

ولذلك قال الإمام الثوري بكفر من لم يعمل بالسنة . إذا قال الرافض : لا أعمل بها مع أنها سنة . وإن خالفه الجمهور في ذلك .

وإذن . فمحاولة الرسول تغيير الاسم من القبيح إلى الحسن ومن الحسن إلى الأحسن خطوة هامة في منهج التربية النبوية تتأكد به الصلة العضوية :

« كان أبو عامر[١] يسمى في الجاهلية الراهب . فسماه رسول الله ﷺ الفاسق »[٢] .

وهذا دمغ له بالفسوق . وهو الوصف الحقيقي له . فلا يبقى له الحق ولا للمجتمع أن يزيف دخيلة نفسه تحت شارة لا مضمون لها .

وبذلك تبقى للأسماء أهميتها كشعيرة يحاسب المرء عليها . بقدر ما يترتب عليها من آثار في عالم النفس والواقع .

وعكس ذلك صحيح أيضاً :

فقد غير ﷺ اسم « عاصية » وقال : « **أنت جميلة** »[٣] .

ومن بركات الاسم الحسن . . في حياة الإنسان ومستقبله ما روي أنه « قدم على رسول الله ﷺ عبد عوف بن أصرم وقال ﷺ : « **من أنت** » ؟

قال : عبد عوف .

قال : « **أنت عبد الله . . فأسلم** »[٤] .

فأنظر كيف تغير الاسم . . فبدأ التغيير الكبير في حياته بالإسلام .

وهذا توجيه كريم منه ﷺ ليقيم الناس حياتهم على المعاني الكريمة . . التي تشكل أساساً لصحة النفس والجسم .

---

(١) هو أبو عامر . عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان أحد بني صبيعة (ابن هشام) .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ /٧١ .
(٣) مسند الإمام أحمد ج ٢ /٨ .
(٤) أسد الغابة ط الشعب ج ٣ ك ٦ ص: ١٢٦ .

وقد تجاوب في ذلك مع فطرتهم الأصلية التي تنفر بذاتها من كل معنى قبيح .. مثل كراهتهم لفظ الغراب لإشتقاقه من لفظ الغربة .

« أخرج مالك عن يحيى بن سعيد رضي الله عنهما :

أن رسول الله ﷺ قال : « للقحة[1] تحلب :

من يحلب هذه ؟ فقام رجل . فقال : ما اسمك ؟

فقال : مرة . فقال له : إجلس .

ثم قال : من يحلب هذه ؟ فقام رجل . فقال : حرب .

فقال له : إجلس .

ثم قال : من يحلب هذه ؟ فقام رجل . فقال : ما اسمك ؟

فقال : يعيش .

فقال : إحلب »[2] .

إن الرسول الكريم يكلف صاحب الاسم الحسن الخير ليقوم بالدور .. وربما كان واحد من سابقيه أقدر منه على إنجاز المهمة . لكنه بما يحمل من شارة الخصب . يؤمر وحده بأداء الدور . وكأنما كان اسمه كائناً حياً . أو عنصراً فعالاً يدر الخير . ويفجر ينابيعه .

وفي ربط النفوس بالمعنى الجميل خطوة على طريق تربيتها تعدها للتجاوب مع كل فضيلة يأمر بها الدين .

ومع هذا فبعض الناس يحرف الكلم عن مواضعه .. فلا يرضيه أن يظل ولده كما سماه : « مصطفى » مثلاً .

وكأنه يندم على خطأ فيسميه تدليلاً « ميمي » مسايرة منه للعصر .. وتخلصاً من الاسم العظيم الذي يمثل القيد الضابط .. ويذكر الضمير بإلتزاماته أمام الله والناس .

كما أن بعضهم قد يعمد إلى تسمية قد توقع المسمى في رذيلة الغرور مثلاً عندما يحاول ولده أن يكون على مستوى اسمه المعروف به .. كفارس أو شجاع مثلاً فلا

---

(١) اللقحة الدرور : الحلوب .

(٢) من باب قتل .

يمكنه . وينظر الناس إليه فلا يجدون له من اسمه نصيباً .

ومن هنا يوصي الإسلام بالاسم الصادق في تعبيره عن فطرة الإنسان . . لتكون الفطرة عوناً له على أمر الله . . وهما : حارث وهمام .

يقول ابن الجوزي معللاً ذلك :

« ولما كان كل عبد متحركاً بالإرادة . . والهم مبدأ الإرادة ويترتب على إرادته حركته وكسبه . . كان أصدق الأسماء : اسم همام . واسم حارث : إذ لا ينفك مسماهما عن حقيقة معناهما » .

* * *

*** والخلاصة :**

مما تقدم تتبين لنا خلاصة توجيهات الإسلام فيما يتعلق بالاسم وذلك أمرين اثنين :

١ ـ أن يكون حسناً .

٢ ـ أن يكون مع ذلك صادقاً .

فانظر كيف تبدأ التربية الإسلامية منذ الخطوة الأولى . . وكيف تجعل من اسم الوليد بذرة حية تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . . في الوقت الذي تلعب الأهواء برؤوس تختار من الأسماء ما يرضى الغرور ويثير الشهوات . . أو يميت النخوة .

لكن منهج الإسلام ما زال حياً . . يتقاضانا أن نذكره دائماً . . فهو طريق الحياة . . لمن أراد الحياة .

وعلى كثرة النماذج التي اتخذت الرسول ﷺ أسوة حسنة في باب التسمية . . إلا أننا نختار ـ وفيما يتعلق بالأسماء ـ الزبير بن العوام ـ لنرى كيف اختار لبنيه جميعاً أسماء الشهداء من الصحابة . . لعل في هذه التسمية ما يسير بهم على طريقهم لينالوا الشهادة مثلهم .

« يقول الزبير رضي الله عنه :

أن طلحة بن عبيد الله التميمي يسمي بنيه بأسماء الأنبياء وقد علم أن لا نبي بعد محمد . وأني أسمي بني بأسماء الشهداء . لعلهم أن يستشهدوا . وعلى هذه القاعدة وذلك المذهب جاءت أسماء أبنائه : فسمى « عبد الله » . . بعبد الله بن جحش شهيد غزوة أحد . . و « المنذر » بالمنذر بن عمرو الأنصاري من بني ساعدة . . وسمى « عروة » بعروة بن صعود الثقفي . . و « حمزة » بحمزة بن عبد المطلب شهيد

أحد . . وسمى « جعفراً » بجعفر بن أبي طالب الطيار . شهيد غزوة مؤتة . . و « مصعباً » بمصعب بن عمير حامل اللواء وشهيد أحد . . و « عبيدة » بعبيدة بن الحارث شهيد غزوة بدر . . و « خالداً » بخالد بن سعيد . شهيد مرج الصفر « وعمر » بعمر بن سعيد أخي خالد . قتل يوم اليرموك »[1] .

وهكذا يضع الوالد المسلم قدم ولده على طريق الجهاد منذ الخطوة الأولى . . ويرسم أمامه خير مثل يحتذى . وكان من فرط ولائه للحق حرصه على الاسم لعل فيه بركة . . ولعل فيه ذكرى ينتفض من خلالها من تسمى باسمه من أبنائه . بطلاً مجاهداً . يستحث خطاه . لينطلق من ورائه يحمل روحه كما حمل اسمه . ويحقق بهذه الوحدة أروع شاهد على قدرة الإسلام الفذة . . على بناء الشخصية المسلمة .

أن أفراح الميلاد لم تنس الوالد مستقبل الدعوة ودور هذا الوليد إرساء قواعدها .

إن الولد في تقديره يجيء إمتداداً لحياة تلك الدعوة التي منحته هو عناصر الحياة . . وها هو ذا يرد إليها الجميل مبتدئاً منذ اللحظة الأولى باسم يحمل طابع الفداء . ولون الدم . في سبيل الله .

ولا ينبغي أن تلهينا مظاهر العظمة في المشهد عن تتبع أصول هذه العظمة في نفس الصحابى « الزبير بن العوام » . . وكيف تربى صغيراً بمثل هذه الروح من قبل أمه . . فحقق الله رجاءها فيه :

« كانت صفية بنت عبد المطلب تربي ولدها « الزبير بن العوام » يتيماً . ومن تربيتها له « ما حدث به هشام بن عروة عن أبيه قال :

إن صفية كانت تضربه ضرباً شديداً ـ وهو يتيم ـ فقيل لها : قتلتيه . . خلعت فؤاده . . أهلكت الغلام .

قالت : إنما أضربه كي يلبّ[2] .

ويجز الجيش ذا الجلب »[3] .

---

(١) مجلة الأزهر رجب ١٣٩٤ .

(٢) يلب : يقوى ويشتد عوده .

(٣) الجلب : الأصوات الصاخبة ـ مجلة الأزهر رجب ١٣٩٤ .

فمع أن « الولد » هنا يتيم . . وعلى ما يفرضه اليتم من إغراقه بموجات من الحنان تعوضه فراق العائل .

إلا أن الأم الرءوم تضعه في البوتقة التي يخرج منها بطلاً :

ولم يكن ضربها المبرح إطفاء لنوازع الحسرة في نفسها على فراق الزوج .

تصبها على ولد قد يقف حائلاً دون استئناف حياة مع زوج غيره ؟ كلا . . ولكنها بالغريزة الأصلية . وبهذا الشعور البصير بعواقب الأمور . . ترى المستقبل القريب ينتظر ولدها . ومن ثم فهي تعده لتحمل تبعاته . وإذا كان الرجال من حولها تخور عزائمهم فلا تطاوعهم أيديهم على مثل هذا اللون من القسوة الحازمة . . فقد أقام الله صفية بنت عبد المطلب حجة عليهم بما منحها من صدق النظرة . . ونجاح التجربة . .

وهي ـ كما توهموا ـ لم تقتله . ولم تخلع فؤاده كما أنها لم تعرضه للهلاك .

ولكنها قتلت فيه عّوامل الدعة والاستسلام . . وصبت في قلبه الصغير من عزمها ما أعانه في المستقبل على تحمل مسؤوليته .

ونعم . . لقد عرضته مع بنيه للموت بهذه التربية . .

ولكنه الموت في سبيل الله تعالى .

وعندما يجيء الزبير بن العوام اليوم صورة لها فهو الشهادة التي ترتفع فوق مستوى الشك . . على قدرة الأم على أن تمتد آثارها عبر المستقبل . . وأنها لو فرغت نفسها لإعداد ولدها على هذا النحو المبارك . . لكان خيراً لها ولمجتمعها من جلسة هادئة خلف « المكتب » الوظيفي . . بينما أولادها هناك في دوامة الاهمال .

ولا يفوتنا أن نسجل بهذا الموقف لصفية بنت عبد المطلب دور المرأة العربية في ترقية الحياة بحسن تربية الولد .

ولم تكن هذه القسوة عاطفة سائدة في صلة الأم بولدها . . بل كان الحنان أيضاً وفي الوقت المناسب يفيض به قلبها عن طريق أغنيات ما زالت تتردد حتى اليوم شاهدة للمرأة باستجماعها لعناصر التربية اللازمة لنجاحها . . والتي لا بد منها لطفل يتطلع إلى الحنان غذاء يستوي به عوده . . ويصفو دمه فتزدهر صحته الجسمية والنفسية . وقد حفل تاريخنا بهذا اللون من الأغاني .

وأول ما نتمثل به من هذا النظم الجميل . والإيقاع الرشيق . الذي يشب

ـ الطفل وقد امتزج في لحمه ودمه بمكارم الأخلاق . وشريف الغايات قول الشيماء أخت النبي ﷺ من الرضاع وهي تغني له في طفولته وتلاعبه :

يا ربنا إبق لنا محمدا حتى أراه يافعا وأمردا
ثم أراه سيداً مسودا واعطه عزاً يدوم أبدا

وكانت أم الفضل زوجة عمه العباس ترقص ابنها عبد الله في طفولته فتقول :

ثكلت نفسي وثكلت بكري إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب العد وبذل الوفر

وكان الزبير بن العوام يرقص ولده عبد الله من زوجته السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه فيقول :

أبيض من آل أبي عتيق مبارك من ولد الصديق
ألذه كما ألذ ريقي

ولم تكن هذه الأغنيات الرقيقة في ترقيص الأطفال السعداء بين أيدي الأمهات وحجور الآباء قاصرة على الأبناء دون البنات . فمما يرويه الدكتور أحمد عيسى في كتابة « الغناء للأطفال عند العرب » قول أعرابي يرقص ابنته :

* فديت بنتي وفدتني أمها *

كما يروى أن أعرابية على عهد معاوية كانت ترقص ابنتها فتقول في سرورها بها :

وما هناك أن تكون جاريه تصلح بيتي وترد العاريه
حتى إذا بلغت ثمانيه زوجتها مروان أو معاويه

واليوم . . ماذا بقي لنا من هذه الأغنيات الحانية . والأمنيات الغالية التي كانت تنشدها الأمهات أنغاماً تختبىء في قلب الشمس ، وفي صدر الرياح وفي سمع الزمن ، حتى تدور الأيام ، ويكبر الأبناء ويتحقق الأمل .

لقد استحالت الرغبة في صحوة الطفل على أجنحة الشعر الرفيع من مهده إلى مجده ـ إلى رغبة أخرى مكتئبة ، مالت في عصور التخلف إلى قمع نشاط الطفل ، وتنويمه على الكلمات الفارغة ، فما دام يشبع بثدي أمه فلا بد أن ينام عن هموم أبويه . . ينام عن عصره وحاضره ومستقبله . .

في الريف ترشو الأم طفلها المغترب عن زمنه لينام . أنها ترشوه علناً بزوج من

الحمام ـ لا يزال طائراً في الجو ـ إذا ما أغرق في النوم . . وأما مدينة كبيرة كالقاهرة فالأم تتملق طفلها لكي يهدأ ، ويغمض عينيه ، ويسقط نائماً في غيبوبة طويلة . إنها لا تزال تغني له في الأحياء الشعبية مثل هذه الأصوات الحزينة التي نذكرها جميعاً . والتي تطلب إلى الطفل أن يأخذ « البزة » وينام ! ![1] .

لقد قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى :

﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾[2] .

المقصود هو : الصوت الحسن .

« وقال الطب الحديث :

إن الصوت الحسن يسري في الجسم . ويجري في العروق . فيصفو له الدم . ويرتاح له القلب . وتنمو له النفس . وتهتز الجوارح . ومن ذلك كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء قبل أن يصفو ويطرب »[3] .

وها هي ذي المرأة العربية المسلمة تسبق الطب الحديث إلى تقرير هذه القاعدة بل إلى تطبيقها ـ بهذه الأغنيات التي وجدت من وقتها وصفاء فطرتها ما يعينها على أن تكون خطأ أساسياً في منهاج التربية الإسلامية .

وإنها لتثبت أهميتها البالغة لتنشئة أولادها على أسس لا غنى له عنها . . في نفس الوقت الذي توقع في الإحراج كل أم معاصرة تتجاهل هذه الحقيقة التي درستها في الجامعة علماً . . حتى إذا انخرطت في الديوان لتعمل طول يومها . . خاصمتها عملاً وسلوكاً . . حين وازنت بين مستوى الأسرة الاقتصادي . ومستقبل ولدها النفسي والأخلاقي . فاختارت الأول . وتركت الولد للأعاصير تتقاذفه . . فلا يستقر على حال من القلق . . ولم تغن الفلوس عن إصلاح النفوس .

وهذا موضوع حديثنا فيما يلي :

## الرضاعة

أثبتت البحوث الصحية والنفسية اليوم أن رضاع الطفل على مدى عامين كاملين

---

(١) جريدة الأخبار ١٩٧٥/٢/٢٨ ـ للأستاذ أحمد موسى سالم .
(٢) سورة فاطر /الآية : ١ .
(٣) جريدة الأخبار ١٩٧٥/٢/٢٨ .

ضروري لينمو نمواً سليماً من الناحيتين : الصحية والنفسية . . وهو ما سبق الإسلام إلى تقريره في قوله تعالى :

**﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس إلا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾**[1] .

وتقرر الآية الكريمة عدة أمور :

١ ـ أن الأم أحق برضاع ولدها . وهذا الحق من الثبات بحيث لا ينبغي أن يكون محل نقاش . . كما تفيد الجملة الخبرية :

**﴿ والوالدات يرضعن ﴾** .

٢ ـ أن يتكفل الوالد بالرزق والكسوة في حدود طاقته .

٣ ـ جواز دفع الوليد إلى مرضعة غير أمه بحيث تكون مكفولة الرزق والرعاية أيضاً .

٤ ـ تختم الآية الكريمة بالأمر بالتقوى . . ولفت الأنظار إلى علم الله تعالى الكاشف عن خواطر النفوس . . الداعي إلى تكاتف الجهود ليخرج الوليد من بين المعارك الزوجية سليماً معافى .

* * *

*** لماذا كانت الأم أحق؟ :**

« قال السدى والضحاك وغيرهما :

أي هن أحق برضاع أولادهن من الأجنبيات .

لأنهن أحنى وأرق . وانتزاع الصغير إضرار به وبها »[2] .

وهذا من الناحية النفسية التي يحرص الإسلام على مراعاتها . والتي لا يفي

---

(١) سورة البقرة /الآية : ٢٣٣ .

(٢) القرطبي .

بحقها من الرعاية إلا الأم الرءوم . . وهو ما تقرره الدراسات الإنسانية .

جاء في جريدة الأخبار[1] .

« عندما يولد طفلك أسرعي إلى وضعه إلى الجانب الأيسر من صدرك . . ناحية القلب .

ومهم جداً أن يحدث ذلك في اليوم الأول :

لأن هذا الوضع سيساعد الطفل فيما بعد على الرضاعة . وعلى النوم . وعلى عدم البكاء وعلى النمو .

فإذا وضعنا الطفل إلى الجانب الأيمن من صدر الأم . فإنه لا ينام ولا يرضع بدرجة كافية :

فالطفل قد اعتاد وهو في بطن أمه أن يستمع إلى هذه الموسيقى الخالدة :

دقات قلب الأم . فهو يتحرك وينمو على صداها . فإذا خرج من البطن فإن هذه الموسيقى ترد إليه الأمان .

ومن المهم جداً أن تعرف الأم أن اليوم الأول الذي تضم فيه طفلها إلى صدرها هو أهم يوم في حياة الطفل الذي اعتاد على موسيقاها وهو جنين . وفي حاجة إلى موسيقاها وحرارتها . بعد ذلك آمنت بحكمة الله في كل شيء » .

* * *

*** اللبن للأم وليس للأب:**

وإذا تعود الجنين على استماع دقات قلب أمه . . وكانت مصاحبتها له بعد الولادة ابقاء له في جو ألفه من قبل . . فإن قيامها . بإرضاعه أيضاً يأخذ نفس الأهمية . . من حيث كان غذاؤه وهو في بطنها من كيانها . . ومن المفيد أن يظل غذاؤه بعد الميلاد . . من لبنها لتمضي حياته على نسق واحد . . بلا اضطراب .

يقول القرطبي :

« واللبن من المرأة ولم يخرج من الرجل . وما كان من الرجل إلا وطء وهو سبب لنزول الماء منه .

وإذا فصل الولد . خلق الله اللبن من غير أن يكون مضافاً إلى الرجل بوجه ما .

---

(١) بتاريخ ٢٨/٦/١٩٧٣ من مقال للكاتب أنيس منصور .

ولذلك لم يكن للرجل حق في اللبن . وإنما اللبن لها » .

وإذ يحمل الإسلام الوالدين مسؤولية تنشئة الطفل على أسس صالحة . . فإن الأم تتحمل نصيبها الأوفى من هذه المسؤولية . . لما سبق . . ولما يقرره الدين والعلم من الأهمية القصوى للبن الأم في أعقاب الولادة . . وهو ما يسمى « المسمار » .

وقد سبق الإسلام إلى تقرير هذه الحقيقة المهمة فيما يقول ابن كثير تفسيراً للآية الكريمة :

﴿ **لا تضار والدة بوالدها** ﴾ أي لا تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته .

ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه « اللبن » أول ما يحلب عند الولادة الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت ولكن إذا كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك » .

وقد اهتدى الطب الحديث إلى تقرير أهمية لبن المسمار في قول الدكتور محمد يونس :

« ومن المعروف أنه قبل ادرار اللبن ينزل سائل أصفر « لبن المسمار » مفيد جداً للطفل من حيث تغذيته وتليين أمعائه »[1] .

وفي بيان أكثر تفصيلاً يقول :

« فوائد لبن المسمار وبخاصة في الأيام الأولى كثيرة جدّاً :

١ ـ يلين أمعاء الوليد .

٢ ـ يحتوي على نسبة لا بأس بها من الأجسام المضادة للميكروبات .

٣ ـ له قيمة غذائية كبيرة من حيث البروتين .

والغريب أن تكوينه بما يحويه من نسبة من البروتينات يتفق مع قدرة الوليد على الهضم في الأيام الثالثة الأولى من ولادته »[2] .

وربما كان ذلك كاشفاً عن مدى الصلة العضوية بين الأم ووليدها حتى لا تتركه

---

(١) مجلة طبيبك الخاص أغسطس ١٩٧٣ .
(٢) الأهرام ١٩٧٤/٣/٢٤ بتصرف .

لغيرها . كما أن اهتداء الطب الحديث إلى هذه الحقيقة الإسلامية ـ وما أصدق ما يقرر الإسلام ـ يفرض على الباحثين استلهام روح الإسلام في كل ما يتعرضون له من أبحاث . وسوف يمنحهم الدين من لدنه شعاعاً كاشفاً يبصرهم بأقوم طريق لإعداد جيل المستقبل . . في الوقت الذي يحسون فيه بالزهو إزاء ما يقرره الإسلام من حقائق . . ينسبها الباحثون إلى غير مصدرها بينما هي بنت الإسلام . . ولا أب لها سواه .

فالقاعدة إذن أن ترضع الأم وليدها . . وما عدا ذلك فهو الاستثناء . وفي الآية دليل عليه . فيما إذا إتفق الوالدان على ذلك . شريطة أن يفي الطرفان بكل التزاماتهما تمهيداً لإعداد الطفل بعيداً عن المشكلات التي تترك آثارها عليه حتماً .

* * *

*** خصائص لبن الأم:**

تعبر آية البقرة عن الأمهات بلفظ ﴿ **الوالدات** ﴾ . إثارة لغريزة الأمومة . واستنهاضاً لهمة ينبغي ألا تغفل لحظة واحدة عن وليدها . لأنه جزء منها . وعن الصلة الوثيقة بين الأم وولدها . يقول سبحانه في سورة الحج :

﴿ **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت . .** ﴾[1] .

فقد ذكر الأم بوصف الإرضاع الذي يمثل قمة الترابط بينهما . . وأن هذا الترابط لا تخف حدته بحال إلا ساعة العسرة . وحين يفر المرء بنفسه من أهوال يوم القيامة .

وإذا كان القرآن الكريم يلفت النظر بقضاياه العامة لينطلق الفكر باحثاً عن حكمة التشريع . . يقترب منها وإن لم يسبر غورها . . فإننا ـ وفي هذا الموضوع بالذات ـ نتجه إلى الطب الحديث نستفتيه ليقف بنا على أسرار لبن الأم . وأهميته في تكوين شخصية الطفل . . وما في الرضاعة الطبيعية من مصلحة تعود على الولد والوالدة معاً .

وفي حديث مع الأستاذ الدكتور فتحي الزيات رئيس قسم الفزيولوجيا بكلية الطب جامعة الأزهر :

---

(١) سورة الحج /الآية : ٢ .

أبان سيادته أن لبن الأم يفوق الألبان الحيوانية والألبان الصناعية من زوايا عديدة منها ما يلي :

١ ـ أن لبن الرضيع يحتوي على نسب متوازنة من غذاء الرضيع تتلاءم مع احتياجاته . وتلتقي مع احتياجات الرضيع في فترات الرضاعة المختلفة متمشية مع نموه .

٢ ـ أنه يحتوي على مواد « بروتينية » تكسب الرضيع قوة ومناعة ضد بعض الأمراض التي تحصنت منها الأم في الشهور الأولى من عمره .

٣ ـ أن هذا اللبن لا يتعرض للتلوث . حيث أنه يخرج من الأم إلى الطفل مباشرة .

٤ ـ أنه يقرب الاتصال النفسي بين الأم والطفل الرضيع . وبهذا ترسخ عاطفة الأمومة والبنوة بالرباط المتين الصادق الصحيح .

٥ ـ أن لبن « المسمار » الذي تفرزه الأم في الأيام الأولى من الرضاع يعمل على تنشيط الأمعاء لدى الطفل . فيحدث اللبن المناسب لدى الطفل ويساعد على عملية الاخراج الطبيعية .

٦ ـ وأما من ناحية الأم :

فإن عملية الرضاع تعجل وتستكمل عملية عودة الرحم إلى حجمه وحالته الطبيعية .

ومما سبق : يتبين بكل جلاء ووضوح إن الرضاعة لها أهمية كبرى لحماية الأم والرضيع من الوجهة الطبية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية .

ومن هنا يكون الحرص على سلامة الأم في هذه الفترة حرصاً على الرضيع ذاته . وتوفيراً للمناخ الملائم تمام الملاءمة لنموه الطبيعي »[1] .

وكيف لا وهو تدبير الله سبحانه الذي نؤمن به وبدينه وما جاء به مما يصلح به أمر الإنسان وهو ما أكده ويؤكده البحث العلمي المستنير .

ويمكننا بعد ذلك أن نقول : إن إرضاع الأم ولدها عامل مهم يعقد بينهما أوثق

---

(٢) د. محمد الأحمدي أبو النور ـ منهج السنة في الزواج ٤٢١ وما بعدها .

الروابط . . وبالتالي يمهد الطريق إلى أسرة متماسكة قوية البناء فالأم بذلك ذات دور خطير .

فإذا ما تحملت مسؤوليتها في رضاعته ونظافته . ساعدت في إعداده روحياً ومادياً على نحو يمكنه من التدين الصحيح . . والتعامل مع الناس في الإطار السليم الذي رسمه الإسلام .

ولعل مسؤوليتها تلك هي التي رفعت منزلتها . وجعلت لها على الولد من الحقوق ما ليس لأبيه .

وإذا كان من حق الأم شرعاً أن تتخلى عن إرضاع ولدها . . فإن من واجب الأب أن يتولى الإنفاق عليها ليصبح ارضاعها أمراً ممكناً . . ولازماً في نفس الوقت . . ويحرص الإسلام على ذلك حرصه على مستقبل الرضيع . . إلا إذا وجد الزوج في ذلك خطراً على صحة زوجته أو جمالها . . فإن الأمر حينئذٍ يخضع لمصلحة البيت بعامة :

وفي مثل هذه الظروف تتبدى حكمة الإسلام الذي لا يرى مانعاً من الحفاظ على صحة الأم هنا . . لا تهاونا بأمر الطفل . . بقدر ما هو صيانة للوالد أن يحس بالفراغ . في جوار زوجة لا تملؤه . وما قد يترتب على ذلك من تطلع إلى سواها . الأمر الذي تكون له آثاره على الولد حتماً في بيت أبيه مع زوجة أخرى . أو مع أمه إذا ما حدث الطلاق .

وإذا كانت استشارة الطبيب المسلم الحاذق مبدأ معمولاً به في مجال التشريع . . فإنه بالإضافة إلى ما سبق من بيان امتياز لبن الأم وبالتالي أهمية توليها عملية الإرضاع ـ يمكننا أن نضيف إلى ذلك ما يقرره الطب من ضرورة عناية الأم بغذائها :

إن لبن الأم نعمة كبرى تنال الأم والولد معاً . ومن واجب النعم أن تقابل بالشكر . وأعلى صور الشكر لنعمة الله تعالى أن تباشر على نحو يحقق الغرض منها . بأن تحافظ المرضعة على مستوى غذائها لينتقل إلى ولدها عصارة صالحة لغذائه وفي ذلك يقول الدكتور محمد سمير يونس :

« لبن الأم مهم جداً بالنسبة للطفل الرضيع . بل هو نعمة من نعم الله على كل

مرضعة . وحتى تحافظ عليه فإنه يلزمها غذاء معتدل . به كميات كافية من البروتينات والدهنيات )[1] .

وتلك مسؤولية الأب المكلف بتوفير الغذاء لها ليعود إلى ولده مستجمعاً لكل عناصره .

ثم يقول في نفس المقال :

ويجب حتى يظل ادرار اللبن مستمراً أن تبتعد الأم عن القلق والخوف والإنفعال والاضطراب النفسي .

فإن هذا من شأنه أيضاً أن يؤثر على كمية اللبن » .

فأنت ترى الطب الحديث يحرص على جيل المستقبل فيضع الضوابط الكفيلة بتحقيق سعادته . . وذلك فيما يوصي به من القواعد الآتية المرتكزة على منهج الإسلام :

١ ـ ضرورة قيام الأم بإرضاع ولدها .

٢ ـ أن تتم عملية الرضاع بنظام دقيق .

٣ ـ توفر العناصر الكافية لغذاء الأم . . تمهيداً لتلبية احتياجات الطفل الجسمية .

٤ ـ ضرورة الحفاظ على الإتزان العاطفي لينشأ الطفل سليم الجسم معتدل المزاج .

* * *

*** مدة الرضاعة :**

يقول سبحانه وتعالى :

**﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾**[2] .

ولقد نستنتج أن الوصول بالرضاعة إلى تمامها مبدأ شرعي . وهو وثيق الصلة بصحة الطفل . حيث يأخذ حقه من هذا الغذاء في المدة التي يكون مفيداً له . . وهي تمام الحولين .

---

(١) مجلة طبيبك الخاص أغسطس ١٩٧٣ .

(٢) سورة البقرة /الآية : ٢٣٣ .

وإذا ثبت أن لبن الأم أنفع له فإن نزعه من ثدى أمه في وقت مبكر حفاظاً على نضارة الأم مثلاً واستغناء بغذاء مجلوب . تقصير في حقه وعزل له عن مصدر قوته ومنعته . في وقت تنمو فيه أعضاؤه . وتتشكل طباعه .

ولأن لبن الأم عامل مهم خلال هذه المدة ارتبط به التحريم دون ما يحدث بعد ذلك :

« عن ابن عباس قال :

قال رسول الله ﷺ : « **لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين** »[1] .

و « **لا رضاع إلا ما كان في الحولين** »[2] .

والأمر أولاً وأخيراً موكول إلى تقدير الوالدين واجتهادهما في إطار توجيه الإسلام توخياً لصحة الولد :

وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك في قوله سبحانه : ﴿ **لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ فتمام الرضاعة وكمالها المحقق غرضها أن تكون حولين كاملين . . فإذا رؤي اختصار المدة فمن مصلحة الطفل أيضاً :

« فمن الأطفال السريع النمو . الذي يستغني عن اللبن بالطعام اللطيف قبل تمام الحولين بعدة أشهر . ومنهم القمىء البطيء النمو . الذي لا يستغني عن ذلك »[3] .

وهذا موافق لما ذكره الخطيب الشربيني في قوله تفسيراً للآية الكريمة :

« هذا منتهى الرضاع . وليس فيما دون ذلك حد محدود . إنما هو على مقدار صلاح المولود وما يعيش به » .

ولأن الأمر يجري على قدر . ويستهدف غاية هي صحة الطفل . . فإن الزيادة في الرضاعة كالنقص فيها . كلاهما يضره . وقد ذكر ابن كثير :

« أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد في بدنه أو عقله .

وقد قال سفيان الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة :

---

(١) رواه ابن كثير .

(٢) زاد المعادج ٤/١٦٧ .

(٣) تفسير المنار ص: ٣٢٥ .

أنه رأى إمرأة ترضع بعد الحولين فقال : لا ترضعيه »[1] .

وما زال أهلنا في الريف يضيفون إلى بعض الغلمان صفات معينة . . يردونها إلى مدة رضاعة .

على أن تنظيم عملية الرضاعة وثيق أيضاً بمستقبل الوليد . . لأنه أخذ له منذ أيامه الباكرة بحب النظام . . يكون في النهاية مدخلاً إلى ربطه بالحياة على نحو جاد يفطمه عن كثير من شهواته . ويلقي في روعه من أول لحظة معنى الحياة الجادة المستقيمة . . ومن خلال ذلك تتكون عاداته التي سيتعامل بها مع مجتمعه .

فإذا أساءت الأم استعمال وظيفتها تلك . . فاستخدمت الرضاعة لكفه عن عمل ما . . كان ذلك سبيلاً إلى اهتزاز بنيانه الأخلاقي بعد . .

يقول الدكتور مصطفى فهمي ـ نقلا عن الدكتور المليجي :

« يجب تنظيم الرضاعة . . والتنظيم يقتضي ألا نقدم الثدي للطفل حسب طلبه . أو حين نريد إسكاته عن البكاء لسبب غير الجوع . لأن معنى ذلك أن نعوده على أن يتخذ البكاء وسيلة لإشباع رغابته . ومن ثم يتعلم العناد »[2] .

* * *

* **الظئر**[3] :

بعد أن قال الإسلام كلمته مؤكداً أهمية إرضاع الأم وليدها . . وبعد أن كشف العلم الحديث عن فوائد ذلك . . يحق لنا أن نتساءل :

هل يجوز أن يجلب للطفل مرضعة أخرى غير أمه ؟

يقول القرطبي :

« في الآية دليل على جواز اتخاذ الظئر إذا وافق الآباء والأمهات على ذلك . . والأصل أن كل أم يلزمها رضاع ولدها كما أخبر الله عز وجل . فأمر الزوجات بإرضاع أولادهن . وأوجب لهن على الأزواج النفقة والكسوة والزوجية قائمة .

---

(١) ابن كثير ص : ٣١٨ .

(٢) سيكولوجية الطفولة والمراهقة ص : ٤٣ .

(٣) الظئر ـ بكسر الظاء وسكون الهمزة : الناقة تعطف على ولد غيرها . ومنه قيل للمرأة الأجنبية تحضن ولد غيرها : ظئر . وللرجل الحاضن ظئر أيضاً والجمع أظآر مثل حمل وأحمال (المصباح المنير) .

إلا أن « مالكاً » رحمه الله . دون فقهاء الأمصار استثنى الحسيبة فقال : لا يلزمها رضاعه . فأخرجها من الآية الكريمة وخصصها بأصل من أصول الفقه وهو : العمل بالعادة . وهذا أصل لم يتفطن له إلا مالك .

والأصل البديع فيه :

أن هذا أمر كان في الجاهلية في ذوي الحسب . وجاء الإسلام فلم يغيره . وتمادى ذوو الثروة والأحساب على تفريغ الأمهات للمتعة بدفع الرضاع للمراضع إلى زمانه . فقال به وإلى زماننا فتحققناه شرعاً » .

وما ذهب إليه الإمام مالك لا ينبغي أن ينسينا واجب الرعاية للطفل وتقديم مصلحته على المتعة الشخصية .

وما يحققه الزوج من فائدة لولده أربى في ميزان العدل من إيثاره متعة تزول سريعاً .

* * *

*** الدقة في اختيار المرضعة :**

إذا كانت الأم تحب ولدها بفطرتها . . ولا تحس بكلفة أو معاناة حين تبذل في سبيله من جهد ووقت .

فإن الأمر يختلف حين يعيش في أحضان امرأة أخرى غير أمه .

ومعلوم أن دفع الوليد إلى مرضعة أجنبية إجراء هو استثناء من القاعدة . ومن هنا كان لا بد من الدقة في إختيار الأجنبية التي تفرض عليها الظروف أن تتحمل مسؤولية إرضاع طفل لا يعينها طبعها على التجاوب معه . على مستوى الأم الحقيقية .

يقول الإمام الغزالي :

« ينبغي أن يراقبه ـ أي ولده ـ من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا إمرأة صالحة متدينة . تأكل الحلال .

فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه .

فإذا وقع عليه الصبي انعجنت طينته من الخبث ـ فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث»[1] .

---

(١) الإحياء ج ٧١/٢ .

ويعبر الإمام بهذا القول عن وجهة النظر الإسلامية في حسن استقبال الوليد . وبخاصة في هذا العمر الباكر . لما للحركة اليسيرة من أهمية في تكوين شخصيته .

فليقدم الوالدان لطفلهما بتناسي خلافاتهما . . وإذا جاء لهما دفع الوليد إلى أخرى . . فإن ذلك يجيء بعد أن يستحيل قيام الأم بدورها لأسباب فرضها النزاع الطارىء . . على أن يكون معلوماً أن ذلك إجراء استثنائي كما قلنا . . ينبغي أن يتوقاه الأبوان . . اللذان يهز القرآن ضميريهما في آية أخرى مبيناً أن تغليب الشقاق على مصلحة الولد لن يتركه وحيداً . . بل أن إمرأة أخرى لم تلده . . سوف تقوم بإرضاعه . . كما يفهم من قوله سبحانه وتعالى :

**﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فأتوهن أوجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾**[1] .

يقول الزمخشري في تفسيره للآية الكريمة :

« وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك . تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم » .

وإنما اتجهت المعاتبة إلى الأم بخاصة لإرتباطه العضوي بها وكون اللبن ـ وهو غذاؤه من ذاتها وليس من قبل الأب .

الأمر الذي يفرض عليها تخطي كل عقبة . من أجل أن يظفر ابنها برعايتها . ويتغذى بلبنها .

إن حاجة الطفل إلى أمه . . لا تقتصر على توفير الغذاء . . فله أيضاً حاجته إلى الأمن والحب والاستقرار . عن طريقها .

فإذا لم تسمح الظروف بذلك وتعين دفع الرضيع إلى مرضعة أخرى . . فإن الإسلام لا يتركه للظروف المتقلبة . بل هو دائماً مع الوالدين بالتوجيه والترشيد . . ذلك . ليمكن التوفيق إلى مرضعة تتمتع بخصائص إنسانية تملأ الفراغ الناشىء عن فقدان الأم أو تكاد :

فقد يكون ابن الظئر ـ المرضعة ـ غير مناسب له . . بأن كان في مرحلة أكبر من

---

(١) سورة الطلاق /الآية : ٦ .

سنة أو أصغر . . وحينئذٍ لا يحقق غرضه في تكوين بنيته على أكمل وجه :

وقد نبه العلماء إلى ذلك . . كما جاء في تفسير المنار معللاً أهمية بقاء الوليد في أحضان أمه :

« لأن لبن الأم أنفع للوليد من لبن الظئر . وخاصة إذا لم يكن ولد الظئر في مثل سنه »[1] .

ومن ناحية أخرى فإن نسبة الحنان اللازم لصحة الطفل لا تكون بالقدر المناسب . . بالإضافة إلى قصره على رضاع وجبات من لبن آخر غريب لم يألفه من قبل .

وتوفيراً لهذا الحنان المطلوب يوصي الإسلام بحسن معاملة المرضع حفاظاً على مزاجها . وطلباً لرعايتها الكاملة .

« لأن المرضع إذا لم تعامل المعاملة الحسنة المرضية بأخذ أجرها تاماً لا تهتم بمراعاة الطفل . ولا تعني بإرضاعه في المواقيت المطلوبة . وبنظافته . وسائر شأنه .

وإذا أوذيت يتغير لبنها . . فيكون ضاراً بالطفل »[2] .

وتغير مزاج المرضع بالغضب أو الحزن وتأثيره في خلق الولد . . يفسر كيف كان الإسلام أشد تحذيراً . . وأشد سهماً . . حين يوصى باختيار المرضعة الصالحة العادلة . . ليمكنها أن تكون مصلحة له . . وأن تعدل في معاملته بعد أن يعتدل ضميرها . ولقد « نهى رسول الله ﷺ أن تسترضع الحمقى فإن اللبن يشبه - أي يورث - شبها بين الرضيع والمرضعة . وعند ابن حبيب « يعدي » بدل يشبه . إذ العادة جارية أن الرضيع يغلب عليه أخلاق المرضعة من خير وشر .

ومن حديث ابن عباس : « الرضاع يغير الطباع » أي يغير الصبي عن لحوقه بطبع والديه إلى طبع مرضعته لصغره . ولطف مزاجه . والمراد : حث الوالدين على توخي مرضعة طاهرة العنصر . زكية الأصل ذات عقل ودين . . وخلق كريم »[3] .

فإذا وجدت بهذه الخصائص كان ذلك زاداً كريماً من الأخلاق يعوضه ما فات

(١) المنار ص : ٣٢٥ .
(٢) المنار ص : ٣٢٩ .
(٣) المواهب اللدنية ج ٧/ ١٨٩ .

من حدب الوالد . وحنان الأم . قبل أن يجرفه التيار بعيداً عن أمه وأبيه فلا يكون امتداداً لحياتهما .

وللإمام محمد عبده كلام مفيد نثبته هنا ، قال :

« جاء الأمر الإلهي بإرضاع الأمهات أولادهن على مقتضى الفطرة .

فأفضل اللبن للولد لبن أمه بإتفاق الأطباء .

أي لأنه تكون من دمها في أحشائها . . برز إلى الوجود تحول اللبن الذي كان يتغذى منه في الرحم إلى لبن يتغذى منه في خارجه . فهو اللبن الذي يلائمه ويناسبه .

وقد قضت الحكمة بأن تكون حالة لبن الأم في التغذية ملائمة لحال الطفل بحسب درجات سنه ولذلك كان مما ينبغي أن يراعي في الظئر أن تكون سن ولدها كسن الطفل التي تتخذ مرضعا له .

وقال الأستاذ الإمام :

إن لبن المرضع يؤثر في جسم الطفل . وفي أخلاقه وسجاياه . ولذلك يحتاط في انتقاء المراضع . ويجتنب استرضاع المريضة والفاسدة والأخلاق والآداب .

ولكن لا يخشى من لبن الأم وإن كان بها علة في بدنها أو في أخلاقها . لأن ما يأخذه من طبيعتها فإنما يأخذه وهو في الرحم . فاللبن لا يزيده شيئاً وهذا الذي قاله هو الأصل .

وهو لا ينافي أن تمنع الأمهات من الإرضاع أحياناً لسبب عارض في البدن أو النفس وهذا نادر . وأما التدقيق في صحة المرضع وفي أخلاقها فيجب أن يكون مطرداً إذا كانت ظئراً لا أما . قال :

اللبن يخرج من دم المرضع ويمتصه الولد فيكون دماً له ينمو به اللحم . وينشر العظم . فهو يشرب منها كل شيء من حسن وقبيح .

وقد لوحظ أن من يرضع من الأتان يغلظ قلبه . وكذلك لبن كل حيوان يؤثر على حسب حاله . ولكن حياة الإنسان نفسية عقلية أكثر مما هي بدنية . فجسمه مسخر لشعوره وعقله .

لذلك كان تأثير الانفعالات والصفات من المرضع أشد من تأثير الصفات البدنية . وقد لاحظنا أن صوت المرضع قد ظهر في الولد الذي كانت ترضعه .

فكيف بآثار عقلها وشعورها وملكاتها النفسية ؟ وقد نبه الفقهاء على هذا المعنى وحكاية إمام الحرمين فيه معروفة »[1] .

* * *

*** اللبن الصناعي:**

هل يمكن أن يصير اللبن الصناعي بديلاً للبن الأم ؟

سؤال يفرض نفسه . .

ومع وضوح وجهة نظر الإسلام الداعية إلى توخي مصلحة الطفل . . إلا أننا مضطرون إلى الاستفادة بما وصل إليه بعض الباحثين في هذا المجال على سبيل الاستئناس أولاً .

وثانياً لأن الحجة تقوم على المقلدين من جهات يثقون بها . . إذ الدليل ينهض من قبل كتاب عصريين تقدميين . . لو نسبت أقوالهم إلى من يمثلون وجهة النظر الإسلامية لكانت الرجعية أبسط التهم !

وسوف نبدأ بموضوع التغذية الصناعية . . وهل تصلح بديلاً يغطي احتياجات الطفل .

وفي الإجابة عن هذا السؤال نقرأ نداء صادراً عن هيئة الصحة العالمية تقول فيه :

« على كل أم أن تقوم بإرضاع طفلها . لأن لبن الأم أفضل للطفل . وأنه يخفض نسبة الوفيات بين الأطفال . ويقدم إلى العالم أجيالاً ذات صحة ممتازة »[2] .

ثم عززت الهيئة نداءها محذرة : أن التغذية الصناعية ستكلف العالم أثماناً باهظة فضلاً عن أنه يجفف المنبع الأصيل الذي أسالته القدرة الإلهية في كيان المرأة :

« تحذير للأمهات من التغذية الصناعية للأطفال . . لا يوجد بديل كامل يعوض عن لبن الأم » :

---

(١) راجع تفسير المنار للآية الكريمة ص: ٣٢٩، ٣٣٠ .

(٢) الجمهورية ١٩٧٣/٣/٨ .

حذرت هيئة الصحة العالمية من الاعتماد على التغذية الصناعية لـلأطفال . أكدت الهيئة أنه لم يتم حتى الآن[1] التوصل إلى غذاء للأطفال يساوي في قيمته الغذائية والصحية لبن الأم .

وقالت الهيئة أن الرضاعة الطبيعية هي أفضل طعام الرضيع لقيمتها الغذائية . وكوسيلة للوقاية من الأمراض .

وأعلنت أن ظاهرة الانصراف عن الرضاعة الطبيعية قد بدأت في العالم الغربي . وانتشرت في البلدان النامية . وأصبحت مشكلة من المشكلات الكبرى . لأن لبن الأم غذاء فريد وغير ممكن تقليده . ذكرت الهيئة أنه نتيجة للتحول الشديد في الرضاعة الصناعية . فإن على الدول النامية أن تستعد لمواجهة مشكلات التمويل القومي ، وتدبير النقد الأجنبي اللازم للتغذية الصناعية للأطفال .

كما يجب على العالم أن يبحث عن الوسائل اللازمة لزيادة الإنتاج كبديل للبن الأم يكون غنياً بالبروتين .

وأشارت الهيئة إلى أنه إذا حدث أن توقفت جميع سيدات القارة الآسيوية ـ على سبيل المثال ـ عن إرضاع أطفالهن رضاعة طبيعية فإن معنى ذلك أنه لا بد من تدبير قطيع من ماشية الألبان يبلغ ١١٤ مليون رأس لتمويل النقص في تغذية الأطفال بصورة كافية .

وقالت الهيئة : « إن نصف أطفال العالم يعانون من سوء التغذية بخاصة في السنة الثانية من العمر خلال فترة الفطام .

وكثيرون منهم مصابون بالأمراض المميتة . ويرجع السبب في ذلك أساساً إلى نقص « البروتين » والسعرات الحرارية وغيرها من المواد المغذية بما في ذلك المعادن والفيتامينات . وجميع هذه المواد تتوافر في لبن الأم الذي لم يتوصل العالم حتى الآن إلى إنتاج غذاء يعادله »[2] .

* * *

---

(١) .. وبعد الآن كما يفيد التقرير نفسه من تفرد لبن الأم بفائدة لا تعوض .
(٢) الجمهورية ١٥/١٠/١٩٧٤ .

* خطر الموت :

ويحذر الدكتور أحمد قطب مدرس طب الأطفال بكلية طب قصر العيني فيقول :

« إلى وقت قريب كانت هناك مشكلة الأطفال الذين يفاجئهم الموت . دون سابق إنذار . وقد ظل الأطباء يبحثون عن علة هذه الظاهرة لسنوات . إلى أن اكتشفوا ان سببها هو التغذية الصناعية »[١] .

وفي هذا العام :

١ ـ اختارت هيئة الصحة العالمية موضوع الغذاء شعار يومها العالمي لهذا العام . . . والشعار هو :

« غذاء أفضل . . من أجل حياة أوفر صحة . . » .

وقد قدم دكتور « إديدالي » أستاذ التغذية بجامعة أبادان بنيجيريا بحثاً رائعاً عن أهمية الرضاعة في مأساة التغذية بالشرق الأوسط حيث أن لبن الأم هو الغذاء الطبيعي المتكامل المتاح للطفل في شهور حياته الأولى . . والذي يمكن أن يحمي الطفل من مشكلات عديدة . . ولكن اتجاه الأم إلى العمل وتقليدها لنساء الغرب . . ولنساء الطبقة المرفهة جعلها تنبذ الرضاعة الطبيعية . . وتحاول الأخذ بالرضاعة الصناعية مما جعل الطفل أكثر عرضة لأمراض سوء التغذية . وإن وجد من جانب آخر العقاقير التي تنقذ حياته . .

والنتيجة :

حياة معتلة جسمياً وعقلياً »[٢] .

وقد يكون من المفيد أن نوجز بحثاً قامت بإعداده محررة بالأهرام في ١٩٧٤/٣/٢٤ تزداد به حجة الحق وضوحاً .

والتحقيق بعنوان :

« ظاهرة تواجه الأم العاملة المصرية :

طفلها لا يجد الآن لبناً طبيعياً يرضعه . لماذا ؟ وما هو الحل الذي يمنع شبه كارثة للطفل والأم معاً » ؟

تقول :

هل هو زواج المرأة العاملة في سن متأخرة ؟

---

(١) الجمهورية ١٩٧٤/٤/٦ .

(٢) الجمهورية ١٩٧٤/٤/٦ .

هل هو تعقيد الحياة اليومية ؟

أم يكمن في حيرتها وربكتها أثناء العمل على طفلها ؟

وهل هو سوء المواصلات وأثره في الأعصاب . أم أن السبب : كل هذه العوامل مجتمعة ؟

ثم تواصل الحديث فتقول :

« إن المرأة ترضع طفلها من خلال عقلها ـ ومعنى ذلك :

أن الحالة النفسية كما يقول الدكتور « فاروق قورة » أستاذ طب الأعصاب بجامعة القاهرة . . تعتبر عنصراً أساسياً لنجاح الرضاعة .

وطبعاً . الأم العاملة العصرية . . تنام وتقوم وسط متاعب الحياة . والوظيفة . وتبدأ من الصباح يومها . وبسبب متاعب العمل . والعودة والذهاب للعمل . ينتهي الأمر بجفاف اللبن نهائياً .

والضحية طبعاً . . هو الطفل ؟

وإذا لجأت إلى المهدئات . وبخاصة بعد الولادة وفي أعقاب الحمل . وإرهاقه المضاف لمتاعب العمل . ترك ذلك أثره على الطفل .

كما نقلت المحررة مثل ذلك عن الدكتور محمد سمير يونس رئيس قسم أمراض النساء بقصر العيني .

مثلاً « كثير من الأدوية المنومة تفرز في لبن الأم . مما يؤدي إلى خمول الطفل . وبالتالي لا يستطيع امتصاص اللبن من ثدي الأم طبيعياً . مما ينقص كمية اللبن حتى يجف تماماً » . ثم تنقل عن الدكتور نبيل يونس قوله :

١ ـ الضوضاء من أسباب قلة إدرار اللبن . ثم جفافه إن زادت . بينما النغمة المريحة تساعد في إدراره .

٢ ـ الوجود في مكان مغلق مدة طويلة يقلله أيضاً ! . .

وهكذا يدورون حول المشكلة ، وتخونهم الشجاعة الأدبية فلا يواجهونها بما يليق بها من حزم .

إنهم يزعمون أن العمل . . أي عمل حق مشروع للمرأة . . وعلى هذا يقترحون . .

لكنهم لا يصلون إلى حل حاسم . . لأنهم يستعبدون الإسلام وهم يحددون طبيعة عمل المرأة وأهدافها . . وقد يفصحون أحياناً فيرمون الإسلام بتهمة عزل المرأة عن الحياة الجادة . . ويجب أن يعلموا أن الإسلام يرفض العمل الذي يذهب بصفاء الأسرة وأمنها وسلامة أطفالها .

فمستقبل الأولاد أثقل في ميزانه من كل اعتبار ولو كان هو زيادة الدخل المزعوم .

لقد كسبت المرأة العاملة ثروتها . . ولكنها خسرت نفسها . وكان مثلها كمثل التاجر الذي يملك ثروة تقدر بألوف الجنيهات .

لكنه مدين للآخرين بالملايين ؟

وهذه الحكم التي يقررها الإسلام . . لا نقدمها للمعاندين والمعاندات . . إن الحكمة تنبت في الأرض السهلة . . وليس على الحجر الأصم . .

ومن هنا فنحن نقدم النصيحة للأرض السهلة . . المستعدة للإنبات .

ونصيحة أخيرة نسوقها بعد أن قررها الطب الحديث كما جاء في التحقيق الآنف . . تكشف عن : كيف تتم عملية الرضاعة . . بشكل يبين جناية المرأة على نفسها وولدها حين تواصل عنادها وتدير ظهرها للحق والواقع :

« إن الأم ترضع من ثديها خلال عقلها :

فبعد الولادة مباشرة وخروج المشيمة . . تقل فجأة نسبة الهرمونات التي كانت تفرزها المشيمة أثناء الحمل .

وينتج عن ذلك تنبيه الجزء الأمامي للغدة النخامية في قاع الجمجمة فتفرز هرمون البرولاكتين الذي يساعد على إدرار اللبن . ثم يأتي بعد ذلك دور الطفل المولود :

فإن عملية الامتصاص التي يقوم بها تنبه أعصاب الثدي . . وهذه بالتالي تؤثر في مراكز الحس بأسفل المخ فتنبه الجزء الخلفي من الغدة النخامية الذي يفرز هرموناً يسمى الأكسيتوسين الذي يسير في الدم إلى الثدي فيؤدي إلى انقباض الحويصلات والقنوات التي تحتوي على اللبن فيخرج إلى فم الطفل .

كيف يمكن إذن مع كل ما تعانيه الأم العاملة من قلق أن تمضي عملية الإرضاع خلال عقلها بطريقة سليمة » .

ومن تدبير الله سبحانه وتعالى أن تعلن المدنية الحديثة والمفتونون بها إفلاسها لتكون في ذات الوقت شاهد صدق على سلامة المنهج الإسلامي في إعداد البيت وصلابة الدعامة التي يقيمه عليها . . بحيث تكون نهاية المطاف أن نستمسك بالعروة الوثقى بعد أن شهد شاهد من بني إسرائيل على أهله !

لقد دافع إبليس عن نفسه أمام الله تعالى فقال :

**﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾**[1] .

وعلى هذه النظرة المادية للإنسان أقامت الوثنية نظرتها إليه وعلى أساسها أيضاً قامت الحضارة الغربية التي تتعامل مع الطفل على أنه كائن عضوي . . مادي مجرد من الخصائص الروحية المتطلعة إلى الاشباع .

ومن ثم تقاصرت نظرتها إليه . . فكان كل همها أن توفر له حاجاته العضوية بما استحدثت من أمور صناعية . . ومنها ذلك اللبن الصناعي الذي حسبته غاية المراد في تنشئة الطفل . . وكما نظر إبليس إلى آدم على أنه حفنة من تراب . . وكذلك تعامل الغرب مع الوليد مقتنعاً بكفاية حفنة من اللبن الجاف . . لسد حاجات فوق ما تشاهده العين المجردة . وهيهات . وذلك سر فشل الحضارة الحديثة في تحقيق الأسرة المتماسكة . . بعد أن ضلت الطريق منذ الخطوة الأولى . . فعز عليها بعد تلافي ما أحدثت من فساد . . فتنادت بالخطر يطل على العالم من كل أفق .

ولم تكلف نفسها أن تصيغ السمع إلى نداء الإسلام الذي أثبت ـ وما يزال يثبت ـ جدارته في إعداد جيل قوي أمين .

لقد نجح في وضع الأساس المتين للطفل . . وفي صدق النظرة إليه .

إن الإسلام يتعامل معه ككائن عضوي ونفسي معاً .

وإذا كان للجسد حاجاته . . فللنفس أشواقها الرامية إلى الكمال . . ولا بديل للأم في توفية حاجاته تلك . . مهما استحدث الناس من أمور يحاولون بها ملء فراغها .

* * *

وقد مر بنا أثر الأم المضاعف في تربية ولدها . . الأمر الذي يجعل من ملازمته

---

(١) سورة الحجر /الآية : ٣٣ .

في حياته الباكرة ضرورة لا مفر منها . .

وكل محاولة للتوفيق بين أعمال المرأة . . ومستقبل ولدها لا بد أن تضيع وتبقى المشكلة كما هي . . بل إنها تتفاقم مع الأيام طالما لم نكن مقتنعين بأهمية الحاجات الروحية للولد . . وما لها من خطر في حياته . . وهو المعنى الذي يتعامل الدين على أساسه مع الطفل . . وإذا عز على المعترفين بأهمية رضاع الأم من الأجانب أن يردوا ذلك إلى الإسلام .

وإذا فات المسلمين أن يعرفوا ما في هذه العودة إلى دينهم من ذكر لهم ولقومهم فإن الواقع صارم دائماً . . يفرض نفسه . وإن تجاهله الناس .

* * *

## الحضانة

*** ضرورة الأسرة:**

بعيداً عن الأسرة". . لا يمكن للطفل أن يستجمع كل دقائق العلاقات الاجتماعية . . التي لا تتم إلا في ظل الأسرة . وتحت إشراف الوالدين معاً .

وبالتالي . . فإن أي خلل يلحق دور الأسرة ينعكس أثره على الحياة الاجتماعية . . لأن الطفل المحروم من العيش في ظل أسرة سوية سوف يفشل في التعامل مع غيره . . من حيث فقد خميرة النجاح في هذا التعامل يوم أن عزل من منبته الأصيل . . وكل محاولات المدنية الحديثة الرامية إلى إعداد محضن صناعي يعوض الطفل ما فاته إنما استثناء من القاعدة وهي : ضرورة الأسرة دائماً . . وهو الأمر الذي لفت الإسلام أنظارنا إليه بقوة . . وأيدته أيضاً تجارب الباحثين القائلين :

إن الأسرة هي العامل الوحيد للحضانة والتربية المقصودة في المراحل الأولى للطفولة . ولا تستطيع أية مؤسسة عامة أن تسد مسد المنزل في هذه الشؤون .

ولا يقصد من دور الحضانة أو الكفالة التي تنشئها الدولة والهيئات لإيواء الأطفال في مراحلهم الأولى إلا تدارك الحالات التي يحرم فيها الطفل من الأسرة أو تحول فيها ظروف قاهرة بين الأسرة وقيامها بهذه الوظيفة .

ولا يتاح لهذه المؤسسات مهما حرصت على تجويد أعمالها أن تحقق ما يحققه المنزل في هذه الأمور .

وعلى الأسرة يقع قسط كبير من واجب التربية الخلقية والوجدانية والدينية في

جميع مراحل الطفولة . بل المراحل التالية لها كذلك .

وفي الأمم التي تسير معاهدها الدراسية على نظام الحياد في شؤون الدين والأخلاق الدينية فتنفض يدها من جميع الأمور التي تتصل بهذه النواحي . . كفرنسا والأمم التي نحت نحوها .

وفي هذه الأمم . وفي تلك يقع عبء التربية الدينية كاملاً على عاتق الأسرة وحدها . وبفضل الحياة الأسرة يتكون لدى الفرد الروح العائلي والعواطف الأسرية المختلفة . وتنشأ الاتجاهات الأولى للحياة الاجتماعية المنظمة .

فالأسرة هي التي تجعل من الطفل حيواناً مدنياً . وتزوده بالعواطف والاتجاهات اللازمة للحياة في المجتمع وفي البيت »[1] .

وهكذا تفعل غرائز الجنس ـ وحب البقاء . والأبوة . والأمومة . فتحفظ على الأسرة كيانها في ظل من رعاية الله سبحانه . . الذي أناط بهذا الدور . . إن هذه الدوافع التي تقف من وراء تمسك الأسرة يبذلها الولدان طبعاً لا تطبعاً . . ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله** ﴾[*] .

ومن ثم . . فهي العامل الوحيد الذي تسلم به من تقلبات الزمن . وتتحدى به عوارض الحياة . . من حيث كانت أثراً من آثار الخالق سبحانه الذي خلق . فهو أعلم بمن خلق . وبما يصلحه ويحقق وجوده .

فالوالدان والإخوة تحت سقف البيت لا يحتاجون إلى قوة خارجية تفرض عليهم نمطاً من السلوك . لكنهم أبداً يبذلون ويتعاملون بوحي من دوافع تتحرك . بل وتنطلق كلما دعا إلى البذل داع . يحقق مصلحة الأسرة . . دون ترقب لنفع قريب أو بعيد . . ولو ترك الأمر إلى المؤسسات التي اصطنعها البشر بديلاً للأسرة . لضاعت الأسرة . وضاعت الدولة .

ولن نلجأ في تقرير ذلك إلى جدل قد لا يثمر مع المعاندين . بيد أننا نستقرىء الواقع الذي يشهد بما نقول :

« إن الاجتماعيين والتربويين أقروا بضرورة البيت للحياة الاجتماعية .

---

(١) الأسرة في الإسلام ، د . مصطفى عبد الواحد . بتصرف .

(*) سورة الروم /الآية : ٣٠ .

ويضرورة التربية فيه . بصرف النظر عن اختلافهم في أصل نشأة البيت في المجتمعات :

هل كان نتيجة التنظيم الديني كما تخبرنا الأديان السماوية بأنه بدأ من زواج آدم بحواء[1] ؟ .

أم أنه جاء نتيجة الخبرة الإنسانية في الحياة بأنه أسلم نظام لها ؟

أم أنه نظام فطري في المجتمع الإنساني أم نظام تطوري ؟

ولهذا عندما حاولت روسيا التخلص من نظام البيت لتنشئة الأطفال في المؤسسات التربوية بأيدولوجية معينة اصطدمت بهذه الحقيقة .

فتخلت عن خطتها . وبدأت تهتم بالبيت . وقالوا : نحن ننتظر اليوم الذي تتحسن فيه اقتصاديات البلاد وتستغني المرأة عن العمل في الخارج وتتفرغ لتربية أولادها ورعايتهم . ولا سيما في المرحلة الأولى من حياتهم[2] .

أي أن المذهب الذّي شاع وذاع . ومن ورائه وقفت أجهزة الإعلام في أقوى دولة في العالم تشد من أزره وتدافع عنه . .

المذهب الذي تحرسه دولة « كبرى » يتوارى اليوم خجلاً . . ليعود إلى النقطة التي بدأ بها الإسلام سير البشرية نحو الكمال .

وبقي أن يعلم المفتونون بالمبادىء المستوردة بهذا الهروب المكشوف من تجربة ظهر لهم زيفها . . وإذا كان العائدون إلى الحق في مجال الأسرة لا يعودون تأثراً بالإسلام الذي يتمسحون اليوم بمبادئه . .

وإذا كان العناد يعقد ألسنتهم فلا تنطق بالصواب ولا تعلن عودتها إلى أمر قرره الدين . . فإن ذلك واجبنا اليوم :

أن نعتز بهذا الدين ومبادئه القويمة وأن نزداد استمساكاً بعروته الوثقى وبخاصة في حقل من المعرفة يكثر فيه أدعياء العلم . . والعلم منهم براء .

وسوف تظل مبادىء الإسلام حية مباركة كما أراد لها الحق سبحانه . . رضي الناس أم كرهوا . . بل إن الواقع الماثل ليقدم كل يوم جديداً يؤكد صدق الإسلام

---

(١) وهو الرأي السليم من بين الاحتمالات التي ذكرها المؤلف .
(٢) البيت الإسلامي . مقداد بالجن ص: ١١ ، ١٢ .

الحريص على الأسرة . . في الوقت الذي يدمغ المبطلين بالحق . . بالفطرة التي يحاول الناس طمس معالمها . . بينما هي تستعلن دائماً . . تأخذ بحجزهم إلى الحق الذي لا مرية فيه .

يقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد :

« وما هو الأثر الذي يترتب على إلغاء الأسرة بأنواعها المعروفة بين الأجيال البشرية ؟

إن أول الآثار التي تشاهد في هذه الحالة :

أن الناس يخلقون الأسرة بما يشبهها وينوب عنها فلا يكفيهم مجرد الاجتماع في مكان واحد . ولا يغنيهم أنهم يشتركون في المأكل والشرب مئات وألوفاً . . كما يحدث في الجيوش والأديرة والمدارس الداخلية .

ولكنهم يخلقون حنان الأسرة . ورعاية الأبوة والأمومة خلقاً يعلمون أنه مصطنع . ولا يستغنون عنه مع علمهم بأنه اصطناع .

فتظهر في أسماء التحبيب والتصغير في الجنود . ويتسمون بأسماء « توني » و « جوني » ـ أمثلة من المجتمع الغربي ـ كأنهم أطفال صغار .

وتظهر الحيوانات الداجنة . يعطف عليها المعسكر كما يعطف على أبناء البيت .

وتظهر أمومة الكنيسة وأحضان المدرسة . وأخوة الدّير . وأشباه هذه القرابات « العائلية » التي يخلقها المجتمعون معها . حتى لو وجدت لكل فرد منهم علاقته العائلية بذويه .

وإذا فقد الإنسان هذا الشعور الحميم . لم يكن قصارى الأمر عنده أنه يعاني « النقص الاجتماعي » في أخلاقه القومية أو أخلاقه الإنسانية .

بل كان من جراء ذلك أنه يعاني نقصاً « بيولوجياً » يؤثر في الغريزة والعقل »[1] .

* * *

---

(١) عن كتاب الأسرة في الإسلام للدكتور مصطفى عبد الواحد : ١٥ ـ ١٦ .

* **الأم وحق الحضانة :**

« يولد الطفل فتثبت عليه ثلاث ولايات :

ولاية التربية الأولى : وهي الفترة التي لا يستطيع أن يقوم فيها بحاجاته بنفسه وهي الحضانة .

والولاية الثانية : ولاية الحفظ والصيانة والتعليم . وهي الولاية على النفس .

والولاية الثالثة : تدبير شؤون ماله إذا كان له مال . وهذه تسمى الولاية على المال .

والحضانة حق للنساء . وقد أثبتها النبي ﷺ للنساء :

فقد ذهبت امرأة إلى النبي ﷺ تقول له :

يا رسول الله . . إن هذا ابني كان بطني له وعاء . وحجري له حواء . وثديي له سقاء . وإن أباه طلقني . وأراد أن ينزعه مني . فقال لها رسول الله ﷺ : « **أنت أحق به ما لم تتزوجي** »[1] . »

ولقد وقف الإسلام إلى جانب الطفل في ساعة الخطر هذه . . يشد من أزره . ويضع له الضمانات الكفيلة بإقامته على سواء الصراط . بعيداً عن كل اهتزاز في الأسرة يدمغه فإذا هو شريد .

إن من أهداف الزواج الأصيلة : السكن النفسي . عن طريق الازدواج بين ذكر وأنثى :

وإذا كان ذلك لا يتم إلا باجتماعهما معاً على مصالح النكاح ومنها الارضاع والتربية فإن رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده تتبدى فيما سن من شرائع تسد هذه الثلمة[2] .

في حالة الفراق . أو الموت . وترأب هذا الصدع على أساس من تكوين الوليد ذاته . واستجابة لفطرته التي فطره الله عليها .

وذلك حين جعل الأم ـ ومن في حكمها من النساء أولى بالحضانة . . ثم كان للأب دوره المعلوم اللازم لصقل الولد وتهذيبه . . من بعد فراغ الأم من أداء هذا الدور .

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة . تنظيم الإسلام للمجتمع ١٠٢ .

(٢) ثلمة وثلم مثل غرفة وغرف . وثلمت الإناء ثلماً من باب ضرب .

فالطفل بطبيعته يقبل على أمه للغذاء والرعاية بدافع من أنانيته . . أكثر من أبيه الذي لا يحقق له مباشرة حاجاته الغريزية . . مع قدرتها على العطف في مرحلة يكون الحنان فيها غذاء لا يقل عن أي غذاء .

وعلى هذه المباديء قامت نظرة الإسلام في تشريعاته لحضانة الطفل . . فجاءت مساوقة للفطرة . مؤدية إلى الغاية على نحو ما سنذكر فيما يلي :

« قال ابن المنذر :

أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الزوجين إذا افترقا ولهما ولد أن الأم أحق به ما لم تنكح »[1] .

ولقد لخص الكاساني الحكمة في ذلك حين قال : « والأصل فيها حضانة النساء لأنهن أشفق وأرفق وأهدى إلى تربية الصغار .

ثم يصرف إلى الرجال . لأنهم على الحماية والصيانة وإقامة مصالح الصغار أقدر »[2] .

فالأمر يدور أولاً وأخيراً على أساس مصلحة الوليد . . فهو مع الأم باديء ذي بدء لأنها أقدر على تنشئته حينئذٍ . . فإذا تزوجت من غير أبيه تعرضت بذلك تربيته للإهمال من حيث زاحمته واجبات الزوج الجديد . . بالإضافة إلى موقفه هو منه . ونظرته إليه ككائن غريب ينازعه حناناً يريد التفرد به . وحينئذٍ فلا بد من دفعه إلى محضن آخر . . تتوفر فيه عناصر الصلاح . ولا سيما إذا تعلق الأمر بدينه وهو ثروته الحقيقية : وذلك لأن « الحاضن حريص على تربية الطفل على دينه . وأن ينشأ عليه ويتربى عليه .

فيصعب بعد كبره وعقله انتقاله عنه .

وهو يغيره عن فطرة الله التي فطر عليها عباده فلا يراجعها أبداً »[3] .

وفي الوقت نفسه الذي تغيب فيه الأم . . وهي التي كانت ترعاه بغريزتها الباحثة طبعاً وراء مصلحته . . فإن اختيار خلفها يتطلب لوناً من الدقة تتحقق به المصلحة .

---

(١) القرطبي ص ٩٧٢ .
(٢) الكاساني . بدائع الصنائع ج/٤١ .
(٣) زاد المعاد ج ٤ /١٣٢ .

ومن هنا اشترطوا في الخامس خلوها من الأمراض الخلقية والبدنية . فلا بد فيها من العقل والكفاية والقدرة وحرز المكان . . والتدين . والخلو من الأمراض المعدية . ومن الفسق . ولا تنقطع صلة الوالد به إذا كان عند أمه . بل لا بد من متابعته بالتهذيب كلما أمكن ذلك .

« وللأب وغيره من الأولياء تعهده عند أمه وأدبه . وبعثه للمكتب »[1] .

وحين يميز الطفل . فيختار أمه . . فإن اختياره هذا ينبغي أن يكون تحت الرقابة قبل أن يجرفه هواه بعيداً عما يحقق مصلحته :

« لأنه ـ لغلبة هواه ـ يميل إلى اللذة الحاضرة :

من الفراغ والكسل والهرب من الكتاب وتعلم آداب النفس ومعالم الدين . فيختار شر الأبوين . وهو الذي يهمله ولا يؤدبه »[2] .

* * *

*** متى تنتهي الحضانة :**

« قال الشافعي رحمه الله : الأم أحق بالطفل ذكراً كان أو أنثى إلى أن يبلغا سبع سنوات فإذا بلغا سبعاً وهما يعقلان عقل مثلهما خير كل منهما بين أبيه وأمه وكان مع من اختار »[3] .

وفي مقابل رأي الشافعي : يرى بعض العلماء عدم تحديد المدة بسن معينة . بل يجعل من استقلال الطفل بأمور نفسه غاية لوجوده في حضانة أمه . . وبداية تؤهله للعيش في كنف الأب .

ولعل في توجيه الرسول ﷺ بأن يؤمر الصبي بالصلاة لسبع لفتة كريمة تشير إلى الزمن الذي تتطلع فيه مواهب الطفل إلى التفتح في دنيا الواقع . لتكون أخلاقاً عملية .

* * *

---

(١) حاشية الشيخ الدسوقي ج ٥٩٧/٢ .
(٢) بدائع الصنائع ج ٤٤/٤ .
(٣) زاد المعاد ج ١٣٥/٤ .

* **الفرق بين الذكر والأنثى :**

ولأن الأنثى ذات طبيعة خاصة . . ورسالة معينة فإن الموقف منها يختلف عنه إزاء الذكر .

ومن هنا اختلفت مدة الحضانة نظراً لهذه الطبيعة . . وتلك الرسالة . . « لأن الغلام إذا استغنى عن الأم يحتاج إلى التأديب . والتخلق بأخلاق الرجال وتحصيل أنواع الفضائل . واكتساب أسباب العلوم .

والأب على ذلك أقوم . وأقدر . مع أنه لو ترك في يدها لتخلق بأخلاق النساء . وتعود بشمائلهن . وفيه ضرر .

وهذا المعنى لا يوجد في الجارية :

فتترك في يد الأم . بل تمس الحاجة إلى الترك في يدها إلى وقت البلوغ لحاجتها إلى تعلم آداب النساء . والتخلق بأخلاقهن . وخدمة البيت .

ولا يحصل ذلك إلا أن تكون عند الأم . ثم بعد ما حاضت أو بلغت عند حد الشهوة . تقع الحاجة إلى حمايتها وصيانتها وحفظها عمن يطمع فيها لكونها لحماً على وضم والرجال على ذلك أقدر »[1] .

* * *

* **ثبوت الاختيار للبنت :**

قال بذلك الشافعي كما مر بك آنفاً . . وأكثر العلماء لا يقول باختيار البنت صيانة لها . وتقديراً لطبيعتها التي تفرض عليها نوعاً من الآداب هي في نفس الوقت غير ملزمة للذكر . وقد قالوا في ذلك كلاماً يرسم في نفس الوقت آداباً في السلوك والمعاملة . ويوضح في تربية الولد نهجاً مستقيماً يحقق لو أخذنا به . . ذرية صالحة .

« فلو خيرت البنت . . أفضى ذلك إلى أن تكون عند الأب تارة وعند الأم أخرى فأنها كلما شاءت الانتقال أجيبت إليه . وذلك عكس ما شرع للإناث من لزوم البيوت وعدم البروز . ولزوم الخدور وراء الأستار .

فلا يليق بها أن تمكن من خلاف ذلك .

---

(١) الموضع السابق ، والوضم : ما يمنع اللحم من الأرض وهو الورش للجزار .

. . وأيضاً فإن ذلك يفضى إلى أن لا يبقى الأب موكلاً بحفظها ولا الأم . لتنقلها بينهما .

وقد عرف بالعادة أن ما يتناوب الناس على حفظه ويتواكلون فيه هو آيل إلى ضياع . ومن الأمثال السائرة « لا يصلح القدر بين طباخين » .

قالوا : وأيضاً . . فالعادة شاهدة بأن اختيار أحدهما يضعف رغبة الآخر فيه بالإحسان إليه وصيانته .

فإذا اختار أحدهما . ثم انتقل إلى الآخر . لم يبق أحدهما تام الرغبة في حفظه والإحسان إليه .

فإن قلتم : فهذا بعينه موجود في الصبي ، ولم يمنع ذلك تخييره ، قلنا : صدقتم . . ولكن عارضه كون القلوب مجبولة على حب البنين واختيارهم على البنات .

فإذا اجتمع نقصّ الرغبة ونقص الأنوثة وكراهة البنات في الغالب ضاعت الطفلة . وسارت إلى فساد يعسر تلافيه والواقع شاهد بهذا والفقه تنزيل المشروع على الواقع . وسر الفرق :

أن البنت تحتاج من الحفظ والصيانة فوق ما يحتاج إليه الصبي . ولهذا شرع في حق الأناث من الستر ما لا يشرع مثله للذكور في اللباس . إرخاء الذيل شبراً أو أكثر . وجمع نفسها في الركوع والسجود دون التجافي ولا ترفع صوتها بقراءة القرآن . ولا ترمل في الطواف . ولا تتجرد في الإحرام عن المخيط . ولا تكشف رأسها . ولا تسافر وحدها .

هذا كله مع كبرها ومعرفتها . فكيف إذا كانت في سن الصغر وضعف العقل الذي يقبل فيه الانخداع . ولا ريب أن ترددها بين الأبوين مما يعود على المقصود بالإبطال . أو يخل به . أو ينقصه . لأنها لا تستقر في مكان معين فكان الأصلح لها أن تجعل عند أحد الأبوين من غير تخيير »[1] .

ويبدو الحرص على مستقبل الصبي واضحاً من قبل القائلين بالخيار والرافضين له معاً فبعد أن سقنا لك رأى الداعين إلى حفظ الأنثى . يطالعنا معنى التشدد في حالة

---

(١) زاد المعاد ج ٤/١٣٦ ، ١٣٧ .

ما إذا اختار الصبي أو الجارية آباه وأمه . على معنى أن يدور موقف الوالد والوالدة حول مصلحتها . .

وقد وضعوا لذلك آداباً ينبغي أن تراعي منها :

« ويمنع الأب الأنثى إذا اختارته من زيارة أمها . لتألف الصيانة وعدم البروز والأم أولى بالخروج منها لزيارتها . ولا تمنع الأم زيارة ولديها على العادة كيوم من أيام . لا في كل يوم .

. . وإذا اختارها ذكر . . فعندها ليلاً وعنده نهاراً ليعلمه الأمور الدينية والدنيوية »[1] .

وفي هذه الأداب تبدو لنا عظمة الفقه الإسلامي . . الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أعطاها حقها . . وبخاصة في هذا االباب . . الذي يتعلق بمستقبل الجيل الجديد . . المعد لتحمل الأمانة بعد .

وأنه ليكفينا مؤونة البحث عن أسس التربية في الشرق أو الغرب عند أناس يحاولون تحويل أنظارنا عن شريعتنا . . ثم يقدمون لنا ثقافاتهم تحت عناوين براقة تستهوي عقولاً فاتها الفهم المستنير . . فضلت حين ولت وجهها شطر هذا الأفق . . وأضلت حين دعت إليه . ناسية أو متناسية عظمة الإسلام الذي يقدم إلى الحياة كل جديد مفيد . . لمن أراد أن يذّكر أو أراد شُكوراً . .

لمن أراد أن يذكر هذا المنهج الإسلامي الرشيد . وأنّ يشكر الله سبحانه يحسن تطبيقه والعمل به . .

وإذا قل فينا الذاكرون والشاكرون . . الذين نسوا هذا التوجيه السماوي فأنساهم الله أنفسهم وأسلمهم لهواهم يتخبط بهم في التيه . .

فإن من واجبنا أن نذكر الناسين بما ترتب على إهمالهم من مشكلات . . ورطهم فيها تقليدهم للغير . . ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾[2] .

* * *

---

(١) حاشية البجيرمي على الخطيب ج ٤/١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) المزمل : ١٩ ، الإنسان : ٢٩ .

* **تعقيب :**

ولا بد لنا من وقفة طويلة أمام هذا المنهج المستقيم الذي رسمه علماؤنا متأثرين بروح الإسلام . الذي منحهم بصيرة كاشفة شخصت الداء . . فنجحت في وصف الدواء .

ففيما يتعلق بالغلام :

هو في حاجة ـ قبل أن يستغني ـ إلى حنان أمه . . فعواطفه في ظلها تمضي على سجيتها . بلا إرهاب أو تخويف .

وبذلك تنفتح مواهبه . وتستعد للإثمار .

بيد أن لهذا الحنان حدوداً . . تنتهي بمشارفة البلوغ . وحلول مرحلة التكليف . ولو ترك حبله على غاربه . تعود مسائل النساء . بسبب من طول صحبتهن . عن طريق حياته في كنف أمه .

ويوشك بهذا التعوّد أن ينال حظه من لعنة الله . حين يتشبه بالنساء . وقد فطن علماؤنا المخلصون لهذه الحقيقة . . وأدركوا خطورة وضع ينتهي بالناشيء إلى اهتزاز رجولته . فأذنوا في الناس : بضرورة وجود الولد تحت إشراف أبيه ـ بعد حضانة أمه له ـ ليبدأ دوره في صقل عوده . وتنمية مواهبه . والأمر بالنسبة للفتاة أدخل في الأهمية . لما يترتب على إهمالها من أخطار . ونقرأ في هذا المعنى ما نقله صاحب مجمع الأمثال :

« قال المفضل :

بلغنا أن فتاة من بنات العرب كانت لها خالات وعمات . فكانت إذا زارت خالاتها ألهينها وأضحكنها . وإذا زارت عماتها أدبنها وأخذن عليها .

فقالت لأبيها :

إن خالاتي يلاطفنني . . وإن عماتي يبكينني ؟

فقال أبوها وقد علم القصة :

أمر مبكياتك ـ أي إلزمي واقبلي أمر مبكياتك »[1] .

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ج ١/ ٣٢ .

وهكذا « الوالد إذا أدب ولده :

فإنه لو كف عن تأديب ولده . كما تشير به الأم رقة ورأفة لفسد الولد . وإنما يؤدبه رحمة به . وإصلاحاً له .

مع أنه يؤدبه ويؤثر أن لا يحوجه إلى تأديب . بمنزلة الطبيب الذي يسقي المريض الدواء الكريه .

وبمنزلة قطع العضو المتآكل . والحجم . وقطع العروق بالفصاد . ونحو ذلك . بل بمنزلة شرب الإنسان الدواء الكريه . وما يدخله على نفسه من المشقة لينال به الراحة »[1] .

ورغم أن التخلق بأخلاق النساء من خدمة البيت . وتعلم آدابه غاية وجود الفتاة في رعاية أمها . . فإن هنا أمراً أعز من هذا كله وهو صيانة أخلاقها أن تنحرف . بعد أن تحيض . وما يفرضه ذلك من ضرورة وجودها في رعاية والدها . لأنه أقدر على هذه الرعاية .

* * *

وبهذه المبادىء القويمة يحمي الإسلام الأنثى من الضياع . كما يحمي والديها من المتاعب . إن كثيراً من الآباء يضجون بالشكوى حين يريدون تزويج البنت أثناء تعلمها . . فترفض هذا الزواج .

مع أن المسؤول هنا هو الوالد . دون سواه .

لقد أطلق للبنت الحرية باديء ذي بدء . . ومكنها من أن تمضي على هواها وأن تنسج من خيوط واقعها مستقبلاً منطلقاً في الديوان . لا في أسرة مستقرة .

فلا غرابة أن تتبرم بقرار الزواج وإن كان مشروعاً . . لأنه تركها تفهم الحياة في صورة : كتاب . . وشهادة . . ثم وظيفة تؤدي بها رسالتها الحقيقية ومن ثم . . فهو يعاني من سوء اختياره .

ولو أنه أصاخ السمع يوماً إلى تعاليم الإسلام وما قعد من قواعد . . وأصل من أصول . . ولو أنه عودها الصيانة وعدم البروز إلا لحاجة التربية والتعليم في إطار من الحشمة والأدب . . وقيم الأسرة .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ١١٦ .

لو أنه فعل ذلك لحسم كثيراً من المشكلات التي تأخذ بحجزه . ولا يستطيع منها فكاكاً .

لقد تشدد سلفنا الصالح في مثل هذه المواقف فحفظوا أنفسهم وذرياتهم لأنهم استمسكوا بالعروة الوثقى التي تربطهم بالله تعالى فجعل حياتهم طيبة مباركة .

إن الإسلام يطالب الفتاة في حالة تعبدها أن تكون مستورة وقورة . مع أنها في خطوة تبعد بها عن وساوس الشيطان . فما بالها اليوم تكشف عن ساق . وتشمر عن ذراع في زحام الشباب . وصخب الحياة ؟

لقد أتاح لها التعليم من أجل الوظيفة حرية أحالتها بيدها إلى فوضى . وصار لها زملاء . فأصدقاء . . وصارت لها حاجات تتصل بالمستقبل تجعلها موزعة الجهد والوقت . من هنا إلى هناك .

هكذا بلا رقيب أو حسيب .

وكان الاختلاط الذّي سموه «هادفاً» ونسميه باسم الإسلام «هادماً» وكذبوا حتى زعموا بُرود العزيزة في ظل من اللقاء المكروه . ونسوا أن الزوج يعاشر زوجته خمسين عاماً . . وهي بين يديه حلال له . . ومع ذلك فلا مانع من أن تستيقظ الغريزة معها ؟

وهو الأمر الذي تنبه إليه علماؤنا الغيورون . . فحذروا الآباء من خطر تردد البنت بين أبيها وأمها . . حتى لا تضيع أخلاقها في وقت توزعت فيه مشاعرها بين جهتين .

إن كثرة الخروج ذهاباً وإياباً تجعل ذلك عادة للفتاة يصعب التخلي عنها . وقد تترتب على ذلك مشكلات تجد الطريق ميسوراً إلى أسرة انقسمت على نفسها : بين أب يترقب أخرى تشاركه حياته .

وأم تندب حظها العاثر . . باحثة هي الأخرى عن رجل يملأ فراغها .

وفي هذه الدوامة قد تجد البنت متنفسها في الظلام . . ثم يستفحل الداء ويستعصي العلاج .

ولهذا السبب كان الطلاق أبغض الحلال إلى الله تعالى .

نقطة أخيرة نحب أن نركز عليها :

أن هذه الغيرة الشديدة على الفتاة . . كانت في مستهل الحياة الإسلامية . بينما الناس أيقاظ . والحرمات مرعية والأخلاق مصونة .

فكيف تكون نسبة الغيرة اليوم . وقد ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ؟

وما زالت في القلوب بقية من أمل . أن يستيقظ الرقود على صوت النذير العريان . . يهتف بالناس . ليصحو في وجدانهم الحس التاريخي الإسلامي . ليقرؤوا ثم يفهموا . . ثم يعملوا .

* * *

*** كلمة لا بد منها :**

بين يدي الحديث عن عمل المرأة . . وما ترتب عليه من إعداد دور للحضانة لم تؤد حق الولد في الرعاية حتى الآن . .

لا بد من كلمة تكشف عن وجهة نظر الإسلام في عمل المرأة كشفاً تزول به أوهام تحاول أن تلصق به ما هو منه براء . . وتتضح معالم الإسلام التي يجب أن تنتهي إليها .

فمن أهمية العمل لتدبير أمر المعاش يقول ﷺ :

**« ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده . وأن نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده »**[١] .

فأفضل الطعام ما كان ثمرة لعمل الإنسان بيده . والإسلام في تكريمه للعمل يتسق مع فطرة الإنسان الباحثة عن الرزق .

لأن في العمل نجاة من الفراغ الذي هو مدعاة إلى الملل المفضي إلى الفساد والأصل في ذلك قوله سبحانه :

**﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾**[٢] .

يقول الألوسي في تفسيره للآية الكريمة :

« واستدل بالآية على ندب التسبب والكسب . وفي الحديث أن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف » .

---

(١) البخاري . كتاب البيوع .
(٢) الملك : ١٥ .

ثم يقول عقب ذلك : « والمشهور أن الأمر في الموضعين للإباحة . وجوز كونه لمطلق الطلب . لأن من المشي وما عطف عليه ما هو واجب كما لا يخفي » .

وفي قوله تعالى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾[1] ما يشير أيضاً إلى مشروعية طلب الرزق وتقدير الإسلام له .

يقول الفخر الرازي هنا :

« وقوله تعالى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة** ﴾ . أي إذا صليتم الفريضة يوم الجمعة فانتشروا في الأرض . . هذه صيغة الأمر بمعنى الإباحة . . فيباح لهم أن يتفرقوا في الأرض ويبتغوا من فضل الله وهو الرزق » .

فالعمل إذن من أجل الرزق مباح في الإسلام .

ثم هو معقود بناصية الرجل كما قال بذلك الإمام الزمخشري .

ولا يمنع ذلك أن تتولى المرأة بنفسها طلب رزقها إذا فرضت عليها الظروف ذلك . على أن يكون ذلك محكوماً بقواعد الإسلام وآدابه المشروعة لصيانة المرأة عن التبذل .

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ **وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾[*] .

فالأصل أن تظل المرأة في البيت مشغولة بعملها .

وإذا كان ولا بد من عمل خارج البيت . . فهو العمل الصالح المحقق لثمرات الإيمان المحكوم بمبادئه . .

وإذن فاقتحام المرأة كل ميدان دون رعاية لطبيعتها كأنثى . . ودون تفكير في مستقبل ولدها كإنسان .

ثم مزاولتها للعمل في ظروف تبتذل فيها فتفقد كرامتها . . وتعطل انتاجها . كل أولئك غير مسلم منطقياً . وعملياً كذلك . ويجعل الرجل وحده مسؤولاً عن نفقة

---

(١) الجمعة : ١٠ .

(*) الأحزاب : ٣٣ .

البيت . فعفة المرأة وصلاحها أعز علينا من كل شهادة تحصل عليها . وأيضاً من كل وظيفة ترقى إليها .

لتبقى تلك العفة وهذا الصلاح روحاً للأسرة التي تقوى فيقوى بها بنيان المجتمع وتتحقق بهما العبودية لله تعالى . والالتزام بأمره .

هذه العبودية التي تجيء علي أثرها بركات من السماء والأرض تعمر بيوتاً أذن الله أن ترفع . . وتقدم للحياة جنوداً في جيش الحق .

ولا يفهم من ذلك اعتبار المرأة كماً مهملاً كما يزعم بعض الناس :

بل أن ذلك بعينه ما تفرضه شريعة النظام والعدل على سواء .

النظام الذي يقضي بأن يكون للأسرة كوحدة اجتماعية مسؤول يدير أمرها والعدل الذي يرشح الرجل لتحمل هذه المسؤولية بما يملكه من مواهب مادية ونفسية وعقلية .

يقول الدكتور عيسى عبده تفسيراً لقوله تعالى : ﴿ **فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى** ﴾[1] .

إن العمل في سبيل تدبير المعاش هو أصلاً واجب الرجل . دون المرأة .

إذ تقع على المرأة واجبات أخرى بحكم إعدادها « الفسيولوجي » ، وليس معنى ذلك أن مفهوم النص القرآني يمنع المرأة من العمل في سبيل القوت . ولكن معناه :

إن الأصل هو أن يسعى الرجل سعياً حثيثاً متصلاً لتدبير معاشه . ومعاش أسرته . أو كما يقول الزمخشري ما معناه :

« إن العمل معصوب برأس الرجل »[2] .

هذه هي تعاليم الإسلام ووصاياه فيما يتعلق بعمل المرأة .

أنه يحتفظ للعمل بمفهومه الراقي :

فليس هو الضرب في الأرض من أجل كسرة الخبز أو شربة الماء . . ثم ينتهي الوجود بعد ذلك .

---

(١) طه : ١١٧ .

(٢) المحاضرات العامة . إدارة الثقافة بالأزهر ج ٣ .

ولكنه بالدرجة الأولى : نشاط يبذله الإنسان . وفي وعيه أن الله تعالى رقيب عليه . . وأن هذا العمل نفسه سيعرض على الله تعالى . . فيثاب أو يعاقب على ما قدمت يده من خير أو شر .

فهل فهمت المرأة العمل بهذا المعنى ؟

هل حققت غرضها حين ألقت حبلها على غاربها . . فوقفت بين ما يفرضه العمل من واجبات وما تتطلبه الذرية من حنان ؟

أم أنها أخفقت في هذا المجال . . فحرم الولد من رعايتها . . وفقد العمل حيويته ولم ينتج ثمرته ؟ حين حاولت أن تعوض ما فاتها . بإلقاء ولدها في دور الحضانة . . التي لم تستطع حتى الآن أن تقوم بدور الأم ؟

وذلك ما نتناوله بالحديث فيما يلي :

## دور الحضّانة . . وهل وفت بحاجات الطفل ؟

« منذ نصف قرن . كانت مشكلة المرأة هي الحجاب والسفور .

وكانت الحجة لضرورة سفورها هي : أنه ينبغي أن تخرج وتتعلم لتقوى على تربية أطفالها .

وتعلمت المرأة . . واشتغلت ، وصارت لها حقوقها الاجتماعية والسياسية ولكن بعد أن كان الجهل فيما مضى يمنع المرأة من تربية أولادها التربية الصحيحة . . صار التعليم هو الذي يحول الآن بينها وبين ذلك .

فالتعليم يقود المرأة إلى العمل .

والعمل لا يترك للمرأة وقتاً كافياً تربي فيه أولادها .

ولذلك . فهي إما أن تعتمد على « الشغالة » أو « الجدة » إن وجدت أو على « دور الحضانة » .

هؤلاء الثلاثة هم الذين يتولون تربية أبناء المرأة العاملة في أيامنا هذه .

فهل في ظل هذه الظروف يمكن أن تنمو شخصية الطفل ؟

وما هي الآثار التي تتركها الشغالة أو الجدة أو دور الحضانة على نفسية الطفل ؟

وما هي الحاجات النفسية الأساسية لنمو الطفل وكيف نشبعها » ؟[1] .

وهذه الفكرة وما دار حولها من أسئلة .. جاءت على لسان كاتب مسيحي متحرر ولو انفردنا نحن بإثارتها لأحاطت بنا الظنون .. لكننا آثرنا أن نستهل بها الحديث في هذه النقطة من حيث كانت شاهداً تقوى به الحجة .. بقدر ما تضعف به الأصوات المذعورة من توجيه الإسلام في هذا الجانب الخاص بعمل المرأة وأثره على النشء .

فحينما يعلن الإسلام شروطه اللازمة لنمو الطفل .. وحينما يضع الأمر في إطار الأمانة الشرعية المفوطة بالإنسان .. فإن أصواتاً تتنادى من هنا وهناك .. بأن الإسلام يحول بين المرأة والعمل ؟

وبدل أن تعود المرأة إلى نفسها بالتهمة .. وفي محاولة للبحث عن حل أوفق للمشكلة .. ورعاية أرقى لولدها .. تلجأ هي للموقف الأسهل ، فترمي دعاة الحق بالتعصب والجمود . ولا جمود هناك ولا تعصب .. إلا في قلوب المعاندين الفارين من مناقشة موضوعية تلزمهم كلمة التقوى .. وحينما تمردت المرأة على الحجاب ورغبت في العمل . وحينما تطلعت إلى المعرفة . لم تكن مدفوعة بالروح الإسلامية الخالصة .. وإلا لما وقعت في هذا التخبط الواضح .

لقد سارت مع تيار الأهواء .. وإنها لتذوق اليوم ويلاتها .. وليت الأمر يتوقف عليها .. بل إن الخاسر الحقيقي في هذه القضية هو الطفل المظلوم .

لقد مرت بنا شروط الإسلام في الحضانة :

من هي الحاضنة ؟

ما هي خصائصها ؟

مدة الحضانة ..

إختيار الولد لأي من والديه ..

ضرورة الاحتياط في تربية البنت ..

فهل يمكن للأم العاملة أن تجد المحضن الذي يعوض الطفل ما افترضه الإسلام له من رعاية ؟

---

(١) دكتور ملاك جرجس . مشاكل أطفالنا ٢٦٠ ، ٢٦١ .

وهل تجد الأم النشاط الكافي لتربيته آخر النهار في أعقاب هموم العمل أوله ؟

وهل نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن مثل هذا الذهن المكدود غير قادر على الوفاء بحاجة الطفل إلى الحنان والرعاية . . لأنه يعيش في دوامة القلق ؟

وهذا ما أشار إليه المرجع السابق :

« من الثابت علمياً أن الحياة الانفعالية للطفل لها أثرها على عملية الهضم . .

فالأكل المرتبط بالخوف والغضب والثورة والعناد يعطل ويقلل من فاعلية عملية الهضم . مما يضر بنمو الطفل وصحته العامة . إن التمثيل الغذائي يحتاج إلى جو نفسي هادىء وحالة نفسية غير مضطربة بالخوف أو بالغضب »[١] .

ومن هنا يحذر المخلصون فيقولون :

« إننا ننصح دائماً : أن تشرف الأمهات على تربية أطفالهن . ولا يعتمدن كثيراً على المربيات . نظراً لأن وجود الأم المستمر يساعد الطفل على تكوين عادة إنفعالية ثابتة صحيحة . وهو أحوج ما يكون إليها في تكوينه الانفعالي إذ تساعده إلى إتمام عملية الثبوت الانفعالي . . فتبعده عن القلق والخوف . وما إلى ذلك من أسباب الاضطراب النفسي »[٢] .

ومتى توفر هذا الأمن . . يبدأ الطفل مرحلة من الاستقرار العاطفي . . يكون لها أثرها في معاملته للغير .

ولم يقتصر الأمر على ما قرره باحثونا . . بل إن كتاباً غربيين يتنادون بعودة الأم إلى بيتها إنقاذاً لولدها . .

فدور الحضانة قد تنجح فتطبع الأطفال باحترام أشكال النظام وآداب المائدة . . والحديث .

لكنها تفشل في تكوين الأخلاق الفاضلة . . لأن الأم وهي المسؤولة عن ذلك تركت وليدها للضياع . . فلم يجد من يبث فيه تلك المعاني التي تنبته نباتاً حسناً . . تقول مؤلفة كتاب « أطفال بلا أسر » .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٨ .
(٢) د . أحمد زكي صالح . علم النفس التربوي ص ١١٧ ط النهضة .

« الأطفال الذين يتغذون من ثدى أمهاتهم هم من غير شك أفضل من أولئك الذين يتغذون صناعياً أينما كانوا .

ولعل خير ما وصلنا إليه من النتائج التي حصلنا عليها كانت من الأطفال الذين تغذيهم أمهاتهم عندها . . فهؤلاء يبدو عليهم أثر الفائدتين جميعاً :

عناية الأم بأطفالها . والرعاية الصحية في دور الحضانة »[1] .

ولهذا الكلام أهمية لأمرين :

١ ـ فالتي تقرره ابنة الباحث النفسي « فرويد » . . صاحب الآراء المشهورة في علم النفس . . فهي حجة على المفتونين بمذاهب الغرب .

٢ ـ ثم هي آراء من تمرس بالتجربة وعاش في دور الحضانة .

ملاحظاً . مقارناً . منتهياً إلى نتائج أدى إليها النظر الدقيق .

ومن هذه النتائج المهمة ما تقرره من تخلف الوليد خلقياً في حال تربيته بدار الحضانة . . لأن هذه الناحية مصدرها الأم وحدها .

وقد جاء هذا المعنى واضحاً في قول المؤلفين :

إن أطفال الحضانة « يتحلون بصفات النظافة . . وآداب المائدة . . ويتمكنون بسهولة من إطاعة قواعد المجتمع ونظمه .

أما عن نموهم الخلقي فكثيراً ما تبين أنهم لا يرتقون كثيراً عن مستوى الأطفال الفقراء المهملين . بالرغم من الجهود الكثيرة التي بذلتْ في هذه الناحية وهو أمر يؤسفنا جميعاً .

وهذا يظهر بوضوح حينما يتركون معادهم . .

ومن جراء هذا الفشل في تنشئتهم عارض المفكرون من رجال التربية في السنوات الأخيرة فكرة دور الحضانة بجملتها »[2] .

وقد تنبه العقلاء اليوم . . فأشار بعضهم إلى ضرورة اعطاء المرأة إجازة طويلة حتى تتمكن من تنشئة ولدها وإعداده في أخطر سني عمره[3] . .

---

(١) أطفال بلا أسر . آنا فرويد ص ١١ دار الفكر العربي .

(٢) المصدر السابق ص ١١ .

(٣) بدأت بعض المؤسسات الأمريكية في منح المرأة إجازة ثلاثة أيام في الأسبوع تتفرغ فيها لتربية أولادها ! . .

حيث تتناوله في هذه السن الباكرة يد واحدة في اتجاه واحد . . بينما في دور الحضانة تتناوله أيد كثيرة . . قد تختلف اتجاهاتها . . فتختلف تبعاً لذلك نظرة الطفل إلى الحياة . . وما يترتب على ذلك من تمزق شخصيته وعدم قدرتها على تحمل الأمانة . . بمثل هذه البنية المهلهلة .

إن « أطفال دور الحضانة يبحثون عن أهداف يوجهون إليها كل اهتمامهم العاطفي . . الذي لو سار سيره الطبيعي لاتجه نحو والديهم »[1] .

وقد بقي أن يعترف العائدون إلى الحق هنا وهناك . . بسبق الإسلام فيما يتعلق بأهمية الأم وطبيعة عملها وخطر دورها . . ورجوع ذلك كله إلى شريعته الغراء . إلتزاماً بها . ومغالاة بآدابها . في عصر تعتز فيه كل أمة بمبادئها وقوانينها .

إن الأم حين تعود مثقلة بهموم العمل . . فإن تأثيرها لن يكون فقط نفسياً بل إن دائرته تنعكس فيصل الضرر إلى صحته . ولن تكفي القروش المجلوبة في تعويض ما فات .

ومن العجيب أن تشغّل غريزة الأمومة هناك في الديوان . . فتقتصر يدها عن هدهدة الطفل ورعايته .

بينما الطفل في البيت . . في ظل رعاية مجلوبة مصطنعة لا تحركها أشواق الأمومة الخالصة .

والإسلام يريد للطفل أن يستصفي أعلى أنماط السلوك . وأشرف العواطف عن طريق أمه وأبيه . . ليخرج فعلاً منسوباً إليهما لا إلى الدولة كما يفعل الشيوعيون . فإذا مات الأب . فهو في أحضان أمه . أو جدته لها أو خالته . حتى لا يحس بالفجوة الطارئة لو دفع إلى غيرها .

أما والأم حية ترزق . والزوجية أيضاً قائمة . فإن الطفل حين يحرم تلبية حاجاته التي تمكنه مستقبلاً من العيش كريماً أو على الأقل : حين لا تتوخى هذه المصلحة . . فإن الأمر يصبح يومئذٍ إهمالاً جسيماً في إنجاز « عمل » من أشرف الأعمال . . وفي غيبته فلا عمل ولا حياة . . ولا نجاة للطفل في ظل « الشغالة » التي قد تدفعه بكلتا يديها إلى طريق الغواية . . وقد نشرت الجمهورية أخيراً ما يثبت هذا . فقد جاء فيها :

---

(١) المصدر السابق .

## المربية تستغل أطفال مخدومتها في التسول

دهشت الأم وهي تعود من عملها مبكرة ، بأطفالها الثلاثة . وهم يرتدون الملابس الرثة الممزقة ووجوههم ملطخة بالأوساخ ويقفون على محطة المعادي بالقرب من منزلهم يمدون أيديهم إلى المارة ويتسولون !

أسرعت الأم باحتضان أطفالها ولفتهم في معطفها . . وأخذتهم في تاكسي إلى المنزل فوراً .

وفي المنزل اكتشفت الأم أن مربية أطفالها التي تعمل لديها منذ ثلاث سنوات ، قد اعتادت أن تأخذ الأطفال في أوقات غياب الأب والأم في عملهما وتلبسهم هذه الملابس الرثة ، وتأخذهم إلى محطة قطار المعادي ، ليقوموا بالتسول في مقابل شراء بعض قطع الشيكولاتة لهم حتى لا يخبروا أمهم أو أباهم بشيء . . ثم تعيدهم إلى المنزل قبل عودة الأبوين . . وتلبسهم ملابسهم النظيفة ، وتعطيهم بعض الحبوب المضادة للبرد .

أبلغت الأم شرطة المعادي ، وقالت : إنه لولا شعورها بالتعب في هذا اليوم وعودتها مبكرة ، لما كانت قد اكتشفت هذه المأساة . . التي تقوم بها المربية ، لتحصل على مبالغ تأخذها لنفسها . . حرر للمربية محضر تسول وتعليم التسول .

وإزاء هذا الحادث تثور في النفس أسئلة :

كم من الأمهات يتركن أولادهن في مثل هذه الظروفّ ؟

وكم من الشغالات في مثل هذا المستوى الهابط ؟

إن حاصل الجمع يؤكد حقيقة رهيبة . . تتبدى في هذا العدد الهائل المصير . . لا سيما إذا كانت الأم . . مواظبة على العمل ولا تعود إلا بعد أن تنتهي جولة التسول التي ضبطتها تلك الأم بمحض الصدفة ! !

إن الأم تريد ـ وهذا منطقها ـ زيادة الدخل من أجل رفاهية الأولاد . . وسوف يزداد الدخل فعلاً . . ولكن الدخل المتزايد لن يجد الذرية التي تحسن استغلاله . بعد أن ضاعت مواهبها في بؤرة التسول !

هذه المواهب التي تذبل في دوامة السعار من أجل المادة . . وكان من الممكن لو عاش هؤلاء الأطفال في ظل أمهم أن يجدوا الفرصة مواتية للتعبير عن غرائزهم بحرية وانطلاق . . حين يخلون بأنفسهم فيمارسون الحياة على سجيتهم .

وحينئذٍ تكسب الأم . . ويكسب معها المجتمع ثلاث لبنات حية يتحقق بهـا صلاح المجتمع .

ومن المؤكد أن إبلاغ الأم للشرطة لن يضع للمشكلة حداً . والحل . في يد الأم . بالوسيلة التي شرعها الله سبحانه . واعترفت بها المدينة الحديثة صاغرة .

بالدين الإسلامي وقواعدها الفذة في هذا المضمار .

« إن الدين مجموعة من القواعد تبرز ما كمن في الإنسان من الخير . . وهذا الخير هو أثر الشعلة المقدسة انطفأت في حمأة الشهوات والميول النفسية التي هي أقرب في صورتها الأولية إلى الطبيعة البهيمية منها إلى الطبيعة الإنسانية »[١] .

إن أطفالنا ليسوا كأفراخ الدجاج . يكفيهم العلف والماء ! . . كلا . إنهم في حاجة إلى كل ما في قلوبنا من محبة . . وما في عقولنا من ذكاء . . لنتمكن من دخول عالم الطفولة المجهول بهذا الرصيد من المعرفة التي تدرك حقائق الأمور .

وقد تبذل الشغالة « كل » ما تملكه من حب . و « كل » ما تملكه من « ذكاء » ولكن مجموع ما تملكه هو في واقع الأمر ما تبقى لديها بعد ما بذلت جله في رعاية أولادها هي . . ومستقبلها هي !

وهذا القدر الضئيل الباقي لا يشكـل البيئة الفسيحـة اللازمـة لمرح الأطفـال وانطلاقهم .

وأخطر ما في الأمر . . أن مثل هذه الخادمة بمثل هذه التربية الخاطئة تقف ضد تيار يجب أن يأخذ مجراه :

تيار من النزعات . . والميول يجيش به صدر الطفل . . ويريد أن يشق لنفسه طريقاً . . ولكن السد الجامد ـ الشغالة ـ الذي أقامته الأم على عجل يصد هذا التيار المبارك . ولن يجدي المال بعد ذلك في تلافي ما يحدث من نتائج .

ومع هذا . فما زال سدنة الحضانة مستميتين في الدفاع عن معاقلهم بمثل هذه التوجيهات التي يجيـدون صياغتهـا . . في الوقت الـذي يسخر منهـا واقع الحيـاة الصارم . . وقد قرأت أخيراً :

---

(١) المثل الأعلى للأنبياء . خ كمال الدين .

بعض تحذيرات للوالدين :

« لا تقتصروا على قولكم : يجب ألا تفعل هذا إذا كان في مقدوركم أن تضيفوا ولكن يمكن أن تفعل ذلك . ولا تتناقشوا عن شخصية الأطفال أمامهم ولا تفرضوا بوجه عام أنهم لا يستمعون أو لا يلاحظون أو لا يفهمون .

لا تقطعوا على الطفل عملاً يواصله دون أن تنذروه إنذاراً عادلاً .

لا تظهروا حبكم للطفل عن طريق التدليل .

لا « تأخذوا » الطفل إلى النزهة بل إذهبوا معه .

لا ترددوا في إعفاء الطفل من إتباع القوانين في بعض الأحيان .

لا تعاكسوا الطفل أو تنهكموا به . ولكن إضحكوا مع الطفل لا عليه .

لا تجعلوا الطفل موضع مباهاتكم لدى الآخرين .

لا تعطوا محاضرات أخلاقية للطفل .

لا تنكثوا عهودكم ولا تعدوا شيئاً لا تستطيعون إيفاءه .

لا تكذبوا ولا تواربوا ولا تتهربوا »[1] .

وسؤال واحد نوجهه إلى المفتونين بمثل هذه الشعارات .

من هي الشغالة التي تجد من ضميرها ووقتها ما يساعدها على تنفيذ هذه الأوامر ؟ . . لا شيء غير الأم . وهذا هو الحل . ولا حل سواه ! !

الأم التي تمسك بيدها عبقرية البناء . بناء الحياة كلها في شخص ولدها . إنها مطالبة أن تضع النقط على الحروف . . إلى تشغيل «مخ» صغيرها ليحسن التعامل مع الحياة .

وأترك الحديث للأستاذة عواطف عبد الجليل . . فربما كان الكلام أوقع من حيث صدر عن « إمرأة » . . ذات خبرة ممتازة في هذا المجال .

قالت المحررة :

« الدراسة والمجتمع وشقاء العالم[2] :

كلنا ذلك الإنسان . . الكيان الحي الذي يخرج إلى الدنيا برصيد من عوامل

---

(١) الحضانة ، للدكتورة سوزان ايزكس ، ترجمة د . سمية فهمي ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) الجمهورية ١٩٧٣/٢/٦ . للكاتبة عواطف عبد الجليل .

الوراثة .. ثم لا يلبث أن يكتسب من العالم حوله الكثير من مستكملات التكوين الناضج المهذب .. وفي بعض الأحيان يتعلم الإنسان من عالمه أكثر مما حمل من آبائه وأجداده .. هذا الرأي في بساطة قدمه اثنان من العلماء ، كأحد الموضوعات المهمة التي ناقشها الاتحاد الأمريكي لتقديم العلوم في مؤتمره السنوي الذي عقد في « فيلادلفيا » في الشهر الماضي .

والعالمان هما دكتور « اللين دينس » ودكتور « هاري مالد » . وقد قاما بتجاربهما على مجتمع الشمبانزي .. أقرب مخلوقات الله إلى الإنسان وخرج العالمان بنتائج محددة . الصغير يخرج إلى الدنيا بعقل يسكن خلايا المخ .. ولكن هذا العقل غير محدد المعالم .. إن المخ هو المادة الخام .. مادة عضوية مكتملة من حيث التركيب الكيماوي والحيوي ولكنها في حاجة إلى وضع النقط فوق الحروف .. التوصيلات الضرورية لتشغيل المخ يكتسبها الصغير من العالم من حوله .

وهي تتم على ثلاثّ مراحل :

المرحلة الأولى تبدأ مع اليوم الأول للقاء الصغير بصدر أمه .. ويتعلم كيف يحب . والطفل الذي يعزل عن أمه بعد ولادته ، يعيش حياته كلها غير قادر على إقامة علاقة حب طبيعية .

المرحلة الثانية هي التغلب على الخوف من الآخرين .. والثالثة هي السيطرة على نزعة العدوان وتهذيبها .. وكل هذه المراحل تتم خلال سنوات العمر الأولى .. وإذا لم يمنح الصغير هذه الفرصة في وقتها .. فقدها إلى الأبد .. وهذا هو سر شقاء العالم .

ومن المفيد هنا أن نستمع إلى وجهة النظر الإسلامية التي تهز ضمير الأم مذكرة إياها بدورها الخطير . في هذه الحياة . لو أحسنت الفهم . وعادت إلى الحق الذي اتضحت معالمه .

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي :

« من المصالح الكبرى التي جعل الإسلام المرأة من أجلها من وراء الحجاب أن يتطهر على الأقل ذلك الصدر الذي يتغذى بلبانه الطفل المسلم .. فيبقى بنور الإسلام .

وأن يحفظ على الأقل ذلك الحجر الذي يتربى فيه الطفل المسلم من تأثير

الكفر والضلال وفساد الأخلاق والأعمال . .

وأن يقام حول ذلك الجهد الذي يجتاز فيه الجيل المسلم منازل حياته البدائية جو إسلامي خالص وأن تحرس من فعل المؤثرات الخارجية تلك الحدود البيئية على الأقل ـ التي ترتسم فيها على ذهن الطفل وقلبه الصافي أولى نقوش التعليم والتربية والمشاهدة .

« فالحريم البيتي » إذن هو أحكم وأمنع قلعة للحضارة الإسلامية بنيت في الحقيقة لأجل أن تلجأ إليها هذه الحضارة متى انهزمت من الميدان الخارجي . .

ولكن للأسف إن هذه القلعة أيضاً قد بدت فيها أعراض الخراب وأصبحت آفة الطريقة الأجنبية تدخل البيوت أيضاً . . » .

وزايل الحياء المرأة حين خرجت إلى مزدحم العمل . .

« . . وإنا نتساءل :

إن كنتم أنتم الذين تربيتم في حجور الأمهات العابدات الصالحات قد انحدرتم إلى هذا كله فماذا يكون إذا افتقدت نساؤكم أيضاً الغيرة الإيمانية وتخطية حدود الطاعة لله ولرسوله .

وماذا تكون حال الأجيال التي ستنشأ في حجور أولئك الأنسات المتفرغات الجديدات ؟

وقل لي بربك إن الأولاد الذين سيرون أول ما يفتحون أعينهم آثار الحياة الأفرنجية فيما حولهم . ولن تقع أعينهم البريئة على مظهر من مظاهر الحضارة والتمدن الإسلامي »(١) .

إن الأم . . حين اختصها الإسلام بحضانة الولد وملازمته . . فليس حرصاً منه على نموه المادي فقط . . بل لتكوين عواطف الترابط الحقة بينهما . . والتي تتحسب على المجتمع مستقبلاً .

وهذا سر الزام الرجل بالإنفاق عليها : زوجة ومطلقة . احتفاظاً بها مصدراً لنموه النفسي والحسي معاً .

---

(١) نحن والحضارة الغربية لأبي الأعلى المودودي ٢١٤ ـ ٢١٦ .

فإذا ما أفلحت الأم في ربط الولد بها . . فإنها في ذات الوقت تكون قد كسرت في نفسه خلق الأنانية .

هذه الرذيلة التي لا تتوارى إلا أمام عاطفة الحب يجيش بها قلب الصغير وعن طريقها يحس بالغير . . وما له من حقوق تنسيه تعصبه لنفسه . ليحيا بعد ذلك لمجتمعه .

وهكذا تكون أهمية الأم . . ولا يمكن لقوة أخرى أن تقوم بدورها الكبير .

« إن تربية الطفل في حضانة ـ أي بغير أم ـ ولو لفترة من اليوم . أي أثناء عمل الأم ـ يضر بالطفل نفسياً . ويجعله يشعر بأن الحياة ليست دافئة بل يتولد لديه الشعور بأن البيئة التي حوله بيئة عدائية فينشأ على درجة كبيرة من الشعور بعدم القبول في الكبر .

ويعاني صعوبات الأخذ والعطاء في المجتمع ومن عدم النضج الإنفعالي »[1] .

ومعنى ذلك :

أن الإحساس بالواجب والالتزام به سوف لا يكون قوياً في نفس الطفل إزاء بيئة لم تستطع تهيئة الجو المناسب له . والأخطر من كل هذا أن توجيهات الإسلام بضرورة أخذه بالصلاة . . وتدريبه على شعائر الإسلام سوف تذهب سدى في غيبة الأم التي يصبح عملها مانعاً بالنهار وهماً بالليل . . فلا يترك في نفسها همة تتحرك لأخذ ولدها بشعائر لا بد منها كأساس لحياته المقبلة .

وأين هي الأم الحريصة على أن تأمر ولدها بالصلاة لسبع . . وتضربه عليها لعشر . بينما هي في الديوان مأمورة وليست آمرة : بل ولا تسمح لها همومها بأداء الصلاة في أوقاتها ؟

وأين ولدها من قصص التاريخ التي تلبي حاجاته إلى المعرفة وحب الاستطلاع وتنشيء في ضميره يقظة تعده للعمل . . والحال أن أباه وأمه معاً مشغولان بأخبار الترقيات والدرجات .

وإذا كان هناك من حديث عن المتاعب داخل الأسرة . . فليست هي متاعب الطفل بغية إزالتها . . بل إنها متاعب العمل . . ومشاكله التي لا تنتهي بحال .

---

(١) مشاكل أطفالنا ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

إن المرأة العاملة تستفيد .

أصحيح هذا ؟

نعم . .

لماذا ؟

لأن ضغط الحاجة وغلاء الأسعار فرضا عليها العمل .

ولكن : أمقنع هذا ؟

كلا . .

لماذا ؟

لأن عمل الأم سوف يقتصر على أن يجعل حياة الطفل « ممكنة » ولكن إمكان الحياة ليست غاية التربية في الإسلام . . وإنما غايته العليا أن يجعل حياة الإنسان طيبة مباركة مثمرة . .

وذلك يتطلب أن تقف أمه إلى جانبه . . تراقب هذا النهر الفوار بالعواطف . تقترب منه . وتتابعه وتسترسل معه . إلى أن يفيض خيره ويعم بره .

ومن هنا كانت عظمة المرأة في حسن تبعلها لزوجها . وتربيتها لولدها . . وليست في شيء وراء ذلك وربما كان من المفيد هنا أن نثبت رأياً للكاتب الأستاذ « علي أمين » يشيد فيه بهذا الدور . وهو في مقدمة الداعين إلى تحرر المرأة .

يقول الكاتب[1] :

« إن الذين زاروا بلاد الدنيا يقولون : إن المصرية هي أعظم أم في الدنيا . وأصبر زوجة في الدنيا .

وأنا شخصياً لا يهمني لو كانت المرأة المصرية أعظم مهندسة . أو أعظم طبيبة . أو أعظم عالمة كيمياء .

يكفي المرأة المصرية أن تكون أعظم أم . .

لقد كانت أمهات الأمس أسعد من أمهات اليوم . . لأن كل واحدة منهن كانت أمنيتها أن تكون ملكة . . أي أن تكون أماً . .

---

(١) الأخبار ١٩٧٦/٢/١٥ .

فإذا قلنا إن أشرف عمل للمرأة في بيتها ، فلا ننفرد بهذا القول . . ولكنه أيضاً رأى الكتاب « التقدميين » .

ولرأيهم وزنه الخاص . . من حيث كانوا متمرسين بالتجربة . . رأوا بأعينهم . . وسمعوا بآذانهم . . وانتهوا إلى هذه الشهادة التي نعتز بها . .

وندعو هؤلاء الكتاب أن يكونوا عند مستوى هذه الشهادة في حياتهم العملية . . تعميراً للبيت . . وتوفيراً للإنتاج . .

عليهم أن يجتهدوا فعلاً في كل ما يكتبون ويتخذون من قرارات أن يكونوا عند حسن الظن بهم .

فلا يصفقوا لأعظم طبيبة . . أو لأعظم مهندسة . . في الوقت الذي تخلف من ورائها ذرية ضعافاً تصوغهم الشغالة حسب هواها .

ولن تستطيع العقلية الفائقة في مجال الطب أو الهندسة أن نبني بهذا العقل ما هدمته اليد الآثمة . . وإذا كان الحديد لا يفله إلا الحديد كما يقولون . . فإن العواطف التي تكونت في غيبة الأم الرءوم لا تزول بالفلسفة الكاذبة ، وإنما بعاطفة مضادة . . تتفجر من قلب الأم الرءوم . . فتصلح ما أفسدت الأيام . . وتعيد إلى البيت صفاءه ونقاءه . . قبل أن تهرب الذرية إلى مجالات الانحراف . . في محاولة نسيان همومها في كأس من الخمر . . أو نفس من الحشيش[1] .

*** شبهة مردودة :**

قد يقال مثلاً :

أنه يمكن التوفيق بين عمل المرأة والتزاماتها الأسرية . .

وربما كان لهذا الادعاء ما يبرره لو كانت غايات الزواج حسية بحتة . . يمكن توزيعها على ساعات اليوم . .

ولكن غاياته معنوية روحية بالدرجة الأولى . . فلا يصبح لهذا الادعاء سند معقول ـ على ما يشير إليه قول الحق سبحانه :

---

(١) ذكرت الإحصائيات أخيراً أن ثلاثمائة ألف مراهق هربوا من ذويهم في أمريكا . . وأن نصف الشباب هناك يتعاطى الحشيش !!

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[1] .

وكيف يتحقق السكن . . وتزدهر المودة والرحمة في مزاج الرجل وقلوب الأولاد في غيبة الأم الغارقة هناك بين الأوراق والقضايا . . إلى حد يجعلها هي أولى بالمودة والرحمة . . وكان الظن أن تكون هي مصدرها ومنبعها الأصيل ؟ !

هذا بالإضافة إلى أن العوامل الروحية ليست أرقاماً تقبل القسمة على عدد ما . بحيث يمكن حبس جزء منها لفرصه قادمة .

يقول الأستاذ البهي الخولي :

« إمكان التوفيق بين العملين ـ البيت والوظيفة ـ دعوى من لم يكلف نفسه جد النظر في الأمر :

فإن السكن مثلاً وما يثمر من مودة ورحمة ليس من الأمور الحسية التي يمكن توزيع الوقت عليها . فلا يقال للزوجة مثلاً :

دعي السكن إلى ما بعد الظهر . . ثم زاوليه ما شئت .

وكذا لا يقال للطفل : أن يكف عن التقاط تصرفات الخدم على اختلاف صورها في الاهمال وتفاهة الفكر وضعف التقدير لغايات الحياة وقيمها . . لا يقال له أن يكف عن ذلك إلى أن تحضر أمه من الخارج »[2] . .

فإذا أضفنا إلى ذلك احتمال كون الخادمة أما مشغولة بأولادها في بيتها يتبين لنا كيف تداخلت المشكلة وتعقدت حلقاتها على نحو يفرض علينا إتباع توجيه الإسلام لحل هذه المشكلة التي لا يترتب عليها ضعف الانتاج . . بقدر ما تؤثر في حياة أجيال هي بين أيدينا أمانات لا بد أن نحافظ عليها . . بالعودة إليها ـ إلى هذه الأمانات ـ في البيت . . لتكون إلى جوار أولادها عوناً وسنداً .

ولماذا نذهب بعيداً . . والمرأة العاملة التي خاضت تجربتها تعبر اليوم عن مرارتها وحيرتها . ومدى ما لحق ببيتها وولدها من ضرر نتيجة انشغالها . بعملها الخارجي وتجاهلها رسالتها الخطيرة .

---

(١) الروم : ٢١ .
(٢) الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة ٢٢٨-٢٢٩ .

ومن بين البحوث المتعددة نختار تحقيقاً صحفياً لمحررة بجريدة الجمهورية تقول تحت عنوان : « كيف توفق المرأة بين البيت والعمل ؟ - الأم في أسوان . . وطفلها في القاهرة » :

مشهد رأيته ولا أنساه :

مشهد أم تقبل ابنتها النائمة في إحدى وسائل المواصلات العامة بلهفة وشوق شديدين وتحاول إيقاظها بطريقة غريبة .

وعندما أحست بنظرات الدهشة ممن حولها كان كلامها :

أنها لا ترى ابنتها سوى يومي الخميس والجمعة كل أسبوع لأنها تعمل بإحدى قرى الجمهورية وتترك ابنتها مع جدها وجدتها طيلة أيام الأسبوع .

هذه المشكلة وغيرها . يعيش فيها عدد كبير جداً من الأمهات العاملات . . وفي لقاء الجمهورية مع بعض السيدات العاملات دار الحديث عن مشاكل العمل . والبيت . ورعاية الأولاد ؛

قالت إحدى العاملات :

« إن مشاكل التوفيق بين العمل والمنزل . ورعاية الأولاد والاهتمام بالزوج تتحملها المرأة وحدها :

ويزيد على ذلك طبيعة العمل المرهق الذي أقوم به :

فأنا مأمورة جمارك بالمطار :

أعمل بنظام الورديات في أوقات مختلفة . لمدة طويلة . ومنها « وردية البيات » في العمل بالمطار ومدتها ١٢ ساعة متواصلة طول الليل حتى الصباح . .

والورديات الأخرى من الساعة الثانية ظهراً حتى العاشرة مساءً . والأخرى منذ الصباح الباكر حتى الرابعة بعد الظهر . .

هكذا طوال أيام الأسبوع فكيف أستطيع أن أقوم بدوري كأم لطفل رضيع في ظل النظام المرهق . . وبواجبي نحو زوجي ومسؤولية البيت ؟ . .

وسيدة أخرى مسيحية تقول :

أنها تترك ابنتها الصغيرة بصفة دائمة مع والدتها بالقاهرة . . وتحرم منها أياماً وشهوراً . وهي تستغل كل فترة إجازة لتأتي إلى القاهرة لترى ابنتها التي تشعر بأنها لم تقم نحوها بأي واجب من واجبات الأمومة .

وهكذا تعيش الأم في حنين دائم إلى ابنتها . . والبنت هناك أشد حنيناً إليها . والنتيجة : ضياع الاستقرار العائلي في دوامة القلق . وضياع الانتاج أيضاً . . مع هذا الاضطراب الذي يمكن من العمل فضلاً عن إجادته . .

وقد أثبتت التقارير هذه الحقيقة :

فقد ذكرت الأنباء أن وكيل وزارة المالية « طلب دراسة عن العاملات في وزارته فتبين أن ٣٠٠ منهن يتركن أطفالهن في البيت مع الشغالات . ولذلك يقضين أوقاتهن بالوزارة في قلق »[1] .

والشجاعة الأدبية تدفع بعض العاملات إلى التصريح بالضرر الواقع من جراء عملها فتقول ثالثة ممن شملهن التحقيق السابق :

« إن وجود الأولاد مع الجدة . وحرمانهم من رعاية الأم وحنانها . يؤثر نفسياً على شخصية الطفل وشخصية الأم في وقت واحد » .

والغريب أن المرأة التي تعترف بهذه النتيجة المؤسفة لا تزيدها الأيام إلا استمساكاً بعملها والدفاع عنه ! !

أي لا تزيدها إلا مضياً في الطريق على أشلاء ولدها متجاهلة حاضره ومستقبله ! !

إنها فقط تذكر هنا ما تعلمته في الجامعة من دروس في علم النفس . . تحفظها جيداً . . وتصبها حبراً على ورق . .

أما الاستجابة إلى ما في هذه المعلومات من حقائق ثبتت صلاحيتها لها شخصياً . . فهذا آخر ما تفكر فيه .

إنها دخلت التعليم . وفي خيالها طيف الشهادة . وربما ارتفعت همتها قليلاً لتتصور تفوقها في الحصول عليها .

لكنها لا تفكر في أنها سوف تنجب ولداً هو بدوره يسعى للحصول مثلها على شهادة . . ويريد أن يكون في المجتمع رجلاً يحقق مضمون هذه الشهادة .

وأنها وحدها التي تعينه على ذلك . .

---

(١) الأهرام ١٩٧٤/١٠/٢٢ .

لكنها للأسف تخلت عنه في ساعة العسرة . وباتت تندب حظها العاثر . .

ثم تتحدث رابعة عن عملها . وكيف يفرض عليها أحياناً لوناً من الصراع النفسي حين تترك وليدها مريضاً وتذهب إلى عملها . . ومشكلتها هي ـ على حد تعبيرها ـ :

مرض الطفل الذي يتطلب أن أمكث معه بالمنزل حتى يتم شفاؤه . . وهذا غير ممكن لارتباطي بعملي . فالمرأة العاملة لا تجد الوقت الكافي لراحتها ورعاية أسرتها . وهذا يؤثر على نفسها . وعلى طاقتها الانتاجية في العمل .

« كما يؤثر على جو الحياة العائلية في البيت »[1] .

ومعنى ذلك أن القروش التي جلبتها الوظيفة جلبت معها في ذات الوقت هموماً ومتاعب لا تهدد حياة الذرية فقط . . لكنها مع هذا تؤثر على الانتاج . . كماً وكيفاً . .

كما أنها تنقص عمّر المرأة رويداً رويداً بهذا القلق الذي ينهش حياتها كالسم البطيء . . وهو الأمر نبهت إليه المنظمات العالمية .

إن « آخر تقرير خرج من منظمة الصحة العالمية ناقوس الخطر للمرأة العاملة . . يقول التقرير :

إن عمر المرأة التي اشتهرت بأنها أطول عمراً من الرجل أخذ في التناقص وذلك لسببين :

١ـ خروج المرأة للعمل . ثم عودتها مرهقة . لتجد واجبات المنزل في انتظارها .

٢ـ كثرة التدخين !! »[2] .

وقد أكدت الأيام صدق نبوءة الهيئة العالمية وتوالت التقارير التي تنذر بخطر داهم يكاد يحيق بالمرأة بعد أن أرهقها العمل . وأضناها السباق في أوضاع غير متكافئة . وكانت النتيجة تزايد نسبة الانتحار بين صفوفهن .

---

(١) الجمهورية ١٩٧٤/٤/٢٢ .

(٢) مجلة الاعتصام ـ رمضان ١٣٩٤ .

ومن هذه التقارير ما نشرته الجمهورية أخيراً من أن المرأة أكثر تفكير في الانتحار من الرجل[1] :

« ٨٨ إمرأة مقابل ٢٨ رجلاً تخلصوا من حياتهم في العام الماضي .

محاولة انتحار « شهيرة فتحي » طالبة الجامعة التي ألقت بنفسها من الدور الخامس بالمدينة الجامعية . . لا يجب أن تمر كمجرد حادثة انتحار تحتل بضعة سطور في الصحف ، ثم تنتهي كغيرها من الأخبار دون أن نمس جوهر المأساة التي يطويها أو نعالج المشكلة التي تنبه إليها . فهذا الحادث إلى جانب أنه ترك فتاة في عمر الزهور عاجزة تماماً بعد أن تدخل القدر لينقذ حياتها بجراحة تشبه المعجزة . . فهو ـ أيضاً ـ يعتبر دلالة خطيرة لما تعانيه البنت المصرية ، والمرأة عموماً ، هذه الأيام من صراع رهيب يدور داخلها للتكيف بين نفسها وواقع المجتمع الذي تعيشه ، والأرقام في المستشفيات وأجهزة الأمن تسجل إرتفاعاً خطيراً في نسبة انتحار الفتيات والسيدات ، فضلاً عن دوامة القلق والتوتر والاضطربات النفسية التي تعيشها الأغلبية العظمى . . حتى أصبح الأمر يهدد بأن تتحول هذه المحاولات الفردية المتزايدة إلى ظاهرة لا بد وأن تمتد إليها يد الأجهزة المسؤولة بالدراسة » .

ونتيجة هذه الدراسة معروفة سلفاً . . وسوف تثبت أن القلق المستمر والذي يملأ حياة المرأة هو المسؤول وحده عن هذا العمر المبعثر .

وإذا أرادت المرأة أن تحسن التكيف مع مجتمعها . . فالحل بين يديها . . ومن خلفها . . وليس إلى الأجهزة المسؤولة .

فإذا لم تفعل . . فإن القلق المتزايد في كيانها سوف ينصب لعنة على البيت كله . . لعنة تأكل الأخضر واليابس . .

وأقصد بالأخضر هنا : الذرية الضعيفة . . التي تتقاذفها الأمواج فلا تستقر على حال . . من القلق !

وقد ترامت الأنباء أخيراً مؤكدة أن هذا القلق قد تحول إلى رغبة في الخلاص . . من الطفل ذاته !

---

(١) الجمهورية ١٩٧٥/١/٢٤ .

حدث ذلك في اليابان حيث كثرت حوادث تخلص النساء من أطفالهن وهم ما يزالون في عمر الزهور !

ولم تستطع مظاهر التقدم في اليابان أن تملأ الفراغ الهائل في البيوت هناك .

بل عجزت غريزة الأمومة أن تصد هذا التيار الجارف .

تقول صحيفة الأهرام (١٩٧٦/٢/١١) :

« إن ظاهرة قتل الأمهات لأطفالهن وهم في سن الرضاعة ما زالت مشكلة محيرة تثير الدهشة والرعب لدى كل من العلماء والمسؤولين في اليابان . .

في السنوات الأخيرة لقي ٢٠٠ طفل حتفهم بطريقة وحشية قبل أن يتموا العام الأول من أعمارهم » .

« ويبدو أن هذه الظاهرة الخطيرة نشأت نتيجة للتغيير الذي أحدثته الحياة العصرية في نظام معيشة الأسر اليابانية ، ففي الماضي كانت الفتاة تستمر في الاقامة في بيت أسرتها بعد الزواج أو تنتقل للإقامة في بيت أسرة زوجها ، وفي كلتا الحالتين كانت الأم الصغيرة تجد دائماً بجانبها سيدة متقدمة في السن خبيرة بشؤون تربية الأطفال تتولى ارشادها وتوجيهها أو تخفف عن كاهلها أعباء رعاية طفلها الوليد .

أما الآن . . مع وجود البيوت العصرية الضيقة ، فإن المتزوجين حديثاً ينفصلون عن أسرهم ويستقر كل زوجين في مسكن مستقل ، وبينما يعمل الأب معظم ساعات النهار أو يقضي معظم الليل في الشراب مع أقرانه فإن الأم الشابة غير المدربة تجد نفسها وحيدة في البيت مع طفلها الذي لا تعرف كيف تسكته كلما بكى . . وينتهي بها الأمر إلى الاصابة بانهيار عصبي » .

وتلك واحدة من بركات المدنية الحديثة . . التي تجاهلت الإيمان بالله عز وجل فصيرت البيوت قبوراً .

وإذا كان الجهل في الماضي قد دفع بالوالد إلى قتل ولده مخافة الفقر أو العار . .

فقد كان الظن بالحضارة المعاصرة أن تتجاوز هذا التصور السقيم للحياة . . ولكن الذي حدث هو العكس . . وارتفعت نسبة الجرائم في البلاد التي أفسحت للمرأة فيها مجال الحرية والعمل بلا تخطيط[1] .

(١) راجع كتاب الجريمة والمجتمع للدكتور فؤاد زكريا ص ١٢٢-١٢٣ .

وبلغت تلك الجرائم قمتها في مثل هذه المواقف التي تقتل فيها الأم ولدها . . ولا تكون القضية هي ترميم البيوت القائمة لتستقيم على الجادة . . بل تصبح القضية أخطر من ذلك حين تذهب البيوت برمتها فوق موجات القلق المندفعة بأناس يبيعون حياتهم بأرخص الأثمان . . في عصر يزعم العالم فيه أنه ألغى الرق . . والذي يفعله هو الرق بعينه ! !

إن الفلاحة في ريفنا الطيب ـ إذن ـ أسعد حالاً . . والوطن بها أسعد . . لأنها تزاول العمل بائعة ومشترية في دروب القرية . . إلى جانب بيتها أو قريباً منه .

بل إنها لتذهب إلى الحقل عاملة على مدى نهارها . . ولكن في صحبة زوجها أو أخيها أو ولدها . . فتحسن هذا العمل . وتغرب الشمس فتعود إلى المنزل في صحبة مباركة . ويد خضبها الكفاح . وإنها ليد يحبها الله ورسوله لأنها حققت زيادة الانتاج . واستشعرت بفطرتها السليمة أهمية العمل من أجل الرزق . وهو المفهوم الذي قصد إليه الإسلام . كما بيناه آنفاً .

وليت المنادين بعمل المرأة تقليداً للأجانب . أن ينادوا بتقليدهم فيما يفيد . وفيما هو أساساً من توجيهات الإسلام .

وليت المرأة العربية المسلمة تفتح عينها جيداً لتقرأ ما صرحت به مديرة معهد التجميل في لندن من أن « السواك » أكثر فاعلية من فرشاة الأسنان في الحفاظ على سلامتها ونظافتها[1] .

ولكن ملكة التقليد تتجه إلى القشور . . ولا تنفذ إلى الأغوار . فكان ما كان . مما تتحمله المرأة وحدها . دون الإسلام الذي قال كلمة الحق . . فلما حادت عن الطريق جنت ثمار سعيها قلقاً وإرهاقاً .

لقد قالت المرأة العاملة كلمتها وأعلنت رأيها . وبقي الكثير فلم تنطق به . لم تقل لنا ما يحدث عندما تترك أولادها عند الجدة . . وقد يكون للجدة حفدة من أولاد آخرين . وما يترتب على ذلك من خلافات وصراعات .

ولم تتحدث عن الشك الذي يمزق كيانها بينما هي في سجوة الليل ساهرة على أزيز الطائرات . وكان الوضع الطبيعي أن تكون هناك . تعف زوجها ويعفها عفة تأتي على أثرها بركة تشمل الزوجين . والذرية . جميعاً .

---

(١) الأهرام ١٩/٤/١٩٧٤ .

ونحن نتساءل لماذا تصر المرأة على عمل لا تؤدي فيه حق الله ؟ . . وهل لها من رجعة إلى عملها الفطري . . لتسري البركة في مال زوجها وحاله ؟

وكيف السبيل . . وماذا يستطيع الرجل أن يفعل في غياب زوجته ليلاً ؟ . .

هل تقوم الخادمة الصغيرة بالعبء كله ؟

وإذا كانت كبيرة . . فما أكبر الهم . وما أعظم الغيرة . وأمر الثمرة ! . .

وهل تسمح رجولة الرجل أن يقوم بدور المرأة في غيابها ؟

إن ذلك ما يرفضه الإسلام بقوة . .

لأنه قضاء على الأسرة كلها حين يستنوق الجمل فتنقلب أوضاعها الطبيعية .

إن هذا التمادي في التجربة مع وضوح فشلها باعتراف المرأة ذاتها . . هو من عمى الألوان لا تستبين به الحقائق . . مهما حاولت تبرير موقفها . . ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره** ﴾[1] .

إنه التقليد . . والتقليد الأعمى الذي يطوي في اندفاعه مدارك الإنسان فلا تحسن الاستفادة بالحاضر . . كما لا تحسن قراءة التاريخ :

لقد اتصل أسلافنا بالأدب اليوناني فلم ينبهروا به كما ينبهر شبابنا وفتياتنا اليوم .

لكنهم تعاملوا معه بشخصية مستقلة تدرك خصائصها الذاتية . . وتدرك بيئتها وما يلائمها . . وفوق ذلك تشعر برصيدها من قيم الدين الحنيف . .

فلما اكتشف ركيزة هذا الأدب الوثنية حين صورت الصراع الدائم بين الإله والإنسان . . رفضت هذا الأدب الذي لا يصور حقيقة الإنسان . . واستمسكت بقيمها هي . . ورفضت أن تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

والمرأة « المتعلمة » التي تدرك حقائق علم النفس مسؤولة عن سمعها وبصرها وقلبها . . أمام خالق الأسماع والأبصار والقلوب .

هذه المسؤولية التي تفرض عليها أن تقف إلى جوار ولدها المستعد ـ كما تعلمت في الجامعة ـ لانطباع المؤثرات عليه . ثم عمق عواطفه وشدة حاجته إليها بل وشدة احتياج زوجها إليها . إنها ركيزة البيت وفي غيبتها تصعب الحياة أو تستحيل .

---

(١) القيامة : ١٤ ، ١٥ .

يقول الإمام الغزالي :

« لو تكفل الرجل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته . ولم يتفرغ للعلم والعمل .

فالمرأة الصالحة للمنزل . عون على الدين بهذه الطريق . واختلاف هذه الأسباب شواغل . ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش .

ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله :

الزوجة الصالحة ليست من الدنيا . فإنها تفرغك للآخرة . وإنما تفرغها بتدبير المنزل . وبقضاء الشهوة جميعاً »[(١)] .

فلنتأمل هذا التوجيه الصادر من عالم عاش في القرن الخامس الهجري . ليزداد حذرنا . ونعترف بأن كثيراً من الرجال الغيورين يأبون هذا الوضع الشاق بحكم إنسانيتهم . . ومع افتراض حسن النية وطهارة معدن الإنسان في صحبة الإسلام حيثما وجد . . إلا أننا باسم الإسلام أيضاً نذكر الناس بحقيقة سبق إلى تقريرها الخليفة عمر وهي : أن المرأة لا تطيق الصبر عن زوجها طويلاً وهي نقطة لا بد من تجليتها .

يقول الشيخ أبو بكر الخوارزمي :

« أعلم أن غاية ما تصبر المرأة عن زوجها أربعة أشهر فما فوق ذلك ينفذ صبرها وتخون زوجها »[(٢)] .

ولهذا نرى نساء الغائبين مائلات إلى الفسق . لغَيبة أزواجهن وتعطيلهم اياهن . وأصل ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعس ذات ليلة فسمع إمرأة تقول شعراً :

| | |
|---|---|
| ألا طال هذا الليل وازور جانبه | وأرقني ألا خليل ألاعبه |
| فوالله . . لولا الله لا رب غيره | لزعزع من هذا السرير جوانبه |
| مخافة ربي والحياة يكفني | وأكرم زوجي أن تنال مراكبه |

فلما أصبح سأل عنها . قالوا : فلانة بنت فلانة . زوجها غائب . فذهب إلى ابنته حفصة وقال : يا بنية . . أنت زوج النبي ﷺ . وأوثق نساء العالمين في نفسي .

---

(١) الإحياء ج ٢/ ٢٧ .

(٢) ليست الخيانة بلازمة طبعاً . ولكن نفاد الصبر منزلق إلى المعصية .

وأني جئتك لأسألك عن مسألة من أمور المسلمين . . فلا تستحي مني . وأصدقيني : كم تصبر المرأة عن زوجها ؟

قالت : أربعة أشهر .

قال : وخمسة ؟ قالت : وخمسة .

قال : وستة ؟ قالت : لا . . إلا بمشقة .

فأرسل إلى المرأة القائلة إمرأة لتكون معها .

وكتب إلى أمراء الأجناد ألا يغيبوا رجلاً فوق أربعة أشهر .

فينبغي لكل أمير أو وزير أن يحفظ هذه القاعدة والله أعلم »[1] .

وحين نتأمل هذه القصة تبرز لنا عدة حقائق :

إمرأة طال غياب زوجها . فاشتعلت في أعماقها رغبة تطلب الإشباع .

ثم هي تناجي نفسها في هدأة الليل مناجاة تكشف عن صراع نفسي يكاد يمزق كيانها .

ولولا إيمانها بربها . . وحياؤها . . فلم تخن زوجها . . حتى عندما اختارت أن تعبر عن أشواقها آثرت أن يكون ذلك في الليل . . بعيداً عن الأسماع . . فكان صبرها جميلاً .

ولما سمعها الخليفة أحس بمسؤولية الحاكم . . فأسرع إلى ابنته حفصة ليعرف رأيها في مدى صبر المرأة عن زوجها . . وفي حواره مع ابنته تتبدى لنا صلة الوالد بابنته . صلة فريدة لأنها بنت الإسلام .

فالموضوع حساس . . وربما كانت مناقشته ميسورة بين أب غير عمر الصارم الجاد . ولكن عمر عرف كيف يربي أبناءه . . ويأخذهم بلون من الشجاعة الأدبية في كل موقف تحمد فيه الشجاعة . . لأن الله لا يستحي من الحق . .

بل إن الخليفة ليمثل روح الإسلام أصدق تمثيل حين لا يعالج الحادث على نحو فردي . .

لكنه يتعرض له « كمسألة من أمور المسلمين » فالمسلمون كالجسد الواحد إذا

---

(١) مفيد العلوم للشيخ الخوارزمي دار النقد بالقاهرة ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ وفي نسبة هذا الكتاب للخوارزمي نظر .

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . .

ثم إن التهاون في مسألة فردية . . يشجع على التمادي في الباطل . . فتسري العدوى وتنحل الروابط . ومعظم النار من مستصغر الشرر .

ولما كشفت له النقاب عن مدى صبر الزوجة على غياب زوجها . أصدر أمره إلى الأمراء بأخذ هذه المدة في الاعتبار . حفاظاً على الأسرة من الانهيار ، وفي نفس الوقت أرسل إلى المرأة المغيبة إمرأة أخرى . تؤنس وحدتها حتى يعود الغائب . وكان ذلك إجراء تربوياً شغل به النفس الوالهة بالحق في صحبة أختها المؤمنة حتى لا تشغلها وساوسها بالباطل .

وفوت بذلك على وساوس الشيطان أن تهزم الإرادة في كيان المرأة الوحيدة . . مشيراً بذلك إلى أن التدين وإن كان صحيحاً إلا أنه لا يمنع من الانهيار . . ولا بد من تدخل الحاكم ليضرب على كل يد عابثه .

وفي التعبير بلفظ الزوجية ما يشير إلى عسر صبرها . . لأن لها زوجاً فهي تحن إليه أبداً .

أما المرأة التي لا زوج لها . فالمفروض أنها تستطيع الصبر ولو امتـدت بها وحدتها العمر كله . . حيث رتبت أمورها على هذا النحو .

* * *

وبعد . . فما هو الحل إذن ؟

إن، الطريق إلى حل أوفق يبدأ من حسن فهم الزوجة لطبيعة عملها في البيت وأنه جد خطير :

وإن كل درجة أو ترقية في مجال عملها لا تساوي تربية ولد واحد تستأنف به من جديد حياتها . . فيكون ذكراً لها ولزوجها .

سئلت إحدى الأمهات :

ألم تضعي طول حياتك كتاباً أدبياً ؟

قالت الأم : بلى . . لقد صنعت كتابين لا كتاباً واحداً .

فتساءلت جارتها عن عنوانهما ؟

فأجابت الأم : إنهما فلان . . وفلان . . ولداي العزيزان . .

إنني لم أخط تصنيفي إذن على الورق . بل نقشته في قلبي طفلي العزيزين

وعقليهما . ورسمت فيهما الدروس التي لن ينسياها . لأجعل منهما الكتابين اللذين لا ينساهما الزمان . ولا يبلى صحائفهما الجديدان »[1] .

لقد عاشت هذه المرأة مع ولديها :

نظرا إليها وهي تصوم . وتصلي . وتعامل الناس بالحسنى . فكان هذا اللقاء المتجدد نموذجاً فاضلاً أعانهما على تقليد ما فيه من واقعية حية متجددة .

ولعل في حنان الأم المستمر ورؤية الوالد دائماً في محيط الأسرة ما يمنع الولد من خيانته أو التمرد عليه . بينما يعيش دائماً في ذاكرته . . مغتذياً بعطفه . وابن هذا من رب أسرة يضرب في الأرض على غير مدى .

ويلتفت الابن حوله . فلا يجد الأسوة الحسنة . ولا يحس بالحنان الأبوي . والنتيجة انفلات العيار :

وقد بحث الكثير عن حل عادل لهذه المشكلة المعقدة في رؤوس صانعيها وقرر المخلصون منهم ضرورة عودة المرأة إلى بيتها . وهذا هو الحل . ولا حل سواه .

ونحن ننقل هنا بعض وجهات النظر التحررية . لا لنضيف إلينا جديداً بقدر ما نقدم الدليل إلى المرأة من جهة تقدمية تتلقى منها عادة تصورها للحياة والأحداث كما أشرنا سابقاً . يقول الأستاذ أنيس منصور :

« ونحن ننظر عادة إلى التفرغ للحياة الزوجية على أنه ليس عملاً ، مع أنه في الحقيقة عمل اجتماعي واقتصادي وتربوي ونفسي . وبعض الدول الأوروبية تدفع أجراً للزوجة لأنها تعمل في البيت :

اوستراليا مثلاً . . ولن يمضي وقت طويل حتى تجد المرأة نفسها أمام هذا الاختيار إما العمل . وإما الطفل . ولن تتردد أبداً في أن تختار الطفل » .

ونحب أن نصحح هنا ما ذهب إليه الكاتب من أن اوستراليا وغيرها من دول أوروبا تقدر عمل البيت فتعطي عليه أجراً . . بأن ذلك إتجاه إسلامي :

لقد فرض الإسلام على الزوج رزق الزوجة وكسوتها بالمعروف . . تقديراً منه لشرف المهنة داخل البيت . . حتى أن الإسلام لا يفرض على الزوجة إرضاع ابنها

---

(١) منبر الإسلام صفر ١٣٩٤ .

فرضاً . . بل إن لها رغم كونه عملاً فطرياً أن تأخذ عليه أجراً . . وهذا حقها المشروع .

ويطيب لنا في هذه النقطة بالذات أن نكثر من الاستشهاد على أهمية وجود الأم في البيت . . بأقوال كتاب تقدميين من حيث كان حديث رجل الإسلام هنا مرا من بعض أفواه لا تطيق أن تسمع الكلمة منه . . وربما لو جاءتهم من طريق آخر لكان لها وقعها الخاص .

يقول الأستاذ محمد الحيوان في صحيفة الجمهورية في معرض المقارنة بين موقف الدول من المرأة وموقف الإسلام :

« . . والإسلام بعكس ذلك كله : للمرأة المسلمة شخصيتها الكاملة قبل الزواج وبعده . .

للمرأة المسلمة حقها في العمل وحقها في الأجر المساوي للرجل . . كل ما في الأمر أن الإسلام يعرف أن للمرأة ظروفها العصبية نتيجة أمراضها المكتوبة عليها . .

لذلك لا يعطيها حقها كاملاً في الشهادة أو الميراث[1] . .

ويطلب منها أن تلزم البيت ما لم تكن هناك ضرورة للخروج . ووجودها في البيت مدرسة للطفل ورعاية للبيت والرجل . . وحفظ لها من زحام الطريق . . والأوتوبيس . .

مجرد اقتراح يوفر للمرأة كرامتها . . ولكن بعض الناس لا يعقلون » .

وأهمية الاقتراح هنا تمكن في صدوره عن رجل تفرض عليه طبيعة عمله مزاملة المرأة في العمل .

أي أنه يصدر حكمه بعد تصور دقيق واضح . . وتجربة مستمرة على الطبيعة يجيء الحكم بعدها مقنعاً .

وإذا كان من حق المرأة أن تعمل . . فإن من صميم عملها أن تعني بولدها من

(١) أخذت المرأة في الشهادة والميراث حقها كاملاً . . ولم ينقصها الإسلام شيئاً . . كما يوهم كلام الكاتب . . لأن حقها مساو لواجبها ومسؤلياتها المحددة بالإضافة إلى تكوينها العضوي والنفسي المخالف لتكوين الرجل الذي يفضلها في هذين المضمارين .

الداخل . . بدل أن تحرص على زيادة دخلها حفاظاً على مظهره الذي يراه الناس . . ثم لا يجعل منه لبنة صالحة . .

لقد قفزت المرأة من الحجاب مباشرة إلى السفور . . ولم تستقر على سواء الصراط بين هذا وذاك . . وها هي ذي تجني ثمار غرسها مرارة في نفسها وضياعاً لولدها حين قفزت أيضاً من الجهل المطبق عليها إلى « المعرفة » المجردة . .

غير حافلة بالتربية التي لا بد منها لصقل شخصيتها . . وإعداد وليدها .

لقد فاتها معنى العدل فاضطرب الميزان . . فاختلت تبعاً لذلك الأحكام .

ولماذا تحرص المرأة على حقها في العمل . . ثم لا تحرص بنفس القوة على حق الولد في أن يزود بالمبادىء الضرورية لمستقبله ؟

والفرصة ميسرة . . والمسؤولية كبيرة وبخاصة إذا علم الوالدان أنهما لا يكلفان بعسير .

فليسا مطالبينّ بتسوية فطرة الولد بعد انحرافها . . لكن الفطرة سليمة كما خلقها الله عز وجل . . ويراد فقط مزاملتها بالتهذيب والتربية قبل أن تذهب فرصة التربية ولا تعود .

وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك . . فافترض انتزاع الوليد من بين يدي أمه لترضعه أخرى حين ينفصل الوالدان . .

وفي نفس الوقت يلفت الأنظار إلى خطورة هذا الوضع وضرورة الابقاء على الطفل في حضن أمه .

وإذا كان الابقاء عليه مع أمه لأهمية رضاعه . . فإن الإشراف على تربيته من قبل الأم أيضاً يأخذ نفس الأهمية . .

يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى : **﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾**[1] :

« وقوله : **﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾** : أي وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك .

---

(١) الطلاق : ٦ .

أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه . . فليسترضع له غيرها .

فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهي أحق بولدها ولا يخفى ما في التعبير القرآني من عقاب وتوبيخ يصور للأم أن رفضها بولدها لن يسلمه للموت . فهناك أخرى غيرها يمكن أن ترضعه . مع أنها لم تلده » كما تقدم .

وفي هذا إشارة إلى جعل مصلحة الطفل ومستقبله فوق كل اعتبار . . ولو كان هذا الاعتبار « روح العصر » و « استقلال المرأة اقتصادياً » . . ولم يبقى بعد الاقتناع إلا العمل بها وتنفيذها . . ولا يحتاج الأمر إلى قدر كبير من الشجاعة . . بعد أن تكلفت الوقائع اليومية بتقديم الدليل باستمرار على صلاحية الحل الإسلامي لمشكلات البيت . . ومنهجه الراشد في إرساء بنائه على أساس وطيد .

وبعد . . .

فكن أحسن بعض الغيورين صنعا اليوم حين تنادوا من كل مكان داعين إلى تفرغ المرأة العاملة لتكون إلى جوار ابنها بالرعاية في سني حياته الأولى وهي خطوة نرجو أن تتلوها خطوات تقف بالمرأة في مكانها الصحيح . لتؤدي أشرف رسالة في الوجود[1] .

* * *

*** في مجال التطبيق :**

وحتى يأخذ هذا الاقتراح الهادف طريقه إلى التنفيذ . . يهمنا أن نقدم للمرأة العربية صورة مشرفة لعملها في الماضي . . وكيف كان لها في تربية الولد باع طويل . . فاقت به كل تصور في باب التربية . . لعل المرأة العاملة اليوم أن تنزع إلى مثل هذه الآفاق العالية دون غيرها إذا ما اكتشفت أن لها في الحضارة نسباً عريقاً . .

لقد كانت الأم تتعاهد ولدها تعاهد الزراع الضنين منابت الغرس ومساقط الغيث .

---

(١) نشرت جريدة الأخبار ٢٨ / ١٠ / ١٩٧٤ أن المجلس الاستشاري للعمل قد وافق على منح المرأة العاملة إجازة بدون مرتب . . لتتفرغ لتربية أولادها . . وهذا القرار المحمود جاء نتيجة لقلق المرأة العاملة والذي سجلته هي بلسانها . . هذا القلق الذي تحول إلى رغبة في الخلاص : خلاص الأم وولدها معاً . . وهو على أي حال قرار حكيم . . يؤكد صدق نظرة الإسلام وضرورة العودة إلى مبادئه من أول خطوة على الطريق . . قبل أن تستنفد الطاقات في مجال غير مجالاتها .

« قالت فاطمة بنت الخرشب وقد سئلت : أي بنيك أفضل ؟ قالت :

والله ما أدري أني حملت واحداً منهم تضعاً . ولا ولدته بتنا . ولا أرضعته غيلاً . ولا منعته قيلاً .

ولا أنمته نئداً . ولا سقيته هدبداً . ولا أطعمته قبل رئة ولا كبد . ولا أبته على مأقه »(١) .

وفي شرح هذه الجمل يقول المرحوم الشيخ عبد الله عفيفي مستنداً في شرحه إلى رأي الطب الحديث :

« الحمل التضع : أن تحمل قبيل الحيض .

وفي هذه الحالة . ينضح الرحم سائلاً يؤذي النطفة ويضعها . بينما هي في أول منابتها .

أما ولادة الطفل بتناً :

فإن يولد منكساً : رجلاه قبل رأسه . وهناك تصاب عظامه اللدنة تحت الضغط بضرر .

والإرضاع غيلاً : أن ترضعه وهي حامل . واللبن حينئذٍ فاسد .

والقيل : تناوله اللبن وقت الحر . وهو مفيد . بخلاف الماء الذي يضر .

والمبيت مئقاً : أن يقضي ليله حزيناً . وأثر ذلك على نفسيته وعمق نومه .

وأما النوم النئد : فأن ينام على موضع نكد لصلابته أو استقذاره . . ولكليهما تأثير قوى شديد على عظام الطفل ونمائه واتجاه صحته .

وأما الهدبد : فاللبن المتكبد : الذي لان بعضه وجف بعضه . وذلك إما لقرب انقطاعه وإما لحالة نفسية أو جسمانية أصابت الأم .

وذلك لعمرك السم النقيع . يتناوله الطفل فيذوى عوده . وينحل جسمه . وأما الرئة والكبد فكل منهما يحتاج في هضمه إلى لعاب الأسنان فإذا لم يستوف طعامها ذلك اللعاب كان وخماً ثقيلاً . لا تملك المعدة أن تتخذ منه نصيبها من الفائدة . فيستحيل إلى إسهال شديد يعقبه ضعف شديد »(٢) .

---

(١) الشيخ عبد الله عفيفي . المرأة العربية ج ١ /٧٣ .

(٢) المرجع السابق .

هذه هي المرأة العربية . . وهذه تربيتها . . التي لم تبرز فيها لحصولها على شهادة مرموقة أو درجة علمية .

بل كان مرد ذلك : صفاء فطرتها . وتصورها السليم لدورها الأساسي في الحياة وأنه إعداد ولدها للمستقبل . . فوضعت كل خبراتها في صالحه .

وما كان لمظاهر الحياة الصاخبة أن تلوي عنقها عن الاخلاص لوليدها . . على هذا النحو الذي وضعت به أسس الصحة النفسية والجسمية للأجيال من بعدها . . على ما كانت عليه من بساطة في العيش . .

ثم ها هي ذي حضارة الغرب تدل ببعض هذه المباديء فتزعم أنها سبقت إليها ، ويخدع السطحيون بادعاء كاذب يحاول سرقة تراثنا الأصيل .

تراث رسخت دعائمه المرأة العربية التي لم تكن تملك سوى فطرتها وعروبتها . . بعيداً عن كل متاع مستورد . .

لم تتلفع بفضل مئزرها     دعد ولم تسق دعد في العلب

ومع ذلك فقد قدمت الحياة أصول تقدمها . . وبقى على من أوقفوا حياتهم على التقليد الأعمى . . أن يعودوا إلى ماضيهم لينسجوا على منواله . . تجديداً له . واعتزازاً به . ودعوة إليه .

* * *

# الفصـــل الثالـث
# دور المدرسة في تربية النشء

*** ماذا يتعلم الناشيء وكيف ؟**

المقصود بهذه المرحلة من عمر الطفل . . هـو الولايـة على النفس بالحفظ والصيانة والتعليم . . والتي تعقب فترة الحضانة مباشرة .

وسواء أكانت هذه الولاية في المدرسة أو المسجد أو الكُتاب . . فإن الأمر لا يختلف من وجهة النظر الإسلامية التي تولي هذه المرحلة عناية خاصـة . . لتجيء إمتداداً لجهد الأسرة المبذول . . حتى تظل سلسلة التربية موصولة الحلقات . . تتفق فيها جهود الأسرة . . مع جهود المدرسة . . وتنسق خطواتها عبر طريق واحد . . تفر بالطفل الصغير من ذلك التناقض الذي يربكه ، لو أنه لم يجد في مدرسته صدى لما ألفه في بيته .

بقدر ما يكون اتساق المدرسة والبيت تدعيماً لقيم تضرب جذورها في نفسه بالممارسة . . والتكيف المستمر . . ليقدمه إلى المجتمع في النهاية رجلاً راشداً . . يتحمل مسؤولية هو أحق بها وأهلها .

* * *

وتجدر الإشارة إلى أن مراحل النمو الاجتماعي للطفل ليست محدودة لدرجة يمكننا فيها تقسيم عمر الطفل إلى فترات يستقل كل جهاز بدوره استقـلالاً تامـاً لا يشركه فيه غيره . .

ومعنى ذلك أن دور المدرسة لا ينهي واجب الأسرة في المتابعة والتوجيه . .

وهما معا ـ كل فيما يخصه ـ يتحملان مسؤولية الوصول بالطفل إلى مشارف الرجولة .

* * *

ومن تمام المعنى أن نشير إلى المباديء التربوية المستوردة في إعداد جيل صالح . .

وذلك مردود إلى اتساع الهوة بين ما يراه ويسمعه في البيت . . وما يتلقاه في المدرسة من مناهج مضادة لما أخذ به في بيته صغيراً . .

وربما كان لهذه المناهج الأجنبية مجالها حيث نبتت في عقول رجالها هناك . .

لكنها تصبح هنا مشكلة تضاف إلى مشاكلنا . .

ومثل ذلك ـ على حد تعبير بعض العلماء ـ كمثل رجل رأى شخصاً معلقاً في أعلى نخلة فنصح أهله بجذبه بحبل طويل يسلم إليه طرفه . . فوقع على الأرض محطماً . . أو كذلك الصقر الذي نجا من الطوفان . . واعتلى شجرة . . ثم أشفق على السمكة بين الأمواج الهائجة فأخرجها . . فماتت السمكة ! !

إن الحبل لإنقاذ غريق من بين الأمواج . . لا لجذب متسلق نخلة . .

والسمكة بعيداً عن الماء . . لا تعيش . .

وكذلك الصبي المسلم :

لا يصلح أمره إلا بما صلح به أمر إخوة له من قبل .

عاشوا على منهج الإسلام بين أسرة تلتزم به .

ومجتمع يسير على هداه . . فاستوى عوده في تربة صالحة مصلحة . .

* * *

أما إذا صلح المنهج في المدرسة . . بينما بقيت أجهزة التوجيه الأخرى تهدم تبنيه . فلن يبلغ البنيان يوماً تمامه .

ومن سمات التربية الإسلامية أن التعاون فيها لازم بين النظام التعليمي في المدرسة ، وأجهزة التوجيه الأخرى في المجتمع ، مثل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ، والصحافة ، ووسائل النشر ، والمسجد والبيت والمجتمع ، فهي نظام تربوي يمثل الإطار العام للنظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للدولة ، وذلك لأن هذه النظم وتلك الأنشطة كلها في خدمة المواطن المسلم الإنسان الساعي إلى تحقيق

وجوده الأكبر في الحياة وهو إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى ، والتقرب إليه بما طلب منه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1] . ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾[2] . لأن العبادة في مظهرها العام هي الترجمة الفعلية لمشاعر الفرد نحو خالقه . وخضوعه واستسلامه له ، وهي التي تربط الفرد المسلم بمجتمعه لأن العبادات كلها تهدف إلى تماسك المسلمين وترابطهم واتحادهم في المنهج والمصير .

وهذه الظاهرة التربوية التي تهدف التربية الإسلامية إلى تأصيلها وتعميقها هي هدف مستمد من طبيعة المجتمع المسلم وسماته لأنه مجتمع يهدف إلى تحرير الإنسان من عبادة غير الله والحكم بشريعته والتمسك بقيم الإسلام وتقاليده إنطلاقاً من منهج الله شريعة ونظاماً[3] .

* * *

*** أساس المنهج الإسلامي في التربية :**

لم يكن مقصود التربية في الإسلام حشو أدمغة الصبيان بمختلف العلوم من أجل الحصول على شهادة .

بيد أن جوهر التربية فيه هو :

أن يتكيف بحقائق العلم الإلهي . . لتصير ملكة الخير طبيعته التي تصدر عنها أفعال الخير بلا تكلف . . على يد مرب ماهر ، يقف منه موقف سائس الفرس : يأخذه بيد صناع . . وقلب كبير إلى حيث يترقى في مدارج الكمال رويداً . . عن طريق القدوة الحسنة . . والعلم الصحيح . .

ولن يصل المربي بالطفل إلى هذا المستوى إلا على أساس القاعدة الصلبة : الإيمان بالله عز وجل . .

بحيث تصبح العلوم الدنيوية ـ مهما كان خطرها ـ عاملاً إضافياً بعد الإيمان بالله عز وجل . .

ويصبح الصبي الفقير في إيمانه جاهلاً في منطق الإسلام ، مهما كانت درجة تفوقه على زملائه . .

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) النور : ٥٥ .

(٣) د . عباس محجوب : الأمة ، جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ .

وهذا بعض ما يفهم من قوله عز وجل :

**﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾**[1] .

فالله عز وجل يخاطب المؤمنين جميعاً فيأمرهم بالطاعة . . وينفرهم من المعاصي ، فراراً بأنفسهم وأهليهم من نار حامية . .

ولن تتحقق هذه النجاة بالشهادات الدنيوية وحدها ما لم يتم الحصول عليها على هذا الأساس الإسلامي . .

وبذلك يتحقق مقصود التربية في الإسلام . .

وفي هذا المعنى يقول الزمخشري تفسيراً للآية الكريمة :

**﴿ قوا أنفسكم ﴾** بترك المعاصي ، وفعل الطاعات ، **﴿ وأهليكم ﴾** . . بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم . .

وفي الحديث : رحم الله رجلاً قال : يا أهلاه . . صلاتكم . . صيامكم . . زكاتكم . . مسكينكم . . يتيمكم . . جيرانكم . لعل الله يجمعكم معه في الجنة » .

وقيل : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل أهله » .

فالجهل في منطق الإسلام ليس هو فقدان المعارف الدنيوية ولكنه على التحقيق :

ترك ما أمر الله به . . وارتكاب ما نهى عنه .

ولا تنتهي مسؤولية الوالد عند حد التنبيه إلى فرائض الإسلام من صيام وصلاة وزكاة . .

بل لا بد أن يكون له موقف عملي يعين أهله على أمر الله تعالى .

ويروي الخطيب الشربيني في هذا المعنى . . موقف كلا الزوجين لو قصر أحدهما :

قال ﷺ : « **رحم الله امرءاً قام من الليل فصلى فأيقظ أهله ، فإن لم تقم رش على وجهها الماء . . رحم الله إمرأة قامت من الليل تصلي ، وأيقظت زوجها ، فإن لم يقم رشت على وجهه الماء** » .

---

(١) التحريم : ٦ .

فكلا الزوجين مطالب بالصلاة في مواقيتها . .

ومن تمام واجبه إيقاظ صاحبه . . لا بالعنف . . ولكن بوسيلة تعين فعلاً على مزايلة آثار النوم . . وهي الماء الذي يرش الوجه والجسد فينعش ثم ينهض للصلاة بلا كسل . .

* * *

ويدخل الولد في الأمر بالوقاية دخولاً أولياً . . على ما يقول بعض العلماء :

« لما قال : ﴿ قوا أنفسكم ﴾ . . دخل فيه الأولاد . . لأن الولد بعض منه » .

على أن الوقاية موقف عمل إيجابي يقف بالوالدين عند مستوى مسؤوليتهما . . فلا يكتفيان بمجرد التنبيه والوعظ . .

ولكن . . ليقيما من أنفسهما حاجزاً يصون البيت كله . . قبل أن يسقط في النار .

وقد تمثل هذا المعنى فيما روي : « أن أنصاريا كان له ابنان تنصرا قبل المبعث ، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما ، وقال : والله لا أدعكما حتى تسلما . . فأبيا . .

فاختصموا إلى رسول الله ﷺ . .

فقال الأنصاري : يا رسول الله . . أيدخل بعضي النار وأنا أنظر ؟ !

فنزل قوله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾[1] .

ومن المقرر أن حرص الوالد على اسلام ولديه ليس كحرص رسول الله ﷺ الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . فهو أشوق منه إلى هدايتهما .

ومع ذلك فقد رفض ﷺ إسلاماً يؤسس على عواطف الكراهية . .

ولا بد من توفير عنصر الرغبة الشخصية . . والاتجاه الحر من قبل الولد . . حتى إذا حصل الإيمان بمحض اختياره كان ذلك أدعى إلى استتباعه آثاره من العمل الصالح . .

بيد ذلك كله لا ينسينا موقف والد قلق على بعضه يساق إلى النار . . ثم تحول

---

(١) الشربيني في تفسيره للآية الكريمة ـ والآية من سورة البقرة : ٢٥٦ .

هذا القلق إلى رغبة ملحة وموقف عملي ، ينتهي إلى رسول الله ﷺ . . ليقول كلمة الحق على النحو الذي رأيت .

* * *

ولقد حرص علماؤنا على ربط الولد بالله تعالى أولاً . . وإقامة حياته على القاعدة الصلبة . . وهي : الإيمان بالله تعالى . . حتى إذا رسخت العقيدة في نفسه . . وصح تصوره لمعنى الأولوهية وما يجب لله تعالى من صفات الجلال والجمال . . انعكس ذلك على نفسه . .

والأصل في ذلك ما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : « كنت خلف النبي ﷺ يوماً ، فقال لي : « **يا غلام . . إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله .**

**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء . . لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك .**

**وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف** »[1] .

وأنت خبير بأن رسوخ هذه العقيدة في نفس الصبي . . من شأنه أن يقف به مواقف الرجولة في تعامله مع الناس والأحداث . . ويطلق لسانه فلا يعقده الخوف . . ويحرك قواه الكامنة فيه لتقوم بدورها في الحياة . . بحيث تصير ثقته الكاملة بربه سبحانه عامل ازدهار وتقدم . .

وفي ذلك يقول ابن رجب في تعليقه على الحديث الشريف :

« إن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، من خير أو شر ونفع وضر . . وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة . علم حينئذٍ أن الله وحده هو الضار النافع ، المعطي المانع . فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل . وإقراره بالطاعة وحفظ حدوده .

فإن المعبود يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار . . ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر . . ولا يغني عن عابده شيئاً . .

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يمنع غير الله . . أوجب له ذلك إقراره بالخوف والرجاء . . والمحبة والسؤال . والتضرع والدعاء وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعاً . وأن يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً . . وإقرار بالاستعانة به والسؤال له . وإخلاص الدعاء له . . في حال الشدة وحال الرخاء »[1] .

ولا يغرب عنك ما يحققه الإيمان بالله تعالى من صيانة لقوى الإنسان المادية من التمزق في ساحات الأهواء البشرية . . لأنه قيد ضابط يحفظ توازن الإنسان . . فلا يفرط . . كما أنه لا يفرط(*) . .

يقول ابن رجب في المرجع السابق :

« من حفظ الله في صباه وقوته . . حفظه الله في حال كبره . . وضعف قوته . . ومتعه بسمعه وبصره . وحوله وقوته وعمله .

وكان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو متمتع بقوته وعقله . . فوثب يوماً وثبة شديدة . .

فعوتب في ذلك فقال :

هذه جوارح حفظناها من المعاصي في الصغر . . فحفظها الله علينا في الكبر . .

وعكس هذا . . أن بعض السلف رأى شيخاً يسأل الناس فقال : « إن هذا ضيع الله في صغره . فضيعه الله في كبره » .

* * *

ولا تقتصر فائدة الإيمان على تكميل الإنسان بخلال البر . بل أن بركة العمل الصالح لتمتد عبر المستقبل . . لتشتمل الذرية التي تصلح لصلاح الوالد البار .

وقد روي « أن الله تعالى يحفظ العبد لصلاحه بعد موته في ذريته » . .

كما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وكان أبوهما صالحاً** ﴾[2] . . الآية أنهما حفظا بصلاح أبيهما . .

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ، تحقيق د . محمد الأحمدي أبو النور .

(*) يفرط : الأولى بفتح الياء وتسكين الفاء وضم الراء ، والثانية بضم الياء وفتح الفاء وكسر الراء مع التشديد .

(٢) الكهف : ٨٢ .

قال سعيد بن المسيب لابنه :

لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك . ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وكان أبوهما صالحاً** ﴾[1] .

* * *

يقول الدكتور عباس محجوب :

كل نظام في العالم اليوم له خصائصه التي تميزه عن الأنظمة الأخرى ، وأهم هذه الخصائص تتمثل في تكيف النظام التعليمي بالأيدولوجية التي تدين بها الأمة ، ثم ارتباط هذا النظام بنمط أخلاقي معين فالغرض الأساسي لنظام التعليم في الإسلام هو معلوم ـ كان ـ وينبغي أن يكون موجها إلى روح الأخلاق الإسلامية والإيمان بطبيعة هذا الدين ومنهجه وأهدافه في الحياة ليكون من نتاج هذا التعليم شباب مسلم مسلح بالقيم الإسلامية والمعارف الأساسية ، وتوجيه الشباب المسلم إلى هذه الغاية لن يتم بمجرد دراستهم للعلوم الشرعية كالفقه والحديث والتوحيد والأصول ، بل عن طريق تغلغل روح الإسلام إلى درجة التشبع في كل المواد التي تدرس كالجغرافيا والعلوم والاقتصاد والهندسة والطب وغيرهما من المواد التي هي مثار إهتمام البشرية ودراستها .

* * *

*** التعليم يخضع للمبدأ :**

إننا نشاهد اليوم الفلسفة الماركسية تدرس في الإتحاد السوفياتي ومعظم الدول الاشتراكية كجزء أساسي من مقررات النظام التعليمي ، ثم هي داخلة في كل مادة تدرس . فهم يدرسون العالم كله من واقع هذه الفلسفة ونظرياتها ، فإذا أخذنا مثلاً مادة التاريخ فهم يدرسون تاريخ أفريقيا على أساس ربطه بصراع الأفارقة الطويل مع الاستعمار ، كما يدرسون تاريخ أمريكا من واقع استعماريتها ، وقضائها على الهنود . ويركزون في دراسة التاريخ على ما يقوى تفسيرهم المادي له ، فتاريخ العالم القديم ما هو إلا تاريخ سيادة العبودية والرق للشعوب ، وتاريخ العصور الوسطى هو تاريخ الاقطاع ، وذلك كله بهدف التعميق في نفوس الطلاب إلى المجتمع الاشتراكي الذي يطالبون ببنائه هو نتيجة الحركة الحتمية للتاريخ ، أو ثمرة الحركة العلمية للتاريخ

---

(١) المرجع والموضع السابق .

للوصول في النهاية إلى الاشتراكية ثم إلى الشيوعية ، وكما يعتبر المسلمون تعلم العربية مهماً للمسلمين باعتبارها لغة القرآن . . ودعامة الدين . . فإن اللغة الروسية تدرس في البلدان الاشتراكية باعتبار أن الاتحاد السوفياتي الأنموذج الأول للاشتراكية في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا ، فالاشتراكية تدرس بطرق مباشرة وغير مباشرة ، ويعلن عنها كشعارات للدولة والشباب . . وتستعمل لذلك الوسائل السمعية والبصرية ، لذا تعجب ممن يتعجبون من تحكيم الإسلام في كل شيء واتخاذه أساساً للتربية خاصة . . والحياة عامة ، وغرس مثله ومبادئه بكل الوسائل والطرق التي أقرها الإسلام لمناهضة الباطل الذي يروج له اليوم »[1] .

* * *

*** حضانة العلم . . وحضانة التربية :**

إن التكيف بحقائق العلم الإلهي . . والوصول بالصبي إلى درجة الامتثال لأمر الله تعالى لا يتم بحشو دماغه بمختلف المعارف وشتى الثقافات . . كما قلنا .

بل إن الأمر أخطر من ذلك . . ومن ثم فهو في حاجة إلى مدى طويل . . ما دام المقصود الأصلي تربية الناشيء ليطيع الله . . ويتجنب معصيته . .

من أجل ذلك يفرق العلماء بين حضانة العلم . . وحضانة التربية .

فالاختلاف واضح بين الزمن المطلوب ليجني الفرد ثمرة ذلك العلم . . وبين الزمن اللازم للتخلق بالسلوك الراشد وهو غاية التربية .

ومن المفيد هنا أن نشير إلى ما حدث لبني إسرائيل في التيه . . لصلته الوثيقة بمدة الحضانة الأخلاقية التي يمكن أن نفيد منها في تربيتنا لأولادنا وإعدادهم للمستقبل :

يقول سبحانه وتعالى :

**﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة ، يتيهون في الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾**[2] .

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار في تعليق على الآية الكريمة :

« العلماء يقررون : أن حضانة العلم : خمس عشرة سنة . .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المائدة : ٢٦ .

فإذا ابتدأت أمة تتعلم ، فإنها تجني ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة .

أما حضانة الأخلاق : فمدتها أربعين سنة . .

فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق ، فإنها لا تجني الثمرة إلا بعد أربعين سنة .

لذلك أراد الله تعالى أن يبقي بني إسرائيل في البرية أربعين سنة حتى يفنى الجيل الذي نشأ في الذل والاستعباد . . وينشأ جيل ألف الحرية ولم تذله العبودية » .

* * *

ومقصودنا بضرب هذا المثل بيان عملية التربية على أساس الإيمان بالله تعالى . . وما يتطلبه من جهد موصول يحقق في النهاية غاية التربية .

بقدر ما يبرز الفرق بين التعليم من أجل الحصول على شهادة . . مع إهمال جانب التربية العملية وأخذ الصبي بالطاعة . . وتنفيره من المعصية .

* * *

* مناهج التعليم :

استشعر علماء التربية المسلمون غاية التربية المحكومة بالإيمان بالله تعالى . . مما حملهم على توخي الدقة في إعداد الطفل . . وحظيت عملية التربية والتعليم لديهم بأهمية تكافيء خطرها وآثارها .

تحدثوا عن المكان المناسب لتلقي العلم ، ثم عن العلوم التي يؤخذ بها الناشيء . . وضرورة ملاحظته لاكتشاف مواهبه وقدراته الفردية ليوجه تبعاً لذلك إلى نوع التعليم اللائق به . .

وأن يتم ذلك كله في رفقة طيبة تعينه على الخير . .

ثم أفاضوا في بيان العلوم الواجب أخذ الطالب بها . . وبيان الأهم والمهم منها . .

* * *

* مكان التعليم :

أما عن مكان التعليم فأفضل مكان هو المسجد :

يقول العبدري في كتابه « المدخل » :

« أفضل مواضع التدريس هو المسجد . .

لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة . . أو تخمد به بدعة ، أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى .

والمسجد يحصل به هذا الغرض متوافراً . . لأنه موضع اجتماع الناس : رفيعهم ووضيعهم . . عالمهم وجاهلهم »[1] .

إن للمسجد إيحاءه لدى المتعلم . . بما يظلله من جو روحي . . يضفي على المكان قدسية خاصة . . تساعد بلا شك على الافادة مما يقال ويفعل . .

ولما كانت غاية التعلم عملية بالدرجة الأولى .

« لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر سنة ، أو تخمد بدعة » .

بالإضافة إلى ما يحصله الطالب من علوم نظرية .

« أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى » .

لما كان ذلك غاية التربية الإسلامية . . كان المسجد . . أفضل مكان للتعليم . . لما سبق . . ولما يجتمع فيه من مستويات مختلفة تتيح فرصة أعمال الخير بقدر هذه الجموع الغفيرة . . والتلميذ يرى ذلك كله . . وتحت إشراف المربي تتم عملية التربية بنجاح .

وقد كان أسلافنا يدخلون المسجد تاركين وراءهم الدنيا . . على ما يقول أحدهم .

« كنا نترك الدنيا مع نعالنا على باب المسجد » مما يحمل على الاعتقاد بأن حضور النية وصفاء القريحة داخل المسجد عون للفتى .

إن أهل العلم كانوا يرون أن ميدانهم الطبيعي هو المساجد ، وهذا هو الوضع الصحيح الذي يتفق مع المقصد الأسمى الذي استهدفه النبي ﷺ حين بنى مسجده الأعظم في دار هجرته .

فقد حذا حذوه في ملازمة المساجد ، لنشر الدعوة والعلم ـ العلماء العاملون ، واتخذوه مستقراً لهم ومقاماً ، يتعهدون به الناس ، ويزقون طلاب العلم ، من غبش الفجر ، إلى غسق الليل .

---

(١) المدخل للعبدري جـ١ ص ٨٥ .

هذا ـ على سبيل المثال ـ محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي ، العالم النحوي القاريء المشهور ، صاحب الألفية ، التي ذاعت في الشرق والغرب ، واستظهرها العلماء والطلاب في الماضي والحاضر ، كان من علماء القرن السابع الهجري ، نشأ في الأندلس ، الفردوس الذي فقده المسلمون وأخرجهم منه اختلافهم واتخاذهم الكفار أعواناً على المؤمنين ، ونزل في دمشق ، فكان في مسجدها الإمام والمعلم ، فدرس القراءات ، وروى الحديث ، وكان من المتحمسين للاستشهاد به في النحو ، الذي رسخت قدمه فيه ، إلى درجة أنه كان يقول في صاحب المفصل ـ وهو الزمخشري ـ : إنه نحوي صغير .

فتحدث الرواة عن مبلغ صلة الإمام الشيخ ابن مالك بالجامع الأموي ، ونشره فيه العلم ، فذكروا أنه كان أول من يدخل المسجد ، في الثلث الأخير ، فيتعبد ويتنسك ، ما شاء الله له أن يفعل ، فإذا صلى الفجر ، التفت إلى حلقاته في المسجد ، من طلاب العلم : فمن حلقة القراءات ، إلى حلقة الحديث ، إلى حلقة اللغة ، إلى حلقة العربية في النحو والصرف ، حتى ترفع الشمس ، وتكون الضحوة الكبرى .

وينصرف الطلاب عن الشيخ ، طلباً للرزق والسعي على العيال ، فينهض الشيخ فيصلي الضحى ، فإذا أتمها انطلق إلى باب الجامع الأموي الكبير ، فوقف عنده ، ونادى في المشاة وأهل السوق :

أيها المسلمون . . ألا من طالب علم فأعلمه ؟ ألا من طالب قرآن وتفسير ؟ ألا من طالب للغة ؟ ألا من طالب للنحو ؟ ألا من طالب للصرف ؟ ألا . . ألا . . فإن أتاه أحد ، عاد إلى المسجد ، فجلس إليه ، وعلمه : وإن لم يسأله أحد ، انطلق إلى شؤونه ، وهو يقول : الآن أبرأت نفسي من اثم كتمان العلم .

هذه الصورة توضح مبلغ صلة العلم بالمساجد وعمارتها بالذكر ، والدعوة والارشاد والتعليم .

وأذكر أن المساجد الكبرى في بلاد الشام ، حتى هذه الأيام ، ما تخلوا من التدريس للعامة والخاصة ، عقب كل فريضة ، في الليل والنهار ، وأن هذه المساجد لا تغلق في النهار أبداً ، وإن قل أن تجد مسجداً لا تنعقد فيه حلقات العلم ، بعد صلاة الفجر .

وكان يغلب على المساجد أن يقصدها الشيوخ والشيب والكهول ، فأصبح

الذين يرتادونها جلهم من الشباب والحدثان ، وأصبح هؤلاء وأولئك يجدون في المساجد الهدوء المنشود ، والراحة من صخب الحياة ، وطغيان المادة ، فيتلون القرآن، ويقرؤون في الكتب العلمية ، ويجدون من يعلمهم ما عسر عليهم فهمه من الدروس ، ويجدد لهم النشاط ، ويحبب إليهم العلم .

وانتشرت هذه الطريقة الحميدة ـ بحمد الله ـ في كثير من أقطار البلاد العربية والاسلامية ، وأصبحت المساجد كمدارس شعبية للتعليم والتربية الدينية ، بل أصبحت كالمنتدى للقاء الفكر ، وبث الدعوة ، وغرس العقيدة السليمة في نفوس النشء ، كما أصبحت ـ بحمد الله أيضاً ـ مثابة لعلاج الشاردين من الصغار ، واللاعبين والعابثين ، واستصلاح للمفتونين بالحضارة الغربية، والمأخوذين بسرابها الخادع .

حدثني صديق لي ، أنه تعب من تأديب ولده الوحيد ، وجعله على سواء السبيل ، واستعياب دروسه ، وكاد يستيئس من اصلاحه ، فأشار عليه جاره ـ وكان من المصلين في الجامع ـ ألّ يصحبه إلى المسجد ، ويسلكه في حلقة من حلقاتها ، ففعل ، وهو غير متفائل ، وإذا بالولد ـ بعد فترة لم تطل ـ يسابق زملاءه إلى المسجد ، ويسبق الجار إليه ، وينافس المتفوقين من زملاءه في المدرسة ، ويتنفس الوالد الصعداء ، ويرسلها حمداً لله كثيرا ، على هذه النعمة العظيمة التي أسداها إليه المسجد في شخص ولده وامتداد أمله فقلبه له رأساً على عقب وأصبح فتى سوياً ، كأحسن ما يصنع الفتيان ، على أعين المعلمين .

اتجهت النفوس الصالحة ، في العشرات السنين الأخيرة ، إلى العناية بالمساجد ، تشييداً واستكمالاً لحاجة النشء فيها إلى ما يصلح الفكر والقلب ، ويرهف الحس والذوق والفن ، ويملأ الفراغ ، ويستوعب مجالات النشاط . .

أعرف مسجداً في مصر ، بني حديثاً ، فيه قاعة محاضرات ، ومكتبة للمطالعة ، وصالة لبعض الرياضات البدنية الخفيفة ، وفيه مستوصف للعلاج المجاني ، ومعمل لصنع السجاد ، وفرع لتعليم الأميين ، وركن للأشرطة والاعلام الديني . . كأنه موسوعة علمية عملية عجيبة .

ولئن سبقت مصر في هذا ، وغيره ، فقد سبق إلى تكميل المساجد ، آباؤنا الأولون ، الذين استفادوا من حديث استباق النبي ﷺ ـ وعائشة ـ رضي الله عنها ـ في المسجد ، على ما رواه الإمام أحمد ، فألحقوا ببعض المساجد ملاعب للرياضة ، والفروسية والرمي . .

والذين كانوا في الحروب الصليبية من خلائف الصليبيين ، يقصون علينا هذه القصة المعبرة ، ويصفون البيئة التي كان فيها المسجد ، والحريم المتخذ حوله فقالوا :

على مقربة من طرطوس ، على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، وفي رحلة ميناء ، بعيدة الأرجاء ، تنتهي في الساحل ، وتتصل بسفح الجبل الشامخ ، أقيمت في حدود ميدان للرماية ، في زاويته مسجد متواضع ، فيه بضعة عشر فتى . فقط ، يقوم على تعليمهم القرآن شيخ معمم وقور ، طويل اللحية ، حديد البصر ، مجعد الجبين ، تعلو بشرته البيضاء حمرة وشقرة ، تضفيان إلى شيبته نوراً وإشراقاً .

وفي الضحوة الكبرى ، هرع الشيخ وفتيانه إلى ميدان الرماية ، وكان إلى وقار الشيخوخة يتمتع بتحرك الشباب ، ونشاط الرياضة ، وخفة الجسم ، والصبر على تعليم الصغار ، وتدريبهم على الرماية .

مر صليبي ، وهو يسير متنقلاً في هذه الأرض ، التي ترحل عنها قومه ، دارساً معتبراً ، فوقعت عينه على الشيخ وفتيته ، واستوقفه هذا المشهد الغريب : شيخ في السبعينات من العمر ، وصغار لما يراهقوا بعد ، منهمكون في النبل والدريئة ، والاصابة والانحراف ، هذا أصاب الهدف ، مرحى له ، وهذا أخطأ فلينتبه ، وذاك يستعد لتسديد سهامه ، وهذا مقارب ، وذاك خطؤه فاحش ، وهذا عريف الفتية القائد ، الله أكبر ما أبرعه وما أروع إصابته .

عجب الصليبي من هذا المشهد ، وأكبره وأنكره في ذات نفسه ، وتابع رياضة النبالة ، فرأى على البعد تلميذاً صغيراً ، يجره تلميذ ، ويدفعه آخر ، وما زالا به حتى قدما به على الشيخ ، الذي ما أن رآه حتى انهال به ، يضربه ضرباً غير رفيق ولا رحيم ، بعصا الخيزران ، كان أعدها لتأديب العصاة ، لكن الشيخ قسا على الصغير ، واشتد في قسوته ، فاندفع الصليبي بغير شعور منه للتدخل في الأمر ، فاقترب من الشيخ ، وأمسك بيده وعصاه ، أقبل عليه يسأله ـ برطانته العجيبة الأعجمية ـ عن ذنب الغلام ، وعما فعل ، حتى أنزل به كل هذا العذاب والنكال ؟ . .

فقال الشيخ ، وهو يتوعد ويزمجر : « أنه فر من درس الرماية » ، فأطرق الصليبي برأسه ، وهو يقول في نفسه ، ولا يكاد يبين : « بهذا غلبونا » .

كذلك كانت التربية والترويض ، القرآن مع الرياضة المبكرة المفيدة ، والعلم

مع الرمي ، وبذلك غلبانهم ، وطهرنا منهم الساحل ، قبل قرون .

فهل تضاف إلى مساجدنا أندية رياضية ، تستهوي اللاعبين ، فتشبع رغبتهم في اللعب ، وتخفف من شغفهم العارم بالكرة ، بأنواع مفيدة من الرياضة البدنية ، والسباحة والرمي ، ويجد الناشئة في المساجد نور اليقين ، ورسوخ العقيدة ، وإقامة الأركان ، وقراءة القرآن ، وعلوم الدين ، ورياضة الأبدان ، وفنون القول والعمل الصالح ، واللعب المثمر .

إن ممارسة لعب الكرة ، إن أفاد الجسم قوة وخفة ، لا يفيد في مجالات القوة التي أمر القرآن بإعدادها للكفار ، وإنه سراب لا يغني ـ مع تكاليفه الباهظة ـ من الحق شيئاً ، وأن الحق سليب ، في الساحل والداخل ، لا يسترد باللعب ، وإنما يسترد بالقوة ، وما القوة إلا الرمي ، بتفسير سيد الوجود ـ ﷺ ـ بقوله : « **ألا إن القوة هي الرمي ، ألا إن القوة هي الرمي ، ألا إن القوة هي الرمي** » .

إذا استطعنا تحويل المساجد ، إلى مراكز إسلامية ، بكل ما في المركز من تكامل يستقطب النشء ، على النحو الذي قدمنا ، أمكن أن تؤدي المساجد رسالتها الدينية ، على وجه يناسب روح العصر »[1] .

وإنما يصلح هذه المساجد على هذا التخطيط ، اثنان :

الحاكم والعالم ، فالله يأخذ بأيديهما إلى هذا الاصلاح المنشود .

* * *

*** مراعاة مستوى الذكاء :**

والإمام أبو حامد الغزالي يطالب المعلم « أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفر »[2] .

* * *

*** التعليم الفني :**

ويترتب على ذلك متابعته لاكتشاف قدراته الفردية . . وتوجيهه إلى ما يحسن من صور التعليم الفني .

---

(١) د . محمد فوزي فيض الله ـ الوعي الإسلامي ـ شوال ١٤٠٣ هـ .

(٢) الإحياء جـ ١ ص ٥٧ .

يقول ابن سينا : « ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية ، ولكن ما شاكل طبعه . .

ولذلك ينبغي لمدبر الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولاً طبع الصبي ، ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه ، فيختار له الصناعات بحسب ذلك » .

* * *

*** رفقة الخير :**

ويتم ذلك كله في بيئة مدرسية تعين الصبي على النجاح في دراسته .

وذلك يبرز مسؤولية المدرسة في اختيار الطلاب الصالحين . الذين يشكلون الرفقة الخيرة والمعينة على عمل الخير ، وتحصيل العلم . .

يقول الأستاذ عطية الأبراشي :

« وقد اهتمت التربية الإسلامية بما تعتبره التربية الحديثة من اكتشافها ، وهي المناداة باختيار « شلة الرفاق » فقد أوصى ابن سينا :

بأن يكون مع الصبي في مكتبه صبية حسنة آدابهم ، مرضية عاداتهم .

لأن الصبي عن الصبي ألقن ، وهو عنه أخذ ، وبه أنس »[1] .

* * *

## أثر البيئة في نفس الطفل

كان العهد المكي أطول في حياة الإسلام من العهد المدني (١٣ : ١٠) وما ذلك إلا لأن الإسلام قد راعى البيئة والوراثة وتأثيرهما في شخصية الإنسان .

ولذلك لم يعاجل الله سبحانه قريشاً بالعذاب :

فالتقليد غريزة . . ومفارقة المراكز الاجتماعية . . والتخلي عن العادات التي طبعتها البيئة . . أمر عسير . .

يقول الحق سبحانه :

**﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة ،**

---

(١) عطية الأبراشي ـ التربية الإسلامية ٦١٧ .

**هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن أتقى ﴾**[1] .

فهو سبحانه واسع المغفرة . . ومن ثم يعفو عن الصغائر ما اجتنبت الكبائر . .

وذلك :

لأنه سبحانه أنشأكم من الأرض بما فيها من عناصر تركت آثارها في نفوسكم . .

وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم . . تحملون منهما خصائص تؤثر في طباعكم في حياتكم .

* * *

وقد أرسل الله سبحانه رسلاً مبشرين ومنذرين ليصلحوا ما فسد من أخلاق الناس . .

فكانت البيئة الحافلة بنماذج الصلاح ينسج الناس على منوالها . . فتتكون بذلك عادات الخير . .

وتفرض هذه النعمة على الناس أن يحافظوا على هذه البيئة حتى لا تنبت عناصر السوء . . التي تفسد في الأرض بعد إصلاحها . . وتمهد السبيل أمام عناصر الشر لتبذر في التربة الصالحة بذور الفساد . .

ولعل هذا بعض ما يشير إليه قول الحق سبحانه :

**﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾**[2] .

يقول ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة :

« وقوله تعالى : **﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾** ، ينهي تعالى عن الافساد في الأرض . . وما أضره بعد الاصلاح !

فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ، ثم وقع الإفساد بعد ذلك . . كان

---

(١) النجم : ٣٢ .

(٢) الأعراف : ٥٦ .

أضر ما يكون على العباد . فنهى تعالى عن ذلك » .

* * *

ولا نقصد بالبيئة حالة الجو وطبيعة الأرض . . لكننا نقصد من يعاشرهم الطفل وعلى رأسهم أبوه وأمه . . وكيف كان اجتماعهم حول الطفل يشكل مدرسة يتعلم في صمت ما يؤثر في حياته تأثيراً يصعب الفكاك منه .

وقد وجد القرآن الكريم في العرب قوماً يفطنون لهذه الحقيقة . . ويقدرونها قدرها ما في التربية :

فقد كانوا يبعثون بالوليد إلى البيئة الصحراوية . . حتى ينشأ نشأة مستقلة تحفظ عليه ملكاته . .

وتعده لحمل تبعات المستقبل . . بعيداً عن جمهرة أقربائه الذين قد يتسابقون إلى تدليله . . أو مشاركته عمله . . على نحو يحرمه من ذات مستقلة قادرة على القيام بأعبائها . .

وقد كانوا يحترمون المرضعة احترام الأم . . لقاء ما تقدم للوليد من جميل يبقى أثره مع الأيام .

* * *

ويذكر الإمام الشافعي طرفاً من تجربته تلك . . مبيناً أثرها البارز في حياته العلمية :

« قال في وصف حياته الأولى :

ثم إني خرجت عن مكة ، فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها . . وآخذ طباعها . .

وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة :

أرحل برحيلهم ، وأنزل بنزولهم .

فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب »[1] .

* * *

---

(١) التربية الإسلامية للأستاذ محمد عطية الأبراشي ص ٩١ .

*** عندما نحرث في البحر :**

هذا هو أثر البيئة في صياغة الطفل وإعداده للمستقبل . .

وعندما نلقي اليوم نظرة فاحصة على هذا الواقع الذي نعيشه . . يتبين لنا أن المدرسة تحرث في البحر . . حينما تحاول أخذ الناشيء بعوائد الخير . . بينما تقوم أجهزة التوجيه الأخرى في إتجاه معاكس تهدم ما تبنيه . .

أصبح ملء سمع الطفل خليط من شتم وفحش وقذف . .

وملء بصره عرى وتهتك وتخنث . .

وملء فكره غموض وضباب . . يمزق أيامه بين ثغاء التلفاز ـ وخوار المذياع ، وجنون « البيك آب » ـ حتى نما النشء المسكين في فراغ مزعج من الروحانية الحقة ، مما جعل القلوب تقسو ، والسلوك ينحرف . . والأخلاق تنهار . .

وبمرور الأيام . . وكما غرز التلفاز الأمريكي في الأجيال الأمريكية الأخيرة حب الجريمة ، وكما زرع التلفاز الأوروبي في نفوس مشاهديه من الأطفال والشباب الرذيلة والميوعة والتمرد ، وذلك بما يبثه في الحصص المتابعة من مسلسلات وأفلام خليعة وليالي حمراء في القتل والإغتصاب والتهور ، فستدور الدائرة على النشء العربي المسلم إن دام الحال على ما هو .

فقد أجرى أحد الكتاب ، بعد محاولة اغتيال ـ ريجان ـ احصائية ظهر منها أن الولايات المتحدة يقتل فيها بالرصاص فقط حوالي عشرة آلاف شخص في السنة الواحدة ، أي بمعدل ثلاثين جريمة قتل في اليوم الواحد ، والأغرب من هذا أن الكاتب نفسه بعد إحصائية أخرى تقول إن الشخص الأمريكي حين يبلغ السادسة عشرة من عمره يكون قد شاهد خمسة عشر ألف ساعة من أفلام القتل والعنف في السينما ، وبرامج التلفزة ، أي أن الشاب الأمريكي يبلغ من المراهقة وقد رأى من الأفلام عن القتل والعنف والنسف والإغتصاب والإعتداء كمية تكفيه لأن يصبح متشعباً وربما مغرياً ومثيراً . .

ولقد بدأت إنعكسات البث المائع والمسلسلات الخليعة والأفلام الاجرامية تؤتي أكلها في نفسيات وسلوكيات هذا الجيل ، ونظرة منصفة في الصحف اليومية ، وما تنشره على صفحاتها الخاصة من القضايا والمحاكمات تبين لنا مدى هذا الارتكاس النكد ، مراودات في الشارع والحدائق والمحطات حسب الموضة المبثوثة على الشاشة . .

وبعد . . .

هل نقف مكتوفي الأيدي تجاه كل هذا ؟ !

ما هي التدابير التي يلزمنا إتخاذها كي ننقذ الطفولة البريئة من الانحلال والتفسخ الحضاري والتردي السلوكي والخلقي .

أرى من الضروري التعجيل بتنفيذ الآتي :

**أولاً** : تحصين الأسرة من « التغريب » مع رفض كل ما يفضي إلى سلوك مرتاب ، وخلق ذميم ، ومظهر مزر ، وارجاع البيت إلى إطاره الإسلامي ، وإحياء التعاليم الإسلامية السامية حيث الأمومة الدافئة الصادقة ، بحنانها الفطري الشامل ، ورحمتها الحانية الشفيقة ، ولبنها الشافي المغذي ، وحيث الأبوة الواعية النصوحة المجاهدة والمغذية بالدرهم الحلال . .

**ثانياً** : تحقيق تعاليم الدين والخلق السامي من طرف الأباء والأمهات والأبناء حتى يشم الطفل أريج الربانية ، فينمو على الإيمان ويحيا على العبودية لله تعالى . .

**ثالثاً** : إظهار القدوات الحسنة في البيت والشارع والمدرسة لكي يتأسى الطفل بالصالحين ويقتفي آثارهم ، وينسج على منوالهم .

**رابعاً** : إصلاح الاعلام جملة ، وتنقية ما يبث وينشر ويكتب ويشاهد . .

**خامساً** : تدريب الطفل على تعلم الشعائر الدينية وحثه على تطبيقها فيؤمر بالصلاة والتدريب على الصيام ، والرياضات المناسبة ، السباحة وركوب الخيل ، واستعمال الأدوات النظيفة في اللعب . عندئذٍ نستطيع أن نخرج جيلاً طلائعياً رائداً كتلك النماذج السامية . . من أبناء الصحابة والصالحين[1] .

يقولون ابن خلدون :

« إعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به الملة ، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم . . .

لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث . .

وصار القرآن أصل التعلم ، الذي ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات . .

---

(١) عبد القادر عقبار ـ الأمة ، جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ .

وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً ، وهو أصل لما بعده . .

لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات . .

وعلى حسب الأساس وأساليبه ، يكون حال ما ينبني عليه »[1] .

هذه ثمرات البدء بتعليم القرآن الكريم المتفقة مع روح الإسلام . . الداعية إلى ضرورة تثبيت دعائم الإيمان في النفوس . . ليسمق البناء بعد ذلك . .

ثم يناقش ابن خلدون وجهة النظر الداعية إلى تقديم تعليم العربية فيقول : « ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم . .

وأعاد في ذلك وبدأ . . وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، كما هو مذهب أهل الأندلس ، قال :

« لأن الشعر ديوان العرب ، ويدعو إلى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة . .

ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين . . ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة .

ثم قال :

ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره : يقرأ ما لا يفهم . . وينصب في أمر غيره أهم عليه ، ثم قال :

« ينظر في أصول الدين . ثم أصول الفقه . . ثم الجدل ، ثم الحديث وعلومه ـ ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان . . إلا أن يكون التعليم قليلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط .

هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله . .

وهو لعمري مذهب حسن ، إلا أن العوائد لا تساعد عليه . .

وهي أملك بالأحوال . .

ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن للتبرك والثواب ، وخشية ما

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٢١٥ .

يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع من العلم ، فيفوته ، القرآن .

لأنه ما دام في الحجر[1] منقاد للحكم . .

فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر ، فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة ، فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه » .

فالبدء بتعليم القرآن عبادة يثاب المرء عليها وتزدهر حياته بها . ثم هو فرصة ينبغي استغلالها قبل أن يفوت أوانها ، فيتحمل الآباء وزراً ما كان أغناهم عن تحمله .

وبهذا المنهج في التربية يتحقق للصبي جمال الباطن بالعقيدة الصادقة والمعرفة الصحيحة التي تحرك في نفسه بواعث البر والطاعة لله ورسوله . .

* * *

ولا ينقص ذلك من قيمة تعليم العربية أبداً . .

حتى أن ابن العربي حين قدم تعليمها . . فمن أجل الحفاظ على القرآن نفسه . . وإعداد الصبي كي يتحمل مسؤولية حفظه كما أنزله الله . .

وقد روى ابن خلدون صورة عملية للتربية في بيوت الحكام . . يمكن أن تكون نموذجاً لما يجب أن يكون عليه المربي من الالتزام ، والارتفاع إلى مستوى القدوة الحسنة . . واليقظة في أخذ الصبي بالقسوة الحازمة . . ثمّ أخذه بألوان من المعارف المحققة لمقصود التربية من وجهة النظر الإسلامية . . وذلك فيما نقله منسوباً إلى الرشيد . . في نصيحة أسداها إلى مؤدب ولده الأمين :

« يا أحمر . . إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه . .

وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، وبرفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . .

---

(١) يعني في رعاية والديه .

ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه . .

ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه . .

وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة »[1] .

وبمثل هذه الصرامة ، أو قل بمثل هذه الحكمة في أخذ مثل الأمين يتهيأ ليقود الدولة من نصر إلى نصر ، في مجال الأخلاق والجهاد على السواء . .

إن الرياضة الدائمة على الخلق الكريم المنبثق من القرآن والسنة . . واليقظة المستمرة إزاء معاملاته بل وحركاته كفيل بإعداده الأعداد السوي . . ليكون امتداد حياة أبيه . . أميناً على سمعته . . وحارساً يقظاً يرعى حقوق الوطن . .

فلا يخون ولا يغدر ولا ينافق .

* * *

وما يحدث اليوم من خلط في مناهج التعليم بين الصالح والسيء حرث للبحر . . تضيع في دوامته جهود المربين سدى . . فالمهم في التربية الإسلامية :

ملكات الصبي وصقلها لتتعامل مع الناس بنجاح وتأخذ دورها بقوة . ولا يهم حجم الكتب . . وضخامة المقررات بما تضم من ثقافات متعددة . . لا تستهدف بناء الناشيء الروحي . ولا تحافظ على كرامته كإنسان . .

من أجل ذلك . .

لم يكن التعقيد في العلوم هدفاً في الإسلام . . لأنه لون من الشدة يرفضها . . بل كانت السهولة سمة بارزة في تعليم الصبي . .

ووصولاً إلى ذلك يوصي العلماء بالبدء في التعليم بالسهل . . حتى لا يفر من التعليم جملة . . ما يطيقه . . ولا يطيقه . تحت وطأة اليأس الذي خلفه التعقيد .

يقول ابن خلدون :

« وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم . . وإفادته . .

---

(١) مقدمة ابن خلدون الموضع السابق .

ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العام . . ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها . .

ويحسبون ذلك مراناً على التعليم . . وصواباً فيه . ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله »[1] .

ويبدو الأمر خطيراً حين تهمل بعض دور التعليم حفظ القرآن الكريم . ثم تفرض على الطالب في نفس الوقت أعقد المسائل في الرياضة والعلوم وهو لم يبلغ الحلم بعد . .

التفريط في حفظ القرآن . .

وإرهاق الطالب بما لا طاقة له به . .

وهنا يرتكب المربون معصية لله حين يحرمون الناشيء من بركات القرآن وآثاره في النفس والروح . فيفقد كيانه الغض عناصر المقاومة لكل بأس وانحراف . .

فهل آن لنا أن نفهم . . لنرى في أي طريق نسير اليوم . .

إننا في بعض مواقفنا الثقافية نتبع سنن المبطلين شبراً بشبر وذراعاً بذراع . .

وعلينا أن نفتح الأبصار جيداً قبل أن نواصل هذا المسير . . لنصل بعون الله إلى أكرم مصير . .

* * *

وإذا كان القرآن الكريم هدفاً أساسياً . . وأن تعلُّم اللغة العربية سبيلاً إلى ذلك . . فقد صارت رعايتها أمراً لازماً . . فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . .

وهذا لا بد من وقفة قصيرة أمام هذا الاتجاه المتراخي في تعليم اللغة العربية على نحو جعلها موطن التساهل وحدها دون ما سواها من مواد ! . .

ولو كانت اللغة الأجنبية ! . .

بل أننا نسجل على بعض أولياء الأمور فزعهم حين يصاب مستوى أبنائهم في اللغة الأجنبية . . وربما احتاطوا لذلك بدفع من يليهم في السن إلى المدارس الأجنبية تفادياً لهذا النقص الخطير ! ! . .

---

(١) المقدمة : فصل ( وجه الصواب في تعليم العلوم ) .

ثم يتبلد الإحساس أمام هذا الضعف البادي في لغة القرآن . .

وإذا صح لبعض الآباء أن يتساهلوا . . فلا يليق بولي الأمر ذلك التساهل . . وهو المؤتمن على مستقبل الأجيال . .

وهنا نتساءل مذكرين بما يجب أن نذكره من وقائع تاريخنا :

فلم تكن الغارة الاستعمارية على العالم الإسلامي تستهدف احتلال الأرض . . بقدر ما كانت لوناً من الغزو الثقافي يراد به « التأثير على عقول أبناء الشرق وقلوبهم » . .

حتى إذا حقق بعض النجاح في حقل الشباب . . وأجبرته غضبة الشعب على الرحيل . . ذهب قرير العين . . مطمئن الفؤاد . . بعد أن خلف من ورائه من أشرب قلبه بحبه . وبلغ دفاعه عن قضاياه حداً صار به ملكياً . . أكثر من الملكيين ! !

* * *

وقد تسلح الاستعماريون بذكائهم عندما آثروا ألا يواجهوا العقيدة الإسلامية مواجهة مباشرة . . بل فضلوا أن يعودوا إلى الوراء خطوة . . لتجيء القفزة بعدها محكمة ! :

راحوا يروجون بيننا اللغات الأجنبية . . ويفسحون الطريق أمام المجيدين لها يفوزوا وحدهم بمناصب القيادة في وطننا . .

ومن وراء ذلك كله يدبر الذكاء الخبيث أمره بليل . .

ليتحقق الهدف الأكبر . . والذي جاءوا من أجله وهو إضعاف الروح الإسلامية في النفوس . . تمهيداً للسيطرة عليها . .

يقول المستشرق « زويمر » :

« من طريق اللغات الأجنبية يحتك الشباب بصحف أوروبا وبتمهيد السبيل لتقدم إسلامي مادي ، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم هذه الفكرة الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلها وانفرادها » .

هذه حقيقة تملأ وعينا ونحن نقرأ ما ذهبت إليه وزارة التربية من تخفيف مقررات اللغة العربية على الطلاب . .

ثم نتساءل :

لماذا لا ينسحب التخفيف على مقرر اللغات الأجنبية أيضاً ؟ ! إننا نسلم

بالتخفيف كمبدأ شريطة أن تظل اللغة العربية في مقامها الكريم .

وإذا كان لا بد من تساهل ففي مجال آخر . .

أما أن تبقى اللغة الأجنبية ذاتاً لا تمس . .

وتبقى للعلوم العصرية نفوذها داخل مجموع الدرجات .

ويظل كل ما يتصل بالدين هناك في منطقة شبه الظل . .

فذلك ما لا يسلم به أحد :

**أولاً** : لأنه ظلم يرفع به الميزان ما هو ناقص . . ويحط ما هو زائد . .

**ثانياً** : لأنه تجاهل للغة القرآن الكريم . . وإفساح للطريق أمام الشباب للتلقي عن غيرنا باللغة التي يجيدها . . في غيبة لغته التي لم تحظ بما يليق بها من اهتمام .

وأذكر هنا ما نشرته أخبار اليوم(١) أخيراً من تقديس للغة العربية في « موريتانيا » إلى حد كان خطأ المسلم في لغته عاراً يتخطاه ليشمل القبيلة كلها ! وأهم من ذلك رجع هذا التقديس إلى العقيدة . . أي أنهم يحترمون قواعدها لأنها أولاً وأخيراً . . لغة القرآن الكريم . .

هذا في الوقت الذي تخص فيه نحن لغة كتابنا بالتبسيط . . دون سواها . . فتسقط بذلك هيبتها . . وهيبة القائمين بتعليمها ! . .

ومن الغريب أن مادة « الرسم » لم تعد تحمل هذا الاسم . . بل صارت مادة « التربية الفنية » . . وهكذا أخذت تقوم بدورها في حقل التربية . . بينما انتبذت اللغة العربية مكاناً قصياً . . تندب حظها ! !

* * *

(١) من العار أن يخطيء أي موريتاني في اللغة العربية .

الكويت ـ لمراسل أخبار اليوم :

قال محمد عبد الرحمن سفير جمهورية موريتانيا الإسلامية بالكويت إن الشعب جميعه رجاله ونساؤه ، شيبه وشبانه ، لا يتحدثون إلا اللغة العربية الفصحى ، لأنها لغة القرآن الكريم الذي يحفظه كل موريتاني ، وكل موريتانية منذ الصغر ، بل إنه من العار أن يلحن الشخص الموريتاني في اللغة العربية ، بل أكثر من هذا فإن اللحن في اللغة العربية يعتبر فضيحة لا يقتصر ضررها على الشخص نفسه ، بل قبيلته كلها !

إن موقف أعدائنا من لغتنا أن يفتح أبصارنا جيداً إجراء يمس لغتنا :

إنهم يحاولون لفت الأنظار عنها . . وهدفهم الأكبر هو :

عزل الشباب بالذات عن مصدر قوتهم . .

ولا نجنح فيما نقرره الآن إلى الخيال بعد تبين من روح ديننا صلة اللغة الوثيقة بالعقيدة ذاتها . .

بمعنى أن التساهل فيها خطر يتهدد القرآن الكريم والسنة معاً . . حيث يصير ضعف ملكة اللغة ركوباً إلى عذاب الله . .

* * *

يقول ابن هبيرة :

« والله ما استوى رجلان : حسبهما واحد . ومروءتهما واحدة . . أحدهما يلحن والآخر لا يلحن . . إلا أن أفضلهما في الدنيا والآخرة . . الذي لا يلحن . .

فلما قيل له : هٰذا أفضل في الدنيا لفضل فصاحته وعربيته . . أرأيت إلى الآخرة ؟ ما له فضل فيها ؟ !

فقال : إنه يقرأ كتاب الله على ما أنزل ، والذي يلحن يحمله على أن يدخل في كتاب الله ما ليس فيه . ويخرج منه ما هو فيه »[1] .

وقال بعض العلماء :

« تعلموا النحو : فإن بني إسرائيل كفروا بكلمة واحدة كانت مشددة فخففوها . .

قال الله : « **يا عيسى إني ولدتك ـ مخففاً فكفروا** »[2] .

و « مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو مثل الدابة : عليها المخلاة ليس فيها شيء »[3] .

بل إن تعلم النحو ليعصم الإنسان من خطر الكذب على رسول الله ﷺ :

يقول الأصمعي : « إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل فيما قال النبي ﷺ :

---

(١) روضة العقلاء .

(٢) ، (٣) ، المرجع السابق ١٩٧ ـ ١٩٩ ـ ١٩٨ .

« من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . .

لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن لحاناً ، ولم يلحن في حديثه ، فمهما رويت عنه . . ولحنت فيه . . فقد كذبت عليه »[1] .

وليس بعد هذا القول من حديث لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً . اللهمّ ألا تلك الصورة الضاحكة التي ترسم إلى أي حد من الهوان يؤدي ضعف ملكة الذوق . . وذلك فيما روي أن تلميذاً سأل أستاذه : ما هو الكموج ؟

فقال الأستاذ : وأين رأيت هذه اللفظة ؟

قال : في قول امرىء القيس :

* وليل كموج البحر أرخى سدوله *

قال الأستاذ : نعم ! . . الكموج : دابة من دواب البحر . . تحمل الكتب . . ولا تعلم ما فيها ! !

* * *

ومن خلال هذا النذير الذي يدق أجراسه لإيقاظ النوام . .

نطالع بعض الصور المشرقة للحفاظ على لغة القرآن . .

مما يجدد الأمل في نهضة تفوت على أعدائنا أغراضهم . .

وذلك بما نشرته أخبار اليوم ـ وهو ما سبقت الاشارة إليه . .

* * *

## المؤاخذة على الخطأ بين التفريط والافراط

تذهب التربية المعاصرة في أحدث نظرياتها إلى الاقتصار في تقويم الطفل على عنصر الثواب وحده ، واستبعاد العقوبة من عملية التربية ، فراراً بالصبي من العقد النفسية . .

ونتساءل : هل حققت هذه النظريات أغراضها ؟

والجواب : . . كلا . .

والدليل : هذا الواقع الشاهد بفشلها في إعداد الأجيال وأخذها بعوائد الخير . .

(١) المرجع السابق .

« نشرت صحيفة أخبار اليوم تقريراً لمكتب التحقيقات الفيدرالي في أمريكا . . يقول التقرير :

زادت جرائم العنف في عام ١٩٨٠ بنسبة ١١٪ عن العام الذي قبله . وتضاعف بنسبة الجرائم أربع مرات في السنوات العشر الخوالي . وقد لقي في العام الماضي ٢٣ ألف شخص مصرعهم على أيدي المجرمين القتلة ، بالقياس إلى ٩٠٠٠ شخص منذ عشرين عاماً .

وفي عام ١٩٨٠ أيضاً تم اغتصاب ٨٣ ألف سيدة وفتاة .

وتعرض أكثر من نصف مليون شخص لحوادث السطو المسلح .

ولا يتمكن رجال البوليس من القبض إلا على نسبة ١٩٪ فقط من الجناة . . مما جعل عدد الجرائم يتزايد باستمرار ، حتى قدر عدد الجرائم التي تقع سنوياً في مدينة نيويورك وحدها بمليون جريمة .

وبالرغم من أن أمريكا تنفق سنوياً ٢٦ ألف مليون دولار لمكافحة الجريمة فالسلطات الأمريكية مع هذا تخوض معركة خاسرة حتى الآن ضد المجرمين » .

وستظل أمريكا تنفق المزيد . . وبنفس القدر ستتسع دائرة الاجرام . ما بقيت نظرياتها التربوية قائمة على عنصر الترغيب ، متجاهلة عنصر الترهيب . . أعني : ما تنكبت طريق الحق الذي رسخه الإسلام ، حين أقام البناء الاجتماعي للأمة على ركيزتيه الأساسيتين :

الثواب . . والعقاب .

الترغيب . . والترهيب . . فتحقق الأمن الاجتماعي على نحو غير مسبوق ، ولا ملحوق .

* * *

*** المنهج الإسلامي :**

وقف الإسلام بالعقوبة على سواء الصراط . . بين التفريط والافراط : حددها على قدر مفسدة الذنب . .

ولتحقق الأثر المطلوب في صيانة الأمن الاجتماعي .

وقد تكون حسية . . أو معنوية . . ترغيباً أو ترهيباً . .

وقد يجمع المربي بينهما إذا دعا إلى الجمع داع . .

يقول ابن القيم في « الجواب الكافي »[1] :

« إن العقوبة الشرعية . . شرعها الله سبحانه وتعالى على قدر مفسدة الذنب . وتقاضي الطبع لها . وجعلها الله سبحانه وتعالى ثلاثة أنواع :

القتل . . والقطع . . والجلد .

وجعل القتل بإزاء الكفر ، وما يليه وما يقرب منه وهو الزنا واللواط .

وجعل القطع بإزاء افساد الأموال الذي يمكن الاحتزاز فيه ، فإن السارق لا يمكن الاحتزاز منه .

وجعل الجلد بإزاء افساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف » .

يقول الشيخ سيد سابق :

« إقامة الحدود فيها نفع للناس :

لأنها تمنع الجرائم ، وتردع العصاة ، وتكف من تحدثه نفسه بانتهاك المحرمات ، وتحقق الأمن لكل فرد ، على نفسه وماله وعرضه وسمعته وحريته وكرامته »[2] .

إنها بمنزلة الكي بالنسبة للمريض المحتاج إليه ، وبمنزلة قطع العضو المتآكل ليسلم الجسم كله .

وكان للصحابة رضوان الله عليهم ـ عقوبات ـ إلى جانب الحدود ـ تناسب الذنب شدة وشغفاً يضربون بها المربوط . . ليخاف السائبّ !

« رأى عمر رضي الله عنه « ابن الزبير » وعليه ثوب حرير فمزقه عليه . .

فقال الزبير : أفزعت الصبي ، فقال : لا تكسوهم الحرير »[3] .

وكان يرى تجانس الجزاء والعمل أسلوب من أساليب التربية الرادعة :

« أمر بشاهد الزور فأركب دابة مقلوباً . . وأمر بتسويد وجهه فإنه لما قلب الحديث قلب وجهه ، ولما سود وجهه بالكذب سود وجهه »[4] .

* * *

---

(١) صفحة ١٣٢ .
(٢) فقه السنة ج ٢ ص ٣٠٥ .
(٣) الحسبة لابن تيمية ص ٦٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٦٦ .

وإذا يجمع المنهج القرآني بين الترغيب والترهيب فإنه يقدم عنصر الترغيب في أحيان كثيرة مشيراً بذلك إلى الهدف رحمته سبحانه على غضبه .

وليكون هذا المعنى واضحاً في أذهان المربين وهم يأخذون أولادهم بالمنهج الإسلامي .

ومن الآيات الجامعة بين عنصري الترغيب والترهيب . . والتي تقدم فيها الترغيب لفتا إليه وحضا عليه :

**﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾**[1] .

**﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ﴾**[2] .

**﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾**[3] .

* * *

*** قبس من السنة المطهرة :**

ومن الأحاديث النبوية ما يبين حكمه الحق سبحانه وتعالى في باب العقوبة . . وكيف جمعت بين الحسم واعتبار النواحي الإنسانية ابقاء على نفس المخطىء وعوناً لها على استئناف المسير :

« عن ابن عمر قال : أتى النبي ﷺ بسارق فقطعه . وكان غريباً لم يكن له أهل في المدينة ، قطعه في شدة البرد فقام رجل يقال له « فاتك » فضرب عليه خيمة وأوقد له نويرة ، فخرج النبي ﷺ في بعض الليل ، فأبصر النار ، فقال : **« ما هذه النار »** ؟ فقيل : يا رسول الله . . المصاب الذين قطعته كان غريباً . . آواه « فاتك » وضرب عليه خيمة وأوقد له نويرة ، فقال النبي ﷺ **« اللهمّ اغفر لفاتك ، كما آوى عبدك هذا المصاب »**[4] .

« والملاحظ أن الحدود والقصاص تتكون من عدد قليل من الجرائم أو المعاصي لا تزيد على الثمانية ، وهذا لا يعني أن ما عداها من أفعال يعتبر مباحاً ،

---

(١) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .
(٢) الإسراء : ٧ .
(٣) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٤) أسد الغابة ط الشعب ٤١٩٠ ص ٣٤٨ .

وإنما يعني أن الله قد ترك للإنسان أمر تجريم ما يشاء منها وفقاً لما تقتضيه مصلحته وما يفرضه التطور .

وهذا النظام دليل على أن الإنسان يملك حريته ويتمتع بإرادته فليس كل شيء مفروضاً عليه ونعتقد أن الذين يعيبون على الإسلام عدم إتيانه بنظام عقابي متكامل على حد زعمهم حيث اقتصر على بعض أحكام تتعلق بالجنايات والحدود ، لم يكونوا ليترددوا لحظة في أن ينعوا عليه جبريته لو أنه نص على جميع الجرائم ما كان منها قائماً في حياة الرسول ﷺ وما استجد بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وما سوف يستجد غداً وإلى ما يشاء الله ويصفوه بأنه لم يترك للإنسان شيئاً يستخدم فيه عقله ويمارس عليه إرادته .

ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلم الإنسان درساً بهذا الإيجار في التشريع والاختصار في التجريم وهو أن أمن الجماعة وطمأنينتها وسعادتها ليست بكثرة القوانين وتعدد التشريعات وإنما بصفاء النفوس وطهارة القلوب ويقظة الضمائر ، وهي أمور لا يوجدها القانون ولا توفرها العقوبات مهما تنوعت وتعددت .

ولعلنا نلاحظ ما بلغته القوانين في عصرنا هذا من كثرة وما أصبحت عليه المدونات القانونية من ضخامة ومع ذلك فإن الإنسان لا يكاد يشعر بالأمن أو الطمأنينة فضلاً عن عدم إحساسه بالسعادة والرضا في ظل قيم مادية صرفه أوحت بها الشهوات وزينتها الرغبات وغذتها النزوات فأغرقت الإنسان في بحر خضم من الصراع الذي هو وليد الشجع والطمع والأنانية وحب الذات .

ولذلك فإن عدم توسع الإسلام في التحريم يعد من معالم أصالته . فهو بعكس القوانين الوضعية ، سواء السابقة عليه أو اللاحقة له ، قصد أن تكون القيود القانونية فيما يتعلق بالسلوك أقل ما يمكن ، على أن يكون الاعتماد الأساسي على العادات التي يعمل على تكوينها من خلال التربية الإسلامية ، بحيث تصبح هذه العادات في صرامتها واستحالة الخروج عليها كأي قانون ، فهي قانون الضمير الذي يعلو في القيمة على غيره من القوانين ، وهذه الحقيقة البسيطة التي يتضمنها الإسلام والتي ظلت خافية على أعدائه ، أدركها عالم الاجرام الإيطالي ارتيوكوفري ، وعبر عنها قوله : « أعطوني قانوناً بسيطاً ومجتمعاً صالحاً أضمن لكم انخفاضاً عظيماً في معدلات الجريمة وأعطوني قانوناً صالحاً من كل الوجوه ومجتمعاً فاسداً أضمن لكم زيادة عظيمة في معدلات الجريمة ، وهذا هو سبق إليه الإسلام ، عدد قليل من

النصوص القانونية ومجتمع صالح »[1] .

ومع ذلك فقد كانت للإسلام تشريعاته التي ـ لو عمل بها ـ لما كانت هناك جريمة . . ولما كان هناك تجريم . .
فالإسلام شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يقوى الإيمان ولا تكون هناك ردة ، وشرع الزواج وحرم الخلوة حتى لا يكون هناك زنا ، وشرع نفقة الأقارب والزكاة وغيرها حتى لا تكون هناك سرقة ، ودعا إلى الكلمة الطيبة ونهى عن الغيبة والنميمة وغيرها حتى لا يكون هناك قذف ، وغير ذلك من النظم والقواعد التي تستأصل دوافع الجريمة قبل وقوعها .

فإذا وقعت الجريمة فهناك التوبة التي تطهر النفوس مما اقترفته من إثم ، تأمل قول الله تعالى : **﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم ﴾**[2] ، **﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾**[3] ، **﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾**[4] .

وأساس هذه الوقاية مركوز فيما تعبدنا الله تعالى به ، تطهيراً للنفس حتى لا تواقع الذنب . . حتى يكون جهادها الضائع في التخلص من الذنب بعد وقوعه ـ مدخراً لممارسة الفضيلة .

وهذا ما يشير إليه قول عمر رضي الله عنه : « ترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً » .

وفراراً بنا من هذا العناء ، وهذا الحزن الطويل ، تعبدنا الحق سبحانه وتعالى بما يحقق ذلك .

---

(١) د . أحمد المجذوب ، الوعي الإسلامي شوال ١٤٨٣ هـ .
(٢) المائدة : ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) النور : ٤ ، ٥ .
(٤) آل عمران : ١٣٥ .

يقول المودودي :

« هذه الصلاة ، وهذا الصوم ، وهذه الزكاة ، وهذا الحج . . هي كلها في الواقع فرضت من أجل الاستعداد لهذا الأمر . . ومن أجل تربية الانسان لهذا الأمر . .

فكما هو الحال في جميع دول العالم : يجري تدريب خاص للناس ، قبل تعيينهم في الجيش أو الشرطة أو الوظائف الأخرى ، فكذا يقوم دين الإسلام بتربية جميع الناس الذين سيعينون في وظائف تربية خاصة . ثم يطلب منهم بعد ذلك أن يجاهدوا ، وأن يقيموا حكم الله . والفرق : هو أن الأعمال التي توظف فيها العالم الناس لا تستلزم الأخلاق أو حقوق الله .

ولهذا فهذه الدول تريد فقط أن يكونوا عاملين ، سواء أكانوا من مرتكبي الفاحشة أو من شاربي الخمر ، أو سيء الخلق .

ولكن الدين الإلهي يريد من رجاله عملاً هو بأكمله على أخلاقي ولهذا فقبل أن يجعل منهم عمالاً وموظفين يجعلهم أولاً يخافون الله ويصبحون على خلق حميد ، وأصحاب نفوس صافية .

وهو يريد أن يوجد بداخلهم تلك القوة » .

وتدبير هذه القوة الدافعة موكول إلى ما تعبدنا تعالى به من فرائض ، نصون بها أنفسنا حتى لا تقع في الاثم والعصيان .

* * *

إن الصبي إنسان . . فهو يخطىء ويصيب . . وموقفنا منه في حالتي الخطأ والصواب محكوم بروح الإسلام كما وضحها موقف رسول الله ﷺ من هذا العبد المصاب . .

بل إن الأمر خطير بالنسبة للصبي . . لأنه يستهل حياته . . وعمره ما زال محدوداً . . فإذا لم نحسن أخذه بالعدل والحكمة جنينا عليه ولم نعنه على أمر الله سبحانه . .

مع ملاحظة أن خطأ الطفل ليس خطأه وحده . . ولكنه بلا ريب خطأ المجتمع قبله . . الذي لم يحسن الرعاية . . ولم يأخذ على يد المنحرفين تطهيراً للبيئة التي تترك طابعها في نفسية الطفل . . وكان الظن أن تبقى صالحة كما خلقها الله تعالى . . لينسج على منوال صالح . . على أن معرفة طبيعة الطفل ومزاجه أدعى إلى ندرة الخطأ وبالتالي تجنب العقاب إلى حد ما . هذه المعرفة تتيح له اكتشاف الخطأ

بنفسه ـ ثم محاولة إصلاحه . . على سنة التدرج . .

إن الصبي ـ في محاولته الاندماج بالمجتمع ـ يقع في الخطأ . . فلو أننا لم نحسن فهم طبيعته ولو أننا أسأنا استخدام سلطتنا كآباء ومربين . . جنينا على الطفل لأنه سوف يحاول الفرار من هذا الواقع . . بعد أن فشل في معايشته . .

وسوف تكبر مخاوفه رويداً . . وبالتالي يفسد تصوره للحياة فتفسد لذلك أحكامه على الناس والأحداث . .

وفي هذا من الخلل ما الله به عليم . .

وعلى المؤمن أن يأخذه برفق ليندمج في الحياة مستعيناً بتوجيهات الإسلام . . وما يرتبط من تجارب العلماء :

إن الطفل . . بذرة :

« والبذرة تبرز كل ما كمن فيها في شكل ثمرة . لكن هذه الثمرة ليست نهاية الشوط . فإنها تستحيل ـ آخر الأمر ـ إلى غذاء لا غنى عنه لحياة الإنسان .

وقد أودع الله النفّس البشرية قوى مختلفة . وهذه القوى كامنة في معظم النفوس . . ويحتاج الإنسان إلى فترة من الزمن حتى يتسنى له تنميتها إلى حد التمام . .

أضف إلى ذلك أن في النفس قوى خفية لم تظهر للآن على الوجه الآتم في أي فرد من الأفراد . . وإن كانت تظهر أحياناً في بعض النفوس العالية »(١) .

وحتى تأخذ شخصية الطفل طريقها نحو الكمال . .

لا بد من أخذه بلون من الحكمة ليصل به إلى مستقبل كريم .

* * *

وهذه الحكمة تتقاضى المربي والداً أو معلماً ـ أن يأخذ الناشيء بالأدب على نحو تتحقق به الغاية . . وتبقي للطفل شخصيته بنجوة من العقل .

وقد رسم علماؤنا لذلك منهجاً متكاملاً يعين على انجاح التربية يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه :

---

(١) المثل الأعلى ـ م . كمال الدين ١٣٢ ـ ١٣٣ .

« مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس. فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة ، فينبغي أن يتغافل عنه . . ولا يهتك ستره . ولا يكاشف ولا يظهر له أن يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصبي . واجتهد في اخفائه . فإن اظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا . وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفضح بين الناس . .

ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين . فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح . ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً . والأم تخوف بالأب وتزجره عن القبائح »[1] .

فالإمام الغزالي لا يحبذ الضرب للوهلة الأولى . . ولا بد من الحكمة في علاج الخطأ . مع اختلاف رد الفعل عند الذنب الأول . . الذي يكتفي فيه بالتلويح بدل التصريح . . وبين تكرار الخطأ مرة ثانية . . وثالثة حرصاً منه على بنيان الصبي النفسي أن يضطرب في دوامة العنف . وحتى لا يتعود التوبيخ فيبرد إحساسه بالموعظة بعد ذلك . .

مع ملاحظة ميل الصبي إلى أن يكون عند الناس محبوباً . . فينبغي أن يمدح على الملأ لو فعل جميلاً . . ورعاية لهذا الشعور نفسه يوبخ على الذنب خفية بعيداً عن الناس حتى لا يقع في حرج يجيء بعده انفلات الزمام .

ولا ننسى أن ما يقرره الغزالي من أهمية المدح على العمل الحسن . . له أثره في انبساط نفسه واقباله على الخير . .

* * *

*** سنة التدرج ومراعاة مقتضى الحال :**

ولأن كل بني آدم خطاء . . فلا بد أن يخطيء الطفل في أثناء حياته . .

ولا بد مع ذلك ـ وفي خط مواز ـ من مزاملته بالتوجيه . . في محاولة لاحتوائه . . والفرار به إلى الله تعالى . .

---

(١) الإحياء ، باب رياضة الصبيان .

فالتخويف بالله تعالى خط أصيل في المنهج الإسلامي ردعاً للطفل عن الخطأ . . ثم عن تكراره إذا ما تورط فيه :

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

« **لا ترفع العصا على أهلك ، وأخفهم في الله عز وجل** »(١) . .

فليكن التخويف بالله تعالى سبيلاً إلى وضع حد لنزواته آخذين في اعتبارنا الفوارق الفردية بين طفل وطفل . . والتي تقرر مقدار الجرعة اللازمة من المثوبة ومن العقوبة . ومن الحسية والمعنوية جميعاً . .

فهناك طفل لا يحتاج أن تعاقبه حياتك . . فلم تعاقبه ؟ !

وهناك طفل يرى في اعراضك عنه لحظة عقوبة قاسية لا يتحملها وجدانه . .

فلم تتجاوز بعد مجرد الاعراض ؟ أو تطيل عليه الاعراض ؟

وطفل يبكي ألماً إذا عبست في وجهه ، فلم تتجاوز معه هذه الوسيلة الناجعة ؟

ثم . . هناك طفل لاّ يرعوي أبداً حتى يذوق طعم العقوبة الحسية الموجعة . . وأكثر من مرة ، أنكتفي معه بالاعراض عنه لحظة ؟ أو نحتال عليه بالاغراء لكي يكف عماً هو فيه من أخطاء ؟

إنك تفسده بذلك تماماً ، كما تفسد الطفل الآخر بتوقيع العقوبة الحسية عليه ! فوضع عقوبة مسبقة بتحريم العقوبة الحسية ، أو تحريم العقوبة اطلاقاً . مفسد في التربية كوضع قاعدة مسبقة بضرورة استخدامها في كل حالة . . ولو لم تدع الضرورة إليها .

والمربي الحكيم يدرس حالة الطفل الذي بين يديه . ويقدر - من دراسته لظروفه الخاصة ووراثاته - إن كان ممن تصلح له المثوبة أو العقوبة . أو المداولة بين هذه وتلك ، وإن كان ممن تصلح له المثوبة والعقوبة وعلى المستوى الحسي أو المعنوي ، أو المداولة بين هذه وتلك »(٢) .

* * *

والمربي الحكيم أيضاً يدرك أنه مسؤول قبل الطفل عن الخطأ الذي يتورط

---

(١) رواه الطبراني في الصغير والأوسط .

(٢) منهج التربية الإسلامي ج ٢ ص ١٣٦ .

فيه . . لأن المربي مع غيره من أفراد المجتمع كانوا قدوة الطفل التي امتص عاداته منها . . فهو صورة منا . . رضينا أم أبينا :

« وهكذا يتعلم الطفل :

يتعلم الطفل المهارات عن طريق أصابع يديه وقدميه وادماجها في تكوينه . . وامتصاص العادات والاتجهات ممن حوله ، بالجذب والدفع بينه وبين العالم الذي يعيش فيه . ويتعلم الطفل عن طريق المحاولة أكثر مما يتعلم عن طريق الخطأ . وعن طريق اللذة أكثر مما يتعلم عن طريق الألم .

وعن طريق الخبرة أكثر مما يتعلم عن طريق الايحاء . .

وعن طريق الايحاء أكثر مما يتعلم عن طريق القسر . .

ويتعلم الطفل عن طريق المحبة والعطف والمحبة والصبر والفهم والانتماء والعمل والوجود . .

وهو يعرف يوماً بعد يوم بعض ما نعرف . . ويفكر في بعض النواحي التي نفكر فيها ، ويفهم بعض ما نفهم . .

والحق أن الطفل يصبح صورة لأحلامنا ومعتقداتنا ، أو صورة لنا :

فسواء أكان ادراكك واضحاً أم مشوباً بالغموض ، وتفكيرك متماسكاً أم مهوشاً ، ومعتقداتك حصيفة أم حمقاء . وأحلامك ذهبية أم خرقاء . وأقوالك صادقة أم كاذبة ، فإن هذا هو ما يتعلمهُ الطفل منك »[1] .

فالطفل يحيا دائماً صورة مركبة من سمات الذين يتعامل معهم منذ بدء حياته . .

وعلى رأس هؤلاء جميعاً يقف الوالدان . . وهما الواسطة التي يعبرها في الطريق إلى العالم الخارجي . . الذي يتعامل معه متأثراً بهذه الرواسب المستقرة في نفسه . . والتي تحركه من حيث لا يدري إلى اتخاذه مواقف معينة من الناس والأحداث . . يتشكل على أساسها مركزه في المجتمع . .

ومن هنا يحذر الله سبحانه الآباء في قوله سبحانه :

---

(١) تنمية العلاقات الإنسانية الديمقراطية ص ١٣٦ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً . . ﴾(١) .

ومن معاني الوقاية أن يكون الوالدان معاً صورة واضحة سليمة من العيوب . . تنعكس فوق لوحة الإحساس ، على نحو يجعل منه مواطناً صالحاً يتجه إلى الجنة بعمله الصالح . . لا إلى النار .

ولهذا . . ولأن الأولاد يجيئون على ما كان عودهم آباؤهم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾(٢) .

يقول ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة :

« أي : أنت من بيت طيب طاهر ، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة . . فكيف صدر هذا منك »؟

إنهم يستنكرون أن تجيء مريم على غير الصورة التي كانت عليها أسرتها الصالحة .

فلم يكن الأب سيء الخلق . . ولم تكن الأم بغيا تتاجر في عرضها . . فلا بد أن تجيء البنت على هذه السنن عفة وطهارة .

ولما دعا نوح عليه السلام طالباً هلاك قومه . . جعل من مبررات ذلك قطع هذه السلسلة النكدة من الآباء الضالين . . حتى لا يمتد منهم عرق أو جيل يعكر صفو حياة الأجيال المقبلة وذلك في قول الحق سبحانه :

﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾(٣) .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾(٤) .

فإنه يقف بالأم على قدم المساواة مع الأب . . فهما معاً شركاء في تكوين الولد . . وعليها واجب تربيته بنفس الدرجة من الأهمية . .

---

(١) التحريم : ٦ .
(٢) مريم : ٢٨ .
(٣) نوح : ٢٧ .
(٤) الحجرات : ١٣ .

وليست الأم أبداً مجرد وعاء . . لا يقاسم الأب مسؤوليته . . بل إن دور الأم في الحياة الأولى قد يكون أبعد أثراً . .

*   *   *

وفي حديث الرسول ﷺ ما يبرز دور الوالدين في إعداد شخصية الطفل :

« **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** . . »[1] .

*   *   *

ولقد بدأ احسان الوالد إلى ولده منذ اللحظة التي اختار فيها أمه . .

وبدأ دور الأم بعد تكون الجنين الذي يقطع الرحلة في بطن أمه متأثراً بها . .

ويبدأ الدور الأهم في أيام الطفل الأولى . . بحيث نراه يستعد للاتصال بالعالم الخارجي على نحو من الأنحاء . . الأمر الذي يفرض على الوالدين وهما يقفان على أبواب هذا العالم الخارجي . . أن يأخذا بهذه اليد الغضة الطرية عبر المستقبل الواسع ليشتد بعد ذلك ساعداً . . تمتد به الحياة . . ويعمر الوجود . .

*   *   *

*** مثل من حياة معاوية :**

غضب معاوية على ابنه يزيد مرة ، فأرسل إلى الأحنف بن قيس يسأله عن رأيه في البنين فقال :

« هم ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم . . فإنهم يمنحونك ودهم ، ويحبونك جهدهم . . ولا تكن عليهم ثقيلاً ، فيملوا حياتك . ويتمنوا وفاتك » .

*   *   *

ووفاء لهذا المبدأ نرى معاوية رضي الله عنه على غاية ما تكون المرونة إزاء الخطأ :

فلم يكن ـ كما قرر هو ذلك ـ يضع سيفه حيث يوضع سوطه . . ولم يضع سوطه حيث يوضع قوله !

أي أنه كان يبدأ العقاب من الصفر . .

---

(١) متفق عليه .

بالكلمة الطيبة . .

فإذا لم تفلح . . استعمل السوط . .

ثم إنه لا يستعمل السيف . . إلا إذا تعذر السوط . . والأصل في ذلك قول الحق سبحانه :

**﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان علياً كبيراً ﴾**[1] .

فإذا حدد القرآن وسائل التربية هكذا . . فإنه يرتبها على هذا النسق المحقق للغاية .

وإلا . . فاستعمال الضوء ابتداء فيه من الفساد ما الله به عليم وبخاصة في مجال الطفولة .

* * *

وإذا تعين السوط أوّ العصا . .

فلا ينبغي استخدامها . . بل تعليقهما على الجدار بحيث يراهما الصغار[2] .

فرؤية السوط . . ربما كفت الأيدي عن الأذى . .

والتهديد بالعقاب ربما كان أفعل من إيقاعه ، الذي قد يصير بالتكرار عادة لا تحدث رد الفعل المأمول ، واستغلال انفعال الخوف لدى الطفل بتعليق السوط لون من الأدب نبه إليه ﷺ في قوله :

**« علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فإنه أدب لهم »**[3] .

يقول أحمد العلماء :

« ولا ينبغي أن تخطيء ذلك التدرج ، والبدء بالنهاية وهو الضرب . سواء أكان خفيفاً أو موجعاً لأكثر من سبب :

أولاً : ينبغي أن تكون هناك بدائل متدرجة للعقوبة ، لأن الطفل سيخطيء كثيراً ـ ولا بد أن يخطيء ـ وسيحتاج إلى العقوبة ـ في الغالب ـ مرات كثيرة . .

---

(١) النساء : ٣٤ .

(٢) مجمع الزوائد ١٠٦ .

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس بسند حسن كما قال المناوي .

فمن المصلحة إذن أن يكون خط العقوبة طويلاً كذلك لكي لا تنفذ الوسائل سريعاً وتحتاج إلى تكرار الوسيلة الواحدة أكثر من مرة في المدى القريب . .

لأن ذلك يفقدها كثيراً من تأثيرها ، فتصبح بعد قليل عديمة الجدوى .

وثانياً : هناك الخطر من التعود على الضرب بالذات ـ أكثر من أي وسيلة أخرى ـ لأنه عقوبة بدنية ، والجسم يمكنه أن يتعود على الأذى فلا يعود يتأثر به كثيراً . .

وعندئذٍ نكون قد فقدنا كل وسائلنا الفعالة دفعة واحدة . .

لأن من يتبلد حسه على الضرب . وهو أقسى العقوبات . . لا يزجره ولا يؤثر فيه وجه عابس ولا صوت غاضب . . ولا حرمان ولا تهديد بحرمان ! . .

وعندئذٍ ماذا نفعل ؟

إن هذه شكوى معهودة من الأباء الذين يسارعون إلى استعمال العقوبة البدنية الموجعة ، ويلجون فيها حتى يتبلد عليها حس أطفالهم » .

* * *

ثم يخلص الكاتب إلى التحذير من مغبة الاسراف في العقوبة . والمنتهي بالصبي إلى قمة المأساة حين يحمله العناد إلى أثارة والده الفظ الغليظ . . ليستمع بمشهده الغريب ؟ !

وحينئذٍ لا تؤدي التربية دورها . . في وقت نحن أحوج ما نكون إليها ، وقد نشكو إلى الله عقوق الأولاد . . ثم نندم . . ولات ساعة مندم . . ويصير الأمر على ما قال الشاعر :

أتبكي على لبنى وأنت قتلتها؟! لقد ذهبت لبنى . . فما أنت صانع؟!

* * *

## الضرب كوسيلة من وسائل التربية

* آخر الدواء . . الضرب !

المفروض أن الوالدين مسلمان ، مؤمنان بمنهج الإسلام في هذا الباب . وبالتالي ملتزمان بتطبيقه في حياتهما وبخاصة في أخذ ولدهما به . .

فما هو منهج الإسلام في مسألة الضرب .. وما هي الحدود التي حدها بشأنه ليؤتي أكله ؟

تتضح ملامح الضرب المأذون فيه من الإجابة على هذه الأسئلة من وجهة النظر الإسلامية :

متى يتعين الضرب ؟ .. وهل يشكل في النظام الإسلامي قاعدة ؟

وما هو مكانه في جسم الإنسان ؟

وكم تكون عدد الضربات ؟

وما هي الآلة المستعملة في ذلك ؟

* * *

*** متى يكون الضرب :**

للعلماء في تفسير قوله تعالى من سورة النساء : ﴿ **واللاتي تخافون نشوزهن** .. ﴾ آراء ينجلي بها الموقف .. وتصلح أساساً في علاجنا لأخطاء أولادنا :

بعد استنفاذ كل الوسائل السلمية :

من الموعظة الرقيقة .. البليغة .. والتي تبلغ بها الرقة أعماق القلوب ..

إلى الحرب النفسية التي لا تسيل فيها دماء ، بالهجر في المضاجع فإننا أمام كيان لا يقومه إلا الضرب ..

فالعبد يقرع بالعصا .. والحر تكفيه الإشارة !

أي أن الضرب ليس هنا قاعدة .. ولكنه استثناء فرضته ظروف استثنائية كذلك .. أنه ضرورة ، والضرورة تقدر بقدرها .

وملاحظة هذا المعنى « يمنع أن يكون هذا الضرب تعذيباً للإنتقام والتشفي ، ويمنع أن يكون إهانة للإذلال والتحقير ، ويمنع أن يكون أيضاً للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاها .

ويحدد أن يكون ضرب تأديب . مصحوباً بعاطفة المؤدب والمربي . كما يزاوله أبناؤه ، وكما يزاوله المربي مع تلميذه .

ومعروف بالضرورة ـ أن هذه الاجراءات كلها لا موضع لها في حالة الوفاق بين الشريكين في المؤسسة الخطيرة .

وإنما هي لمواجهة خطر الفساد والتصدع .

فهي لا تكون إلا وهناك إنحراف ما ، تعالجه هذه الاجراءات .

وحين لا تجدي الموعظة ، ولا يجدي الهجر في المضاجع ، لا بد أن يكون هذا الانحراف من نوع آخر ، ومن مستوى آخر ، لا تجدي فيه الوسائل الأخرى ، وقد تجدي فيه الوسيلة »[١] .

* * *

وإذن . . فآخر الدواء الضرب !

« إنه تعالى ابتدأ بالوعظ ، ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع ـ ثم ترقى منه إلى الضرب .

وذلك تنبيه يجري مجرى التصريح في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف ، وجب الاكتفاء به ، ولم يجز الاقدام على الطريق الأشق ، والله أعلم »[٢] .

مع ملاحظة أن الله تعالى وهو يعين الرجل كي يحسن أدب زوجه . . يؤدبه في نفس الوقت لتتم المهمة بنجاح ، قبل أن يسيء استغلال سلطانه .

وذلك فيما يشير إليه آخر الآية الكريمة :

﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، إن الله كان علياً كبيراً** ﴾[٣] .

أي لا تتعرضوا لهن بشيء مما تكرهون ، لا بقول ولا بفعل ، وقيل المعنى : لا تكلفوهن الحب لكم فإنه لا يدخل تحت اختيارهن ، ﴿ **إن الله كان علياً كبيراً** ﴾ . . أشارة إلى الأزواج بخفض الجناح ، ولين الجانب ، أي : وإن كنتم تقدرون عليهن ، فاذكروا قدرة الله عليكم ، فإنها فوق كل قدرة والله بالمرصاد لكم »[٤] .

* * *

---

(١) صاحب الظلال .
(٢) الفخر الرازي .
(٣) النساء : ٢٤ .
(٤) فتح القدير .

وقد ذهب بعض العلماء إلى استثناء النساء ذوات الحسب من الضرب لأنه قد يؤدي إلى عكس المطلوب .

وينبغي أن يتلافى الزوج الوجه . . لتظل جميلة . . بالإضافة إلى أن الوجه مجمع الحواس وعنوان كرامة الإنسان .

روى ابن عمر : « نهى رسول الله ﷺ عن ضرب الوجه » .

على أن يكون الضرب هيناً ، غير مبرح ، وغير كاسر للعظم ، مما يسبب عاهة تؤثر ولا شك في قوة العلاقة الزوجية مستقبلا .

* * *

وقد فصل ابن تيمية القول وهو يتحدث عن أجناس التعزير ، فوضع النقاط على الحروف مفصلاً القول عن الضرب على ما فات . . وما هو آت . . ومتى يتكرر الضرب . . وكيف يكون ؟ . .

قال : « ومنه ما يكون بالضرب :

فإن كان ذلك لترك واجب ، مثل الضرب على ترك الصلاة ، أو ترك أداء الحقوق الواجبة مثل : ترك وفاء الدين ، مع القدرة عليه أو على ترك رد المغصوب ، أو أداء الأمانة لأهلها . .

فإنه يضرب مرة حتى تؤدي الواجب . .

ويفرق الضرب عليه يوماً بعد يوم .

وإن كان الضرب على ذنب ماض ، جزاء بما كسب ، ونكالاً من الله ولغيره ، فهذا يفعل منه بقدر الحاجة فقط ، وليس لأقله حد »[1] .

* * *

*** في مجال الطفولة :**

ولا بد ـ ونحن نستصحب هذا المنهج ـ في تربية النشء أن نتزود بشيء من الحكمة حذر الآثار المرة المترتبة على سوء استغلالنا لهذه الوسيلة .

فلا يضرب الطفل قبل بلوغه سن العاشرة .

---

(١) الحسبة ص ٥١ ـ ٥٢ .

قال ﷺ : « **مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين وأضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع** »[١] .

فينبغي أن تكون وسيلة التفاهم حتى قبيل سن العاشرة هي الكلمة الطيبة والتوجيه السديد ، في ضوء التجربة الإنسانية .

ذلك بأن الطفل حينئذٍ كالبراعم تتفتح رويداً . . فلا يجوز كبتها بالضرب . .

فإذا استوت على سوقها عند العاشرة ، ولم يشأ الطفل أن يأخذ دوره الاجتماعي مع أخوته المسلمين في المسجد . . فإن الضرب هنا يكون هو الحل الأخير . .

لكنه الضرب المشروط بما يلي :

١ ـ أن يتحاشى الوجه ، وكل موضع يكون حساساً في بدنه .

٢ ـ وأن يضرب بعصا خفيفة ، كما يقول الأستاذ الأبراشي :

« وأعتقد أن المقصود بالأسواط هنا : العصى ، لا الأسواط النوبية »[٢] .

وألا يزيد الضرب عن ثلاثة أسواط . . وعلى النحو الذي رآه ابن تيمية فيما مر بك آنفاً . .

وقد ذهب بعض العلماء إلى عدم الزيادة على الثلاثة أخذاً من موقف جبريل عليه السلام حين غط محمداً ﷺ ثلاثاً عند بدء الوحي .

وقد تفرض الظروف الاستثنائية زيادة الضربات وفق ما يراه المربي :

« يروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، قبل أن يلي الخلافة كان نائباً للوليد بن عبد الملك على مدينة النبي ﷺ . .

وكان قد ساسهم سياسة صالحة .

فقدم الحجاج من العراق . وقد سامهم سوء العذاب .

فسأل أهل المدينة عن عمر : كيف هيبته فيكم ؟

قالوا : ما نستطيع أن ننظر إليه هيبة له .

قال : كيف محبتكم ؟

---

(١) رواه أبو داوود والحاكم عن عمرو بن شعيب .

(٢) التربية الإسلامية ١٣٣ ـ راجع : كنوز السنة للمرحوم د . محمد عبد الله دراز ، عند تعليقه على الحديث : بدء الوحي .

قالوا : هو أحب إلينا من أهلنا .

قال : فكيف أدبه فيكم ؟

قالوا : ما بين الثلاثة الأسواط إلى العشرة .

قال : هذه هيبته ، وهذه محبته ، وهذا أدبه ، هذا أمر من السماء » .

* * *

*** رأي ابن سينا :**

ينصح ابن سينا بالحزم وعدم التردد من قبل المربي إذا قرر الضرب سبيلاً إلى التأديب . . على أن يتم ذلك بمنتهى الحذر والحكمة وذلك نظراً لدقة المرحلة التي يمر بها الصبي حينئذٍ . .

وينصح أيضاً بضرورة أن تكون الضربة الأولى موجعة لحسم الموقف والقضاء على ما يكون قد نشأ لدى الطفل من استخفاف بالضرب كعقوبة يمكن احتمالها . .

يقول ابن سينا :

« من الضروري البدء بتهذيب الطفل ، وتعويده ممدوح الخصال منذ الفطام ، قبل أن ترسخ فيه العادات المذمومة . التي يصعب إزالتها إذا ما تمكنت في نفس الطفل . .

أما إذا اقتضت الضرورة الالتجاء إلى العقاب. فينبغي مراعاة منتهى الحيطة والحذر .

فلا يؤخذ الوليد أولاً بالعنف وإنما بالتلطف ، ثم تمزج الرغبة بالرهبة ، وتارة يستخدم العبوس ، أو ما يستدعيه التأنيب .

وتارة يكون المديح والتشجيع أجدى من التأنيب ، وبذلك وفق كل حالة خاصة .

ولكن أصبح من الضروري الالتجاء إلى الضرب . . فينبغي ألا يتردد المربي على أن تكون الضربات الأولى موجعة . .

فإن الصبي يعتبر الضربات كلها هينة ، وينظر إلى العقاب نظرة استخفاف . .

ولكن الالتجاء إلى الضرب لا يكون إلا بعد التهديد والوعيد وتوسط الشفعاء

لأحداث الأثر المطلوب في نفس الصبي »[1] .

ويجب أن يكون مفهوماً أن الضرب ليس هو الحل الحاسم للموقف . . وهذا هو سر تحديده ، كماً وكيفاً من قبل المربين . .

إن الأب المتسلط على أولاده بالسوط سيحول الأولاد إلى كم مهمل . . وصور باهتة يتحدث هو باسمهم ويفكر لهم بعقله ويرسم حياتهم بيده . . ولا نتيجة لهذا الموقف الشاذ إلا واحد من أمرين أحلاهما مر : الكبت أو الإنفجار ! !

وقديماً شاهد معاوية ولده « يزيد » يضرب غلاماً له . . فقال :

« أتفسد أدبك بأدبه » ؟ فلم ير ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقيل ليحيى بن خالد :

إنك لا تؤدب غلمانك ولا تضربهم . . فقال : هم أمناؤنا على أنفسنا ، فإذا نحن أخفناهم فكيف نأمنهم »[2] .

فتأمل هذه الاستجابة الفورية من يزيد . . إيماناً منه بتجربة أبيه معاوية . . والتي تجعل من النفاق ثمرة لهذا اللون من التعسف في علاج الخطأ . .

وهو ما دلت عليه تجربة يحيى بن خالد . .

إن سوء استغلال القوة العصبية لدى الطفل يتجه به إلى الجبن والحقد والنفاق . . بقدر ما يؤدي حسن رعايتها إلى الجرأة والشهامة والعفو . . مما يزيد مسؤولية المربي في علاجه للخطأ الصغير إذا قرر الضرب سبيلاً إلى العلاج .

وإذا كانت القسوة تؤدي إلى نتيجة عكسية يستمريء الصبي بعدها الخطأ والعقاب معاً . . فإن التمادي في التأنيب واللوم أيضاً قد يؤدي إلى عقد نفسية تفوق في أخطارها الذنب المعاقب عليه . .

وهو الأمر الذي دعا أسلافنا إلى تفادي المبالغة في التأنيب إكتفاء بالنصيحة المثمرة . . وكانت لهم طرائقهم الرشيدة . . منها ما روي :

« عن ابن قلابة :

---

(١) السياسة لابن سينا .

(٢) عيون الأخبار ، كتاب السؤدد ، راجع ظهر ص ١٣ .

أن أبا الدرداء مر على رجل قد أصاب ذنباً ، وكانوا يسبونه . فقال : أرأيتم لو وجدتموه في قليب ـ بئر ـ ألم تكونوا مستخرجيه ؟

قالوا : بلى . .

قال : فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم . .

قالوا : أفلا نبغضه ؟ . .

قال : إنما أبغض عمله . . فإذا تركه فهو أخي »[1] .

والأصل في قوله تعالى :

**﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾**[2] .

فالرسول ﷺ مأمور أن يقول لمن عصوه :

**« إني بريء من عملكم . . لا من ذواتكم »** .

**« أي منفصل غاية الانفصال مما تعملون . أي من العصيان الذي أنذر منه القرآن »**[3] .

وهنا ينبه العلماء إلى حقيقتين :

**الأولى** : كراهية معصية العاصي ، لا كراهية شخصه .

فإن كراهية الشخص من حيث ذاته يأباه الإسلام وينهى عنه . وما ينهى الإنسان عن فسوق أو عصيان أو كفر إلا شفقة على الملتبس به .

**الثانية** : أن لا يخلط الإنسان بين دافع الانتصار لربه . والانتصار لذاته .

وما أدق الفرق بينهما لمن يكون دائم الرقابة على نفسه »[4] .

إن شرف الإنسان وكرامة معدنه حقيقة فوق الجدل . . وإنما يتعلق الحب والكره بعمل الإنسان ذاته . والذي يريده الإسلام صالحاً .

---

(١) أسد الغابة رقم ٤١٣٦ .

(٢) الشعراء ٢١٥ ، ٢١٦

(٣) الشربيني في تفسيره للآية الكريمة .

(٤) الدكتور سعيد رمضان ، الوعي الإسلامي ، ربيع الأول ١٣٩٤ هـ .

فإذا جاء العمل كذلك . فقد وجبت المحبة وحسن الثناء .

وإذا انحرف به الإنسان عن سواء الصراط . . فقد وجبت النصيحة بعيداً عن الفضيحة التي تخلف من ورائها عقداً نفسية تشل فاعلية الإنسان فلا يستطيع أداء دوره كاملاً .

وهذه النظرة الحكيمة تساعد على انجاح عملية التربية ؟

فالتأنيب الذي يميت الشخصية . أو يحل عراها . يميت في نفس الوقت كل محاولة لدى الصبي للنهوض من كبوته . .

وتطفيء كل أمل في الاصلاح واستئناف المحاولة من جديد .

وسوف تظل فرصة تعديل السلوك قائمة . . والأمل في النجاح يربو في الصدور إذا سارت عملية التأديب سيرها طبق مفهوم الإسلام . .

وناهيك بما يترتب على ذلك من تفاؤل واستبشار بجعل الظروف أعون على التأثر بالدرس . . والتخلص من الأخطاء كلما وجد الصبي إلى ذلك سبيلاً .

* * *

نشرت جريدة الأخبار (١٨/٧/١٩٧٥) كلمة تحت عنوان : « ضرب الأطفال لا يفيد » جاء فيها :

لا تضربي طفلك إذا ارتكب أي نوع من الخطأ . . لأن الضرب لن يفيد في تعلم أي شيء . . بل سيصيبه بنوع من الاستهتار وعدم الإكتراث بالأمور بجانب الخوف والجبن .

هكذا يقول علماء المركز القومي للبحوث الاجتماعية في دراسة علمية أعدوها عن احتياجات الطفولة في مصر . . تقول الدراسة :

« إن وسيلة العقاب المنتشرة في المجتمع المصري هي وسيلة الضرب . . وهي منتشرة بين الأمهات أكثر من الآباء . . وهذه الوسيلة تؤثر على شخصية الطفل التي هي حصيلة التفاعل بينه وبين والديه واخوته والبيئة السكنية والمدرسة التي يعيش فيها ويحتك بها . . وتكرار الضرب يؤدي في النهاية إلى اكتساب العقل لعادات معينة سيئة لا تظهر عليه إلا عندما يكبر ويصبح من البالغين . .

وتقول الدراسة إنه من أسوأ هذه العادات التي يتشبع بها الطفل وتظهر عندما يكبر هي تنفيذ التعليمات والأوامر الإدارية وإتباع الروتين دون الحماس لأداء العمل

نفسه . . وكذلك عدم التعاون بين الفرد وزملائه في العمل وفقدانه للروح الاجتماعية التي تجعله ينطوي على نفسه . . والاهتمام بالحصول على العلاوات والترقيات دون الاهتمام بالعمل . . مع زيادة نسبة الغياب والاعتذار والإستهتار بالعمل . . وفي نفس الوقت عدم الاهتمام بتقديم مقترحات لتقدم العمل وغالباً ما يكون الفرد ليس له قدرة على الخلق والإبداع والإبتكار . . وبالتالي فإن الكلمات القاسية أو الحرمان من الأشياء التي يحبها الطفل فترة مؤقتة وليست مستمرة هي وسائل أرحم وأفعل من وسيلة الضرب أو التعذيب . .

* * *

*** الخطأ التعليمي :**

والعقاب على الخطأ التعليمي يأخذ نفس الاتجاه ويبقى للعقاب البدني دوره في النهاية ، بعد استنفاد وسائل الترغيب والترهيب . . وإثارة المنافسة . ونلفت النظر إلى أمر هام يساعد على تمام التربية ورسوخ قواعدها ، وهو أن الوالد قد يعاقب ولده على ذنب معين فإذا انتقل الولد إلى دار التعليم . . فربما يرتكب نفس الخطأ . . لكنه لا يعاقب نفس العقاب وحينئذٍ فلا تكون عملية التربية ماضية في طريقها الصحيح . . ولا بد من إتحاد الموقف إزاء الخطأ الواحد بلا تباين . . حتى نجنب الصبي الاضطراب . وليسهل أخذه بالخلق الكريم . بعد أن يتكاتف الجميع على تربيته بنفس الدرجة من الأهمية . وإلا . . فإن تهاون المدرسة يشجعه على المضي في طريق الإنحراف متخذاً من تهاونها مبرراً كافياً لإنحرافه . . على أن نحميه في نفس الوقت من الإتجاه المتشدد .

لأن ضرره أكثر من نفعه . ويروي التاريخ في ذلك صوراً بلغت فيه الشدة أمداً بعيداً ، فوت على المربي مقصوده .

ومن ذلك ما روى من « أن أحد أمراء الأفغان أسلم ولده إلى معلم ، وضرب المعلم الولد حتى مات ، فلما علم بذلك « تاج الدين » ـ أمير الأفغان ـ أشار على المعلم بأن يهرب وقال : لا آمن عليك من أم الولد ، فعسى أن ينالك منها مكروه »[1] .

وإذا فرض على المربي أن يعدل في ضربه . . فقد نصح الغزالي الطالب نفسه بأن يتجمل بالصبر ساعة الضرب . . وأن يتخذ من الضرب درساً مفيداً في التحمل

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمون ص ٢٤٧ .

كشأن الرجال الذين تصقلهم التجربة . بدل الصراخ والشكوى . وهما من دأب النسوان . .

يقول رضي الله عنه :

« وينبغي إذا ضربه المعلم ألا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد ، بل يصير ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان من الرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان »[1] .

ونحن نأمل أن تصل هذه الحقائق إلى قلوب عليها أقفالها ، وأن تعيها أذن العالم كله . . ليرى كيف يضع الإسلام أسس التربية الصحيحة ، والتي لو أخذ بها لتخلص مما يعانيه من خلل واضطراب وما تورط فيه من متاعب تصل به إلى المزيد منها . . بعد أن فشل العلاج طبق مفهوم الإسلام التي بلغت حكمته حدا دعا إلى استغلال وقت الضرب لا ليكون إنتقاماً وتشفياً . بل ليكون لحظة يقف فيها المربي إلى جانب الصبي ، ليخرج به من خلال التأديب أصلب عوداً ، وأقدر على تحمل المصاعب ، في الوقت الذي نفطمه فيه عن معاودة ذنب مماثل قد يعرضه غداً لمثل هذا العقاب .

إن التعليم في أبسط مفاهيمه :

توضيح خير الطرق التي تسلكها الرغبات في محاولتها التعبير عن نفسها . . وإذن . . فمن الخطأ أن تتحول إلى قوة ضاغطة تقتل قوانا الطبيعية :

« فما كان « شوبنهاور » مثلاً فيلسوفاً متشائماً وثائراً على المرأة كارها لها محتقراً إياها إلا لما لاقى من دروس قاسية من أمه . .

فهو لم ينل من العطف والحنان ما كان يرجو ، ولم يلق منها إلا شدة وعنتا . .

فقد كانت أشد قسوة عليه من الأعداء . . تغار منه كأنه ند مناويء . .

وقد قيل إنها حاولت التخلص منه . .

وهذا ما دعاه إلى الفرار منها »[2] .

* * *

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٢ باب رياضة الصبيان .

(٢) عن كتاب : الحياة الوجدانية للمرحوم الدكتور رحب الله ٨٧ .

## رأى ابن خلدون في أخذ المتعلم بالشدة

يحذر ابن خلدون من أخذ المتعلم بالشدة حذر تعوده على الذلة الناشئة عن القهر وما ينجم عن ذلك من ضياع شخصيته بفساد عقله . وإرهاق بدنه ، متفقاً في ذلك مع الغزالي ، وابن مسكويه .

لكنه يزيد فيفصل الرذائل المترتبة على العنف ، والتي أجملها غيره من العلماء . .

إنه يرفض الشدة ولا « سيما في أصاغر الولد ، لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين ، أو المماليك ، أو الخدم . . سطا به القهر ، وضيق على النفس في انبساطها ، وذهب بنشاطها . . ودعاه إلى الكسل . .

وحمل على الكذب والخبث وهو : التظاهر بغير ما في ضميره ، خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك . .

وصارت له هذه عادةً وخلقاً . .

وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهي :

الحمية ، والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالاً على غيره في ذلك . .

بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل ، والخلق الجميل ، فانقبضت غايتها . . ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد في أسفل سافلين »[1] .

إن ضرب المتعلم استثناء من القاعدة القاضية بالتعامل معه على أساس من الرفق والتجارب مع فطرته ، وتزويده بما يسبغ من علوم وآداب . . وعدم حمله على ما يكره . .

وإذا تعين الضرب أحياناً . . فليكن ضرورة تقدر بقدرها . . كما أشرنا . .

أما إذا تحول العقاب إلى قسوة تعكر على الناشيء صفو حياته . . كان المؤدب كالمنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى . . .

وصار حصاد التربية هشيماً تذروه الرياح . .

ثم ضاع مستقبل المتعلم بعد أن حطم القهر في كيانه كل معنى لازم للنجاح ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ط الشعب ( فصل في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم ) .

وما خلفه العنف من تبرم بالمجتمع . . وقعود عن طلب الكمال . .

ثم يزيد الأمر إيضاحاً فيبين أن حياة الأمم أيضاً تصاب بنفس الأمراض الناشئة عن قعود الذل :

يقول رحمه الله :

« وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ، ونال منها العسف ، واعتبره في كل من يملك أمره عليه ، ولا تكون الملكة الكاملة له رفيقة به ، ونجد ذلك فيهم استقراء . .

وانظره اليهود ، وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء . . حتى أنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرج . .

ومعناه في الاصطلاح المشهور : التخابث والكيد ، وسببه ما قلناه »[1] .

ثم يخلص إلى ضرورة الرفق بالمتعلم ، حفاظاً عليه ، إذا كان يرجي منه ، وإيماناً بحكمة الشارع في تقدير العقاب :

« فينبغي للمعلم في متعلمه ، والوالد في ولده أن لا يستبد عليهم في التأديب ، وقد قال محمد بن أبي يزيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين :

لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم ، إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً . .

ومن كلام عمر رضي الله عنه :

« من لم يؤدبه الشرع . . لا أدبه الله » حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب ، وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له ، فإنه أعلم بمصلحته »[2] .

* * *

ومن السهل علينا ـ لو أحسنا الفهم ـ أن نتبين وجه المصلحة في نبذ الشدة المفضية إلى الذلة لتبقى في نفسية الطفل بقية يستطيع بها القيام بدور آخر غير

(١) المرجع السابق ـ نفس الموضع .
(٢) المرجع والموضع السابق .

تحصيل دروس لم تهيئه طبيعته . وهو بعض ما تفهمه من قول عمر السابق .

فإذا لم يحصل الأدب بما فوضه الشارع الحكيم . . وإذا لم تفلح الوسائل السليمة من إقامته على جادة الصواب . . فلا أدبه الله . وتفرض الحكمة توجيه صبي هذا شأنه لمزاولة عمل آخر . .

فليس من العقل ولا من العرف أن يخلق الله تعالى الناس جميعاً قابلين للتعلم « وإلا تعطل المعاش »(1) .

فاستعدادات الصبيان مختلفة ، وهي في اختلافها آية من آيات الله سبحانه قضت بها حكمته ليستقيم معاش الناس في ظل من اختلاف المشارب تتحقق به المصالح . .

إن اختلاف سنة من سنن الكون :

يقول سبحانه في سورة الروم :

**﴿ ومن آياته خلق ٱلسموات والأرض واختلاف ألستكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾**(2) .

ويقول سبحانه في سورة فاطر :

**﴿ ألم تر إن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور ﴾**(3) .

وماذا يجدي الضرب والتأديب في ذهن بليد خامل غير فساد طبعه وتعطيله عن القيام بعمل ما ؟

ومنطق العقل يقضي في مثل هذه الحال أن تكلفه بما يستطيع في مجالات أخرى كالزراعة أو الصناعة .

فهي من ناحية : أمور لازمة لعمارة الحياة وسعادة الأحياء . . ثم هي من ناحية أخرى في صحبة النية الخالصة عبادة يؤجر الإنسان عليها ، وعمل صالح يدخر له .

---

(1) الشربيني في تفسير قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ ( البقرة : ٤ ) .
(2) الروم : ٢٢ .
(3) فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .

وعلى الآباء أن يطامنوا من شدتهم في مثل هذه الظروف فلا تحملهم على الدفع المستمر للحصول على شهادة . . أية شهادة . . فالأمر هنا رزق . .

والله تعالى يرزق الناس كمبدأ . .

ثم هو سبحانه الذي يحدد نوع الرزق . . ليكون عملاً ذهنياً أو عملاً يدوياً ، والحرص على أن يحصل الولد على شهادة بأي ثمن : تقليل من أهمية العمل الصالح وله في الإسلام قيمة عليا . .

ثم هو تجاهل لروح الدين . . لأن الدين لم يفرض العلم التفصيلي إلا على الخاصة القادرين على تحمل مسؤولية البلاغ . .

أما بقية الناس . . فيكفي لديهم العلم الإجمالي بأمور الدين . . ومنهم أولئك الذين لم ترشحهم مواهبهم لاستيعاب الأمور والتخصص في أصولها وفروعها . ومكانهم في كل موقع من أرض الله الواسعة : يستعمرونها ويستخرجون كنوزها .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

**﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾**[١] .

* * *

وتطبيقاً لهذا المنهج القرآني يرى ابن سينا توزيع الصبي بعد حفظ القرآن إلى ما يؤهله له طبعه من ألوان الصناعات ، فيقول :

« إذا فرغ الصبي من تعلم القرآن ، وحفظ أصول اللغة ، نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته ، فيوجه لطريقه »[٢] .

وما يدعوا إليه ابن سينا هو : التخصص . . الذي سبق الإسلام إلى تقريره ، قبل أن تتناقله المذاهب الأرضية الأخرى .

ويروي في ذلك : « الناس بخير ما تباينوا » .

وقد يدفع الحرص على مواصلة التعليم جبراً إلى إرتكاب أخطاء لا تغتفر والخديعة حتى يصل الناشيء إلى أهداف لا يبلغها لو سارت الأمور في مجاريها الطبيعية .

---

(١) التوبة : ١٢٢ .

(٢) عن كتاب « التربية الإسلامية » للأبراشي ص ١١ .

ومعنى ذلك : أن الصبي إذا استطاع بهذه الوسائل المعرجة أن يحصل على شهادة فإنه :

أولاً : لن يكون على مستواها إذا بدأ يتعامل مع الواقع .. وناهيك بما يترتب على ذلك من خلل وضعف في الإنتاج ..

وفوق ذلك .. فقد خسر بهذا الكسب الرخيص كيانه الخلقي ، وفقد زاداً روحياً لا يعوض .. ولو جمع فأوعى :

**﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾**[1] .

على أن احترام الاختصاص تكريم للصبي ذاته ـ بالوقوف به عند الذي يحسنه ويحقق وجوده .

وفي ذات الوقت لا يحرمه الشارع ثوابه إذا هو أحسن عمله .. أياً كان ذلك العمل ..

بل إن إخلاصه في عمله ولو بدأ للوهلة الأولى تافها يرفعه درجات فوق من يحمل أرقى الشهادات ثم هو لا يرعى حق الله فيما أولاه من نعم ..

وبذلك نحفظ على الصبي حيويته وصلاحيته للعمل المثمر حين نقف به عند معالمه التي قررها الرسول ﷺ في قوله : « إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم » .

وعلى هذا المنهج الرشيد نفر الباحثون من الشدة حذر الشيخوخة التي تصيب الطفل في سنه الباكرة ..

تقول جريدة الجمهورية :

« لا تضغط على ابنك أكثر من اللازم : سواء في البيت أو المدرسة .

هكذا يحذر الدكتور « توهاس وان » من أساتذة جامعة « واروبك » البريطانية الذي يقول :

أن الشيخوخة في عصرنا الحالي أصبحت تبدأ في سن الخامسة عشرة ، وقال « وان » :

---

(١) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤ .

إنه بسبب هذه الضغوط التي تمارس لمجرد إرضاء غرور الآباء والمدرسين ، أصبحنا نشاهد ، أطفالاً في سن الحادية عشرة مصابين بالأرق ، ولا ينامون إلا إذا تناولوا أقراصاً منومة أو مهدئة » ! ![1] .

* * *

وإذ يحذر الباحثون هناك من عواقب الشدة التي تحمل على رفض القيم ومنها الحرية التي تحولت على أيديهم إلى فوضى أخلاقية فإننا نسجل أنهم يرددون وجهة نظر الإسلام ومنهجه الراشد بين الإفراط والتفريط . .

إنه يمد من توجيهاته جسراً بين الذين يكتبون الدوافع لدى الصبي والذين يطلقونها بلا رقيب . . وسوف يظل الإسلام بهذه النظرة المثلى متميزاً في حلبة الصراع . .

الصراع الممتد على مدار الزمان . . بل أن حدته لتزيد مع الأيام عنفاً . . الأمر الذي يفرض علينا أن نلوذ به . . لنكون حيث وضعنا الله تعالى :

أمة وسطا . . شهداء على الناس بهذه القيم التي كانت أبداً خير عدة وأمضى سلاح . .

* * *

## الحياء . . وأهميته في التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل

في مستهل حياة الصبي يبرز خلق الحياء . . ويأخذ طريقه إلى النمو . . وهنا تظهر أهمية المربي في تنميته واستثماره ، ليقوى على دفع الصبي إلى الفضيلة ، وتنفيره من الرذيلة .

و « الحياء نوعان :

**أحدهما** : ما كان خلقاً وجبلة غير مكتسب .

وهو من أجل الأخلاق التي يمنحها الله للعبد ، ويجبله عليها . ولهذا قال ﷺ : « **الحياء لا يأتي إلا بخير** » .

---

(١) جريدة الجمهورية : ١٩٧٤/٥/٢٥ م .

فإنه يكف عن إرتكاب القبائح ، ودناءة الأخلاق ، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها .

فهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار .

**النوع الثاني** : ما كان مكتسباً من معرفة الله ، ومعرفة عظمته ، وقربه من عباده وإطلاعه عليهم ، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور . .

فهذا من أعلى خصال الإيمان ، بل هو أعلى درجات الإحسان »[1] .

والنوع الثاني يدخل في دائرة إختيار الإنسان ، ومن ثم فهو المجال الذي تؤدي فيه التربية الإسلامية دورها . . ويمكن للمربي أن يكون له دور إيجابي في تنميته واستثماره .

ولهذا يقول الإمام الغزالي :

« ومهما رأى ـ أي المربي ـ فيه مخايل التمييز ، فينبغي أن يحسن مراقبته . .

وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال . . فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض .

فصار يستحي من شيء دون شيء .

وهذه هدية من الله تعالى إليه . وإشارة تدل على اعتدال الأخلاق . وصفاء القلب ، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ :

فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل . . بل يستعن على تأديبه بحيائه وتمييزه »[2] .

وقد اتفق ابن مسكوية مع الغزالي على أهمية الحياء . . تلك القوة التي هي عبارة عن :

الخوف من ظهور القبيح ، إلى حد يقود الإنسان إلى الكمال الإنساني المنشود . . الأمر الذي يفرض على المربي الوقوف إلى جانب الصبي بحزم لحظة ظهور بوادر الحياء . اعتداداً به واستثماراً له :

---

(١) جامع العلوم والحكم ج ٢ / ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

(٢) الإحياء: رياضة الصبيان .

يقول ابن مسكويه :

« إن أول ما ينبغي أن يتفرس في الصبي ويستدل على عقله : الحياء فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ، ومع إحساسه هو يحذره ، ويتجنبه ، ويخاف أن يظهر عنه أو فيه .

فإذا نظرت إلى الصبي فوجدته مستحياً ، مطرقاً بطرفه إلى الأرض ، غير وقاح الوجه[1] . ولا محدق إليك . . فهو أول دليل نجابته . والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح ، وأن حياءه هو انحصار نفسه خوفاً من قبيح يظهر منه ، وهذا ليس بشيء من إيثار الجميل ، والهرب من القبيح ، بالتمييز والعقل ، وهذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية ، لا يجب أن تهمل ولا تترك »[2] .

ومعنى ذلك أن الحياء ـ بالتربية الواعية ـ يصبح طاقة دافعة إلى كل خلق جميل . . مانعة من ضده :

« قال العلماء :

حقيقة الحياء : خلق يبعث على ترك القبيح ، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق .

وروينا عن أبي القاسم الجنيد رحمه الله قال : الحياء رؤية الآلاء أو النعم ورؤية التقصير .

فيتولد بينهما حالة تسمى حياء »[3] .

ولا يمكن للحياء أن يتأصل في نفس الصبي . . إلا بمراقبته عن مخالطة السفهاء أو سماع لغو الكلام . . مما يعد في العرف السائد ظرفاً . .

ثم أخذه بسير الصالحين ومجالستهم تثبيتاً لدعائم هذه الفضيلة بحلول الصحبة المباركة . . يقول الغزالي :

« ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله . . ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع . . فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد . .

---

(١) وقح وقاحة وقحة فهو وقح ، وإمرأة وقاح .

(٢) تهذيب الأخلاق ١٢ ـ ٢٠ .

(٣) رياض الصالحين للإمام النووي تحقيق عبد الله أبو زينة الشعب ص ٢٤٢ .

وأصل تأديب الصبيان : الحفظ من قرناه السوء »[1] .

ومن هنا يقول أحد العلماء :

« أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه »[3] .

والإمام الغزالي رضي الله عنه بهذه الوصايا يذكرنا بنشأته هو وكيف سلك به والده ذلك المسلك الحصيف . . فجاء كما عوده أبوه . . محققاً أمله فيه . .

« كان أبوه فقيراً صالحاً . .

لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف ، ويطوف على المتفقهة ويجالسهم ويتوفر على خدمتهم ، ويجد في الإحسان إليهم ، والتفقه بما يمكنه عليهم وكان إذا سمع كلامهم بكى ، وتضرع ، ويسأل الله أن يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً ويحضر مجالس الوعظ . .

فإذا طاب وقته بكى ، وسأل الله أن يرزقه ابناً واعظاً ، فاستجاب الله دعوته »[3] .

والأصل فيما قرره الإمام ما روى :

« عن أبي موسى ، قال : رسول الله ﷺ : « **مثل الجليس الصالح مثل العطار : إن لم ينلك منه ، أصابك من ريحه . .**

**ومثل جليس السوء القين : إن لم تصبك ناره أصابك شرره** »[4] .

وعلى هذا الأساس نصح عمر ولده ، فقال : « . . ولا تصحبن الكافر فتعلم فجوره »[5] .

* * *

وما أثمن هذه النصائح ، ولكن يبقى بعد ذلك أن تقع القبول من نفوسنا . . فالنصيحة سهلة ، ولكن المشكل قبولها كما قيل . .

---

(١) إحياء علوم الدين ، باب رياضة الصبيان .
(٢) عيون الأخبار ، كتاب التودد ص ٢٧٨ طبعة الشعب .
(٣) الغزالي ، رسالة لأبي الحسن الندوي ص ٥ ( عن طبقات الشافعية الكبرى ) ج ٤ /١٠٢ .
(٤) روضة العقلاء ٨٢ .
(٥) روضة العقلاء ٧٤ .

وكم يخطيء الأب حين يدفع بولده، باسم الحرية ليجالس من شاء . . ويسمع من الأغاني الخليعة ما شاء اعتماداً على قوة خلقه ، وثقته بنفسه مع أن « الصوم في البستان من الثقل »[1] .

وتمر الأيام . . وإذا بصور الخلاعة والمجون ، تترك آثارها في نفسه ليواجه الحياة بعد ذلك بإرادة خدرتها تلك الصور وهذه الأغاني .

لقد استدرجه أبوه من حيث لا يدري فاتبع خطوات الشيطان ، وزيله الحياة ، فضاعت من يديه معالم الطريق .

ولو عوده الحياء منذ نعومة أظفاره لوفر متاعب لا قبل له بها :

« قال أبو حاتم رضي الله عنه :

الواجب على العاقل أن يعود نفسه لزوم الحياء من الناس . . وإن من أعظم بركته تعويده النفس ركوب الخصال المحمودة ، ومجانبتها الخلال المذمومة . .

إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه ، ودفن مساوئه، ونشر محاسنه . .

ومن ذهب حياؤه . . ذهب سروره .

ومن ذهب سروره . . هان على الناس ، ومقت .

ومن مقت أوذي . . ومن أوذي حزن . . ومن حزن فقد عقله .

ومن أصيب في عقله كان أكثر قوله عليه . . لا له » .

وهذا معنى الشاعر :

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحياء

فكان هو الدواء لها ولكن إذا ذهب الحياء فلا دواء

ومعنى ذلك :

أن أخذ الناشيء بالفضيلة في مستهل حياته تعويد له عليها . . بحيث تصدر عنه بلا تكلف .

ومتى صارت الفضيلة عادة له . . ازداد خلق الحياء قوة مع الأيام . . وصارت كل همة في الخير طاقة يشتد بها عوده .

---

(١) روضة العقلاء ص ٥٠ ( ذهب بعض الصالحين للمسجد ، فرأى الناس وقد انصرفوا بعد أداء الصلاة فتوارى خجلاً ، فلامه البعض في هذا فقال : من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله ) .

بقدر ما يكون التهاون . . وإرخاء حبل الهزل مضعفاً لهذه القوة يسير بها الناشىء من ضعف إلى ضعف تنحل به شخصيته .

وقد بلغ احتياط الإسلام هنا مبلغاً عظيماً ، حين رفض التهاون منذ البداية . .

وإنما الصبر عند الصدمة الأولى . . فإذا حققت الأسرة في هذا المضمار نجاحاً ، خف حملها في المستقبل . . لأنها قدمت من أمسها لغدها . . فجاء طبق ما عملت من خير ، محققاً لما اختلج في صدرها من آمال .

* * *

*** الخجل :**

وهنا يتضح الفرق بين الحياء . . والخجل : فبينما نرى الحياء قوة ضابطة ، دافعة إلى الخير ، مانعة من الشر . . فإن الخجل يبدو ظاهرة مبكرة في عمر الطفل . .

ظاهرة تعبر عما فيّ كيانه الغض من : تحير . . ودهش . . وقلق . جاء في الصحاح :

« والخجل : التحير والدهش ـ بفتح الهاء ـ من الاستحياء . . والخجل أيضاً : سوء احتمال الغنى ، وفي الحديث : « إذا أشبعتن خجلتن » . . أي اشترتن وبطرتن »[1] .

والخجل ـ بكسر الجيم ـ : المكان الكثير العشب الملتف .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أن رجلاً له أينق ، فأتى على واد خجل ـ بكسر الجيم ـ معن ـ معشب ، فوجد أينقه فيه ، وفي نسخة : والخيجل من النساء : البذيئة الصخابة » .

وهي كآية ملكة في كيانه : سلاح ذو حدين . . ولا بد أن نقومه لمصلحة الطفل ، ومصلحة الأمة معاً .

* * *

*** مثل من السنة :**

روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ـ وكان دون الحلم ـ أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) بكسر الشين والطاء .

**« إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وأنها مثل المسلم . . فحدثوني ما هي » ؟**

فوقع الناس في شجر البوادي .

قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحيت . .

ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ؟

**« هي النخلة »** .

وفي رواية : فأردت أن أقول : « هي النخلة » فإذا أنا أصغر القوم .

وفي رواية : « ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم . فلما قمنا حدثت أبي بما وقع في نفسي ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم » .

* * *

لقد عقد الخجل لسان ابن عمر فلم ينطق بالجواب . .

وكان لهذا الخجل أسبابه ومبرراته من وجهة نظره :

(أ) أنه أصغر القوم .

(ب) في المجلس أبو بكر وعمر وغيرهما من الأشياخ صامتين لا يتكلمون . . فكيف يرفع صوته . . ويجهر بالقول ؟ !

فلما أفضى إلى أبيه بسره . . انفعل بالموقف . . وفي مزيج من العتاب والتقدير لولده الصغير ، أعلن : أن إجابته على سؤال رسول الله ﷺ أثقل في الميزان من قطيع من النعم يزحم البيت .

ذلك فإن الجواب كان صحيحاً . . وهذا أولاً .

وثانياً : لأنه آية الشخصية التي تمضي في طريقها قوية . . واثقة . . لا يكسر الخجل من مضيها .

وإذا كان ابن عمر يقول : استحييت . .

فقد صدق . .

لكنه الحياء « اللغوي » وليس هو الحياء الإصطلاحي . .

الحياء . . الخامة الأولى . . والتي يجب رعايتها . . وصيانتها . . لتخرج من

براعمها زهرة تعلن عن ميلاد شخصية جديدة . . هي في البيت ثروة دونها . . حمر النعم !

* * *

* المسؤولية المشتركة :

وإذا كنا نحمل الوالدين أكبر قسط من المسؤولية كما أشار إلى ذلك الحديث :

« كل مولود يولد على الفطرة . . فأبواه يهودانه . . » الحديث .

فإن ذلك لا يقلل من أهمية المؤسسات الأخرى في الحفاظ على حياة الناشىء ، وأعني بها : المدرسة والمجتمع .

فلو أن الأسرة الصغيرة قامت بدورها في تهيئة الطفل وإعداده ليكون رجلاً صالحاً . . ثم تخلت المدرسة ، وتخلت الدولة ، عن القيام بدورها ، كانت جهود الوالدين نفخة في رمادٍ أو صرخة في واد !

وإن الإحساس بهذه المسؤولية ليتضاعف إذا ما تصورنا أن للإسلام أعداء يقعدون له بكل سبيل :

فقد تضعف نزعة التدين يوماً . . وقد تفتر الجهود الرامية إلى تربية الطفل تربية سليمة .

بيد أن الضمائر تصحو ساعة لتدارك ما فات . .

ولكن . . ما قيمة هذه الصحوة إذا كان أعداء الإسلام يرمون بثقلهم فيما يصدرونه إلينا من ثقافات تعكر المنبع الصافي وتجعل من الجهود المخلصة عبثاً كما قلنا .

فالمهم : أن نزود الطفل بما يمكنه من ممارسة الحياة قانتا لله حنيفاً . .

وأهم منه : أن نزوده بعناصر المقاومة لهذا الشر الوافد الرامي إلى اقتلاع الحياء من جذوره .

ولن يتم ذلك إلا بتحرير الثقافة من هذه السموم الناقعات عبر الإذاعة والرائي . .

وهنا تبرز مسؤولية الدولة ، والتي تملك أن تكون الديدبان اليقظ فلا تسمح بمرور هذه الشرور .

وعندما تتجاهل الدولة هذا الدور الرئيسي ، فإن عملية « التخلية » ستتجمد . . وتنحصر الجهود في الوعظ والإرشاد . . أي في « التحلية » التي تشبه الطلاء على الوبر ! !

فإذا ما شكونا بعد ذلك من فساد الأجيال . . وندرة الرجال . . وعقوق العيال ، فمن حق هذه الأجيال أن تشكونا إلى الله . . لأننا عققناهم قبل أن يعقونا ! !

* * *

# الفصـــل الرابـع
# صور من التربية العملية

*** آداب الأكل . . واللباس . . واللعب :**

النظرية الإسلامية التي لا تطبق على الطفل . . ولا تزامله في رحلته اليومية . . مقضي عليها بالفشل ، وقد أخفقت نظريات كثيرة . . ثم ماتت بموت دعاتها ، لأنها لم تثبت جدارتها عند التطبيق في واقع الحياة .

وتنفرد نظرية الإسلام التربوية بالنجاح المطرد في كل مجالات الطفل ومستويات نشاطه . . وحركته .

وإذا كانت مواد هذه النظرية قد اكتملت من الناحية الفكرية . . فإنها تبلغ شأوها البعيد بما حققته من ثمرات في عالم الواقع كما حققت ذلك في عالم الضمير . .

* * *

## آداب الأكل

يقول الحق سبحانه :

**﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لأولي النهي ﴾**[1] .

والأمر هنا بإباحة الأكل للإنسان . . يقابله الأمر برعي الأنعام . . أي أن الإنسان « يأكل » بضوابط خاصة . . ولهدف معين . . بينما الحيوان « يرعى » في أرض الله الواسعة ، بلا ضوابط أو أهداف . . بل إن الأنسان هو المأمور المتكفل بغذاء الحيوان . .

---

(١) طه : ٥٤ .

ولعل ذلك يحمله مسؤولية أكبر . . من حيث كان هو السيد المطاع ، المنفذ لمشيئة الله عز وجل .

وإذا كان الحيوان تقف به غزائره عند حد تناول الأعشاب . . فإن للإنسان أفقا آخر ، ينبغي أن يرتقي إليه .

**﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهي ﴾** . .

أي أن مواهب الإنسان ودوره في الحياة يقفزان به بعيداً حتى لا تقف به شهوة الطعام عند الحد الذي وقفت عنده الأنعام . .

ومعنى ذلك : أنه « يأكل » ذاكراً نعمة الأكل . .

ونعمة العافية التي تجعل لهذا الغذاء قيمة . .

على نحو يكتشف به آيات الله في الكون . . وفي النفس . .

ومن هنا يقول سبحانه : **﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾**[1] .

وإذا كنا مأمورين بالأكل في قوله تعالى : **﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾**[2] .

**﴿ كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾**[3] .

فإننا مأمورين أيضاً بالنظر فيما نأكل :**﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾**[4].

لنتحصل بهذا النظر آيات الله في طعام جعله نعمة لنا ، نقيم بها أودنا . . ونصل منها إلى شكر المنعم سبحانه .

ولما كان الطعام باباً قد يتأدى بالإنسان إلى الانحراف وتنكب الطريق إلى هذه الغاية . . فقد أباحه الإسلام في إطار من ضوابط خاصة تحقق الغرض منه . . فيما يتعلق بجسم الإنسان وخلقه أيضاً .

* * *

وبهذا المفهوم الإسلامي لمعنى الأكل تميز المسلم عن الكافر : فالكافر لاه عن هذه الغاية . . ومن هنا فهو كالحيوان تماماً :

---

(١) عبس : ٢٤ .
(٢) الأنعام : ١٤١ .
(٣) الأنعام : ١٤٢ .
(٤) الأنعام : ٩٩ .

**﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم ﴾**[1] .

أي أن الكفار يأكلون « غافلين عن عواقبهم » كما يقول أبو السعود في تفسيره للآية الكريمة .

وفي تصوير موقف الكافر يروي أبو هريرة أن رجلاً كان يأكل كثيراً فأسلم ، فكان يأكل قليلاً فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال :

**« إن المؤمن يأكل من معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »**[2] .

ذلك بأن المؤمن مشغول بمعالي الأمور المحققة لسعادة الدارين . إنه يأكل . . وفي نفس الوقت يبقى في حياته متسع للقيم الفاضلة التي تشير إلى أنه لا يعيش في هذا الكون وحده . . بل هناك أخوة لا بد أن يعيشوا مثله . . كي يحيا مثله . .

إن تناول الطعام أمر هام . . وأهم منه . . أن يتجاوز المؤمن هذا الأفق الهابط . . ليعلوا بقلبه إلى أعلى . . إلى أفق يليق بالخليفة لله في أرضه . .

« المراد بالمؤمن ، الكامل الإيمان ، الآخذ بآداب الإسلام في الطعام والشراب من الزهد في التوسع والاكتفاء بما يسد الحاجة » .

والخلاصة لكل ما ذكرنا : « أن المؤمن الكامل الإيمان الذي يراعي أدب دينه في الطعام ويزهد في التكثير والتوسع يكفيه القليل المبارك فيه . . لانشغاله عن ذلك بما هو الأمثل والأورع .

وأن الكافر لما كان همه الدنيا والحرص عليها ، والتمتع بملذاتها : « كان في الطعام على ما وصفه القرآن : **﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾**[3] .

ونستطيع بعد ذلك أن نقول : ليس هناك بعد بين المعدة وحوافز الأخلاق في الإسلام . .

فالعلماء يؤكدون العلاقة بين النفس والتركيب الجسدي . . ثم بين هذا

---

(١) محمد : ١٣ .

(٢) رواه البخاري .

(٣) المرجع السابق .

التركيب الجسدي ولون الغذاء . .

« إن الشيء الذي يعيد إلى الجسم الإنساني كل ما ضاع من أجزائه التركيبية ، ويكون قيمة جميع الأعصاب والعروق ، ويبدل جسمه القديم جسماً جديداً بكامله ، ليس عجيباً أن يكون لخواصه تأثير في النفس والروح . . بل العجب ألا يكون له تأثير .

وقد كانت دنيا العلم غافلة عن هذه الحقيقة فيما سبق ، ولكن التحقيق الذي تم أخيراً في التغذية قد انكشف منه أن غذاء الإنسان يترتب أثره حتماً على أخلاقه وإدراكه الذهني »[1] .

إن القوة الشهوية قد تنحدر بالصغير إلى رذائل الشره . . والدناءة والبخل . . أو التبذير . . فإذا أحسنت رعايتها تأدت به إلى الخير والكرم والقناعة والتوكل على الله . .

* * *

ومن هنا كان البدء بالتسمية . . وباليمين والأيمن . . إشاعة لجو من اليمن من شأنه أن يطامن إندفاع الشهوة . . وبالتالي يتمكن الصغير من السير في طريق تحصيل هذه الفضائل بقدر ابتعاده عن أضدادها من الرذائل . . وهذا ما توخاه الإسلام حين شرع التسمية في أول الأكل ووسطه ، والحمد في آخره . واستحب البدء باليمين ، وكره ذم الطعام ، بل شرع الدعاء لأهل الطعام . .

يقول الإمام الغزالي مفصلاً القول هنا :

« وأول ما يغلب عليه من الصفات : شره الطعام ، فينبغي أن يؤدب فيه :

فلا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه . وأن يأكل مما يليه ، وألا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وألا يحدق النظر إليه ، ولا إلى من يأكل ، وألا يسرع في الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وألا يوالي بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه .

وأن يُعوّد الخبز القفار[2] في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً .

---

(١) نحن والحضارة العربية للمودودي ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢) خبز قفار بلا أدم ـ أدم جمع أدام مثل كتب وكتاب .

وأن يقبح عنده كثرة الأكل . . بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم[1] .

فأنت ترى أن الأكل وثيق الصلة بالبناء الخلقي للطفل . . والتفنن فيه قانص على كل محاولات الاصلاح بالفشل . .

بقدر ما تكون الحكمة في تناوله مصدراً لكل خير وبر . .

وإذا كانت المبادرة إلى أخذ الصبي بالفضيلة أعون على رسوخ ملكاتها في نفسه . . فإن الحفاظ على آداب الأكل كما بينها الإمام الغزالي فرصة يجب أن تستغل من أجل طفولة سعيدة تستطيع ممارسة الحياة بنجاح . . ولا تجنح في هذا إلى الخيال . . فالتأمل العابر لنصائح الغزالي يؤكد إلى أي حد تصبح مائدة الطعام فرصة تتشكل عندها أخلاق الصبي . .

فهو يبدأ الطعام باسم خالقه سبحانه . . فيقوي بذلك إيمانه كلما تكرر الموقف . .

هذا الإيمان الذي يثمر لدى الصبي احترامه لنفسه فلا يلطخ ثوبه . . ولا يبادر إلى الأكل بشراهه . . ثم احترام غيره بإتاحة الفرصة لهم كي يشاركوه في الطعام . . مع تجنب تجريحهم بالتحديق فيهم أو حرمانهم من نصيبهم في كل لون من ألوان الطعام . .

ثم نلمح ضرورة حرصه على صحته العامة حين ينصحه الإمام بجود المضغ وعدم الإسراع في الأكل . .

وكيف كان تعويده على الأكل الخشن أحياناً مدعاة إلى صقله حتى لا تفسده طراوة النعيم . .

كل أولئك . . تحت إشراف الأسرة التي تعامله بالحكمة في هذا المجال الدقيق . . حتى إذا بدرت من الصبي بادرة تصادم تلك الوصايا فأكل كثيراً مثلاً ، فلا يواجه مباشرة بالتقبيح فراراً من رد الفعل المعاكس . .

بل يطوي اسمه ويتجاهل فعله لتكون النصيحة عامة . .

تتحدث عن كل البهائم وكيف يتحول بالشراهة إلى بهيمة لا تعقل . . وما يخلقه ذلك الأسلوب من إستجابة في نفسه بما يستشعره في قراراتها من حرج يعينه

(١) الإحياء باب رياضة الصبيان .

على أمر الله تعالى . .

* * *

ومن ناحية أخرى . . فالأطعمة مادة القوة والشهوات ، والإسراف فيها يقوي في نفس داعية الشهوة بقدر ما يضعف نوازع الخير وبوادر العفة . .

وهنا يتحدث الإمام الغزالي عن خطر هذا المسلك فيقول :

« إن من شبع شرب كثيراً ، ومن كثر شربه كثر نومه ، ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام :

معاشر المريدين : لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً . . فتخسروا كثيراً . .

. . إن الأكل يمنع من كثرة العبادات :

لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه .

ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ، ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة مشربه . .

والأوقات المصروفة إلى هذا . . لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه »[1] .

والأصل في ذلك ما روته السنة المطهرة المقررة لخلق الاعتدال الذي كان سنة الرسول ﷺ وآله : « **ما شبعوا من طعام قط** . . » .

« عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام حتى قبض » .

وفي رواية : « ثلاثة أيام تباعاً »[2] .

* * *

وحتى تتأصل هذه الروح في نفسية الطفل . . فقد وضع الإسلام لذلك آداباً

(١) الإحياء ط الشعب ١٤٩٦ .
(٢) رواه البخاري .

مفصلة في لون الأكل . . وقدره . . ووقته . . نجملها فيما يلي :

« يقول عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه : كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصحفة ، فقال لي رسول الله ﷺ : « **يا غلام . . سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك . فما زالت تلك طعمتي بعد** »[1] .

وللتسمية بركتها في كفاية الطعام ، ولو بدا للعين المجردة غير كاف ، كما أن تركها محبط لهذه البركة .

« عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يأكل طعاماً من ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابي فأكل بلقمتين ـ أي كل لقمة تعدل لقمتين ـ فقال رسول الله ﷺ : « **أما إنه لو سمى كفاكم** » .

إن هدف الوجود لا يتحقق إلا على نهج معين . . هو ما تدل عليه الصفات الإلهية .

وإذن . . فيجب أن يكون الإنسان ـ والصبي بالذات ـ مستشعراً كمالات الحق سبحانه وتعالى . . ليكون له منها انطباعات تشكل نفسه صغيراً . . وتصرفها على النحو الذي يتجاوب مع الحياة من حوله . . أي أن تحقق معنى البسملة في حياة الصبي له أثره البارز في حسن تناوله للأمور .

* * *

ويحذر الرسول ﷺ من الأكل بالشمال فراراً من كل صفة تذكر بالشيطان الرجيم . . وحفاظاً على الجو الإسلامي الذي ينبغي أن يظلل الموقف كله .

« عن جابر عن رسول الله ﷺ قال : « **لا تأكلوا بالشمال ، فإن الشيطان يأكل بالشمال** »[*] .

وحتى تتم الصورة المثلى يوصي الإسلام بالأكل مما يلي . . ليتسنى للآخرين أن يشاركوا في كل ألوان الطعام . . ووقاية لهم من أذى إطلاق اليد في أطايب الطعام . . وما يترتب على ذلك من ضجر يفسد معنى الأخوة الجامع . . إلى جانب ما يعطيه من معنى الشراهة ، وهي ألصق بالكافر الأكل في سبعة أمعاء .

* * *

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري .

(*) المرجع السابق .

* **البدء بالأيمن** : والبدء بالأيمن مشروع كالبدء باليمين :

« عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتى بلبن قد شيب[1] بماء وعن يمينه أعرابي وعن يساره أبو بكر ، فشرب ثم أعطى الأعرابي وقال : الأيمن فالأيمن »[2] .

ولا يسقط حق الأيمن في البدء بالشرب ولو كان غلاماً بين الأشياخ . . إحياء لهذه السنة ، وإبقاء على حيوية النشء التي تنمو في هذه البيئة نمواً طبيعياً في ظل الإيمان بالله عز وجل . . وما يفرضه من حرص على صبغة المجتمع الإسلامي ، الذي لا يضيع حق الصغار . . ليشتد احترامهم له ودفاعهم عنه .

« عن سهل بن سعد الساعدي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بشراب ، فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ ، فقال للغلام : « **أتأذن لي أن أعطي هؤلاء** ؟ فقال الغلام : لا والله ، لا أوثر بنصيبي منك أحد .

قال : فتله[3] رسول الله ﷺ في يده » .

فهذا الحديث والذي سبقه يقرران حقيقة واحدة : هي البدء بالأيمن .

لكن موقف الرسول ﷺ مع الأعرابي لم يكن كموقفه مع الغلام .

وفي تعليل ذلك يقول الشارح :

« قيل إنما أستأذن الغلام دون الأعرابي أدلالا على الغلام وهو ابن عباس ، وثقة بطيب نفسه بأصل الاستئذان ، لا سيما والأشياخ أقاربه ، قال القاضي عياض مؤيداً ذلك :

وفي بعض الروايات : عمك وابن عمك ، أتأذن لي أن أعطيه ؟

وفعل ذلك أيضاً تألفاً بقلوب الأشياخ ، وإعلاماً بودهم . وإيثار كرامتهم إذا لم تمنع منها سنة .

إن الأيمن أحق ، ولا يندفع إلى غيره إلا بإذنه ، وأنه لا بأس باستأذانه ، وأنه لا يلزمه الإذن .

---

(١) شيب : أي خلط اللبن لتكثيره أو تبريده أو تخفيف دسمه

(٢) رواه مسلم ـ آداب الطعام .

(٣) تله : وضعه في يده ، المرجع والموضع السابق .

وينبغي له أيضاً أن لا يأذن إن كان فيه تفويت فضيلة أخروية ، ومصلحة دينية ، كهذه الصورة .

وقد نص أصحابنا وغيرهم من العلماء على أنه لا يؤثر في القرب ـ بضم القاف وفتح الراء ـ وإنما الإيثار المحمود ما كان في حظوظ النفس ، دون الطاعات ، قالوا : فيكره أن يؤثر غيره بموضعه من الصف الأول ـ وكذل نظائره .

وأما الأعرابي : فلم يستأذنه مخافة من إيحاشه في استئذانه في صرفه إلى أصحابه ﷺ . . وربما سبق إلى قلب ذلك الأعرابي شيء يهلك به لقرب عهده بالجاهلية وأنفتها وعدم تمكنه في معرفته خلق رسول الله ﷺ »[1] .

وإذا كان ﷺ قد عامل الأعرابي بأسلوب خاص لأسباب رآها وهي التي ذكرها الشارح .

فقد بقيت في الموقف بقية تصلح أن تكون أساساً في معاملة النشء تأسيا برسول الله ﷺ .

فلم تكن يومئذٍ مراسم موضوعة يلتزم بها المجتمع في لقاءاته . . واجتماعاته ، كهذه التي استحدثت اليوم .
فالصبي يجلس عن يمين الرسول ﷺ وأبو بكر عن شماله . . ولا غضاضة في ذلك .

فالموقف هنا سباق للقرب من الرسول الكريم ، والأنس به ، والاجتهاد في تحصيل الخير بين يديه . .

وليس هو دنيا يراد إصابتها أو إمرأة ينبغي نكاحها . . وحينئذٍ فالفضل لمن سبق والأولوية لمن مكنته عزيمته من الاقتراب من مصدر الخير . . بغض النظر عن فارق السن ، أو حسن البلاء .

فإذا تعلق الأمر بالصبي ـ كانت المحافظة على هذه الشعيرة اعتداد بذاته وتقديراً لرأيه . على نحو يجعله أكثر إدراكاً لمكانته . . وما يترتب على ذلك من حرصه على المسارعة في الخيرات . . من أجل وطن لم يبخل عليه بحقه . . بل قدمه له طائعاً . في وقت يمكن أن يكون الشاهل فيه مقبولاً . .

وفي أدب النبي حين استأذن الصبي ما يشير إلى ضرورة الحكمة في مثل هذه

---

(١) صحيح مسلم : آداب الطعام .

المواقف بما يحقق التوازن بين صاحب حق يستمسك به بينما هو صغير . . وآخرين يملكون من الجاه في المجتمع ومن حسن البلاء في الدين ما قد يدفع إلى إيثارهم عليه .

ورغم ضآلة الموضوع المستأذن فيه . . إلا أن الحرص فيه دليل حكمته ﷺ التي تنظر إلى استواء المخالفة في الأمر الصغير والخطير معاً . .

ولا سيما وخطوط الشخصية الإنسانية تتضح . . فتكون ملامح الصبي . . وآثارها في المستقبل جد خطير . .

والاسراع إلى الاستئثار بميمنة الرسول ﷺ هو في ذات الوقت إسراع إلى رسالته . . وما تدعو إليه من جهاد وتضحية .

وقد وعى تاريخنا الإسلامي صوراً من هذه المسارعة المحمودة التي وضع الرسول ﷺ جذورها . حين عمق ثقة الصبي بنفسه بمثل ما حكاه ذلك الحديث الشريف .

تلك الثقة التي كان من آثارها شجاعة الغلام الأدبية التي دفعته إلى أن يستمسك بحقه إزاء رسول الله ﷺ . . وبين أشياخ قومه . . في ذلك الوقت الذي تهون عنده متع الدنيا كلها فلا يسابق غيره إليها . . لأن الإسلام عوده على التعلق بمعالي الأمور وكراهة سفسافها . .

* * *

وقد اتفق ابن مسكويه مع الإمام الغزالي في ضرورة أخذ الطفل بآداب الإسلام في هذه المجال من حيث صلتها الوثيقة بصحته النفسية والجسدية . . وزاد على ذلك دعوته إلى أهمية مواقيت الغذاء ونوعه . . وذلك في قوله :

« وينبغي أن يستوفى في غذاءه في العشى فإن استوفاها بالنهار كسل واحتاج إلى النوم وتبلد فهمه مع ذلك . وإن منع اللحم في أكثر أوقاته كان أنفع له وقعاً في الحركة والتيقظ وقلة البلادة . . وبعثه على النشاط والخفة »[1] .

* * *

وهذه الآداب كلها تستهدف أخذ الناشىء بالقناعة لتصير له طبعاً وعادة . حتى

---

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٢٠ ـ ٢١ .

فيْ أدق الأمور التي يقع فيها التساهل[1] .

* * *

وقد كان الإسلام عوناً له في ذلك أيضاً . . فحدد له هيئته حين الأكل حتى لا تصير كثرة الأكل عادة له .

قال رسول الله ﷺ : « **لا آكل متكئاً** » .

قال الخطابي : المتكي هذا هو الجالس معتمداً على الوطاء تحته . قال : وأراد : أنه لا يقعد علي الوطاء والوسائد كفعل من يريد الإكثار من الطعام بل يقعد مستوفزاً[2] . لا مستوطئاً . ويأكل بلغة « مايتبلغ به وهو القليل »[3] مما ييسر وصول الطعام للمعدة ـ وعلى هذا المنوال سار سلفنا الصالح فبقيت البيئة بهم صالحة للتربية المباركة . . التي وجد فيها الناشيء نفسه .

* * *

روي أن عمر بن الخطاب لقي جابر بن عبد الله . وقد إبتاع لحما بدرهم ، فقال له : أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾[4] .

وهذا عقاب منه له على التوسع في ابتياع اللحم ، والخروج عن جلف الخبز والماء . فإن تعاطي الطيبات من الحلال تستشري لها الطباع . وتستمر عليها العادة فإذا فقدتها استسهلت تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحضى بغلبة العادة »[5] .

وقد كانت للمسلمين تمريناتهم الرياضية . قبل الطعام[6] ـ لا بعده ـ تجنباً لترهل الجسم .

---

(١) وقد كان ﷺ ينهي عن الشرب من محلمة القدح ـ المكسور ـ كما روي ذلك أحمد وأبو داوود ـ لأنها : ١ ـ مجمع القاذورات ٢ ـ ولخطرها على الشفاة ، ونهى أيضاً عن النفخ في الشراب .
(٢) مستوفزاً : غير مطمئن .
(٣) رياض الصالحين باب كراهة الأكل متكئاً .
(٤) الأحقاف : ٢٨ .
(٥) أحكام القرآن لابن العربي ج ٣/١٦٨٩ .
(٦) وهو ما يدعيه الأجانب اليوم ، ولعل المراد أنهم يخرجون للرياضة قبل تناول الطعام ( المحقق ) .

قال إسماعيل بن عبيد الله :

« كان عبد الملك بن مروان يأمرني أن أجنب بنيه السمن . وكان يأمرني ألا أطعمهم طعاماً حتى يخرجوا إلى البراز »[1] .

إن قيمة الطعام ليست في كثرته . ولكن في بركته . وحسن تناوله . والإحساس بأنه نعمة ينبغي أن تذكر فتشكر .

ومن شأن ذلك أن يكف الأيدي عن الإسراف . لأن وراء الطعام غايات أكبر من الطعام والتفنن فيه .

والطعام الكامل في الإسلام ـ بناء على ما تقدم ـ هو ما يتكفل بصحة الجسم ويحقق مقاصد الدين .

ويقال في ذلك : « إذا اجتمع للطعام أربعة كمل : أن يكون حلالاً . وأن تكثر عليه الأيدي . وأن يفتح باسم الله . وأن يختتم بحمد الله[2] .

إن كل ترف يفضي إلى التلف . لأنه متعة تستنفد الطاقة . وتشغل البال . . فتنحرف بالناشىء عن الخط المرسوم له .

ومن هنا يوصي الغزالي أن ينبه الصغير إلى أن :

« الأطعمة أدوية : وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل[3] . . ومن شأن هذا الفهم أن يعينه على السير إلي غايته طبق منهج حتماً إليها .

* * *

* رأي الطب قديماً وحديثاً :

ومن الأهمية بمكان أن نذكر سبق ابن سينا إلى ضرر الإكثار من أكل اللحوم . . وهو الأمر الذي قرره الطب أخيراً :

فقد نشرت « الأخبار » في ١٩٧٤/١٢/٢٣ :

شرعت سنة « الأضحية » في عيد الأضحى المبارك حثاً للمسلمين على

---

(١) روضة العقلاء للترمذي ص ٣٨ .

(٢) عيون الأخبار : آداب الأكل .

(٣) الإحياء : ج ٣/ رياضة الصبيان .

التضحية والفداء في سبيل العقيدة ولمساعدة الفقراء بإعطائهم بعض الغذاء الجيد الذي حرموا منه ولم يكن المقصود منها الإكثار من أكل اللحم بدرجة تؤدي إلى الضرر عند الكثيرين ممن يأكلون اللحوم بشراهة . والإكثار من أكل اللحم وخصوصاً لحم الضأن ـ كما يقول الدكتور أمين الباحث بمعهد بحوث الأغذية ـ يمد الجسم بكميات من السعرات الحرارية أكثر من احتياجاته وتخزن هذه الزيادة في الجسم على هيئة دهن يسبب زيادة في الوزن وسمنة لها أضرار صحية كثيرة ، منها احتمال زيادة الإصابة بأمراض السكر وضغط الدم وارتفاع « كلسترول » الدم . وأمراض القلب والشرايين والجهاز التنفسي وإلتهاب المرارة ، والمفاصل والروماتيزم . . والإكثار من أكل اللحم « الفتة » في العيد يسبب اضطرابات هضمية . إذ لا تستطيع المعدة والأمعاء هضم وامتصاص الكميات الكبيرة التي يأكلها الإنسان في العيد ، مما يسبب تخمر وتعفن محتوياتها ويؤدي إلى اضطرابات الجهاز الهضمي التي تأخذ صوراً مختلفة منها : الإمساك ، الإسهال ، والقيء ، والمغص ، وإثارة أعراض إلتهابات القولون والمرارة ، وقرحة المعدة أو الإثنى عشر التي تكون هادئة مع الاعتدال في الأكل . . واللحم المسلوق أسهل هضماً ويليه اللحم المشوي ثم المحمر ، والاحتياجات اليومية للإنسان من البروتين ٧٠ جراماتها حوالي ٢٠ : ٣٠ جراماً بروتين حيواني مثل اللحم ، واللحم يحتوي على ٢٠٪ من البروتين والباقي عبارة عن ماء وألياف وأملاح معدنية وغيرها من المكونات ، لذلك فإن ١٠٠ جرام من اللحم تعتبر كافية والإكثار من أكل اللحم لا لزوم له حتى في الأعياد وأن نضع في الاعتبار الأمل أن يكون للفقراء النصيب الأكبر من لحوم الأضاحي .

بل إن كثرة اللحم يصيب الخلق كما يصيب الجسم بمضمار ربما كانت أخطر من عسر الهضم وغيره من الآفات .

« أكلة اللحوم عادة أشد إنفعالاً وأكثر حدة من هؤلاء الذين يعيشون على خضرة الأرض وبعلها : وذلك مشاهد في الإنسان والحيوان . . فأكلة اللحوم من الحيوانات هي الضارية العادية ، وهي التي تثور لأتفه الأسباب ، وأكلة الخضر والنبات أقلها عدواناً وأسلسها قياداً »[1] .

* * *

---

(١) د . محمود حسب الله / الحياة الوجدانية ص ٤٥ ، ٤٦ .

* **الإسراف في الأكل .. كيف يؤثر على الانتاج**[1] :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين** ﴾[2] .

أخي المسلم .. لا بد أنك أكلت في يوم من الأيام أكلة كبيرة تفتحت لها شهيتك . فهل تذكر ذلك اليوم يا صديقي لقد كان بينك وبين صديق موعد فأخلفته أو كنت تريد استذكار درس فلم تتمكن أو كان مطلوب منك عمل ذهني فنمت عنه .. هل تعرف لماذا ؟

يا أخي المسلم إن الإنسان إذا أكل وملأ معدته جذب الدم الموجود في الجسم ليشتغل في عملية الهضم . إن العيش والللحم والأرز لن يدخل إلى الدم كما هو ولكن تسبقه عمليات هضم وامتصاص يؤدي الدم فيها الجزء الأكبر من العملية فلا بد أن تفرز العصارات الهضمية فينهضم الأكل وتتحول البروتينات إلى أحماض أمينية وتتحول النشويات والسكريات إلى جلوكوز وتتحول الدهون والشحوم إلى أحماض دهنية ثم تمتص هذه المواد وتذهب إلى الكبد عمليات كيماوية شاقة وأن أي تحويل من هذه التحويلات لو أردنا أن نتممها في خارج الجسم لاحتاجت إلى معامل معقدة ثم لا بد أن يمتص الغذاء المهضوم إلى داخل الجسم ، وكل هذه العمليات يقوم بها الدم وعلى ذلك فالأكلة الكبيرة تعطل الدم الذي يدير جميع أجهزة الجسم وعلى سبيل المثال يلاحظ الطالب أنه إذا تعشى عشوة كبيرة مهما نام بالنهار فإذا ما جلس إلى مكتبه غلبه النعاس وكذلك رجال الفكر والتأليف يغلّب عليهم النعاس فتتعطل أعمالهم إذا كثر غذائهم وقد يجاهد الطالب أو المفكر النعاس بأن يقوم من مكتبه ويغسل وجهه ولكنه إذا قرأ لا يفهم وهذه الظاهرة تعطل الدراسة المسائية في الجامعات والمعاهد فكثيراً ما نلاحظ أن الطالبات في صحوة أكثر من الطلاب وقد كانت هذه الظاهرة مادة دراسة في كلية طب عين شمس وكان لا بد لحلها من زيارة المطعم في الكلية فوجد هناك معركة بين عمال المطبخ والطلبة إذ أنهم قد مسحوا جميع الأطباق ولم يتركوا للعمال لا لقمة ولا رزة بينما الفتيات يحافظن على قوامهن فيأكلن بالحساب .

ونلاحظ أن وجود بائع الفول والزيت الحار والمواد الحريفة أمام المصانع أداة

---

(١) للدكتور عبد الغني وشاحي .

(٢) الأعراف : ٣١ .

(*) الخبز .

من أدوات تعطيل الانتاج فإذا ما أكل العامل أكلة كبيرة تبنج ولم يستطع العمل وذلك لأن الدم ترك العضلات إلى الجهاز الهضمي .

إن الله سبحانه وتعالى يأمرنا ألا نسرف في الطعام حتى نستطيع أن نفكر وأن نبتدع وأن نذاكر وأن نعمل وأن ننتج ، وأن الأجانب ينفذون ـ دون أن يدروا ـ أوامر القرآن ففطارهم خفيف ثم يأكلون أكلة خفيفة أثناء العمل وبعد نهاية العمل يأكلون ما لذ لهم وطاب . ولو نفذ المسلمون قول النبي عليه الصلاة والسلام : « **نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع** » واستمسكوا بما كان يأكله الصحابة رضوان الله عليهم لحلوا مشاكلهم الاقتصادية والغذائية ولزاد إنتاجهم ولوفروا أموالهم ومجهودهم[1] .

* * *

*** الطعام وعلاقته بأمراض القلب :**

من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى زيادة الأمراض في العالم وخاصة أمراض تصلب الشرايين موجود ومُنتشر بكثرة شديدة في المجتمعات المتقدمة ، والأكثر من هذا أن الناس الذين يهاجرون من المجتمعات البدائية التي تعيش بقدر ضئيل من الأكل إلى المجتمعات المتقدمة والأكثر قلقاً وتعقيداً في الأكل تزيد بينهم نسبة الإصابة بتصلب الشرايين والسبب الواضح ليس هو تغيير طبيعة الحياة بقدر ما هو تغيير نوع الأكل لأنه ما زال الإنسان الذي يعيش في المجتمعات المتقدمة ـ لا يؤدي مجهوداً جسمانياً ـ يتناسب مع كمية الأكل .

وثمة علاقة علمية أكيدة بين الدهن المكتنز تحت الجلد في الإنسان وكمية الدهن المترسب في الشرايين . ومن هنا تأتي حكمة الصيام . . « بالصرف » من هذا المكتنز وتعويد النفس على الأكل القليل . . كما أن الصلاة نفسها مجهود جسماني وهذا في حد ذاته تدريب لعضلات الجسم ، بالإضافة إلى الحياة الروحانية التي يعيشها الصائم تمنحه هدوءاً وراحة وطمأنينة . . وهو المدخل الطبيعي للحياة المريحة الخالية من الأمراض . .

ونظام حياة الصائم المثالية يجب أن تبتعد عن أكل الدهنيات مباشرة . . أو أكل كميات كبيرة من الحلويات بعد الأكل مباشرة . . وقبل كل شيء من الأفضل أن يبدأ

---

(١) الجمهورية ١٤/٩/١٩٧٥ .

الصائم إفطاره بكوب من العصير قبل الأكل بنصف ساعة . ولهذا التصرف أسبابه وميزاته فهو يقلل تركيز كرات الدم الحمراء . . ويعطي جرعة قليلة من السكر للجسم كافية لإطفاء الجوع وتجعل الجسم يفرز كمية بسيطة من الأنسولين اللازم للمساعدة في الاحتراق الطبيعي للأكل .

ولا يفضل بعد الأكل مباشرة تناول كميات دهن . أما بعد الإفطار فغير مرغوب أكل كميات من الحلويات مثل الكنافة أو البسبوسة . . ويستحسن بعد الأكل بساعتين . وفي السحور . . أحسن الوجبات طبق الفول المدمس لأنه يستغرق مدة طويلة في التمثيل الغذائي كما أن الزيوت لشرايين الجسم أخف وطأة من السمن . أما مريض القلب فلا يصح له الصيام . لأن الصيام حرمان . . ومريض القلب أساساً محروم ـ من الناحية الفلسفية ـ من الأكل . . كما أن الصوم الطويل . . والأكل الكثير بعده ضار لمريض القلب[1] .

* * *

## اللباس في الإسلام

ما هو المقصود باللباس في الإسلام ؟

وما مدى التزام الأمة بتوجيهاته ؟

فيما كتبه المفسرون بيان شاف ، يمكن على ضوئه تحديد الموقف . ووضع النقط على الحروف ، في مضمار ضلت الآراء فيه ، بقدر بعدها عن هدى الإسلام .

وإذا كنا نتحدث في هذا الباب عن ضرورة الأخذ بتعاليم ديننا ورفض ما سواها من الأنظمة الوافدة . .

فإن في بيان موقف الإسلام من اللباس تجلية لأمر هام وجد فيه الإلحاد فرصته فضرب ضربته . .

وظن السطحيون أن الأمر هنا يتعلق بمظهر لا صلة له بالمخبر . .

بينما كانت النتيجة وقوعنا في جريمة تقليد أعمى . . قادنا في النهاية إلى التحلل من تبعات الفضيلة . .

---

(١) الأهرام ١٩٦٨/١٢/٧ .

لأن الأمر ليس تغير شكل بشكل . . بقدر ما كان فتونا بمدنية مزيفة . . واستدبار للهدى الحقيقي . .

وما ترتب على ذلك من ضياع الشخصية المسلمة القوية التي أقامها الإسلام معلمة هادية . . ولم يرض لها أن تقف تابعاً تتسقط فتات الموائد . . وبين يديها ومن خلفها عناصر العزة في دينها . .

* * *

إن تقليد الأجانب في المظاهر المادية مزلق إلى تقليدهم في سلوكهم . . بحكم ضعف المسلمين الذين وقعوا في براثن استعمار ماكر ما فتىء يهون من دوافع التقليد . . إلى أن يتحقق له ما يريد .

* * *

مرة أخرى ما هو اللباس في الإسلام ؟

يقول الشربيني رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى : ﴿ **أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم** . . ﴾[1] الآية :

روي أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون :

لا نطوف في ثياب عصينا الله تعالى فيها ، أو كان الرجال يطوفون بالنهار والنساء يطفن بالليل عراة . . فنزلت .

قال البيضاوي :

« ولعله سبحانه ذكر قصة آدم تقدمة ذلك ، حتى تعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان . وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم » .

فاللباس بهذا المعنى نعمة من الله تعالى من حيث كان ستراً لعورة الإنسان وإضافة يتم بها جماله .

ولذلك « يمن تبارك وتعالى بها على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش ، فاللباس المذكور هنا تستر العورات ـ وهي السوآت ـ والرياش والريش هو ما يتجمل ظاهراً .

---

(١) الأعراف : ٢٦ .

فالأول من الضروريات ، والريش من التكملات والزيادات »[1] .

* * *

وإذا كان اللباس نعمة منه تعالى . . فإن الشيطان المريد كما هو دابة يتدخل لإفساد طعمها بتحويلها عن غرضها الحقيقي . . وبخاصة في مجال الشباب .

ومن هنا كانت إشارة البيضاوي رحمة الله عليه إلى مكمن خطر يستغله الشيطان في محاولة للعود على بدء يغوينا كما أغوى من قبل أبوينا .

وفي هذه الرؤية الإسلامية الممتدة للمستقبل ما يدعونا إلى شدة التمسك بتعاليم الإسلام الرشيدة . . بعد أن أثبتت الوقائع صدق النبوءة فيما ترى وتسمع .

* * *

ونحب أن نقرر أولاً أن الإسلام لا يرفض الزي الزائد على ستر العورة . . بل إن ذلك مشروع كما أشار إلى ذلك الشربيني في تفسيره للآية الكريمة :

﴿ **وريشا** ﴾ أي : ولباساً تتجملون به ، والريش للطائر معروف ، وهو لباسه وزينته كالثياب للإنسان فاستعير للإنسان ، لأنه لباسه وزينته . والمعنى : وأنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم ولباساً لزينتكم . لأن الزينة غرض صحيح كما قال تعالى : ﴿ **لتركبوها وزينة** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **ولكم فيها جمال** ﴾[*] .

وقال ﷺ : « **إن الله جميل يحب الجمال** » .

ولكن الزي ككل زينة موطن ابتلاء للإنسان ، مثاب به أو معاقب على قدر توخيه حكمة الإسلام .

﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾[3] .

« ومعلوم أن إطلاق العنان في المباحات كلها قد يفضي إلى الإسراف الضار

---

(١) ابن كثير في تفسيرة للآية .

(٢) النحل : ٨ .

(*) النحل : ٦ .

(٣) الكهف : ٧ .

الذي يقصد به صاحبه زيادة اللذة فيصدق قول الأمثال : من طلب الزيادة وقع في النقصان »[1] .

وإذا كان « من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت »[2] .

فإن منه أيضاً أن تلبس كل ما تطلعت نفسك . .

لأن ذلك سوف يجرك إلى طريق لا نهاية له . . تزداد فيه متاعبك . ولا تتحمل مغارمه طاقتك .

فضلاً عن مجافاته لروح الإسلام . .

وما تهدف إليه من ستر العورة . . والزينة المشروعة الموصولة بالخالق سبحانه .

ولذلك ترفعك الآية الكريمة إلى أفق آخر أعلى حين تنبه إلى لون من اللباس يتخطى بالإنسان حاجز السرف ، ويعينه على تمثل الخلق الإسلامي .

يشير إلى ذلك قولهّ تعالى : ﴿ **ولباس التقوى ذلك خير** ﴾[3] .

يقول الشربيني في تفسيره للآية الكريمة :

﴿ **ولباس التقوى** ﴾ قال ابن عباس : هو العمل الصالح ، ثم زاد الله تعالى في تعظيم المعنوي بقوله : ﴿ **ذلك خير** ﴾ أي : ولباس التقوى هو خير من لباس الثياب . لكونه أهم الثياب .

لأن نزعه يكشف العورة الحسية والمعنوية ، فلو تجمل الإنسان بأحسن الملابس ، وهو غير متق ، كان له سوآت .

ولو كان متعباً وليس عليه إلا خريفة ثوب تواري عورته ، كان في غاية الجمال والكمال وأنشدوا في المعنى :

إذا أنت لم تلبس ثياباً من التقى عريت ، وإن وارى القميص قميص

وأيضاً :

---

(١) تفسير المنار عند قوله تعالى : ﴿ **ولباس التقوى . .** ﴾ .

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم . .** ﴾ .

(٣) الأعراف : ٢٦ .

إذا المــرء لم يلبس ثيابــاً من الـتقى    تجــرد عــريــانــاً وإن كــان كــاسيــاً
وخـيــر لبــاس الـمــرء طــاعــة ربــه    ولا خـيــر فـيـمـن كــان لله عــاصيــاً

ولهذا كان اللباس نعمة من الله ، أنزل من السماء مباديها وعناصرها فيجب أن يعود إلى أصله سماوياً طاهراً . . بعيداً عن كل ما استحدثه الناس من كل ما يجافي المقصود منه .

* * *

هذا اللباس الذي يحدد الإسلام قيوده في :

١ ـ أن لا يكون كاشفاً للعورة .

٢ ـ أن لا يشف عما تحته .

٣ ـ أن لا يكون فضفاضاً غير مفصل على حجم الجسم .

٤ ـ أن لا يكون فيه نوع خيلاء أو إسراف[1] .

* * *

فإذا حطم الشباب هذه القيود إيثاراً لتقليد الأجانب فإن الأمر حينئذٍ أخطر من استبدال زي بزي ، ولكنه يصبح خطراً يتهدد كيان الأمة ـ كما بينا آنفاً ـ ودليلاً على التحلل من ربقة الإسلام الذي حرص على موضع أسس اللباس منذ الصغر وقاية من تلك النهاية المؤلمة .

إن الآبـاء يتحملون وزر تـورط الأبنـاء في اختيـار لبـاس لا يتفق ومكـارم الأخلاق . . حتى إذا شبوا عن الطوق صعب عليهم وعلى المربي فطمهم عن عادة تمكنت منهم ورسخت فيهم . . وقـد أشـار الإمـام الغـزالي إلى مـلاحقـة الصبي بالتنبيه . . وقاية من زملاء يرتدون الثياب الملونة ببيان خطر هذا اللباس على شخصية الطفل وكيف أنه دأب النسوان في الوقت الذي يرشد فيه الصبي إلى معنى اللباس . . والمراد منه ودلالة التقليد على روح المقلد وتبعيته لغيره . . يقول الغزالي : « يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون أو الابـريسم ويقرر عنـده أن ذلك شـأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يستنكفون منه . ويكرر ذلك عليه . ومهما رأى على الصبي ثوباً من ابريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه »[2] .

---

(١) من مقال للدكتور أحمد الكردي مجلة الوعي ربيع أول ١٣٩٤ هـ . بتصرف .

(٢) الغزالي : باب رياضة الصبيان .

والأصل في ذلك ما روي : «قال رسول الله ﷺ ) « **البسوا البياض فإنها أطهر وأطيب . وكفنوا فيها موتاكم** »[1] .

* * *

رأى الدكتور سعاد جلال :

تساءل الدكتور في جريدة الجمهورية ١٩٧٥/٦/٣٠ : «أصحيح ما يقوله بعض الناس : أن إفساد الشبان لشعورهم ولباسهم الأقمصة المشجرة والسراويل الضيقة مخالف للشرع ؟

وقد حمل الدكتور : « غوغائية الفكر الديني » مسؤولية ما يعانيه الشباب اليوم من تناقض ثم فصل الجواب على تساؤله فقال :

وما زلنا نقول إن « غوغائية » الفكر الديني في هذا البلد تفرض عاداتها ومذاقاتها الشخصية في السلوك الاجتماعي والأخلاقي على أحكام الشرع جهلاً بالشرع ، واستبداد بالرأي وعصبية سخيفة للقديم . ومن هنا نشأت وبمسؤولية هذه « الغوغائية » المستبدة محنة اضطراب الشباب وبلبلة أفكارهم وهي المحنة المؤلمة التي تشكل أزمة التناقض بين دعوة الشباب إلى النكوص الحضاري وبين عوامل التطور الحتمي التي تدعوهم للتعبير عن حرية الذات بكافة أشكالها .

عورة الرجل ـ كما يقول الفقهاء ـ تبدأ من تحت السرة حتى الركبة فلو اقتصر إنسان مسلم على لباس ما يستر هذا المقدار من جسمه ومشي في الشارع لما اعتبر مخالفاً للشرع ولا مخالفاً للقانون الأخلاقي لماذا ؟ لأن مقياس الأخلاق عند المسلمين هو حكم الشرع ليس العادة ولا المزاج الشخصي ولا الفكر الفلسفي . وهؤلاء الشبان يلبسون ما يستر أجسامهم كلها فضلاً عن موضع العورة ـ ستراً كاملاً محموداً ، فلا لوم عليهم شرعاً .

ولم يفرض الشرع على لبس الناس لوناً معيناً ولا تفصيلاً معيناً ولم يحرم على الشبان الجمال ولا التجمل ولا التمتع بطيبات الحياة وزينتها قال تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾[2] .

وقد كان النبي يرسل شعره إلى نحو كتفيه ويتجمل ويتطيب حتى يرى لمعان

---

(١) رياض الصالحين / ٢٧١ ، ورواه الحاكم والنسائي ، وقال : حديث صحيح .
(٢) الأعراف : ٣٢ .

الطيب في ناصيته . وقال ـ ﷺ ـ : « **إن الله لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر** » . فقال رجل : يا رسول الله . . إن أحدنا يحب أن يرى ثوبه حسناً ونعله حسناً . فقال ـ ﷺ ـ : « **إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس** » .

وإذن فما يقوله بعض الناس من الوارد في السؤال خطأ قطعاً .

*　*　*

ونحن نتساءل :

هل صحيح أن بعض رجال الدين يتحملون اثم هذا التناقض وحدهم . . أم أن لهم شركاء في هذا الاثم من الاستعماريين والملحدين الذين يركزون مكرهم السيء في مجال الشباب لتعيش الأمة الإسلامية بلا مستقبل ؟

وإذا كان الواقع يثبت ذلك فلماذا نخص رجال الدين وحدهم ؟ لماذا نهاجم المجتهد المصيب المأجور . . ونتجاهل في معرض الحكم هذا المكر السيء من قبل أعدائنا ؟ وصحيح أن الإسلام لم يشرع زياً معيناً . . وما دامت العورة مستورة . وصحيح أيضاً أن الرسول ﷺ كان يرسل شعره إلى نحو كتفيه . . ويتجمل ويتطيب حتى يرى لمعان الطيب في ناصيته . .

ولكن هل هؤلاء الشباب في ارسالهم شعورهم نحو أكتفهم يقتدون برسول الله ؟

أم أن لكل منهم وجهة هو موليها ؟ !

إن التجاربُ اليومية لتشهد أنهم وقعوا أسارى التقليد لبيوت الإزياء اليهودية . . فإذا صرخنا في وجوههم بضرر هذا التقليد لا نحرمهم من ﴿ **زينة الله التي أخرج لعباده** ﴾ .

لأن هذه ليست زينة الله . . وإنما زينة أعدائه ! !

وأنت تعلم أن مخالفة الأعداء ضرورية تدعيماً للشخصية الإسلامية في معركة القيم . . ثم . . هل يعتقد الدكتور حقاً بأن السراويل الضيقة مما يستر العورة ؟ أم أنها كثوب الرياء تشف عما تحتها ؟ ! وأفضل منها ما ذكرته في جوابك . أننا مثلك نعلم « أن الله جميل يحب الجمال » .

لكن اطلاق القول بلا تحديد من رجل متخصص مثل الدكتور جلال يترك

المباديء غارقة في النية . . وليقل لنا بصراحة :

أهذا الجمال المتلفع بالعطر . . المتلون كالحرباء . . الذي يستدعي الشيوخ حتى من فوق قمة الثمانين ، هل هو من نوع الجمال الذي يحبه الله ؟

لقد سألني مذيع في إحدى الإذاعات العربية فجأة وكنا على الهواء :

وما رأيك في الحب ؟

وقلت على الفور : تعلمنا من الأزهر ما يسمى بتحرير المراد ؟ فماذا تريد بالحب . الحب كما ورد في أدب رابعة العدوية . . أم هو الحب المذكور في أغنية حبك نار مثلاً ؟ وسقط في يده ولم يحر جواباً . . ولكنا نعلم أن الدكتور المعي ولن يعدم جواباً وألف جواب . . بيد أننا ندعوه إلى تأمل الصور اليومية لشبابنا وقد أرسل شعره . . ولبس الملون . . ثم نترك لضميره تقدير الموقف . .

موقف ما سماه : « الغوغائية الدينية » ليحسن الظن بإخوة له على طريق الإصلاح .

لقد كان الإمام الغزالي أبعد نظراً حين قرر ضرورة تنبيه الصبي إلى أن ليس الملون من شأن النسوان . .

ولعله بذلك يريد وضع الحدود الفاصلة الحاسمة بين الذكر والأنثى . .

حتى لا يكون هناك التشبه المنهي عنه في السنة المطهرة . .

ولكن الدكتور يتجاهل ذلك في محاولة لتدليل ما عليه دليل ! ولست أفهم لحساب من هذا التدليل ؟ !

فلو أن ضغوطاً تطحن الشباب وتشد عليه منافذ الحرية والإنطلاق لكان لمثل هذه الدعوى إلى التدليل سند من المنطق . .

لكن الشباب اليوم يتخذ سبيله في كل مناحي الحياة . . حراً طليقاً . .

وإذن . . فكل تبرير لهذا الإنطلاق لا يجد سنده من الشرع أو العرف . لأن الشرع يفرض في مثل هذه الحال مزيداً من التحذير لشبابنا حتى لا يتخطى مزيداً من الحواجز . ويلتزم بحدود الله . .

أو على الأقل . . كان لا بد من لفتة قوية للشباب إلى جانب هذا الدفاع المتحمس . ليعود سيرته الأولى في خدمة الدين والوطن . .

وإذا كان ولا بد من تقليد . . فليكن فيما يفيد !

ثم ما هو الغرض من اللباس ؟ يجيب المودودي عن السؤال فيبين أنه لستر العورة . . والحفظ من تقلبات الجو . . ثم يقول :

« فكل لباس يحقق للإنسان هاتين الحاجتين الأساسيتين يجب أن يكون واحداً بعينه في صورته البسيطة » .

ثم يشدد النكير في غير موضع على التشبه بلباس أمة أخرى من حيث دلالته على الإفلاس فيقول :

« ليس اختيار أمة للباس أمة غيرها . وطريقها للمعيشة إلا نتيجة وإعلاناً لما في هذه الأمة من مركب النقص . وبكلمة أخرى :

فإنها تعتبر نفسها أمة ذليلة . ليس عندها شيء تفتخر به .

وإن أسلافها ما كانوا قادرين على أن يتركوا لها شيئاً تحتفظ به . وتعلن نسبته إليها بدون خجل ولا غضاضة .

وإن ذوقها القومي وفكرتها القومية في « غاية الدناءة والبلادة وتعويدها الخصائص المعينة على الإختراع والإبداع .

حتى أنها لا تستطيع أن تبدع لنفسها أسلوباً للمعيشة أفضل . ولذا فإنها لكي تبدو للدنيا مهذبة متحضرة فإنها تستمد كل شيء من غيرها وتعلن للدنيا بدون حياء ولا خجل أن الحضارة والمدنية والتهذيب والحسن والجمال والبراعة والأناقة إنما هي في حياة تلك الأمم التي تقلدها وترى السعادة في اقتفاء آثارها . .

وإن حياة هذه الأمم هي المقياس الحقيقي لكل كمال ورقي »[1] .

* * *

ومن المؤسف حقاً أنك تنظر من بعيد أو قريب فلا تستطيع لفرط التقليد أن تميز بين الفتى والفتاة . .

ومعنى ذلك بداهة تحقق التشابه المنهى عنه بين الرجال والنساء في عنصر اللباس ودخول المستهترين بالتالي في لعنة الله المذكورة فيما رواه البخاري رضي الله

---

(١) أبو الأعلى المودودي ـ رسالة اللباس ص ٢١ ـ ٢٢ ط المختار الإسلامي .

عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

« لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال » ( باب المتشبهين بالنساء ) . ويروي ابن عباس أيضاً كيف اتخذ المجتمع مؤتمراً بأمر الرسول موقفاً إيجابياً من هؤلاء المخنثين لطردهم من المنازل اتقاء شرهم .

لعن النبي ﷺ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، وقال : « **أخرجوهم من بيوتكم** » ، قال : « فأخرج النبي ﷺ فلاناً . وأخرج عمر فلاناً » .

فالأمر من وجهة النظر القومية والدينية معاً خطر يتهدد كيان الأمة . . وقد تنادت له منذ كان جنيناً في رحم الأمة كل الأصوات المخلصة .

يقول صاحب كتاب الدعامة لمعرفة أحكام سنة العمامة :

« روى أبو داوود والحاكم في المستدرك عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » وقال : « **ليس منا من تشبه بقوم غيرنا** » .

بين عليه الصلاة والسلام أن المتشبه بالأجانب في الزي ومثله من الشعائر لا يكون من أمته بل ينسلخ منها ويبعد .

وتكون أمته بريئة منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

إذ لكل أمة شعار من الزي واللغة والدين يميزها من غيرها ويجعل لها استقلالاً خاصاً بها .

وقدر ما يكون بين أفراد الأمة من الارتباط بشعائرها ولغتها وزينتها تكون عظمتها بين الأمم .

فالرسول يهدينا إلى ذلك . وقد رأى أحد أصحابه لابساً نوعاً من الثياب فقال له : « **لا تلبس هذا فإنه من لباس الكفار** » . وقد قالى تعالى : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[1] .

فلتنتبه الأمة الإسلامية إلى هذه التعاليم ولتحافظ على شعائرها التي يسعى العدو في هدمها بنشر شعائره[2] .

---

(١) المائدة : ٥١ .

(٢) الدعامة لمعرفة أحكام شبه العمالقة ص ١٢٤ ط الفيحاء مكتبة معهد منوف للسيد محمد بن

ومعنى ذلك أن هناك أموراً هامة تعتبر قاسماً مشتركاً بين كل الشعوب . . وهي ما نسميه بالثقافة . .

وإلى جانب ذلك توجد الخصائص المميزة لكل أمة والتي يجب الاحتفاظ بها . . بل ومكابرة أمم الأرض بها . .

والتقليد محمود في الأمور العامة . . مذموم في الأمور القومية والدينية .

* * *

فإذا كان التقليد للكفار في أمور توشك أن تضر ديننا . . فإن الفرار منها يكون فرضاً علينا . .

لأنه من ناحية مخالفة نستمسك فيها شخصيتنا في دنيا تتصارع فيها المبادىء . . ثم هو الاحتفاظ بالبساطة التي دعا إليها الإسلام . . ليظل المال المبذول في هذه الترهات رصيداً مدخراً لمعركتنا المستمرة مع الباطل المتربص بنا .

والأصل في ذلك ما ذكره العلامة سيدي عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره « الجواهر الحسان » عند قوله تعالى : ﴿ **زين للذين كفروا الحياة الدنيا** ﴾[1] :

« عن القاضي عياض قال :

إن رسول الله ﷺ أوتي خزائن الدنيا . وحببت له الأخماس . وهابته الملوك . فلم يكن لنفسه وأولاده من هذا المال إلا الضروري وأما بقية هذا المال فقد أغنى به غيره . وقوى به المسلمين » .

* * *

لقد قال الإسلام كلمته في ما مر بنا من فصول . .

ووضع الأساس الصالح لبناء جيل سوي يعبد الله ويعمر الحياة . ولا بد لنا من نظرة إلى الواقع الذي نعيشه اليوم ـ لنرى في ضوء المبادىء السالفة هذا التناقض البادي بين الواقع الماثل وبين ما قرره الإسلام . فنظام الأسرة القائم على التساهل وتقليد الأجانب . .

والأخذ بأسباب الرفاهية دون العناية بتكوين الخلق . .

---

علامة المقرب للإمام جعفر الكتاني .

(١) البقرة : ٢١٢ .

وأدوات الإعلام والتوجيه . . وكل مرافق المجتمع . . بما فيها نـظام التعليم نفسه تشبع في الشباب رغبته في المعرفة . ولا تلبي حاجته إلى الأمن والقرار .

إنها فقط تتملق عواطفه . . وتقدم إليه المزيد من المتعة الوقتية التي تزايله . . حتى إذا عاد إلى نفسه أحس بفراغ هائل يفجر في نفسه حيرة . . تنطلق بعد ذلك شكاً . . أحس بفراغ هائل يفجر في نفسه حيرة . . تنطلق بعد ذلك شكاً . .

ثم يقع المحظور . . حين يتسم سلوك الشباب بالتمرد ورفض كل نصيحة على نحو غريب قد يقف به من قيم الدين موقف العداء ! !

ولعل إيثار الشباب لأزياء لا تتفق مع دينه وقوميته لون من معاداة مجتمع لم يلب حاجته النفسية والروحية .

فينحاز إلى الطرف الآخر في معركة يخسر فيها طاقاته وإسلامه وبالتالي يفقد المجتمع فيها أهم عناصره .

لأنه لم يكن مخلصّاً في تطبيق مبادىء الدين .

* * *

## اللعب . . وصلته بخطة الإسلام التربوية

إن « الجلوس بلا حراك هو أصعب شيء على نفس الطفل الصغير . . فضلاً عن أن جلوسه ساكناً لمدة طويلة أسوأ ما يمكن أن يفعله هو . إذ هو لا ينمو . ولا يصبح ماهراً إلا بالحركة والعمل :

فهو يتعلم الجري بالجري فعلاً . ويتعلم التوازن والحمل . بالتوازن والحمل فعلاً . وليست حركاته الخرقاء المنحرفة إلا مراحل ضرورية في طريقه إلى المهارة والإتزان »[1] .

وإذا كان هذا ما تؤكده التجربة اليومية في حياة كل أسرة . . فإن مسؤوليتنا أن نرقب الطفل وأن نفسح أمامه الطريق ليعبر عن نفسه بالحركة . . ولكن بقدر . . وأن يستمر في ذلك . . ولكن بحذر !

* * *

---

(١) الحضانة ـ سوزان إيزكس . ترجمة سمية فهمي ص ١٢٥ .

إن الإنسان ـ كما يقرر العلماء ـ أطول الحيوانات طفولة . . ومن ثم فهو في حاجة إلى رعاية أطول وأشمل إلى أن يستوي على سوقه . . ويتحمل دوره في الحياة .

وحركة الطفل أو لعبه أحد المجالات التي تنمو بها قدراته . . والتي رعاها الإسلام ورصد لها المنهج الأمثل . . المتجاوب مع فطرة الصبي . . الآخذ بيده في ذات الوقت إلى التي هي أقوم . .

وذلك بربط كل صور اللعب بخطته العامة في التربية . . بحيث يستوعب بمبادئها الشاملة الكاملة حياة الإنسان منذ الخطوة الأولى . . حتى تسير في إطاره محققة حاجة الجسم والنفس معاً : ويتضح ذلك مما يلي :

*** أهمية اللعب :**

في قوله ﷺ : « **عرامة الصبي في صغره . .** »[1] . ما يشير إلى أهمية اللعب في السن الباكرة .. فلدى الطفل عندئذٍ نهم غريزي للحركة . . وعلينا أن نحسن استقباله ثم توجيهه إلى ما يفيد .

وإذا كانت القراءة وسيلة لتزويده بالمعلومات عن الكون من حوله . فإن اللعب الهادف يفتح الذهن ابتداء ، ويجعل الطفل أكثر تقبلاً لهذه المعلومات . بل أكثر استعداد للحياة الراشدة .

بعض علماء النفس اليابانيين يقول : إن الرجولة بغيّر طفولة رجولة تعيسة ، فالتقاليد اليابانية تدفع بالطفل في سن صغيرة أن يكون رجلاً بسرعة ، أي أن التقاليد تضع في رأس الطفل أنه رجل صغير ، ثم رجل ، ثم رجل كبير ، يكفي أنه ذكر ، ولذلك كان الطفل يجلس مع أبيه أما أخواته البنات ، مهما كانت سنهن فيجلسن مع الأم . فيأكل الأب والطفل الذكر أولاً . ويعد ذلك بقية أفراد الأسرة .

كما أن الطفل يرتدي ملابس الرجال ، ويتولى مسؤولية رب البيت . وهو في سن صغيرة . وجاءت التربية العسكرية فأيقظت فيه الرجولة المبكرة ، والاستعداد للقتال من أجل الامبراطور ثم من أجل اليابان .

ومن الغريب أن اليابان هي أكبر دول العالم إنتاجاً للعب الأطفال . ومعنى ذلك

---

(١) رواه الترمذي في نوادره ، والعرامة : الحيوية وكثرة الحركة .

أن اليابان تتوجه بإنتاجها إلى أطفال العالم إلا أطفالهم ، وتحرص على أن تطول فترة الطفولة في كل مكان . . إلا في اليابان !

والإنسان هو صاحب أطول طفولة بين الكائنات . بينما نجد الحيوانات والطيور تجتاز الطفولة بسرعة . . إلا الطفل الإنسان فطفولته من الممكن أن تستمر حتى الموت لأن الرجل طفل كبير ، ويبدو أنه حريص على أن يظل كذلك ! ولكن بعد الحرب العالمية الثانية أدركت اليابان أنها بسبب الحرب وفي أوج الصناعات المتطورة ، وغمرة الرفاه الهائل ، قد نسيت أن تعطي لأطفالها فرصة أن يكونوا أطفالاً وأن يلعبوا . . وأن يشاركهم الآباء في ذلك . .

واهتدى علماء النفس في اليابان أيضاً إلى أن تعاسة البيت الياباني سببه أن الرجل لم يلعب صغيراً . وأنه لذلك لا بد أن يلعب كبيراً .

والذين تخصصوا في هتلر وموسوليني وستالين يقولون : لو لعبوا صغاراً ، لكانوا أقل قسوة على أطّفال الآخرين !

* القاعدة العامة :

والقاعدة العامة هنا : والتي تجعل للحركة قيمة هو : ربطها بقيم الإسلام . والابتعاد بها عن التهور والتنافس المجنون .

ونقرأ في ذلك : « ما ألهاك عن ذكر الله فهو ميسر » .

فحيث كان الإنسان خليفة الله في أرضه . فوظيفته الأولى أن يكون عند حسن الظن به قانتا لله حنيفاً .

وكل عمل يعطل في نفسه تلك الوظيفة أو يشوش عليها . فهو باطل . وإذ يبيح الإسلام اللعب أحياناً للإستجمام . وتجديد النشاط . فإنه لا يتخلى عن هذه القاعدة أبداً . فاللعب الجميل الهادف حلال . . إلا إذا انحرف بالإنسان فأضاع وقته فيما لا يغني عن الحق شيئاً : يروى أن رجلاً مثل « بين يدي المنصور ، ورمى بابرة فغرزت في الحائط ، ثم أخذ يرمي واحدة بعد الأخرى .

فكانت كل إبرة تدخل في ثقب سواها ، حتى بلغ عدد الأبر مائة . فأعجب المنصور به ، وأمر له بمائة دينار ، وحكم عليه بمائة جلدة . فارتاع الرجل ، وسأل

عن السبب فقال له المنصور : أما الدنانير . . فلبراعتك ، وأما الجلد . . فلإضاعتك الوقت فيما لا ينفع »[1] .

لقد أعجب المنصور بدقته في إصابة الهدف ، لأنه أمر في حد ذاته يمكن أن يأتي بنتيجة تفيد الدين والمجتمع . . لكنه صار شغل الرجل الشاغل بحيث استوعب هذا العمل كل وقته فلم يدخر منه شيئاً لأمته فحكم عليه بالعقاب .

من أجل ذلك حدد العلماء ما يكون من اللعب صالحاً . وهو ما يحقق مصلحة فردية أو اجتماعية .

وفي ذلك يقول الخوارزمي[2]: « أعلم أن اللعب كله باطل ، إلا ثلاثة أشياء :

قال رسول الله ﷺ : « **كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا ثلاثة أشياء : رمي الرجل بقوسه ، وملاعبته إمرأته ، وتأديب فرسه ، فإنهن من الحق** » .

ومعناه : أن كل ما يتلهى به الرجل ، مما لا يفيده في العاجل أو الآجل باطل ، والاعراض عنه أولى ، إلا هذه الأشياء الثلاثة فإنها حق لإتصالها بما يفيد : كالرمي بالقوس ، وتأديب الفرس ، فإنه معاون على القتال ، وملاعبة الأهل تؤدي إلى أن يكون له ولد .

* * *

*** من هدى الرسول :**

كانت العضباء[3] ـ ناقة رسول الله ﷺ ـ لا تسبق * فجاء إليه أعرابي على قعود[4] فسبقها ، فشق ذلك على المسلمين .

فقال ﷺ : « **ما رفع الله شيئاً إلا وضعه** » .

يقول المرحوم الدكتور محمد سعاد جلال :

« ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سابق على ناقته العضباء ، وكانت ناقة لا تسابق : فجاء أعرابي على قعود له فسبقها ، فحزن لذلك المسلمون ، فقال

---

(١) الوعي الإسلامي ربيع أول ١٣٩٤ هـ .

(٢) مفيد العلوم : فصول اللعب المباح .

(٣) العضباء : الناقة مشقوقة الأذن إلا ناقة رسول الله فقد سميت بذلك لنجابتها لا لشق أذنها ، المصباح المنير .

(٤) القعود ـ بفتح القاف ـ هو من الإبل : الذي يقتعده الراعي في كل حاجة .

النبي ﷺ ـ مسلياً لهم ـ : « **حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه** » .

يدل الحديث على أن السباق المقصود منه الرياضة كان موجوداً لعهد النبي ﷺ وأن النبي والمسلمين معه كانوا يزاولـون « السباق » على الإبل . نقول : والخيل أيضاً ، ولكن المقصود من هـذا السباق تعليم الفـروسية ، وإظهـار القوة ولم يكن المقصود منه المراهنات المحرمة الموجودة في بعض أنواع السباق اليوم ، ثم كانت الروح الرياضية ، والأدب الرياضي من ترك التعصب والتحزب لشخص أو فريق هو التعليم الذي نبه إليه النبي ﷺ المسلمين لما غضبوا أو حزنوا لسبق ـ قعود ـ الأعرابي ـ العضباء ناقة النبي ﷺ العزيزة على نفوسهم إذ قال لهم : « **حق على الله ألا يرفع شيء من الدنيا إلا وضعه** » وهي حكمة جامعة ترشد المسلمين بعـدم التحزب ، في الرياضة وغيرها وتنهاهم عن الاغترار بزينة الدنيا ، والثقة بإقبالها .

وفي الحديث : « تسابق رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر فسبق رسول الله ﷺ » .

وعن النبي ﷺ : « **لا تحضـر المـلائكـة شيئـاً من المـلاهي سـوى النصـال والرهان ، أي الرمي والمسابقة** »[1] .

ويشير الحديث الشريف إلى ما يسمى اليوم بالروح الرياضية وما نؤثر تسميته بالروح الإسلامية . . التي تتقبل النصر كأنه شيء تافه . . والهزيمة كحـافز يعـدها لتجربة أخرى . . بعد أن تكون قد استفرغت جهدها في موضوع السباق .

وفرق كبير بين رياضة يراد ملء الفراغ . . وبين النشاط كما أقره الإسلام ليحقق صلاح البدن والروح جميعاً .

لقد سبقت القعود ناقة رسـول الله ﷺ . . فلما ذعـر الصحابـة لفوز لـم يكن متوقعاً . . لفتهم الرسول ﷺ بقوة إلى أن الهزيمة والنصر دولة بين الناس .

وهذا درس يفيدهم في عراكهم المستمر مع الباطل . ليكونـوا على بينة من الأمر . . ويتسلحوا دائماً بالصبر الجميل .

* * *

ولقد آثرنا أن نمهد بهذا للحديث عن لعب الصبيان . . لنرسم صورة البيئة التي تترك انطباعاتها في نفس الطفل . . فيتأثر بها . . منفعلاً بما يرى وما يسمع . .

---

(١) الإختيار لمجد الدين الموصلي ص ٢٣٧ .

وإذا كان الإسلام يبيح اللعب أو السباق المحكوم بغايات الإسلام البعيدة . . فإنه ـ في مجال الطفولة ـ يبنيه على نفس الأساس . . إلى ذات الغاية : فيسلم بدنه . . ويتجدد نشاطه . . ليكون بالجسم السليم قادراً على الدرس والتحصيل في صحبة مزاج معتدل . . تقوى به فضائل . . تجيء إفرازاً طبعياً لهذا المزاج المعتدل . . المتجاوب مع الحياة والأحياء .

وفي هذا المعنى يقول ابن سينا : « الأخلاق الحسنة تابعة لصفاء المزاج . . والأخلاق الرديئة تابعة لسوء المزاج . . وحسن الأخلاق يحفظ الصحة للنفس والبدن جميعاً »[1] .

ثم يضع ابن سينا للطفل منهجاً يومياً ينمي هذا المزاج الصافي . وذلك في قوله : « وإذا انتبه الصبي من نومه فالأحرى أن يستحم ثم يخلي بينه وبين اللعب ساعة . ثم يطعم شيئاً يسيراً ، ثم يطلق له اللعب وقتاً أطول ثم يستحم ، ثم يغذي »[2] .

* * *

*** صورة من واقعنا :**

ونتساءل : هل الصور التي نراها اليوم تكون المزاج المعتدل الصافي . . والذي يسلح الصبي بالخلق الجميل ؟ وهل وجد الصبي في بيته ما يساعده على ذلك ؟

تقول التجربة اليومية :

ألم تر أن أطفالنا يتصايحون ويصرخون ويتشاتمون أكثر مما يلعبون ؟ وقفت أرقب فريقاً منهم يلعبون كرة القدم في الشارع . . كانت الكرة لا تكاد تلمس قدم واحد منهم حتى يصرخ الجميع في صوت واحد ما بين مشجع ومعترض وصاخب وطالب حق في اللعب أو شاتم أيضاً . .

وأطفالنا لم يخلقوا هكذا طبعاً ، بل هم ولدوا مثل غيرهم من أطفال العالم عجائن طيعة سهلة التشكيل والتوجيه ، ولكنهم سيئوا الحظ إذ فتحوا عيونهم على مجتمع يصرخ هو أيضاً بأعلى صوت أكثر مما يعمل أي شيء ، أنهم ينقلون عنا نحن الكبار عيوبنا ليحملوها على كاهلهم ثم يورثوها لأبنائهم من بعدهم .

---

(١ ، ٢) منبر الإسلام ربيع آخر ١٣٩٤ هـ .

وهذه جريمة جماعية يجب أن تؤرق ضمائرنا أكثر مما يؤرقها أي شيء آخر ، ذلك أننا ورثنا عن آبائنا عيوباً أقل واستحدثنا عيوباً أكثر لم تكن موجودة . وإذا استمرت هذه الحركة فسوف يورث أبناؤنا أحفادنا أكثر مما ورثناهم نحن . .

وهكذا حتى يجيء وقت ونعود فيه سيرتنا الأولى من الهمجية قبل عشرة آلاف سنة .

إن عالم اليوم بوسائل الاتصال الحديثة أصبح أكثر تعرضاً للعدوى من ذي قبل . إذ لم يعد ضرورياً أن يغادر الإنسان مسقط رأسه لكي يتأثر بمخالطة الآخرين لأن العالم كله يأتي إليه وهو جالس في مقعده يستمع إلى الراديو أو يشاهد التلفزيون .

إننا لا نستطيع أن نقطع تسلسل الأجيال أو نوقف الزمن أو نعزل الآباء عن الأبناء لكي لا يتأثروا بعيوبهم ولكننا بالتأكيد نستطيع أن نفعل الكثير إذا نحن وضعنا مصفاة محكمة وأمينة على ما نقدمه ـ غير أجهزة الإعلام المتطورة ـ من مثل عليا وأخلاقيات .

لقد انتهت القدرة الصالحة للأسف من البيت والمدرسة وانتقلت إلى استديوهات الإذاعة والتلفزيون ومن يعش سوف يرى أكثر »[1] .

* * *

إن الصلة إذن وثيقة بين لعب الصبي وصفاء مزاجه المستتبع تخلقه بجميل الصفات . فهو لعب لا يراد به قتل الوقت ولا التنافس والبغض بقدر ما هو نشاط يتخلص به من إرهاق التحصيل أو الكسل الحاصل بالنوم . ثم إنه يعده لمرحلة أخرى أن يكون أقدر فيها على التحصيل من جديد . بنفس راضية مندمجة في بيئتها . . بعد أن أخذت حظها من اللهو البريء . . الذي تتفتح به النفس للحياة فتقبل عليها . .

ولكن الذي يحدث اليوم يفسد المزاج . . ويثير الأعصاب ، وبالتالي لن يحقق الثمرة المرجوة .

يقول الإمام الغزالي :

« ينبغي أن يؤذن له بعد الإنصراف من الكتاب[2] أن يلعب لعباً جميلاً ،

---

(١) من حديث للكاتب : عبد السلام داوود .

(٢) الكتاب : مدرسة صغيرة لتعليم الصبيان القراءة والكتابة ، وتحفيظهم القرآن ، والجمع : كتاتيب ( المعجم الوسيط ) .

يستريح إليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب في اللعب . فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعليم دائماً يميت قلبه . ويبطل ذكاؤه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً »[1] .

ولا يكون اللعب جميلاً كما يريد الغزالي « إلا إذا كان موافقاً لطبيعة الصبي ، محكوماً بروح الإسلام الداعية إلى أن يستهدف به الخير . .

فإن زايلته تلك السمة دخل في دائرة التحريم .

يقول صاحب الاختيار :

« والجوز الذي يلعب به الصبيان يوم العيد يؤكل إن لم يكن على سبيل المقامرة لما روي أن عمر كان يشتري الجوز لصبيانه يوم الفطر « يلعبون به » وكان يأكل منه . فإن قامروا به حرم »[2] .

ويتفق ابن مسكويه مع الإمام الغزالي وابن سينا في شرعية اللعب ودرجته وثمرته . وذلك في قوله :

« وينبغي أن يؤذن له في بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً . يستريح إليه من تعب الأدب . . ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد »[3] .

على أن الإسراف في اللعب أو اللهو فوق مجافاته لروح الإسلام فإنه يشغل الإنسان عن جسام الأمور . . بل قد تتسع دائرته فيحرمه السمت والقور . .

ويحرمه أيضاً صحة القلب . . وهو منه مركز وجوده . .

جاء في أدب الدنيا والدين : « وأما الضحك : فإن اعتياده شاغل عن النظر في الأمور المهمة . مذهل عن الفكر في النوائب الملمة ، وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار . ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار . .

روى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إياك وكثرة الضحك ، فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه** »[4] .

---

(١) الإحياء ج/٣ رياضة الصبيان .

(٢) الإختيار ٤ / ٢٣٠ .

(٣) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ط الخيرية ص ٢١ .

(٤) أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري ص ٣١٦ - ٣١٧ .

فإذا ما استجمع اللعب شرطه ، فتم في الإطار الإسلامي . . وساوق طبيعة الطفل فإنه يحقق ثمرته المرجوة من الأخلاق .

ومما يؤكد فائدة اللعب وصلته الوثقى بالخلق الفاضل ما روي ان عروة بن الزبير كان يقول لولده : « يا بني . . إلعبوا ، فإن المروءة لا تكون إلا بعد اللعب »[1] .

وحين يربط الإسلام بين شرعية اللعب وخطته العامة في التهذيب . . فقد كان طبعياً أن يشجع من بين صور الرياضة ما يعين الصبي على صقل بنيانه . . فيتمكن بعد ذلك من تحمل تبعاته في الدفاع عن الحق . . وفي مقدمة هذه الأمور : السباحة والفروسية والرمي . .

كتب عمر إلى أهل الشام : « علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية »[2] .

وتأخذ السباحة أهمية خاصة في نظر « الحجاج » فكان يوصي مؤدب ولده بقوله : « علموهم السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم »[3] .

ولم يكن الاشتغال بالعلم مانعاً عالماً كالإمام الشافعي من أن يكون ماهراً في الرمي . . فقد كان يصيب تسع مرات في كل عشر رميات .

ويروى أن الإمام زكريا الأنصاري[4] وهو إمام من أئمة المسلمين كان يسبح النيل مرة كل سنة . .

وليس المقصود بالسباحة هنا تدريباً يمهد لجائزة مالية كما قد يفعل اليوم ، ولكنها السباحة التي تقف إلى جانب صور الفروسية الأخرى فتحقق في كيان فضائل التعاون والصحة النفسية والجسمية . . يتحول بها الصبي من مهمل إلى لبنة صالحة تشق طريقها بنفسها في زحمة العيش . . إلى جانب إعداده ليكون فارساً معداً لتحمل دوره إذا دعا للجهاد داع .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ( باب المروءة ) .
(٢) عيون الأخبار ( كتاب العلم ) .
(٣) عيون الأخبار ـ الموضع السابق .
(٤) عاش في القرن العاشر الهجري . .
ونشرت جريدة الجمهورية في (١٩٧٤/٧/٧) : أن الأطباء نصحوا الرئيس « نيكسون » بأن يمارس السباحة في إزالة الجلطة التي أصيب بها في ساقه .

وعلى هذا المنهج سار الصحابة رضوان الله عليهم .

« عن الزهري قال : كانت المسابقة بين أصحاب رسول الله ﷺ في الخيل والركاب[1] والأرجل ، لأنه محتاج إليه في الكر والفر ، وكل ما هو من أسباب الجهاد فتعلمه مندوب إليه »[2] .

* * *

وقد أخذ الصحابة أولادهم بذلك كمدخل يتدرب به الصبي ليتحمل من بعد مسؤوليات الرجولة : عن الربيع بنت معوذ رضي الله عنها قالت : « أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار : من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائماً فليصم . فكنا نصومه بعد ، ونصوم صبياننا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذلك ، حتى يكون عند الأفطار »[3] .

وهكذا صار اللعب وسيلة إلى عبادة الله . . فإذا انحرف به التدليل وتنكب هذه الغاية . . فألهى عن ذكر الله وعن الصلاة . . فهو الخطر الداهم الذي كان يفرغ الوالد . . فيهب من مكانه محذراً قبل أن يستفحل الداء . .

« كان لشريح ابن يلعب بالكلاب ، فكتب شريح إلى معلمه :

ترك الصلاة للأكلب يسعى بها ... طلب الهراش[4] مع الغواة الرجس

فإذا خلوت فعظه بملامة ... وعظه وعظك للأريب الكيس[5]

وإذا هممت بضربه فبدرة[6] ... وإذا بلغت بها ثلاثاً فاحبس

واعلم بأنك ما فعلت فنفسه ... مع ما يجر عني أعز الأنفس

لقد كانت اللعبة بسيطة دون تكلف أو تزويق . .

وكان لدى الوالدين متسع من الوقت يتمكنا فيه من أخذ الولد صغيراً بلون من التدريب يؤهله للقيام بدوره مستقلاً . . لم تكن الوظيفة وما تجره من مشاكل لتضيع

---

(١) الركاب : واحدها : راحلة ، من غير لفظها .

(٢) مفيد العلوم للخوارزمي .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، والعهن : الصوف المنفوش .

(٤) يقال : تهارشت الكلاب ، واهترشت ، وهارش بعضها ( أساس البلاغة ) .

(٥) الكيس وزان فلس : الظرف والفطنة ( المصباح ) .

(٦) الدرة : السوط ، والجمع : درر مثل سدرة وسدر ( المصباح ) .

حق الولد في حسن الرقابة والإعداد . . في صرامة تقسو أحياناً على الصغير قسوة قد تدفعه إلى البكاء . .

ولكنه البكاء القليل . . الذي يمهد للضحك الكثير رضا بالحياة وإقبالاً عليها ، وكان حرص الوالدين على أخذه بالحزم أقوى في الميزان من عاطفة الأبوة التي لم تكن لتتأثر بهذا البكاء العارض : فلم تحاول إسكاته بوعد كاذب . . أو قول معسول : بل أنها لتشغله باللعبة البسيطة التي لا ترهق ميزانية البيت بحال . .

ولم يكن غريباً أن يتحامل الصبي على نفسه . . ويجتاز الامتحان بنجاح . لأن الوالدين من حوله . . بل والأسرة كلها في صيام يظلل سماء البيت بروح تؤنس النفوس . . وربما كان من الصعب عليه أن يواصل الرحلة اليومية لو أنه أبصر من حوله من يتناول الطعام ، بيد أنه انخرط في سلك أسرة أعانته على أن يكون ملتزماً بما أخذوا أنفسهم به . . ولم يشأ أن يصبح نشازاً في نغم متناسق . ولكننا اليوم نتملق عواطف الصبيان بتوفير مختلف اللعب المستوردة مما خف حمله وغلا ثمنه . .

وفضلاً عن خروجها على شريعة الإسلام التي تكره الصور لأنها تحول بين الملائكة ودخول بيت فيه تلك الصور ، فإنها عبء على ميزانية البيت . .

وكان من الخير أن تنفق في نواح أجدى على الأسرة كلها . . بل أثرها الخطير يمكن في صرفها عن معالي الأمور وإنفاق الوقت في لهو لا يحقق أغراض التربية الإسلامية . الأمر الذي يزيد مذهب الإسلام هنا وضوحاً عندما أباح اللعب للكبار والصغار .

ولكنه في الحالتين يجعله وسيلة للتحلي بالفضائل المؤدية إلى سعادة الدارين . . من دروس يجب الإفادة منها : أن نفس ولده أعز نفس لديه .

ومع هذه العاطفة الجياشة النابعة من غريزة الأبوة . . فإنه يحرص على أن يقف إلى جانب مؤدب ولده . . ولا يتخلى عنه . . فيوصيه بالجمع بين الترغيب والترهيب . . ليحيي بالأول دوافع الخير . . ويميت بالثاني نوازع الانحراف .

وإذا كان من حق ولده أن يلعب . . فمن حق الله عليه أن يؤدي له الفرض أولاً . . وإذا لم يلتزم بهذا التوجيه فمن الواجب وعظه في الخلوة . . بعيداً عن الناس لتصير الكلمة نصيحة . . بدل أن تكون في العلانية فضيحة . . قد يترتب عليها الاستهتار أو الكبت . . وإذا كان قد وصى المؤدب أن يقف بالضرب عند حدود ثلاثة أسواط . . فقد وصاه أيضاً أن يدخل في حسابه ـ وهو يعظه ـ أنه يخاطب نفساً حساسة

قد يضرها الإسراف في اللوم .

بل إن هذا اللون من الإسراف قد يتجاوز في خطره أثر الضرب الموجع المسرف .

وفي يقيننا أن ما يزهو به الباحثون الأجانب اليوم . . من تقدم في باب التربية مردود برمته إلى ما سبق إلى تقريره الأئمة الأعلام مثل ابن سينا والغزالي وابن مسكويه وابن خلدون . . وإلى ما سبقت ممارسته عملياً في شؤون الحياة . . مما يفرض علينا أهمية العودة إلى هذه المباديء القويمة . . لتعود لنا به صورة مشرقة للحياة الآمنة والعيش الرغيد .

ألا ما أحوج الطفولة اليوم إلى هذا الدين السمع الكريم . . الذي ينزل عن عليائه ليعايش الطفل الصغير . . ويقترب منه . . يتحمله برفق ولين إلى أفق أعلى . . من خلال لعبته التي يعتز بها . . روي البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله أحسن الناس خلقاً . . وكان لي أخ فطيم يسمى أبا عمير . لديه عصفور مريض اسمه النغير .

فكان رسول الله ﷺ يلاعب الطفل ويقول له : « **يا أبا عمير . . ما فعل النغير** » ؟

وفي الحديث توجيه حتى لتصعيد العاطفة الإنسانية نحو الطفل الصغير :

إننا قد نشهد لدى هؤلاء الأطفال في هذه السن رغبة جامحة في اللعب مع أمثال هذه الأحياء . .

لكن الرغبة قد تندفع أحياناً إلى حد إيذاء هذا الحي .

ومهمتنا نحن أن نوجه هذه الرغبة بالإتجاه نحو الخير العظيم . .

إن توجيهه من الاعتداء إلى الرعاية ، من الإيذاء إلى التمريض . . وفي ذلك تنمية عظيمة للجانب الإسلامي عند الطفل »[1] .

وإنها لتنمية تزداد مع الأيام إتساعاً . . لأنها تتم داخل النفس عن طريق اللعب المباح .

---

(١) الوعي الإسلامي العدد ١٢٥ .

وليست نصيحة جافة . . وأوامر جامدة . . يتحايل الطفل للتفلت من تبعاتها متى وجد إلى ذلك سبيلاً .

* * *

## نموذج قرآني للتربية . . كما ورد في قصة لقمان

يقول الحق سبحانه :

**﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غني حميد . وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما،وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إلي ، ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير . يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾**[1] .

يقول الشربيني في تعريف الحكمة :

هي « العلم المؤيد بالعمل ، أو العمل المحكم بالعلم .

قال ابن قتيبة : ولا يقال لشخص : حكيم حتى تجتمع له الحكمة في القول والفعل . قال : ولا يسمى المتكلم بالحكمة حكيماً . . حتى يكون عاملاً »[2] .

بهذا المفهوم الذي يتطابق فيه عالم الواقع وعالم الضمير استجمع لقمان بالحكمة خصائص الفلاح .

هذه الحكمة التي ترد إليها كل الفضائل النظرية والعملية . .

وذلك قوله تعالى : **﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . . ﴾**[3] .

---

(١) لقمان : ١٢ - ١٩ .

(٢) تفسير سورة لقمان .

(٣) الإسراء : ٢٣ .

إلى قوله تعالى : ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾[1] .

فاسم الإشارة في الآية الآخيرة راجع إلى كل ما قررته الآيات الكريمة السابقة ، ثم هو يفيد أن كل هذه الخصال المحمودة الناشئة عن الالتزام بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه . . كل أولئك : حكمة بالغة تجعل من اتصف بها كامل الشخصية وافر القوة .

وهنا ندرك إلى أي مدى سمت أخلاق لقمان حين آتاه الله الحكمة . وندرك أيضاً : مقدار النجاح المأمول إذ يربي ولده بمثل هذه الشخصية العامرة بفضائل الإيمان : إنه على خلق كريم . . ومن ثم فهو يستطيع أن يأخذ ولده به . ليصبح مثله عالماً عاملاً . . عالماً بالحق ، عاملاً بالخير . . والآيات الكريمة تفسر الحكمة بالشكر .

والشكر هو قمة السداد . لأن مفهومه :

١ ـ الإعتراف بالمنعم سبحانه .

٢ ـ الإحساس بالحاجة الدائمة إلى عطائه .

٣ ـ إنتصار النفس على إغراء النعمة وإغراء الشيطان الذي يحاول الإنحراف بها عما خلقت من أجله .

﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾[2] .

وفي وصايا لقمان لابنه نماذج من تلك الحكمة :

ففي مجال ربطه بالله تعالى ودوام استحضاره للآخرة يقول له : « يا بني احضر الجنائز . ولا تحضر العرس . فإن الجنائز تذكر الآخرة ، والعرس يشهيك الدنيا » .

وكان منطقياً أن ينهاه عن الاستغراق في لذة الأكل . . ليفرغ نفسه ليوم ثقيل وذلك في قوله : « لا تأكل شبعاً » .

ثم يوجه إلى حيث يكون الزاد الباقي . . زاد التقوى . . وذلك بين يدي

---

(١) الإسراء : ٣٩ .

(٢) إبراهيم : ٧ .

العلماء . فيأمره بمجالستهم . والاغتراف من أدبهم حيث يقول : « عليك بمجالس العلماء .

* * *

واختيار الصديق المعين على الكمال أمر له خطره . . من أجل ذلك يقدم لولده ثمار تجربته دانية بين يديه . عوناً له على اختيار الصديق . . حتى الصدوق . . حتى لا يصدم بعد ذلك إذا هو لم يحسن الاختيار .

يقول له أبوه : إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك : فإن أنصفك عند غضبه . . وإلا فاحذره » .

إنه الصديق الملتزم بالحق حتى في لحظات غضب قد يفلت فيها الزمام . .

* * *

وإذا كانت العادة طبيعة ثانية كما يقولون . . فقد عود لقمان ولده على الخير ، عود لسانه على ذكر الله ويده على كل عمل ينجيه من الهوان . . ووضع قدمه على سواء الصراط لا يضل فيه ولا ينسى . . وذلك في قوله : « يا بني : عود لسانك أن تقول : اللهمَّ اغفر لي ، فإن لله ساعات لا ترد .

يا بني : إياك والدين : فإنه ذل النهار ، وهم الليل .

يا بني : ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته . وخف الله خوفاً لا يؤسيك من رحمته »[1] .

* * *

وتبدو لنا صورة الولد في خيال والد حريص حقاً على مستقبل ولده . فإذا كان لله تعالى ساعات لا يرد فيها الدعاء . . فإن من الحكمة تحريها . . وذلك بدوام التوجه إلى الله تعالى .

وذلك كسب كبير يناله ولد دائم التطلع إلى رضوان الله . .

وما في ذلك من استخفاف بمظاهر الدنيا التي أدار لها ظهره . إيثاراً لما عند الله .

---

(١) النصوص عن الخطيب الشربيني في تفسيره لسورة لقمان .

وفي نفس الوقت : فهو عامل آمل . ليوفر لنفسه لقمة عيش تعفيه من هموم الدين وخطره على كرامة الإنسان . .

وهو في كل ذلك مدفوع برجاء لا يجرئه على معصية . .

وخوف لا يؤيسه من رحمة ربه . .

وبهذا التوازن في شخصيته وفي صلته بخالقه . يجد نفسه على طريق يمضي به إلى سعادة الدنيا والآخرة .

* * *

ولا يمكن لهذا الكمال الإنساني أن يبلغ تمامه إلا بالحفاظ على صحة الجسم . . فالعقل السليم في الجسم السليم . .

وعلى رأس وصاياه الداعية إلى صيانته قوله لولده : « إن طول الجلوس في الخلاء يرفع الحرارة إلى الرأس . ويورث الباسور . يتجع[1] له الكبد ، فاجلس هوينى . وقم هوينى »[2] .

* * *

وعلى هذا النحو الفريد سارت عملية التربية بلا مشاكل فالوالد كامل . ومن ثم ففي استطاعته تكميل ولده .

وهنا ندرك سر المشاكل التي تتهدد البيوت اليوم .

فالآباء لا يلتزمون بكلمة الله في ذات أنفسهم . ولا يقيمون حياتهم على مثل ما أقام لقمان حياته عليه من صور الحكمة كما مر بك في آيات سورة الأسراء .

* * *

---

(١) يتجع : من وجع يوجع ـ بقلب الواو باء ـ : إذا مرض وتألم .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة : باب الحدث والحقنة .

وقد استطلعنا رأي الطب هنا فأخبرنا الدكتور « محمد مختار البديوي ـ كلية طب طنطا » بأن الحديث يؤكد صدق هذه الوصية : لأن طبيعة الجلسة ـ وبخاصة إذا طالت وتكررت من شأنها الضغط على الكبد الذي يؤلمه ذلك . . ثم إن عواقبها أيضاً الضغط على الشرايين ، وما ينشأ عنه من صعود الدم إلى الرأس ، فترتفع الحرارة ، مع ملاحظة أن طول الجلسة يسبب ما يسمى بالسقوط الشرجي وهو النصيحة : الباسور . .

ولقد كان من رحمة الله تعالى بالبشرية أن أودع قرآنه الكريم نصائح لقمان لابنه . لتبقى على مدار الأجيال المتعاقبة مثلاً للآخرين . . تتقاضاهم دائماً أن يقفوا حيالها معتبرين . . وأنهم لواجدون في هذه المواعظ دواء عللهم التي كانت نتيجة لأعراضنا عن هدي القرآن .

فماذا في القصة من مبادىء صالحة لإعادة بناء الحياة ؟

*** الإيمان بالله تعالى :**

أول ما يطالعنا قوله : ﴿ **يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ .

وفي مخاطبته بلفظ البنوة تبدو شفقة الوالد . . وما يترتب عليها من انبساط نفسه واستعداده لتلقي النصح بالقبول . . من حيث كانت النصيحة مظهر ترابط بين الناصح والمنصوح . . تتحقق به الاستجابة على قدر ما ساق إليها من إخلاص . . والنهي عن الشرك . . نهي عن رأس الفساد كله . . ثم هو تخلية تمهد للتحلية بالتوحيد .

فالشرك سبيل إلى تمزق الشخصية وانحلالها . في الوقت الذي يبدو فيه التوحيد خير ضمان لا تزان الفرد وتماسكه في مواجهة الصعاب . . في ظل من عناية الله القوي الغني العالم الذي يمنح الإنسان من فيض قوته وغناه ما يحفظه في حياته ، يبارك له في سعيه لينتقل من هذه الحياة السعيدة . . إلى حياة أسعد منها لأنها هي الحيوان . . لو كان الناس يعلمون .

من أجل ذلك كان الشرك ظلماً . . لما يحرم الإنسان من سعادة الدارين .

وكان ظلماً عظيماً : لأنه فضلاً عن وضع الخضوع في غير موضعه :

أولاً : يحرم النفس من الأرض الضروري للنجاح في الحياة .

ثانياً : يؤثر في رقي المجتمع وتقدمه بسبب من إنعكاس هذا القلق على مختلف مرافقه .

* * *

ثم نقرأ سبحانه وتعالى :

﴿ **يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير** ﴾ .

فمع كل وصية تبدو شفقة الوالد ممثلة في قوله : ﴿ **يا بني** ﴾ . استبقاء للرابطة

الداعية إلى استمرار هذه الاستجابة على نحو تصير به نصائح الوالد قوانين واجبة التنفيذ .

وبهذه الآية الكريمة ، يرسم في خيال ولده معنى الخوف من الله تعالى . . لأن علمه محيط شامل :

فإذا استطاع الولد أن يفعل الشر يوماً ولا يراه أبوه . . فإنه بهذه الصورة لم يفلت من رقابة ربه العليا . . إن هناك عيناً لا تنام ، وسلطاناً لا تند عنه شاردة ولا واردة . وعلى هذا الأساس . وبطول صحبته يقوي الوازع الخلقي في كيان الصبي . . ويعظم تحريه للحق . إذا علم أنه لا محالة واقع تحت رقابة لا تضل ولا تنسى .

* * *

و « لما نبه على إحاطة علمه سبحانه . وإقامته للحساب » أمره بما يدخره لذلك . توسلاً إليه . وتخشعاً لربه .

وهو رأس ما يصلح به العمل . ويصح التوحيد ويصدقه بقوله : ﴿ **أقم الصلاة** ﴾[1] .

إنه يأمره بإقامة الصلاة « التي هي أكمل العبادات . . تكميلاً من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد »[2] .

ويلاحظ أنه لم يأمره بالصلاة . . لأن ذلك ثمرة طبيعية للإيمان بالله عز وجل وإنما يأمره بإقامتها والحفاظ عليها .

« فإن إقامتها وهو : الإتيان بها على النحو المرضي مانعة من الخلل في العمل : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾[3] . لأنها الإقبال على من وحدته فاعتقدت أنه الفاعل وحده .

وأعرضت عن كل ما سواه . لأنه في التحقيق عدم[4] .

والخطيب الشربيني ـ وهو ينظر بنور الله يبين لنا أثر الصلاة في ذات الفرد . . وفي واقع الجماعة .

---

(١) الخطيب الشربيني .
(٢) الآلوسي في تفسيره للآية الكريمة .
(٣) العنكبوت : ٤٥ .
(٤) الشربيني .

إذا هم أقاموها على أكمل وجه . بعد أن يصير قيامهم بها دائماً لا يشغلهم عنه شاغل من ولد أو زوج .

وبهذا المعنى يتبين لنا ما يترتب على الصلاة من آثار فردية واجتماعية كما يشير إلى ذلك الشربيني . .

ويزيد كلام الشربيني إيضاحاً قول الحق سبحانه :

**﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . ﴾**[*] . فالآيات الكريمة تكشف عن أثر الصلاة الإيجابي بما تمنحه من طمأنينة تتوازن بها الشخصية .

وإذا كان توازن الشخصية هو العامل الفعال وراء كل تقدم فكري أو مادي . . فإن الصلاة بهذا المعنى تعتبر دعامة من دعائم الإصلاح . . تحقق إقامتها كل خير وفلاح وبخاصة في مجال الأسرة ـ وهي اللبنة الأولى .

إن المسلم المصلي مكلف أن ينظر في أفعاله على ضوء ما يقرأ في صلاته . .

فهو يتلو بعض الأسماء الإلهية وينظر في نفسه ـ أو هكذا يجب أن يكون ـ ليتحسس آثارها في نفسه . .

ونتيجة ذلك بطبيعة الحال : أن يترقى في مدارج الكمال رويداً . ألا وأن رب الأسرة الذي يقيم الصلاة مع أهله يحصنهم ضد الرذائل .بقدر ما يعودهم على فضائل لا بد منها لعمارة الحياة .

ولعل ما يبرز أهمية الصلاة وأثرها في سعادة البيت قوله تعالى :

**﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾**[1] .

فقد جاء الأمر بالمحافظة عليها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج . . وأحاديث الطلاق ومشاكل الأسرة . .

وربما دل ذلك على الصلة الوثيقة بين الصلاة ومستقبل الأسرة . . لأنها تمنح الإنسان وأهله طمأنينة وتسامحاً يتفادى بهما غضباً قد يفضي إلى الإنفصال ثم . . إلى الطلاق .

---

(١) المعارج : ١٩ ـ ٢٣ .

(٢) البقرة : ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

أي إن الأمر بالمحافظة عليها يأتي في مكانه المناسب . . من حيث كان ذلك ينجي الله به الأسرة من كل ضيق في الصدور تهتز به البيوت .

* * *

*** عيوب . . ينبغي أن تزول :**

في مرحلة البلوغ يزداد إحساس الولد بذاته . ويشتد اعتزازه برأيه وبكل ما ملكت يداه .

وقد يسول ذلك أن يتكبر على غيره . مفتخراً بنفسه .

ولا شك أن هذا مظهر خطر يوشك أن يقطع صلة الإنسان بربه وبالناس . والأمر حينئذٍ عقبة ينبغي أن تعالج بالحكمة والموعظة الحسنة .

حتى يستطيع المربي أن يتخطاها . دون أن يكون هناك رد فعل قد يضر به الصبي نفسه .

وفي هذا المعنى يقول سبحانه :

**﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾**[1] .

إن شيوع روح الكبر من شأنه أن يطرد روح السلام .

وقد يحس بعض الناس بالهوان إزاء هذه النظرة المتعالية . . ومتى اختفت روح السلام . . عزت ممارسة الفضائل في جو مشحون بالكراهية والتربص . . وبالتالي ضاعت معالم الحياة الكريمة بين صنفين من الناس يظن أحدهما أنه خلق من نار . . وغيره خلق من طين ! !

* * *

وتصعير الخد هو : إمالة العنق تكلفاً . .

وربما لجأ بعض الناس إلى استعارة لمظهر كاذب . ربما حسبوه شارة العزة بين الناس . . بيد أن التواضع خير دليل . .

فالإقبال بالوجه على الناس مصدر خير كثير . دعا بعض العلماء إلى الأمر به استجلاباً لمحبة الناس . واقتداء برسول الله ﷺ . فى الوقت الذي يكون فيه الاختيال

---

(١) لقمان : ١٨ .

والفخر معصيتين يحرمان العبد من رضوان الله .

فإذا استقام المرء على الطريق فصاحت بحسن صلتها بالله سبحانه . كانت الخطوة التالية أن يأخذ بيد غيره لمثل ما هداه الله إليه .

وهذا ما تشير إليه وصية لقمان لابنه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وما يتطلبه ذلك الموقف من صبر وعزيمة .

فالولد مسؤول شخصياً عن سعادة الجماعة . المتمثلة في إرشادها إلى النافع . وحجزها من النار .

وكل مذهب أرضي يدعى أنه جاء لينقذ البشر من الضلال مردود عليه ادعاؤه .

ولكن ذلك إلى الإسلام . . الذي جعل من إسعاد الآخرين عبادة ينال بها ثواب الله . بل هو الذي جعل من صلة المسلم بأخيه أقوى من لحمة الدم والنسب .

حتى صارت محاولاته لإصلاح غيره تخليصاً لنفسه ذاتياً من المسؤولية . . فالمسلمون كالجسد الواحد : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وفي بيان مسؤولية الفرد عن إصلاح غيره ، وكيف كانت إنقاذاً للمرء نفسه يخاطب الشربيني من يتصدى لذلك فيقول إن ذلك التهذيب « لغيرك . . وشفقة على نفسك لتخليص أبناء جنسك »[1] .

* * *

*** واقصد في مشيك :**

والقصد في المشي سمة من سمات عباد الله . ورد ضمن خصائصهم كما ذكرتها آيات سورة الفرقان وذلك في قوله عز وجل : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً . .** ﴾[2] .

بل إن القصد في المشي ليتصدر القائمة من حيث دلالته على التواضع والسكينة . وهما العنصران اللازمان لصحة العبودية لله سبحانه وتعالى . . وسلامة الصلة بعباده . .

---

(١) الشربيني في تفسيره للآية الكريمة .

(٢) الفرقان : ٦٣ .

يقول ابن كثير في شرحه للآية الكريمة : « هذه الصفات عباد الله المؤمنين ﴿ **الذين يمشون على الأرض هوناً** ﴾ أي بسكينة ووقار من غير جبرية « كبر » ولا استكبار .

كما قال : ﴿ **ولا تمش في الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾[1] .

فأما هؤلاء : فإنهم يمشون كالمرضى من التصانع . . تصنعاً ورياء . . فقد كان سيد ولد آدم ﷺ ـ إذا مشى كأنما ينحط من صبب ـ من موضع منحدر ـ وكأنما الأرض تطوى له .

وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع . حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال : ما بالك . . أأنت مريض ؟

قال : لا يا أمير المؤمنين . فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة .

وإنما المراد بالهون ههنا : السكينة والوقار .

كما قال ﷺ : « **إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون . واتوها وعليكم السكينة . فما أدركتم فصلوا . وما فاتكم فأتموا** »[2] .

وحتى عند أداء الفريضة ـ كما يشير الحديث ـ ينبغي أن يحتفظ المسلم بسكينته ووقاره . . وهما من أهداف الصلاة .

وكم يكون الأمر بالقصد شديداً إذا تعلق بشؤون الحياة الدنيوية حيث يكون الاحتفاظ بالوقار فيها أهم من تحقيق غرض زائل .

* * *

ومن المفيد هنا أن نتأمل صورة للتربية العمرية مع هذا الشاب المتماوت : أنه لم يبادره بالضرب . . لكنه تساءل أولاً . . فقد يكون للفتى عذر وأنت تلوم . .

فلما عرف أنه التصنع أنزل به العقاب . . لأن شعار الأمة هو : « إن المؤمنين قوم ذلل . . ذلت منهم ـ والله ـ الأسماع والأبصار والجوارح . حتى تحسبهم مرضى . وما بالقوم من مرض .

---

(١) الإسراء : ٣٧ .

(٢) تفسير سورة لقمان .

وأنهم الأصحاء . . ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة »[1] .

* * *

وفي التنديد بالسرعة في المشي يقول ﷺ : « **سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن** »[2] .

ويوضح المراد من السرعة المنهى عنها ما قاله ابن العربي : « لا يسترسل استرسال البهيمة »[3] .

وما عدا هذه الصورة فهو محمود من حيث فائدته للجسم لأنه لون من الرياضة يصح به . . فيقوي من ضعف . . وينشط بعد خمول :

« وفي الحديث : أنهم شكوا إلى رسول الله ﷺ الضعف فقال : « **عليكم بالنسل** » . .

وفي حديث آخر كأنهم شكوا إليه الاعياء فقال : « **عليكم بالنسلان** » وقيل[4] : فأمرهم أن ينسلوا أي يسرعوا في المشيء .

وفي حديث لقمان : « وإذا سعى القوم نسل ـ هكذا ـ أي إذا عدوا . . لغارة . أو مخافة أسرع »[5].

وبذلك تظهر وسطية الإسلام القائم على حد الاعتدال : فهو يرفض التصنع لأنه تكلف مرذول .

ويقف بالمسلم عند حدود يطيقها . . ويستفيد منها . .

بحيث تصير السرعة الزائدة عن حد الاعتدال ضرراً يساوي في آثاره التماوت في المسير . .

وفي هذا المعنى المطرف لابنه وهو ينصحه بالتوسط :

---

(١) ابن كثير في نفس الموضوع .
(٢) الآلوسي ـ سورة لقمان .
(٣) أحكام القرآن ( لابن العربي ) ١٤٨١/٣ ط . الحلبي .
(٤) الناسل : المسرع ، وجمعه نسل ـ بضم النون وتشديد السين مع فتحها ـ ( المعجم الوسيط ) .
(٥) لسان العرب مادة ( نسل )

« يا بني . . الحسنة بين السيئتين ـ يعني : بين الإفراط والتفريط ـ وخير الأمور أوسطها . . وشر السير الحقحقة[1] »[2] .

وهو قول يعكس وجهة النظر الإسلامية . كما ذكرها ابنَ العربي في قوله الآنف .

* * *

*** واغضض من صوتك :**

وفي الصوت أيضاً مظهر من مظاهر العبودية لله تعالى . . يتوفر به للإنسان سمت ووقور . . ما يعفي السامع من أضرار قد يؤدي إليها الضجيج . على ما يقول الآلوسي : « والحكمة في غض الصوت المأمور به : أنه أوقر للمتكلم . وأبسط لنفس السامع وفهمه »[3] .

فالفائدة تعود على المحدث والمستمع معاً . .

وأين هذا من ضجيج الحياة اليومية . . هذا الداء الوبيل الذي رمتنا به شقائه زيادة تكشف عن حكمة القرآن الكريم حين حذر من هذه المظاهر ومن ثمراتها المرة التي تعاني منها اليوم . .

وقد أشار الفخر الرازي إلى خطر الصوت العالي على صحة الإنسان فقال : « رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة . وربما يخرق الغشاء الذي داخل الأذن . .

وأما السرعة في المشي فلا تؤذي . أو إن كانت تؤذي . فلا تؤذي غير من في طريقه . .

والصوت يبلغ من على اليمين وعلى اليسار . .

ولأن المشي يؤذي آلة المشي . . والصوت يؤذي آلة السمع . وآلة السمع على باب القلب[4] .

---

(١) الحقحقة : أرفع السير وأتعبه .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة . كتاب ( السؤدد ص ٣٢٧ .

(٣) الآلوسي ـ تفسير سورة لقمان .

(٤) صماخ الأذن : الخرق الذي يفضي إلى موطن السمع ، والجمع : أصمخة مثل : سلاح وأسلحة ( المصباح المنير ) .

وقد أثبتت الملاحظة العلمية صدق هذا القول . . وأكدت هذه الدراسات صدق التوجيه الإسلامي هنا معلنة خطر الصوت على الأجنة في بطون أمهاتها . وعلى سلامة الأعصاب أيضاً . . كما ظهر ذلك بين القاطنين في الأماكن الصاخبة .

وعن أثر الصوت في غشاء الأذن نشرت أخبار اليوم هذا الخبر :

« الإصابة بأزير الطائرة إصابة عمل :

أفتت وزارة التأمينات الاجتماعية بأن الإصابة التي تحدث نتيجة أزير الطائرة . أو نتيجة اختراق الطائرة لحاجز الصوت . . تعتبر « إصابة عمل » ويعوض المصاب عنها وفقاً لأحكام التعويضات . .

وكان المهندس بإحدى الشركات قد صدر قراراً بتكليفه أثناء حرب رمضان للعمل بإحدى المطارات . .

ونتيجة تحليق وهبوط الطائرات وأزيرها المستمر انخرق غشاء طبلة إحدى أذنيه فأنهى تكليفه . وعاد إلى وظيفته مطالباً بتعويض »[1] .

و « هناك نظرية لطبيب الأذن العالمي « روزن » تقول : إن الأصوات العالية هي التي تجعل الضغط عالياً . . وقد لاحظ أنه في أواسط أفريقيا لا أحد يشكو من الضغط العالي والسبب هو هذا الهدوء التام »[2] .

وقد يكون في رفع الصوت تكلف يؤذي شعور الإنسان . وفي ذلك يقول ابن العربي مشيراً إلى هذا الضرر الأدبي : « لا تتكلف رفع الصوت . وخذ منه ما تحتاج إليه . . فإن الجهد بأكبر من الحاجة تكلف يؤذي »[3] .

من أجل ذلك ينفر القرآن منه بذكر صوت الحمير « لما له من العلو المفرط من غير حاجة وأما الرفع مع الحاجة فغير مذموم . فإنه ليس بمستنكر ولا مستبشع » . .

ومعنى ذلك بداهة أن رفع الصوت لحاجة تدعو إليه مشروع : « كالأذان فهو ـ أي رفع الصوت فيه ـ مأمور به »[4] .

---

(١) الأخبار ١٩٧٦/٨/١٨ .
(٢) الأخبار في ١٩٧٤/٩/٣٠ .
(٣) أحكام القرآن ص ١٤٨١ ـ ١٤٨٢ .
(٤) الشربيني ـ تفسير سورة لقمان .

والمراد أن يكون الإنسان طبيعياً في حديثه فلا يتخنث فيه . . ولا يتكلف . . وما وراء ذلك تثريب عليه . . ولا سيما إذا كان صوت الإنسان بطبيعته عالي النبرة .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه :

أن رسول الله ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله . . أنا أعلم لك علمه . فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه . فقال له : « **ما شأنك ؟** » فقال : شر . كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله . فهو من أهل النار .

فأتى رجل النبي ﷺ فأخبره . . أنه قال كذا وكذا . قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال :

« **اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة** »[1] .

وتلك هي مبادىء الذوق العالي . يضعها القرآن بين أيدينا . . على نحو يظهر به المدينة الحديثة فيما وافتنا به من طرائق شتى في المشي والحديث . . خدشت رجولة الرجال . . وهددت بذلك الشخصية الإسلامية التي يخشى في دوامة التقليد أن تفقد عناصر بقائها . وهو ما تحاول المدينة الحديثة أن تشد رجالها إليه . . وهو مكمن الخطر الذي بنا لنعود إلى حصن الأمان .

* * *

*** وصية الخطاب :**

ويحسن بنا أن نختم هذا العنصر بوصية الخطاب بن المعلى لولده لما لها من دلالة قيمة على تأثر آبائنا بتعاليم القرآن في كل أمر وبخاصة في مجال التربية :

قال لولده[2] : « إذا حدثت فاصدق . ولا تجهر بمنطقك كمنازع الأصم . ولا تخافت به كتخافت الأخرس . وتخير محاسن القول بالحديث المقبول .

وإذا حدثت بسماع فانسبه إلى أهله . .

وإياك والأحاديث العابرة المشنعة . . التي تنكرها القلوب . وتقف لها الجلود ـ تقشعر ـ وإياك وضعف الكلام مثل ـ نعم . نعم . لا . . لا . . وعجل . . عجل . . وما أشبه ذلك[2] .

---

(١) ابن كثير ـ تفسير سورة الحجرات .

(٢) روضة العقلاء لأبي حاتم ص ١٧٥ .

وفي هذا يقول ابن العربي : « إذا حدثك أحدهم فاصغ إليه . حتى يكمل حديثه . وكذلك كان يفعل رسول الله ﷺ »[1] .

ونحب أن نقف قليلاً أمام كلمة ابن العربي رضي الله عنه لنقول أنها ذات شقين :

١ ـ حسن الاستماع إلى حديث الغير .

٢ ـ بيان أن ذلك كان خلق رسول الله ﷺ .

وكثير من الآباء يجهدون أنفسهم في أخذ أولادهم بأدب الحديث واحترام كلام الغير .

وذلك أمر يدعو إليه الإسلام كما رأيت .

ولكنهم في ذات الوقت لا يعلمون أولادهم ذلك اقتداء برسول الله ﷺ . وربما فسدت فطرة بعضهم فألزم ولده بهذه الشعيرة لأنها مما تفرضه الحضارة الحديثة بالذات . . ولو خطر بباله طيف الدين الآمر بذلك لجاهد في القرار من هذا الخطر الغريب ؟

ومعنى ذلك : أن الآباء حين يأخذون أولادهم بهذه الأمور باسم المدنية لا باسم الإسلام إنما يعرضون عملهم هذا للإحباط رغم سلامة صورته . .

ومنطق الإسلام يفرض عليهم ربط هذه الآداب بالدين[2] لأنها :

أولاً : تتحول بهذا الربط إلى عبادة يثاب الوالد وولده عليها .

ثانياً : تتميز بها الشخصية الإسلامية الفريدة بخصائصها الغنية بآدابها .

ثالثاً : يزداد الولد بالكشف عن أصول الآداب استمساكاً بدينه . الذي يعطيه كل يوم جديد ليباهي به كل مدع يحاول اقصاءه عن عقيدته بأمور هي في الواقع بضاعته ترد إليه .

وهكذا يغرس لقمان في نفس ولده ركائز الشخصية المتكاملة . من الإيمان بالله عز وجل وثمرته ممثلة في الصلاة تهذيباً للنفس من أوزارها . . والأمر بالمعروف

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٤٨١/٣ ط . الحلبي .

(٢) قال والد التلميذة الأولى على طلبة الثانوية هذا العام ـ ١٩٧٤ م ـ « اعتقد أن تفوق ابنتي راجع لصلتها القوية بالله ومواظبتها على الصلاة » ـ الأهرام ١٩٧٤/٨/٨ .

والنهي عن المنكر . . تكميلاً للغير . .

ومعنى ذلك كله : أنه يخلف من ورائه ولداً يواجه الحياة من بعده بفضائله الشخصية وليس هو الذي يعيش على أمجاد آباء خلت . . فيجتر ذكرياتهم . ويعدد آثارهم .

وإذا كان الآباء يسرفون اليوم في التمني . وهم يعدون أولادهم للغد . . فإنهم يخطئون الهدف من تربيتهم حين لا يتحرون منهج الإسلام المرشد إلى سعادتهم . ولا يقوم شرف الغاية شفيعاً لهم يوم لا يحصدون إلا الحرمان والعذاب .

ويوم يتوقف سير الفضائل فلا تنحدر من الأسلاف إلى الأخلاف . . فسوف يجأر الآباء بالشكوى كما يحدث اليوم . .

ولكن العدل يفرض عليهم أن يضعوا أنفسهم في قفص الإتهام أولاً . قبل أن يتجهوا إلى الأبناء باللوم . . فإن بيت الداء ليس بالدرجة الأولى في أدمغة الشباب . بقدر ما هو في قلوب آباء فقدوا عناصر الصلاح . . فعز عليهم أن يقوموا بالإصلاح . .

وفي هذا المقام نذكر من فقه عمر رضي الله عنه ما يصلح أساساً لهذا المعنى : « جاء رجل يشكو عقوق ابنه . فأحضر أبوه أمام عمر فأنبه عمر ، فقال الابن : أليس للولد حقوق على أبيه يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلى . قال : فما هي ؟

قال : أن ينتقي أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاّب « القرآن » .

فقال : يا أمير المؤمنين . . إنه لم يفعل ذلك ، أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسي ، وقد سماني « جعلا » ـ أي جعراناً ـ ، ولم يعلمني من الكتاب حرفاً واحداً . .

فالتفت عمر إلى الرجل وقال له : أجئت تشكو إلى عقوق ابنك . . وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك » ؟

فانظر كيف فوت الوالد أصول الحياة الكريمة . ثم جاء يشكوه وكان الواجب أن ينتصف له من نفسه أولاً . . لقد صرف الوالد جهده في أخذ ولده بطرائق الأكل . . والتحية . . وأدب اللقاءات .

بينما خف وزن الأخلاق في قلوبهم . . إن كانت المدنية الحديثة قد أبقت لهم قلوباً صالحة لهذه الأخلاق . .

لقد كانت إطالة الشعور على حساب الشعور الإسلامي الذي بات ينعي حظه . . وكان ينبغي أن ينال قسطه من التقويم والإعلاء . .

وكان طبيعياً أن يتحرك الشاب في مجتمعه بشخصية هشة لأنها فارغة ولم يسندها منصب الوالد ولا مركزه الاجتماعي . .

لأن الطاعة الدافعة إلى التفوق والإزدهار تكمن في مثل ما أخذ به لقمان ولده . . من كل ما تثمره إنسانية الإنسان من عواطف الخير .

* * *

إن اعتماد الولد على مركز والده له كذلك خطره فيما يشيع بين الشباب من روح التواكل . . ومظاهر الافتخار الكاذب . . وهو ما حذر لقمان ولده منه . تفادياً لآثاره التي تصيب الأمة كلها . وفي هذا يقول « أبو أخيب قصداً ولا أقل رشداً . ولا أحمق شعاراً . ولا أدنس دثاراً[1] من المفتخرين بالآباء الكرام . وأخلاقهم الجسام . مع تعريه عن سلوك أمثالهم . وقصد أشباههم . متوهماً أنهم ارتفعوا بمن قبلهم . وسادوا بمن تقدمهم . وهيهات أن يسود المرء على الحقيقة إلا بنفسه ، وأن ينهل في الدارين إلا بكده .

ولقد أنشدني البسامي :

| | |
|---|---|
| وكم قائل: إني ابن بيت هو ابنه | وقد هدم البيت الذي مات عامره |
| فأودى عموداه، ورثت حباله | وأصلح أولاه وأفسد آخره |

وأنشدني الأبرش :

| | |
|---|---|
| فإن قلت : لي آباء صدق ومنصب | كريم وإخوان مضت وجدود |
| صدقت . ولكن أنت هدمت ما بنوا | بكفك عمداً والبناء جديد »[2] |

وما أجمل قول الشاعر :

| | |
|---|---|
| قال النبي مقال صدق لم يزل | يحلو لدى الأسماع والأضواء |
| إن فاتكم أصل امرىء ففعاله | تنبيكم عن أصله المتناهي |
| وأراك تسفر عن فعال لم تزل | بين الرجال عديمة الأشباه |
| وتقول إني من سلالة أحمد | أفأنت تصدق أم رسول الله ؟ |

---

(١) الشعار : ما يكون على الجسم مباشرة ، والدثار : ما يكون فوقه .

(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص ٢٠٥ .

إن الذين يصدرون إلينا كل يوم عاداتهم في المشي والأكل والحديث ليسوا حراصاً على توفير أسباب السعادة لنا .

لكن العكس هو الصحيح .

إنها مؤامرة لطمس معالم تاريخنا وتعكير مجراه . . لنكون نحن وهم في الشقاء سواء .

**﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾**(١) .

**﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾**(٢) .

* * *

فقد ازدادت الحياة سعاراً . وصارت السعادة طيف خيال يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

ذلك . . بأن النماذج التي تقلدها هنا وهناك . . لم تخلق الإنسان وبالتالي لا تعرف سر حياته . . تقلدها هنا وهناك . . لم تخلق الإنسان وبالتالي لا تعرف سر حياته . . فهي إذن عاجزة عن توفير أسباب سعادته .

ولكن الذي خلق سبحانه هو وحده الهادي إلى أقوم سبيل . **﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾** (٣) .

أما دعاة الاصلاح في الأرض ممن لم يقيموا حيأتهم على الإيمان بالله عز وجل . . فما في صدورهم رغبة صادقة في ترقية الإنسان : **﴿إن في صدورهم إلاَّ كبر ما هم ببالغيه ، فاستعذ بالله ﴾**(٤) .

وعلى المسلمين وهم يبحثون عن قواعد الذوق . وآداب السلوك أن يستلهموا كتابهم الكريم :

لأنه كلام الحق الذي يعرف ما يصلح الإنسان :

---

(١) البقرة : ١٠٩ .
(٢) النساء : ٨٩ .
(٣) الشعراء : ٧٨ .
(٤) غافر : ٥٦ .

﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيما ﴾[1] .

* * *

## تربية اليتيم

*** اليتيم في اللغة :**

جاء في أساس البلاغة « مادة يتيم » :

« يتم الصبي من أبيه . ويتم يتما ويتما ، وفلان يتيم : مقطع . مات أبواه وما في سيره يتم ، ضعف وفتور . وهو مستعار من اليتم » .

وتدور المادة في اللغة حول معاني : الانفراد ، والضعف ، والهم .

يقول ابن كثير :

« واليتامى : هم الذين لا كاسب لهم . وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار . دون البلوغ . والقدرة على التكسب »[2] .

وفي جواب لابن عباس رضي الله عنه . بعث به إلى سائل يزداد المعنى وضوحاً : قال : « وكتبت تسألني عن يتم اليتيم . . متى ينقضي . ولعمري . . إن الرجل تنبت لحيته . وهو ضعيف الأخذ لنفسه . فإذا كان يأخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس . فقد ذهب اليتم »[3] .

ويبدو أن القدرة على الأخذ الواردة في كلامه رضي الله عنه هي الرشد المذكور في قوله سبحانه : ﴿ **فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم** ﴾[4] .

ومهما يكن من أمر . فإن اليتيم في حاجة إلى رعاية أكبر . من حيث فقد العائل الغيور .

لأن الأب تدفعه فطرته إلى تربية ولده . ولو لم يتجه إليه أمر بذلك . فإذا غابت هذه الضرورة الدافعة . جاءت الارشادات حاسمة . . تفادياً لرد فعل معاكس من قبل

---

(١) الفرقان : ٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ط . الشعب ص ٣٩٨ .
(٣) مسند الإمام أحمد ج ١/٣٠٨ .
(٤) النساء : ٦ .

اليتيم . . تلقاء مجتمع لم يكتف بحرمانه من الحنان الأبوي . . فحرمه من الرعاية الواجبة عليه . .

كل ذلك يفرض على المجتمع اهتماماً خاصاً باليتيم . . والتطبيق الصادق لكل ما جاء به القرآن والسنة متعلقاً به .

« لأن اليتيم يهمل أمره . يفقده الناصر القوي الغيور . وهو الأب ، أو تكون تربيته ناقصة بالجهل الذي هو جناية على العقل . أو فساد الأخلاق قد يكون شراً على أولاد الناس : يعاشرهم . فيسري إليهم فساده »[1] .

وطبق هذا المفهوم . . فإن توجيهات خاصة تتجه إلى الأولياء الذين يكفلون اليتامى من أقربائهم . . دفعاً لأضرار هؤلاء اليتامى . . التي تمس مساً مباشراً أمر هؤلاء الأولياء من حيث كانوا أقرب رحماً . . وألصق عيشاً . وبالتالي فهم أقرب تأثيراً في حياتهم دون غيرهم من الناس .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة** ﴾[2] .

وهذا إجمال . . نفصله فيما يلي :

* **اليتيم قبل الإسلام :**

قبل أن يبزغ فجر الإسلام . لم يكن لليتيم وضعه اللائق به في المجتمع . وضاع حقه في زحمة الأهواء الطامعة فيه . وقد يشير إلى ذلك ما روته حليمة السعدية من رغبة المرضعات في إرضاع اليتيم لفقده الوالد الذي يعطي الأجر الجزيل . قال : « وذلك أنا أنما نرجو المعروف من أب الصبي . فكنا نقول : يتيم (!!) ما عسى أن تصنع أمه وجده . . فكنا نكرهه لذلك[3] .

ومن صور هذا الظلم البين ما جاء في القرطبي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **للرجال نصيب** ﴾[4] الآية . .

« نزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري . توفي وترك إمرأة يقال لها : أم

---

(١) تفسير المنار : سورة النساء .
(٢) البلد ١٤ ، ١٥ .
(٣) السيرة الحلبية ج ١ ص ٨٥ .
(٤) النساء : ٧ .

كحة . وثلاث بنات له منها . فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما سويد وعرفجة . فأخذا ماله ولم يعطيا إمرأته وبناته شيئاً . وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً . ويقولون : لا يعطي إلا من قاتل على ظهور الخيل . وطاعن بالرمح . وضارب بالسيف . وحاز الغنيمة . فذكرت أم كحة ذلك لرسول الله ﷺ فدعاهما فقالا : يا رسول الله . . ولدها لا يركب فرساً . ولا يحمل كلا . ولا ينكأ عدواً .

فقال ﷺ : « **إنصرفا حتى أنظر ما يحدث الله تعالى فيهن** » .

فأنزل الله هذه الآية رداً عليهم . وإبطالاً لقولهم وتصرفهم بجهلهم : فإن الورثة الصغار كان ينبغي أن يكونوا أحق بالمال من الكبار . لفقدان أهليهم . فعكسوا الحكم . وأبطلوا الحكمة . فضلوا بأهواءهم . وأخطأوا في آرائهم وتصرفاتهم .

وقد يحدث أن تكون ذات اليتيمة مطعماً للطامعين في جمالها . ومن وراثة مالها دون نظر إلى مستقبلها نفسه .

جاء في البخاري ( المجلد الرابع ـ طبع الشعب ) :

« باب قوله تعالى : ﴿ **وآتوا اليتامى أموالهم** ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ **ما طاب لكم من النساء** ﴾[1] .

حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال : كان عروة بن الزبير يحدث أنه سأل عائشة رضي الله عنها : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾[2] قالت : هي اليتيمة في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها . ويريد أن يتزوجها بأذني من سنة نسائها . فنهروا عن نكاحهن إلا أن تقسطوا لهن في إكمال الصداق . وَأمروا بنكاح من سواهن من النساء » .

ويروي ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ويستفتونك في النساء** ﴾[3] الصورة التي كان يتم بها الزواج من اليتيمة . . إذا رغب فيها الولي فنلمس الظلم يطؤها بثقله كله في حالتي الرغبة فيها . . أو عنها : « فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه . فإذا فعل ذلك فلم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً فإن كانت جميلة

---

(١) النساء : ٢ ـ ٣ .
(٢) النساء : ٣ .
(٣) النساء : ١٢٧ .

وهويها تزوجها وأكل مالها . وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت . فإذا ماتت ورثها . فحرم الله ذلك ونهى عنه » .

فأنت ترى المجتمع وقد اصطلح على أن تبقى اليتيمة غنيمة تحاز . وحرمها من حقها في أن تعيش عزيزة مكرمة .

ولقد بدت النظرة الجائرة إليها حين تعلقت الرغبة لا بدينها أو بخلقها . . بل تعلقت بإضافات تهم الوصي ذاته . .

فإذا لم يجد فيها مطمعاً . . وكان من الممكن أن تعيش في كنف رجل آخر . . منعها ذلك الحق بغياً وعدواناً .

وطبقاً للقاعدة التي ساروا عليها في معاملة اليتيمة التي لا تحمل السلاح . . فقد كان المظنون أن يحظى اليتيم الذكر بحظه . . حيث جاء على شرطهم المزعوم . .

ولكن الأمر لم يختلف : وكان مع الأنثى في الحرمان سواء . .

كان رجل من غطفان « عنده مال كثير لابن أخ له يتيم . . فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عنه فنزلت : ﴿ وآتوا اليتامى ﴾ . فقال العم : نعوذ بالله من الحوب الكبير . . ورد المال .

فقال النبي ﷺ : « **من يوق شح نفسه ورجع به هكذا فإنه يحل داره** » ـ يعني جنته ـ ، فلما قبض الفتى المال أنفقه في سبيل الله . .

فقال ﷺ : « **ثبت الأجر وبقي الوزر** » .

فقيل : كيف يا رسول الله ؟

فقال : « **ثبت الأجر للغلام . . وبقي الوزر على والده لأنه كان مشركاً** »[1] .

وإذا كانت القاعدة في معاملة الذكر تتقاضاهم أن يتركوا ماله لحسابه فإنهم لم يحترموها ولجؤوا إلى لون من التحليل يحصلون به على كسب من وراء مال اليتيم عن طريق تبدل الخبيث بالطيب : « وكانوا في الجاهلية لعدم الدين لا يتحرجون من أموال اليتامى :

* * *

---

(١) القرطبي في تفسير للآية الكريمة .

* يتيم .. بين رحماء :

ودون هؤلاء اليتامى يتفرد « محمد اليتيم ﷺ برعاية من الحق سبحانه وتعالى تمهد لدوره الخطير في إنقاذ البشرية من الضلال .

وتؤكد في النهاية أن عناية الله سبحانه فوق كل تدبير .. وأن جهود الآباء الذين يعتصرون حياتهم إعداداً لأبنائهم .. ثم يديرون ظهورهم لذوي قرباهم من اليتامى .. كلها هباء إلى جانب عينه سبحانه التي لا تنام وحسنه الذي لا يضام .

هذه العين التي رعته ﷺ رضيعاً .. فصبياً .. إلى أن تحمل تبعة البلاغ . وهذا الحصن الذي آواه .. ثم قدمه للناس دليلاً على عظم الأمانة المنوطة بأعناق الأوصياء الذين لو أخلصوا في رعاية اليتامى .. لأمكن لهم أن يقدموا للحياة نماذج تغير مجراها . وتفجر العواطف الإنسانية خلالها تفجيراً .

وكانت رعايته به ﷺ منذ ولادته .. إلى أن استوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ الله به الكفار :

في رضاعه .. وفي كفالته .. وفي بيئته التي ترعرع فيها : فلم يكن هو « بالمدلل الذي يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال . وليس هو بالمهجور المنبوذ الذي تقتل فيه العزلة روح الأمل وعزة النفس . وسليقة الطموح والعطف على الآخرين »[٢] . حتى كان يتمه آية من آيات الله سبحانه أعد بها رسوله ﷺ ـ وقد نشأ فرداً ـ ليتحمل فوق ما يحمل البشر .. ويحقق أيضاً ما لم يحققه بشر ..

لأنه صاحب دور إلهي يقوم به رعاية الله وتأييده ..

وحين نهض ﷺ بإبلاغ رسالة ربه أطل على اليتيم فجر جديد .. أحس بوجوده .. في ظل من عناية الإسلام . تلك العناية التي تجيء ضمن خطته العامة لتربية المجتمع كله .

* * *

---

(١) القرطبي .

(٢) عبقرية محمد ـ للعقاد ص ٢٩ ، ٣٠ .

* **في نور الإسلام :**

يقول الحق سبحانه وتعالى :

**﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾**[1] .

وإذا كانت عبادة الله وحده إصلاحاً للفرد من داخل نفسه . . وكان الإحسان للوالدين صيانة للأسرة بهذا الفرد الصالح . . فإن الإحسان إلى القريب واليتيم والجار دعوة إلى أن تمتد روح هذا الاصلاح لتؤدي دورها في المجتمع بمعناه الكبير . . تحقيقاً لقواعد الإسلام . . لأن الأسرة التي تدور حول نفسها دون نظر إلى اليتيم مثلاً فإنها فضلاً عن تجاهلها لمعنى الإنسانية . . لا تأمن على نفسها من خطر يدخره الغد لها . . من وراء ذلك الذي لم تمد جناحها يوماً عليه .

بل إن الإحسان لليتيم الذي فقد كل ما يغري بالعطف عليه يعتبر دليلاً على صحة الاعتقاد وأفراد الله سبحانه للعبادة . .

« قال الأستاذ الإمام : إذا قام الإنسان بحقوق الله تعالى فصحت عقيدته . وصلحت أعماله . وقام بحقوق الوالدين وصلح حالهما وحاله . تتكون بذلك وحدة البيوت الصغيرة المركبة من الوالدين والأولاد . وبصلاح هذا البيت الصغير يحدث له قوة . .

فإذا عاون أهله البيوت الأخرى التي تنسب إلى هذا البيت بالقرابة . وعاونته هي أيضاً . يكون لكل من البيوت المتعاونة قوة كبرى يحسن بها إلى المحتاجين الذين ليس لهم بيوت تكفيهم مؤونة الحاجة من الناس الذين لا يجمعهم بهم النسب . وهم الذين عطفهم على ذوي القربى بقوله : **﴿ واليتامى والمساكين ﴾**[2] .

* * *

---

(١) النساء : ٣٦ .
(٢) تفسير المنارج ٥ ص ٩٠ ، ٩١ .

* **أساس النظرة إلى اليتيم :**

أقام الإسلام نظرته إلى اليتيم على قاعدة التعاون على البر والتقوى وهذا بعض ما يفهم من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام** ﴾[1] .

بعد قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾[2] فالأمر برعاية اليتيم حين يجيء بعد هذه الآية فلأنه في مقدمة موارد الأتقياء . . وأحد مجالاته .

وهذا الأساس الإنساني الدافع إلى تكريم اليتيم يشجب الدوافع الأخرى . التي اعتاد العرب قبل الإسلام أن ينظروا إلى الولد من خلالها : لقد كانت النظرة إلى الولد قائمة على أساس دوره في الحرب . وجهده في مجالات الانتاج وبذلك فقدت الأنثى وجودها . . وفقد اليتيم أيضاً وجوده لمعنى الضعف فيه . . وفتور الرغبة في اصلاحه . من حيث لا يحقق اصلاحه ذكراً ثانياً لمن يكن أباه .

وحين وضع الإسلام معنى الإنسانية أساساً في معاملة الناس . فقد فتح الباب أمام اليتيم ليأخذ مكانه في المجتمع . وكان قبل يعيش على هامش الحياة .

وفي سبيل إحياء كيان اليتيم في مجتمع لم يكن يحس بوجوده . جاءت الآيات المكية التي تحدثت عنه ضمن خطة الدعوة في مكة . . والتي استهدفت تقعيد القواعد . ووضع الأصول العامة للمستقبل . . بين يدي تلك التشريعات التي سوف تتمخض عنها الأحداث . حين يكون الإسلام على أرض المدينة دولة يحميها جيش .

* * *

لقد مر بنا تصور حياة اليتيم قبل الإسلام . وكيف كان منبوذاً كاسف البال .

وأراد الحق جل جلاله أن يجدد شباب المجتمع بهذا الدم الجديد الذي يمكن لو أحسن إصلاحه أن يكون خيراً لنفسه ولمجتمعه . وكأنما كان اليتيم ثروة بين أيدي الناس لم يحسنوا استغلالها . . فجاءهم النذير يخوفهم مغبة هذه السلبية تلقاء كائنات حية لا تفتقر إلى لقمة العيش قدر افتقارها إلى البر وحسن التربية ودقة التوجيه . في محاولة لإقامته على سواء الصراط . وملء الفراغ المتخلف عن وفاة العائل الغيور . .

وقد وردت أول إشارة إلى اليتيم في سورة الفجر المكية يقول تعالى : ﴿ **فأما**

---

(١) النساء : ١ .

(٢) النساء : ١ .

**الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن . وإما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن . كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلاً لما . وتحبون المال حباً جماً ﴾**[1] .

ويلاحظ أن الآيات الكريمة تنعي على القوم أنهم لا يتحاضون على طعام المسكين . .

وفيما يتعلق باليتيم فإنها تنكر عليهم أنهم لا يكرمونه . . مما يجعل لليتيم وضعاً خاصاً يفرض أهمية العناية به . ليحس بوجوده ضمن آخرين يتمتعون بالرعاية في ظل آبائهم . . وذلك عن طريق بره وتفقد شؤونه .

كما يشير إلى ذلك صاحب الكشاف في تفسيره للآيات الكريمة :

يقول : ﴿ **كلا** ﴾ : ردع للإنسان عن قوله . ثم قال : بل هناك شر من هذا القول : وهو أن الله يكرمهم بكثرة المال فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرة .

والتفقد كلمة جامعة تشمل كل الأمور المتعلقة بإعداد اليتيم مادياً ومعنوياً .

وإذا كان المسكين قد تكفيه اللقمة أو اللقمتان . . نظراً لكبر سنه وإمكان استقلاله بنفسه . .

فإن حاجة اليتيم أمس إلى رعاية شاملة كاملة . . وهو معنى المبرة الذي أشار إليه أبو السعود أيضاً حين قال تفسيراً للآية الكريمة : « يكرمكم الله تعالى بكثرة المال . . فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة » .

وفي معنى البر وشموله يقول الحق سبحانه :

﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله** ﴾[2] . . الآية ، وقد اتجه إلى الرسول ﷺ تنبيه خاص بشأن اليتيم وتكريمه . . لأن له في سابق عمره تجربة من نفس النوع وذلك في قوله تعالى : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾[3] .

---

(١) الفجر : ١٥ ـ ٢٠ .
(٢) البقرة : ١٧٧ .
(٣) الضحى : ٦ ـ ١١ .

فهو منهى عن قهر اليتيم ومعه أمته . وإذا فهمنا أن القهر هو الغلبة والتذليل كان معنى النهي عنه هو الحفاظ على خصائص اليتيم النفسية بالتربية والمتابعة حتى لا تموت في صدره حوافز العمل والطموح .

وبذلك تختلف الصورة في معاملة اليتيم عنها في معاملة السائل الذي نهى عن نهره . . أي عن زجره بغلظة .

« قال مجاهد : لا تحتقر اليتيم . قد كنت يتيماً . . روي أنه ﷺ قال : « **خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه . وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه** » .

ثم قال بأصبعيه : « **أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وهو يشير بأصبعيه** »[1] .

من وصايا ﷺ :

« **من ضم**[2] **يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة** »[3] .

فلا يكفي أن ترسل إليه الطعام والشراب ليأكل وحده بعيد . فقد تشبع معدته . وتبقى روحه عطشى إلى جو الأسرة بما فيه من مودة ورحمة . . وهو لون من الجوع لا يقل خطراً عن لهفة الغريزة إلى الطعام . .

ومن هنا يتحدث الرسول ﷺ عن إيواء اليتيم ليعيش مع الأسرة واحداً منها . . له ما لها وعليه ما عليها . . ليحس ببرد الراحة . . وتجد مواهبه الجو الذي تتفتح فيه بممارسة العلاقات الأسرية ممارسة تعده للحياة في المجتمع بمعناه الواسع .

ومن أجل ذلك أيضاً يقول الرسول : « **أنا وكافل اليتيم** » . . ولم يقل أنا ومطعم اليتيم .

فالكفالة رعاية أبوية . . ومسؤولية دائمة عن وديعة بين يديه هو مطالب بأن يصل بها إلى نهاية الطريق . .

---

(١) حاشية الجمل .

(٢) ولا تتحقق الجنة إلا إذا تحقق الضم . . بحيث يصير اليتيم عضواً في الأسرة وثيق الصلة بها . . وإلا فقد تستضيفه الأسرة وهي مشعرة له دائماً : بغربته ويتمه ، وقد تعامله على نحو يحسن فيه بعطفها الذي يحرجه دائماً . والتعبير بالضم يشير إلى تحوله في ظلها إلى عضو فيها .

(٣) مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٦١ .

وما أيسر العون المادي يجود به الإنسان . . لكنه لا يصنع الرجال وحده .

* * *

وقد حظيت اليتيمة بزاد أوفر . . من أخيها اليتيم . . لما تنفرد به من ضعف . .

« حدثت عائشة رضي الله عنها قالت : جاءتني إمرأة معها ابنتان تسألني . فلم تجد عندي غير تمرة واحدة . فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها . . ثم قامت وخرجت . فدخل النبي ﷺ فحدثته فقال : « **من يلي من هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كن له ستراً من النار** »[1] .

وهكذا يصرف الرسول ﷺ القول بين الترغيب «وجبت له الجنة » والترهيب كن له ستراً من النار » ليمسك النفوس أن تزل في مجال يختفي فيه الدافع الفطري للتربية . .

بل إن أعلى صور الترغيب أن يكون كافل اليتيم مع الرسول ﷺ في الجنة .

وطبيعي أن ذلك لا يتم لمجرد إطعام اليتيم من جوع ، بل إن ذلك يجيء نتيجة طبيعية للمعاناة المستمرة في إعداده للحياة . تملماً كما كان ﷺ يعد الناس كلهم بالتربية والتهذيب .

فالذي يقف من اليتيم نفس الموقف . يصل في النهاية إلى الجنة بقرب الرسول ﷺ .

وقد بلغت عناية الإسلام باليتيم ذروتها في قوله تعالى : ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين** ﴾[2] .

ومعنى الدع المنهي عنه : « أن يدفعه دفعاً عنيفاً . بجفوة وأذى . ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة »[3] .

فالتكذيب بالدين كله أن يصبح اليتيم قهره للناس . . يقهره كل أحد : وبذلك يصبح الولي النابذ لليتيم في عزلة من الدين . على قدم المساواة مع غيره من التاركين للصلاة والزكاة والمرائين .

---

(١) البخاري ج ٨ ص ٨ .
(٢) الماعون : ١ ـ ٣ .
(٣) الكشاف .

بحيث يشكل موقفهم جميعاً تكذيباً بالـدين . مما يؤكـد أهمية إعـداد اليتيم والاحتياط في رعايته . فراراً من هذه النهاية التي يتحاشاها العقلاء .

وهذا الويل المتوعد به ينصب على كل مجتمع صار دع اليتيم شعاراً له من غير نكير .

وفي السورة التالية ـ سورة الكوثر ـ بيان لأضداد هذه الصفات . وكشف عن وضع المجتمع السعيد في ظل الإسلام . . الأمر الذي يحرك في نفوس الأمة دوافعها الكريمة لتتحلى بهـا . بقدر مـا يبعدهـا عن أضدادهـا المذكـورة قبلها في سـورة الماعون .

يقول الآلوسي في هذا الوضع : « قال الإمام : هي كالمقابلة للتي قبلها . لأن السابقة . وصف الله تعالى فيها المنـافق بأربعـة أمور : البخـل . وترك الصـلاة . والرياء . ومنع الزكاة . فذكر عز وجل في هذه السـورة في مقابلة البخـل : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ . . . أي الخير الكثير .

وفي مقابلة ترك الصلاة : ﴿ **فصل** ﴾ . . أي دم على الصلاة .

وفي مقابلة الرياء : ﴿ **لربك** ﴾ . . أي لرضاه للناس .

وفي مقابلة منع الماعون : ﴿ **وانحر** ﴾ . . وأراد به سبحانه التصـدق بلحوم الأضاحي .

« وحاصل الأمر في دع اليتيم أمور : أحدها : دفعه عن حقه وماله بالظلم .

والثاني : ترك المواساة معه . وإن لم تكن المواساة واجبة . وقد يذم المرء بترك النوافل . لا سيما إذا أسند إلى النفاق . وعدم الدين .

والثالث : يزجره ويضربه ويستخف به .

وقرىء : يدع : أي يتركه ولا يدعوه بدعوة . أي يدعو الأجانب ويترك اليتيم . مع أنه عليه السلام قال : ما من مائدة أعظم من مائدة عليها يتيم .

وقرىء : يدعو اليتيم . أي : يدعوه رياء ثم لا يطعمه . وإنما يدعوه استخداماً أو قهراً أو استطالاً .

واعلم أن في قوله يدع ـ بالتشديد ـ فائدة هي : أن يدع ـ بالتشديد ـ معناه : « أنه يعتاد ذلك . فلا يتناول الوعيد من وجد منه ذلك وندم عليه » .

إن الضرب والإهانة إذا تعلقا بغير اليتيم . . فإن له في عشيرته ووالده عوناً يرد إليه اعتباره .

أما فيما يتعلق باليتيم . . فإن البقية الباقية من إحساسه بذاته تتلاشى حين يصير نبذ اليتيم عادة سيئة في المجتمع ـ كما يفهم من تضعيف الفعل « يدع » على ما قال الرازي .

وبالتالي . . فإن هذا اليتيم مع أمثاله يشكلون عوامل هدم في بناء الجماعة .

بل إن دوافع العدوان لتترسب في أعماقه . ثم ينتهز الفرصة كي ينتقم لنفسه . هذا من الناحية العملية .

أما من حيث دلالة هذا الإهمال فإنه يعني غيبة الرأي العام المشرف على تنفيذ الأخلاق الإسلامية في مجال الواقع واتهامه بالتواطؤ ضد هذا التنفيذ .

ثم إنه يعكس تجرد القلوب حينئذٍ عن عنصر التعاون على البر والتقوى . وهو العنصر الذي لا يكون للحياة طعم بدونه .

ومن هنا كان الذي يدع اليتيم على خطر عظيم . . لأنه فقد روح الإسلام الجامعة . وانطلق مدفوعاً بأنانيته التي لا تعترف بغير الذات إلهاً يعبد دون الله . ولا تؤمن بيوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً . وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

* * *

ولأن رعاية اليتيم بهذه المثابة . لم يكن من السهل تحقيقها . . إلا باستجماع القوة كي تؤتي أكلها .

يقول سبحانه : ﴿ **فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا** ﴾[1] .

فحين تستحكم الأزمة الاقتصادية وتمسك بخناق الناس . فإن الإحسان إلى اليتيم حينئذٍ يساعد على اقتحام العقبة ضمن عوامل أخرى . . إن تجاهل اليتيم قد

---

(١) البلد : ١١ ـ ١٦ وجاء بـ «ثم» لتراخي الإيمان في الرتبة من العمق والصدقة لا في الوقت لأن الإيمان هو السابق على غيره ، ولا يثبت عمل صالح إلا به ( الكشاف ) .

يفضي بالأمة إلى مأساة ينبغي أن تعد العدة لتلافيها . بقدر ما يكون الإحسان إليه عنوان خلق فاضل وإرادة قوية . تفتح الطريق أمام مواهب قد تغير مجرى الحياة وتحول سير التاريخ .

وهكذا تتنزل الآيات الكريمة تترى . مؤكدة ذاتية اليتيم . محققة وجوده ضمن أفراد المجتمع .

فإذا ما استقر وضعه . وأخذ مكانه . كان الحديث عن حقوقه مجدياً بعد الاقتناع بوجوده كائناً . حياً .

وقد تحدثت الآيات المكية ـ في آخر ما نزل منها ـ عن ماله الذي يجب أن يصان حتى يبلغ أشده .

وهذه مرحلة جديدة في إعداده تمهد للمرحلة التالية المتعلقة بتفصيل وضعه . والتي تكلفت بها الآيات المدنية بعد .

ونقرأ في سورة الإسراء والأنعام ـ وهما من أواخر السور المكية نزولاً : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها** ﴾[1] .

فلم تغفل هذه الآيات وهي تمهد لتفصيل وضع اليتيم أمر ماله أيضاً . وتمت بها الصورة التي رسمتها الآيات المكية عامة . . والتي عالجت بها ناحيتين :

(أ) ناحية ذاته .

(ب) ثم إجمال وضعه المالي .

* * *

لقد كان الحديث قبل ذلك عن يتيم لا يكرم . بل أنه ليتعرض للإهانة التي تجرح إحساسه . . فهو ضائع يبحث عن وجود يتقدم الإسلام ليعينه على تحقيقه .

ودار الحديث أيضاً عن إطعام اليتيم . والإحسان إليه .

لكن حديث الآيتين يدور حول « مال » اليتيم . بعد أن ثبت وجوده فعلاً . وصار ذا مال ينبغي الحفاظ عليه . حتى يبلغ رشده . وتبرز صورة اليتيم في الذهن

---

(١) الأنعام : ١٥٢ .

وقد استوى على سوقه كعضو فعال . صاحب يد عليا يمكن أن تعطي . وتسهم في بناء المجتمع . وبنفس القوة التي دعا القرآن بها إلى صون ذاته . .

يدعوهم أيضاً إلى حفظ ماله .

« ومن تأمل أسلوب هذه الآية رأى أن الوصية باليتيم قصد فيها النهي عن « قربان » ماله . وأن تسليط النهي على « القربان » على هذا النحو لم يرد في شيء غير النهي عن مال اليتيم . إلا في الوصية بالنهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . وأن ما عداها كان النهي فيه مسلطاً على نفس الفعل . . حتى الشرك بالله . . ﴿ لا تشركوا ﴾ . . ﴿ لا تقتلوا ﴾[1] .

* * *

*** اليتيم . . في السور المدنية :**

تكفلت الآيات المكية ببيان وضع اليتيم إجمالاً . .

وقد حان الوقت لتفصيل هذا الاجمال كما جاءت به الآيات المدنية التي بينت إلى أي حد كانت عناية الإسلام باليتيم . .

هذه العناية التي كان من صورها :

١ ـ ضمان حقه في الميراث بعد أن لم يكن .

٢ ـ تعيين وصي يرعى مصالحة محكوم بقواعد لا يحيد عنها .

٣ ـ وجوب إعطاء اليتيم سهماً من الفيء والغنيمة .

٤ ـ استحسان إهدائه شيئاً من التركة إذا حضر .

وقد أبدى الإسلام عناية خاصة باليتيمة بعد دخولها ضمناً فيما تقدم . .

وذلك طبقاً لوضعها المستتبع لشدة العناية بها . . من حيث ضعفها وتزايد الطمع فيما تملك . . وقلة خبراتها في مجالات التعامل . . دون الذكر . .

« وفرق علماؤنا بينهما بأن قالوا : الأنثى مخالفة للغلام لكونها محجوبة لا تعاني في الأمور . ولا تبرز لأجل البكارة . فلذلك وقف فيها على وجود النكاح تفهم المقاصد كلها .

والذكر بخلافها فإنه بتصرفه وعلاقته بالناس من أول نشئه إلى بلوغه . . يحصل

---

(١) تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت ص ١٨٧ .

له الاختيار ، ويكمل عقله بالبلوغ فيحصل له الغرض[1] .

ولا بد لنا ـ قبل الحديث عن اليتامى أن نبين الحديث عن ابتلاء اليتامى بشأن أموالهم ـ من كلمة عن أهمية المال في الإسلام ، لتتضح لنا روحه في نظرته إلى المال كسلاح للدفاع عن الحق والعدل .

* * *

*** المال في الإسلام :**

يعترف الإسلام بنزعة التملك الأصلية في كيان الإنسان . يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة** ﴾[2] . . الآية .

ثم يفتح البصائر في نفس الوقت على أفق أعلى . . ينبغي أن ترتفع النفوس إليه . وهو ما يشير إليه قوله سبحانه في الآية التالية : ﴿ **قل أؤنبكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾[3] .

والذين اتقوا . هم الذين جعلوا المال وسيلة للإصلاح . فلم يبذروه في متعهم الخاصة لكنهم عاشوا به في حياتهم سنداً للحق فبذلوه في سبيل الله .

وتلك خاصة المتقين المذكورة في نفس السورة : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء** ﴾[4] . . الآيات .

وبهذا المفهوم يصير المال خيراً تشد إليه الرحال ، فهو عصب الحياة وقوامها . كما يشير إلى ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً** ﴾[5] .

ولا يصير المال خيراً إلا إذا أنفق على شرط سبحانه وتعالى . في الوجوه التي يفرضها الإيمان به سبحانه .

---

(١) القرطبي ط الشعب ص ١٦٠٨ .

(٢) آل عمران : ١٤ .

(٣) آل عمران : ١٥ .

(٤) آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٦ .

(٥) النساء : ٥ .

يقول الكشاف في تفسير قوله تعالى : ﴿ **فلا اقتحم العقبة** ﴾[*] .

« يعني فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة . من فك الرقاب . وإطعام اليتامى والمساكين . ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة . وأساس كل خير . بل غمط النعم . وكثر بالمنعم .

والمعنى : أن الإتفاق على هذا الوجه هو الاتفاق المرضي النافع عند الله . لا أن يهلك مالاً لبداً في الرياء والفخار . فيكون مثله ﴿ **كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم** ﴾[٣] . . الآية .

فإذا كان المال مال الله . . والإنسان مستخلف فيه . . فلا بد أن يتحقق جوهر الخلافة في انفاقه في الوجوه المشروعة التي بصرنا بها ربنا سبحانه .

فإذا لم ينفق الإنسان في تلك الوجوه . صار المال سوط عذاب لصاحبه . على ما يقول سبحانه : ﴿ **ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾[٢] .

وإنما تصير الثروة عذاباً . حينما تسخر لإشباع الرغبات المسعورة . المنطلقة على غير هدى من الله .

وسوف تصير يوماً إلى زوال . مخلفة وراءها مختلف العلل والأمراض .

وتدرك بعد ذلك عمق النظرة الإسلامية في وضعها القيود المحققة لحفظ مال اليتيم .

فلم يتحدث القرآن عن موقف الولي من مال اليتيم حديث الحريص على مجرد ثروة يراد تنميتها . . بل من حيث ارتباط هذا المال بالخلق الكريم وصلته القوية به . .

لقد طغى قارون وبغى . لأنه لم يحسن تصريف المال في وجوهه المشروعة . . وحرمه الكفر من المعرفة المرشدة إلى أقوم السبل لإنفاقه واستثماره . . فقاده البغي في النهاية إلى الخسران المبين .

---

(*) البلد : ١١ .

(١) آل عمران : ١١٧ .

(٢) التوبة : ٨٥ .

فكان تفصيل المواقف المتعلقة بمال اليتيم جزء لا يتجزأ من خطة الإسلام العامة في التربية .. تصون اليتيم أخيراً من سوء تصرفه . حتى يتوخى به نصره الحق . وإقامة العدل . وحتى لا يصير ماله سوط عذاب ينغص عليه حياته .. في الوقت الذي يدمغ وليه بالظلم . حين لم يحسن إعداد مكفوله إعداداً تصلح به أولاه وأخراه .

* * *

*** كيف تصل باليتيم إلى رشده :**

وفي سبيل إعداد اليتيم ليتحمل تبعات بعد .. تشير الآيات الكريمة إلى أنه في حجر وليه وديعة تتقاضاه حسن تربيته .. والاختيار الواعي في محاولات مستمرة تنتهي به إلى تسلم زمام أمره عند البلوغ .

وفي مجال حفظ ماله إلى أن يعود إليه تتبدى روح الإسلام الحريص على مستقبل اليتيم الخلقي والاقتصادي على سواء - يقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغو النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيباً ﴾**[1] .

وفي محاولتنا فهم الآية الكريمة . يقتضينا المقام أن نسأل هذه الأسئلة :

ما هو الإبتلاء . وما مجالاته . وما مداه ؟

وما المقصود بالرشد المشروط لدفع المال إليه ؟

وهل للولي أجر نظير رعايته لليتيم ؟

وما سر الإشهاد عند دفع المال إلى اليتيم ؟

* * *

*** معنى الابتلاء . ومجالاته . ومداه :**

وفيما يتعلق بالإبتلاء ومجالاته ومداه نقول :

إنه الإختيار .. بدفع قسط من المال إليه - ليتصرف فيه - تحت مراقبة غير

---

(١) النساء : ٦ .

مباشرة تمكنه من حرية التصرف . على نحو يظهر اتجاهه . ليمكن بعد ذلك إصلاحه . وتوجيهه الوجهة الصالحة .

وهو نوع من الممارسة الاقتصادية . يصنع خلالها انفعاله . بتحمل متاعب الربح والخسارة . والنجاح والفشل .

وينتقل بذلك من مجرد الإحساس بالحياة المادية . . إلى مرحلة بفهم فيها مرامي الأحداث . . وما يتطلبه ذلك من إعداد حكيم لمجابهة احتمالاتها .

ونجاح الإنسان في المجال الاقتصادي لا بد له من خصائص نفسية وعقلية تمهد السبيل إليه .

وإذن . . فمن مجالات الاختيار أيضاً : أن تكون عقولهم وأخلاقهم محط النظر ومحل الاعتبار لتكمل بهذه شخصية اليتيم .

ويروي القرطبي في ذلك : « قال جماعة من الفقهاء : الصغير لا يخلو من أحد أمرين :

إما أن يكون غلاماً أو جارية . .

فإن كان غلاماً رد النظر إليه في نفقة الدار شهراً . أو أعطاه شيئاً نزراً ليتصرف فيه . ليعرف كيف تدبيره وتصرفه . وهو مع ذلك يراعيه لئلا يتلفه . . فإن أتلفه . فلا ضمان على الوصي . فإذا رآه متوخياً سلم إليه ماله . وأشهد عليه .

وإن كان جارية رد إليها ما يرد إلى ربة البيت : منّ تدبير بيتها والنظر فيه في الاستغزال . والاستقصاء على الغزالات . في دفع القطن وأجرته . واستيفاء الغزل وجودته . فإن رآها رشيدة . سلم إليها مالها . وأشهد عليها . وإلا بقيا تحت الحجر . حتى يؤنس رشدهما .

وقال الحسن ومجاهد وغيرهم : اختبروهم في عقولهم وأديانهم . وتنمية أموالهم[1] .

ونقف هنا وقفة قصيرة لنتأمل طبيعة عمل البنت في الإسلام :

إنه الإعداد والتربية . . عن طريق ممارسة أعمال هي عماد البيت . وأساس رخائه .

---

(١) القرطبي ط . الشعب ١٦٠٤ .

وما يترتب على ذلك من اتصافها بأخلاق الصبر والمثابرة . وحسن التدبير المفضي إلى حسن التبعل .

وهو غير ما تشغل به الأنثى نفسها اليوم من أعمال لا تتفق مع طبيعتها كأنثى . ولا مع مستقبلها كربة بيت .

وهو الأمر الذي لم تفقد به المرأة فقط عافيتها . بل إن مكمن الخطر فيما تردت فيه من مهاوي الرذيلة . . من جراء تنكب الصراط المستقيم . . صراط الله الذي له ما في السموات والأرض .

وما أحسن قول أبي العلاء في هذا المعنى على ما فيه من مبالغة :

علموهن الطبخ والمسح وخلوا كتابة وقراءة
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص خير من يونس وبراءة

فمجال الابتلاء أوسع دائرة من تدبير قدر من المال . . إنه فوق ذلك عملية تدريب لملكات الصبر . » تتمرس بها علي صعاب العيش . وبذلك لا يحس اليتيم بالضياع الذي قد يصبه على الجماعة فساداً وتمرداً . لأنها قصرت في إعداد للحياة .

* * *

وفي مدى الابتلاء يقول الألوسي في تفسيره للآية الكريمة :

« الذي ارتضاه جماعة منهم الزمخشري . ومذهب الزجاج وبعض النحاة . والمؤنة عليه أقل : أن « حتى » الداخلة على هذه الجملة حرف جر .

و « إذا » متمحضة للظرفية . وليس فيها معنى الشرط . والعامل فيها على هذا التقدير الأول ما يتلخص من معنى الشرط . والعامل فيها على التقدير الأول ما يتلخص من معنى جوابها . والمعنى : وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم . . بشرط إيناس الرشد منهم » .

* * *

*** معنى الرشد :**

في معنى الرشد المشروط لدفع المال يقول صاحب مفردات غريب القرآن - ص ١٥ - : « الرشد والرشد خلاف الغي ، يستعمل استعمال الهداية . يقال : رشد يرشد . قال : ﴿ **لعلهم يرشدون** ﴾[1] .

(١) البقرة : ١٨٦ .

وقال : ﴿ قد تبين الرشد من الغي ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً ﴾[2] . ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ﴾[3] .

وبين الرشد أعني الرشد المؤنس من اليتيم الذي أوتى إبراهيم بون بعيد وقال بعضهم : الرشد أخص من الرشد فإن الرشد يقال في الأمور الدنيوية والأخروية . والرشد يقال في الأخروية لا غير .

والراشد والرشيد فيهما جميعاً . قال تعالى : ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾[4] . ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾[5] .

فالرشد على الرأي الأخير مرحلة يكتمل عندها تصور الصبي لأمور الدين والدنيا .

وإذا كان البلوغ عنوان اكتمال الطبيعة الإنسانية . . فإن الرشد أفق آخر يدخل به الغلام صف الجماعة المسؤولة الواعية . ويصير به صاحب رأي مسموع . ودور ملحوظ . . الأول استواء الغرائز . . والثاني : وجود العقل المدرك وتوفر الضابط الوازع . وهذا يوافق ما ذكره القرطبي[6] :

« وأولى الأقوال عندي بمعنى الرشد في هذا الوضع : العقل وإصلاح المال . لإجماع الجميع على أنه إذا كان كذلك لم يكن ممن يستحق الحجر عليه » .

وعندئذٍ ـ أي إذا بلغ رشيداً ـ دفع الوصي إليه ماله . .

و« بلوغ النكاح هو الوصول إلى السن التي يكون بها المرء مستعداً للزواج . وهو بلوغ الحلم . ففي هذه السن تطالبه الفطرة مستعداً للزواج . وهو بلوغ الحلم . ففي هذه السن تطالبه الفطرة بأهم سننها . وهي سنة الانتاج والنسل . فتتوجه نفسه إلى أن يكون زوجاً وأباً ورب بيت ورئيس عشيرة . وذلك لا يتم له إلا بالمال . فوجب حينئذٍ ايتاؤه ماله . إلا إذا بلغ سفيها وخيف أن يضيع ماله فيعجز عما تطالبه به الفطرة ولو بعد البلوغ .

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

(٢) النساء : ٦ .

(٣) الأنبياء : ٥٦ .

(٤) الحجرات : ٧ .

(٥) هود : ٩٧ .

(٦) تفسير القرطبي ط . الشعب ج ٤ ص ١٦٩ .

يقول الفخر الرازي عند تفسيره للآية الكريمة : اتفقوا على أنه إذا بلغ غير رشيد فإنه لا يدفع إليه ماله .

ثم عند أبي حنيفة : لا يدفع إليه ماله حتى يبلغ خمساً وعشرين سنة . فإذا ذلك دفع إليه ماله على كل حال .

وإنما اعتبر هذا السن . لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثماني عشرة سنة . فإذا زاد عليه سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير أحوال الإنسان لقوله ﷺ : مروهم بالصلاة لسبع . فعند ذلك تمت المدة التي يمكن فيها حصول تغير الأحوال . فعند ذلك يدفع إليه ماله . أونس منه الرشد أو لم يؤنس .

وقال الشافعي رضي الله عنه :

لا يدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد . وهو قول أبي يوسف ومحمد .

« وقال الضحاك : لا يعطي اليتيم وإن بلغ مائة سنة حتى يعلم منه إصلاح ماله »[٢] .

وقد دافع الآلوسي عن رأي أبي حنيفة عند تفسيره للآية الكريمة فقال : « ومن أنعم النظر فيما ذهب إليه الإمام علم أن نظره رضي الله عنه في ذلك دقيق . .

لأن اليتيم بعد أن بلغ مبلغ الرجال واعتبر إيمانه وكفره. وصار مورد الخطابات الإلهية والتكاليف الشرعية وسلم الله تعالى إليه نفسه يتصرف فيها حسب اختباره المترتب عليه المدح والذم . والثواب والعقاب كان منع ماله عنه وتصرف الغير به أشبه الأشياء بالظلم .

ثم هذا وإن اقتضى دفع المال إليه بعد البلوغ مطلقاً من غير تأخير إلى بلوغه سن خمس وعشرين فيمن بلغ غير رشيد إلا أنا أخرنا الدفع إلى هذه المدة للتأديب . ورجاء الرشد . والكف عن السفه . وما فيه من تبذير المال وفساده .

* * *

*** تعقيب على دفاع الآلوسي رضي الله عنه :**

يجدر بنا أن ندقق النظر مرة أخرى في الآية الكريمة . تدقيقاً يقف بنا على فهم

---

(١) تفسير المنار ج ٤ ص ٣٨٧ .

(٢) القرطبي : ص ٦٦٠٧ .

صحيح لها .. يجعل من رأي الإمام مرجوحاً في هذه المسألة بقدر ما يبين ضعف دفاع الآلوسي عنه . في الآية الكريمة أمر بابتلاء اليتامى لمعرفة مدى تصريفهم لأموالهم .. وهذا الابتلاء مغياً ببلوغ النكاح .. المشروط بإيناس الرشد . فما هو هذا الرشد المستتبع تسليم ماله إليه ؟

هل هو مطلق رشد ؟

أم أنه رشد خاص يتعلق بحفظ المال وكيفية انفاقه ؟

يقول الآلوسي نفسه نقلاً عن الرازي في هذا الموضع : « لا شك أن المراد من ابتلاء اليتامى المأمور به .. ابتلاؤهم فيما يتعلق بمصالح حفظ المال .

وقد قال الله تعالى بعد ذلك الأمر : ﴿ **فإن آنستم منهم رشدا**﴾ فيجب أن يكون المراد : فإن آنستم رشداً في ضبط مصالحه . فإنه إن لم يكن المراد ذلك تفكك النظم ولم يبق للبعض تعلق بالبعض . وإذا ثبت هذا علمنا أن الشرط المعتبر في الآية : حصول الرشد في رعاية مصالح المال .. لا ضرب من الرشد كيف كان .

وإذن .. فالرشد الذي صار به اليتيم مورد الخطابات الإلهية والتكاليف الشرعية ليس هو الرشد اللازم لتصريف المال .. ولا يعني عنه .. أن ثروة اليتيم ليست ملكاً له وحده .. فللمال وظيفته الاجتماعية كما مر بك آنفاً .

وبالتالي .. فلا بد من التثبيت والاحتياط قبل دفع ماله إليه . فراراً من ضرر يعود على الفرد وعلى المجتمع .. إذا آل المال إلى يد يتيم غير رشيد ولا بصير بوجوه انفاق المال .. وطرائق استثماره .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم** ﴾[1] .

ويستفاد من الآية الكريمة أمور :

١ ـ المال مضاف إلى المجتمع المخاطب بالآية .. وليس مال السفيه وحده .

٢ ـ المجتمع مسؤول عن هذه الثروة والحرص عليها ـ يجعل رزق السفيه ـ ومنه غير الرشيد ـ فيها .. وليس منها حتى لا يأكلها الإنفاق ..

وإذن .. فمن باب الحرص على اليتيم ذاته نمسك عنه ماله في حالة بلوغه غير

---

(١) النساء : ٥ .

رشيد . . إلتزاماً من المجتمع بدوره في صيانة المال . . ومن ناحية أخرى رحمة باليتيم وإدخاراً لمستقبله . . بل إن هذا الإجراء أدخل في باب الرحمة من دفع ماله إليه في هذه الحال . . لينفقه هنا وهناك . . ثم ليجد نفسه أخيراً عالة على المجتمع الذي لم يحسن إليه . . فعاد مرة أخرى إلى حجره يتيماً . . كما كان . . بل أسوأ مما كان ! . .

أما فيما يتعلق بتكليفه بأمور الشرع وبلوغه بذلك مبلغ الرجال ، فنقول :

أولاً : إنه لم يبلغ مبلغ الرجال . . في غيبة رشد لا بد منه لتحمل ما تفرضه الرجولة من تبعات . .

وثانياً : إن إيمانه وكفره أمران راجحان أولاً بالدرجة الأولى إلى ذاته وحدها . .

فمن كفر فعليه كفره . . ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون بخلاف المال كما قلنا قبل قليل . .

وإذا كانت العبادة حق الله على العبد . . يتقرب بها إليه فيزداد معرفة بعظمته وجلاله . . فإن المال حق المجتمع : ومن واجبه أن يتدخل في الوقت المناسب لحمايته من الإسراف . . بل إن مجرد إتجاه الخطاب الشرعي إليه لا يجعل منه رجلاً لأن الخطاب يتجه إلى الصالح والطالح على سواء ! وقد لا يحتاج أداء العبادات إلى رشد من هذا النوع لا بد منه فقط في الحياة العملية . .

وإذا كان تأخير دفع المال إلى من بلغ غير رشيد حتى الخامسة والعشرين ـ كما رأى الإمام ـ رجاء تأديبه ـ وتفادياً من إفساد المال وتبذيره . . فقد بقي التبذير احتمالاً قائماً في غيبة الرشد . وما زال إتصافه بالرشد أمراً متوقعاً . . وفرصة لم يفت أوانها . . ولقد أضاف الإمام سبع سنين إلى مدة البلوغ ليصير المجموع خمساً وعشرين أخذاً من حديث : « **مروهم بالصلاة لسبع** » . .

ونقول : لماذا أضاف السبع ولم يضف العشر مع أن العددين معاً في الحديث الشريف . .

بل إن انتظار العشر أمر يفرضه الحرص على ثروة اليتيم . . حتى يستبين رشده وتأديبه . . فإذا لم يتبين أمسكنا عنه ماله انتظاراً لهذا الرشد . . إن هذا الدفاع لا يتمشى مع روح الإسلام في الحفاظ على مال اليتيم ونفسه معاً . .

قيل : إن الأمر بالحفظ هنا أشد وأكد . .

لأن مال اليتيم لو ضاع عند الولي في حال وصايته . . فربما برز اليتيم إلى الحياة فرتب أمره على هذا الوضع . . حتى يقضي الله فيه بأمره . . أما إذا سلمنا إليه ماله . . فضيعه . . فإننا بذلك نعرضه لنكسة تسلمه إلى هموم الذلة بعد العزة . . والفقر بعد الغنى . . وما يترتب على ذلك من تهاوي بنائه النفسي . . وضياع كل جهد مشكور في تربيته وإعداده . . وهو الأمر الذي حدا بأبي يوسف ومحمد أن يقفا إلى جانب الإمام الشافعي القائل بعدم دفع المال إليه إذا بلغ غير رشيد . .

ثم إن القول بتسليم ماله إليه ولو غير رشيد سوف يفتح علينا باباً يصعب إغلاقه . . إذا ما اعتبرنا اليأس من التمييز كافياً في تسليم المال إلى صاحبه لأنه حينئذٍ سيشمل الشيخ الذي يئس من تمييزه وهو ما لم يقل به أحد . . وهذا ما أشار إليه الآلوسي نفسه نقلاً عن الفخر الرازي في معرض تقريره لهذا الموضوع .

ومن لطف الله بالأوصياء أن يبين لهم مواطن الضعف التي قد تعرض للإنسان بحكم بشريته . ثم يعينهم على تطبيقهم أمر الله تعالى . بما يلفت الأنظار إليه من مصلحة الوصي واليتيم معاً .

إن مال اليتيم في متناول الكفيل .

ويمكن لمشاعر الطمع أن تستيقظ وتمارس نشاطها في غيبة الرقيب المحاسب . وربما بدا له في لحظة من لحظات الضعف البشري أن يستعجل الأيام . . فينفق من مال اليتيم قبل أن يخرج من حيازته .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يبصره بهذه النزعة في كيانه ليراقبها . ثم يحد منها فلا يسرف ولا يتعجل .

« فهاتان الحالان : الإسراف . ومسابقة كبر اليتيم ببعض التصرف . هما من مواضع الضعف التي تعرض للإنسان . . فنبه الله تعالى عليهما . ونهى عنهما . ليراقب الولي ربه فيهما . إذا عرضتا له .

أقول : إن من دقق النظر في هاتين الحالتين . . ووقف على تصرف الأولياء فيهما . يرى أنهما مما يعرض فيه التأويل . ومخادعة النفس للإنسان . لاختلاف الناس في حد الاسراف وخفاء وجه منفعة الولي في المسابقة إلى بعض الأعمال في اليتيم »[1] .

---

(١) المنارج ٤ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .

وإذا كان الأمر كذلك . . وإبقاء على دين الولي إزاء مال اليتيم . « فإن وصى اليتيم . وناظر الوقف . ووكيل الرجل في ماله عليه أن يتعرف بالأصلح فالأصلح كما قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن** ﴾[1] .

وذلك لأن الولي راع على الناس بمنزلة راعي الغنم »[2].

* * *

*** سلطات الكفيل :**

والقاعدة العامة التي تحدد علاقة الوكيل بمال اليتيم ذكرها القرطبي : « ويجوز للوصي أن يصنع في مال اليتيم ما كان للأب أن يصنعه من تجارة وشراء وبيع »[3] .

أي إن سلطة الأب تنتقل إلى الكفيل بكل ما تحمل من رعاية وحرص على مستقبل الصغير .

وحينئذٍ فلا يتوقف الأمر على مجرد حفظ أمانة ترد بعد أجل محدود . . لكنه التدريب والتربية . في محاولة لتعويضه عن فقد العائل دون مقابل . إلا ما تفرضه الضرورات الملحة . .

وتعويض العائل أيضاً نظير عمله :

« وكان شيخنا الإمام أبو العباس يقول : إذا كان مال اليتيم كثيراً يحتاج إلى كبير قيام عليه بحيث يشغل الولي عن حاجاته ومهامه فرض له فيه أجر عمله »[4] .

والأصل فيما رواه القرطبي ما روي : « أن رجلاً قال النبي ﷺ : « **إن في حجري يتيماً آكل من ماله ؟** »

قال : « نعم . . غير متأثل ـ جامع ـ مالاً . ولا واق مالك بماله » . .

قال : يا رسول الله . . أفأضربه ؟

قال : « **ما كنت ضارباً منه ولدك** »[5] .

---

(١) الأنعام : ١٥٢ ، الإسراء : ٣٤ .
(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية ط . الشعب ص ٣٣ .
(٣) تفسير القرطبي ص ١٦١٠ .
(٤) المرجع السابق ص ١٦١٤ .
(٥) المرجع نفسه ص ١٦١٥ .

وذكر ابن كثير : « عن جابر أن رجلاً قال : يا رسول الله . . فيم أضرب يتيمي ؟

قال : « **ماكنت ضارباً منه ولدك غير واقي مالك بماله . ولا متأثل مالاً** »[1] .

وتنفي الأحاديث أن تكون كفالة اليتيم آلية تنتهي في ميقات معلوم . . لكنها الأبوة الرحيمة : التي ترحم . . وتقسو . . كلما دعت حاجة إلى التربية والإعداد .

ومما يكشف عن طبيعة دور الكفيل وصلته بمال اليتيم ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما حين سأله رجل فقال : « إن في حجري أيتاماً . . وإن لهم إبلاً . . ولي إبل . وأنا أمنح[2] في إبلي وأفقر[3] . . فماذا يحل لي من ألبانها ؟

فقال : « إن كنت تبغي ضالتها . وتهنأ جرباها[4] وتلوط حوضها[5] . وتسقي عليها فاشرب غير مضر بنسل . ولا ناهك[6] في الحلب »[7] .

ومن صور التربية القرآنية للأوصياء في هذا المضمار ما ذكره الكشاف عند تفسيره للآية الكريمة خاصاً بالنهي عن أكل أموال اليتامى . . حيث نبه بالأعلى وهو أكل الولي الغني مال اليتيم . . على الأدنى وهو أكل الولي الفقير .

بينما القانون السائد هو : التنبيه بالأدنى على الأعلى كما في قوله تعالى : ﴿ **فلا تقل لهما أف** ﴾[8] .

فلم ينه الفقير عن الأكل تنبيهاً على الأعلى وهو أكل الغني له بأن يضيف إليه مال يتيمه ؟

يقول الزمخشري[9] : « أبلغ الكلام ما تعددت وجوه إفادته . . ولا شك أن

---

(١) تفسير ابن كثير ص ١٨٩ .
(٢) أي أمنح إبلي لمن ينتفع بها من الوبر واللبن .
(٣) أفقر : أي أعد البعير للركوب .
(٤) هنأ البعير : طلاه بالهناء وهي القطران يعالجه من الجرب .
(٥) لاط الحوض : طلاه بالطين .
(٦) ناهك : أي غير مبالغ .
(٧) تفسير ابن كثير ص ١٨٩ .
(٨) الأسراء : ٢٣ .
(٩) الزمخشري ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

النهي عن الأدنى وإن أفاد النهي عن الأعلى : إلا أن للنهي عن الأعلى أيضاً فائدة أخرى جليلة لا تؤخذ من النهي عن الأدنى : وذلك أن المنهي كلما كان أقبح كانت النفس عنه أنفر . والداعية إليه أبعد . .

ولا شك أن المستقر في النفوس أن كل مال اليتيم مع الغني عنه أقبح صور الأكل .

فخصص بالنهي تشنيعاً على من يقع فيه . . حتى إذا استحكم نفوره من أكل مال على هذه الصورة الشنعاء . . دعاه إلى الإحجام عن أكل ماله مطلقاً . . ففيه تدريب للمخاطب على النفور من المحارم .

ولا تكاد هذه الفائدة لو خصص بأكمله مع الفقر : إذ ليست الطباع في هذه الصورة معينة على الإكتتاب كإعانتها عليه في الصورة الأولى .

ويحقق مراعاة هذا المعنى تخصيصه الأكل . مع أن تناول مال اليتيم على أي وجه كان منهي عنه :

كان ذلك بالإدخار أو « باللباس » أو ببذله في لذة النكاح مثلاً أو غير ذلك .

إلا أن حكمة التخصيص النهي بالأكل : إن العرب كانت تتذمم بالإكثار من الأكل . وتعد البطنة من البهيمية . وتعيب على من اتخذها ديدنه . ولا كذلك سائر الملاذ .

فإنهم ربما يفاخرون بالإكثار من النكاح ويعدونه من زينة الدنيا . فلما كان الأكل عندهم أقبح الملاذ خص النهي عنه .

حتى إذا نفرت النفس منه بمقتضي طبعها المألوف . جرها ذلك إلى النفور من صرف مال اليتيم في سائر الملاذ أو غيرها . أكلاً أو غيره . ومن تمام الفائدة أن تزيد المعنى إيضاحاً . فنبين نظائره في القرآن الكريم .

ويتولى الزمخشري أيضاً مواصلة البيان فيقول في نفس الموضع :

« مثل هذه الآية في تخصيص النهي بما هو أعلى قوله تعالى : ﴿ **لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة** ﴾[1] .

فخص هذه الصورة . لأن الطبع على الانتهاء منها أعون . ويقابل هذا النظر

(١) آل عمران : ١٣٠ .

في النهي . نظر آخر في الأمر : وهو أنه يخص صورة الأمر الأدنى تنبيهاً على الأعلى . وتارة يخص صورة الأعلى لمثل الفائدة المذكورة من التدريب :

ألا ترى إلى قوله تعالى في السورة التالية لهذه السورة : ﴿ **وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم** ﴾[1] . الآية . . كيف خص صورة حضورهم . وإن كانت العليا بالنسبة إلى غيبتهم ؟

وذلك أن الله تعالى علم شح الأنفس على الأموال. فلو أمر بإسعاف الأقارب واليتامى من المال الموروث . ولم يذكر حالة حضورهم القسمة . . لم تكن النفس بالمنبعثة إلى هذا المعروف كانبعاثها مع حضورهم : بخلاف ما إذا حضروا :

فإن النفس يرق طبعها . وتنفر من أخذ المال أجزل وذو الرحم حاضر محروم . ولا يسعف ولا يساعد .

فإذا أمرت في هذه الحالة بالإسعاف . هان عليها امتثال الأمر . وائتلافها على امتثال الطبع . ثم تدربت على إسعاف ذي الرحم مطلقاً . حضر . أم غاب .

* * *

ومادمنا نتحدث عن تربية النشء في الإسلام . . فإن لنا في وجهة نظر الزمخشري درساً مفيداً :

فإذا كان القرآن يتخطى قاعدة التنبيه بالأدنى على الأعلى فيعكس الأمر تحقيقاً لفائدة مرجوة . وإذا وصى العلماء بأخذ الصبي بالتدريب"المترفق حفاظاً على ملكاته أن تعتل في دوامة الشدة . فإن هذه الشدة أحياناً ـ طبق مفهوم الزمخشري ـ قد تكون هي العلاج الذي ينطم الصبي عن رذائل كثيرة .

* * *

*** عناية الإسلام باليتيمة :**

وإلى اليتيمة تتجه عناية خاصة نظراً إلى ضعفها . ودقة وضعها في المجتمع .

يشير إلى ذلك قوله سبحانه : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾[2] .

---

(١) النساء : ٨ .

(٢) النساء : ٣ .

ومن صور الظلم الذي أصاب اليتيمة ما رواه البخاري أن عروة بن الزبير : « سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ﴾ ؟

قالت : يا ابن أخي . . هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله . ويعجبه مالها وجمالها . فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها . فيعطيها مثل ما يعطيها غيره . فنهر أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن . ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق . وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن »[1] .

هذا إذا كانت اليتيمة جميلة . ذات مال .

أما إذا فقدت المال والجمال . فإن موقف الولي يتغير بدافع من أنانيته . . فلا يتقدم لزواجها .

فأمروا أن يكون العدل أساس علاقتهم باليتيمة . على ما يقول سبحانه : ﴿ ويستفتونك في النساء ، قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً ﴾[2] .

روت عائشة في تعالى : ﴿ ويستفتونك في النساء ، قل الله يفتيكم فيهن ﴾ إلى قوله : ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ قالت :

« هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها قد شركته في ماله حتى في العذق . فيرغب أن ينكحها : ويكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته . فيعضلها . . فنزلت هذه الآية »[3] .

وما أصدق قول الشاعر في هذا المعنى :

لقد زاد الحياء إلى حيا بناتي . . أنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين البؤس بعدي وأن يشربن رنقاً[4] بعد صافي

وقد بلغ ظلم اليتيمة حداً كان الرجل الجاهلي « تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها

---

(١) رواه ابن كثير .
(٢) النساء : ١٢٧ .
(٣) تفسير ابن كثير في تفسير الآية الكريمة .
(٤) رنقاً : عكراً .

ثوبه . فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً . فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها »[1] .

وفي محاولة الوقوف باليتيمة عند حدود ما شرع الله تعالى تكريماً لها يقول القرطبي[2] : « فإذا بلغت اليتيمة وأقسط الولي في صداقها . جاز له أن يتزوجها . ويكون هو الناكح والمنكح . على ما فسرته عائشة . وبه قال أبو حنيفة والأوزاعي والثوري وأبو ثور . وقاله من التابعين الحسن وربيعة . وهو قول الليث وقال زفر والشافعي : « لا يجوز له أن يتزوجها إلا بإذن السلطان . أو يزوجها منه ولي لها هو أقعد بها منه »[3] .

وإذن فالزواج من اليتيمة مشروع إذا ما توفرت أسباب كرامتها . . وتهيأت الوسائل لحياة تصون شخصيتها من الضياع في دوامة الأطماع .

والشروط التي وضعها الإسلام للزواج منها تنسجم مع قاعدته العامة في الزواج . . والتي تستهدف النظر إلى فضائل المرأة الخلقية . . دون رعاية لما كان مجلوباً إليها من شارات أسرتها . التي لا تنتقل معها إلى بيت زوجها .

وقد بلغ من تكريم الإسلام لليتيمة أن جعل لها أمرها في مسألة تتصل بمستقبلها : « عن ابن عمر قال : زوجتي خالي قدامة بن مظعون بنت أخيه عثمان بن مظعون . فدخل المغيرة بن شعبة على أمها فأرغبها في المال وخطبها إليها . فرفع شأنها للنبي ﷺ . .

قال قدامة : يا رسول الله . . ابنة أخي وأنا وصي أبيها . ولم أقصر بها . زوجتها من قد علمت فضله وقرابته .

فقال له رسول الله ﷺ : « **إنها يتيمة . . واليتيمة أولى بأمرها . فنزعت مني وزوجها المغيرة بن شعبة** »[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير .

(٢) تفسير القرطبي ط . الشعب ص ١٥٨٤ ـ ١٥٨٥ .

(٣) أقعد : أي أقرب إلى الجد الأكبر .

(٤) رواه الدارقطني من حديث محمد بن إسحاق عن نافع من ابن عمر ، وأورد القرطبي هذا الحديث تأييداً لمن ذهب إلى أن اليتيمة لا تتزوج إلا بإذنها ـ القرطبي ط : الشعب ، ص ١٥٨٣ ـ ١٥٨٤ .

وهكذا فيما يتعلق بمال اليتيم يضع الإسلام الضوابط لضرورة التملك ـ متواعداً من حاد عن الطريق بالعذاب الأليم ـ .

وفيما يتصل باليتيمة يوجه غريزة الجنس ـ حتى لا تكون ـ سلاحاً أهوج يضر بمصلحة أنثى لا تملك من أمرها شيئاً .

* * *

*** حرص القرآن على مشاعر اليتيم :**

تبدو عناية القرآن الكريم باليتيم . في معرض الحديث عن قسمة المال . باستحسان إعطائه نصيباً منه . مع غيره من الأقربين والمساكين . وذلك في قوله الحق سبحانه : ﴿ **وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفاً . وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيرا** ﴾[1] .

وفي سبيل التمكين لهذه الحقيقة ترسم الآيات صورة ذرية المخاطبين في وضع مماثل . . استثارة للضمير واستنفاراً للبذل . وبخاصة لليتيم . . الذي ينبغي أن يكون يتمه نذيراً لكل يد غير مبسوطة بالإنفاق في مثل هذا المجال .

يقول ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة : « المعنى : أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل . فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه . إذا رأوا هذا يأخذ . وهم بائسون لا شيء يعطون .

فأمر الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم : أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون براً بهم وصدقة عليهم . وإحساناً إليهم . وجبراً لكسرهم .

كما قال تعالى : ﴿ **كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾[2] .

وذم الذين ينقلون المال خفية خشية أن يطلع عليه المحاويج . وذوو الفاقة . كما أخبر عن أصحاب الجنة .

فابن كثير يكشف عن الأهداف الحقيقية لإعطاء اليتامى والفقراء . فيذكر أنها لا

---

(١) النساء : ٨ ـ ١٠ .

(٢) الأنعام : ١٤١ .

تنحصر في ملء الجيوب بالمال . لكنها فوق ذلك محاولة لتقوية إحساسهم بوجودهم . وتكريم لهم بربطهم بمجتمع يعترف بهم عن طريق هذا التكريم . الذي لا تخفي صورته المادية ما وراءه من إعزاز لهم .

والأصل في ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وقولوا لهم قولاً معروفاً** ﴾[1] ، ﴿ **وليقولوا قولاً سديدا** ﴾[2] .

ومن صور هذا القول : ضرب أمثلة من الواقع الماثل . . حتى يطمئن اليتيم ويقتنع .

« قال الزجاج : علموهم ـ مع إطعامهم وكسوتهم إياهم ـ أمور دينهم معاً يتعلق بالعلم والعمل .

وقال القفال : إن كان صبياً فالوصي يعرفه أن المال ماله . وأنه إذا زال صباه يرد المال إليه . وإن كان سيفها وعظة وحثه على الصلاة . وعرفه أن عاقبة الإتلاف فقر واحتياج »[3].

فالقول المعروف لا يقصد به تلك الكلمة الرقيقة حين لا يعطي قدراً من المال .

لكنه أسلوب يفرضه القرآن بالنسبة للواجدين والفاقدين جميعاً . صوناً لمشاعرهم وتقديراً لحقهم . فالأمر أولاً وأخيراً يستهدف شخصية اليتيم ومصلحته . . ونفسه التي يراد أخذها بالمعروف . . ولذلك ترى أن الإسلام الذي يوصي الأولياء باستثمار أموال اليتامى والحفاظ عليها . . هو نفسه الذي يرفض تسليمها إليهم في حالة الخوف من التبذير .

كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً** ﴾[4] .

ويلاحظ أن المال يضاف هنا إلى الجماعة . لا إلى السفهاء مع أنهم ملاكه الحقيقيون . لأنه ـ في حالة الإسراف ـ يكون خطراً على سواء . فلا يحقق مصلحة

---

(١) النساء : ٥ ، ٨ .
(٢) النساء : ٩ .
(٣) الآلوسي .
(٤) النساء : ٥ .

تعود على واحد من الطرفين :

ولذلك تنبه الآية الكريمة على عدم دفعه إليهم . مع التأكد على ضرورة احترام إنسانيتهم . التي لا بد في معاملتها من قول معروف يحترم إحساس اليتيم . . ولا يغض من حق الملكية الخاصة .

فإعطاء اليتيم ليس منحة تستذل بها رقبته . . ولكنه واجب يفرضه الإيمان بالله . على ما يقول سبحانه : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله** ﴾[1] .

وبهذا الحق يقف اليتيم على قدم المساواة مع غيره من الناس . . بغض النظر عن اعتبار اليتم أثراً من آثار الحروب . وسوف يساعده الحصول على حقه في القيام بواجباته على أكمل الوجوه . وبالنسبة للفيء ـ وهو ما غنمه المسلمون دون قتال ـ فإن لليتيم فيه أيضاً حقاً مشروعاً وهو ما صرح به قوله سبحانه وتعالى :

﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾[2] .

وفضلاً عن تأكيد وجود اليتيم في كل مجال . . فإن الآية الكريمة تشير إلى إعطاء اليتيم ورفاقه لوناً من التوازن تتحقق به العدالة التي ترفض تكدس المال في يد حفنة على حساب بقية المحتاجين .

* * *

*** نتائج هذه التوجيهات :**

كان لهذا الحرص البالغ على مستقبل اليتيم أثره في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم . .

وكان للوعيد الشديد على كل تقصير في حقه المشروع رد فعل هز ضمائر المؤمنين . . فدفعهم الورع إلى التخلي عن الأيتام فراراً من الإثم المحتمل . .

« روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن** ﴾[*] و ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى**

---

(١) الأنفال : ٤١ .
(٢) الحشر : ٧ .
(*) الأنعام : ١٥٢ .

**ظلماً . . ﴾**[1] ذهب من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه . وشرابه من شرابه . فاشتد ذلك على اليتامى . فذكروا ذلك للرسول ﷺ . فأنزل الله تعالى : **﴿ ويسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم . . ﴾**[2] .

فخلطوا عند ذلك طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم » . ( الفخر الرازي ) .

والأمر بالخلطة العادلة له دلالته :

فيها يندمج اليتيم في الأسرة . بدل عزلة قد تورثه عقداً نفسية تعكر عليه حياته .

ومن ناحية أخرى تكون الخلطة فرصة يعاني فيها مسؤوليته لتكتمل شخصيته كلما تقدم به العمر . عن طريق اكتساب خبرات كثيرة في تعامله مع من يعايشه . . تحت سقف بيت هو في نفس الوقت صورة مصغرة للمجتمع الكبير .

ومن وراء ذلك كله : علم الله المحيط . يحصى كل شاردة وواردة حول هذا اليتيم الذي يعد وجوده امتحاناً للأوصياء : **﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾**[3] .

ويؤكد هذا المعنى أيضاً قوله ﷺ : « **أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا . . وقال بأصبعيه السبابة والوسطى**[4] .

وهذا العطف السابغ على اليتيم يحدث في النفس تغّييراً يطهر به القلب من أمراضه : فعن أبي هريرة « أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه . فقال : « امسح رأس اليتيم . وأطعم المسكين »[5] .

ويمكن أن يرشح ما ذهبنا إليه من ضرورة الخلطة العادلة ما روي « عن عمرو بن مالك القشيري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من ضم يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة** »[6] .

---

(١) النساء : ١٠ .
(٢) البقرة : ٢٢٠ .
(٣) البقرة : ٢٢٠ .
(٤) البخاري : كتاب الأدب .
(٥) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٨٧ .
(٦) مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٦١ .

وإنما وجبت الجنة . . لأن الأمر على هذه الصورة يحقق مصلحة اليتيم حين يكون في مأمن من الانحراف . . إذا ما تربى تحت رقابة مباشرة أمينة .

وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً** ﴾[1] .

وفي حياة الرسول ﷺ أكمل تطبيق لهذه المبادىء التي دعا إليها ، وهي في نفس الوقت السبب الذي حدا بالصحابة إلى تكريم اليتيم .

« كان عبد الله بن جعفر صغيراً حين توفي رسول الله ﷺ . إلا أنه قال : أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمي ونعى إليها أبي . فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي وعيناه تهرقان . والدموع تقطر على لحيته ﷺ .

ثم قال : « **إن جعفراً قدم على أحسن الثواب . اللهم فاخلفه في ذريته بأحسن ما أخذت به أحداً من عبادك الصالحين في ذريته** » .

ثم قال : « **يا أسّماء . . ألا أبشرك** » ؟

قالت : بلى يا رسول الله . . فداك أبي وأمي .

قال : « **إن الله تعالى قد جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة** » .

قالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله . فأعلم الناس بذلك . وأخذ بيدي حتى رقي المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى .

ثم يقول جعفر :

ثم نزل فدخل بيته وأدخلني معه . وأمر بطعام فصنع لأهلي وأرسل إلى أخي فتغذينا معه غذاء طيباً مباركاً ، فتغذيت أنا وأخي معه وأقمنا معه ثلاث أيام ندور معه كلما صار في بيوت نسائه ، ثم رجعنا إلى بيتنا »[2] .

وهذا منهج راشد ينبغي توخيه في معاملتنا لليتامى . . وقد سبقنا إليه أصحاب رسول الله ﷺ .

وتلك مسؤولية الدولة تجاه أفراد تدخرهم لمستقبل الأمة إذا هي أحسنت إليهم . .

---

(١) الإنسان : ٨ ، ٩ .

(٢) أنباء نجباء الأبناء ص ٨٨ ، ٨٩ .

واللفتات الإنسانية بادية في أسلوب رسول الله ﷺ . . ولعل من أبرزها ما كان يستهدفه من ربط اليتيم ربطاً عضوياً بالجماعة . . عن طريق إنشاء عواطف تشده إلى من حوله فلا يبقى في قلبه شعور بالإغتراب . .

ولقد تم ذلك حين أشرك الأيتام في طعامه وشرابه . . ولو أبقاهم في دوامة الفاجعة وحدهم وأرسل لهم نصيبهم من الطعام ما تمكن من استثمار هذه العواطف التي تنمو في ظل ممدود من العطف والرحمة . . لا لمجرد كسرة الخبز وجرعة الماء .

هذه العواطف التي عوضت اليتيم عن فقد أبيه خيراً ـ فاكتمل وعيه مبكراً في هذا الجو الإنساني . . فحفظت ذاكرته ذلك الإحسان .
وإنك لتجد مسؤولية الدولة عن الأيتام واضحة في حياة خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه : روى زيد بن أسلم عن أبيه : أن عمر بن الخطاب طاف ليلاً فإذا هو بإمرأة في جوف دارها . وحولها صبيان يبكون . وإذا قدر على النار قد ملأتها ماء .

فدنا عمر بن الخطاب من الباب فقال : يا أمة الله . . أيش بكاء هؤلاء الصبيان ؟

فقالت : بكاؤهم من الجوع .
قال : فما هذه القدر التي على النار ؟
فقالت : قد جعلت فيها ماء أعللهم بها حتى يناموا . أوهمهم أن فيها شيئاً من دقيق وسمن . فجلس عمر يبكي .

ثم جاء إلى دار الصدقة فأخذ غرارة . وجعل فيها شيئاً من دقيق وسمن وشحم . وتمر وثياب ودراهم حتى ملأ الغرارة ثم قال : يا اسلم أحمل علي . فقلت : يا أمير المؤمنين أنا أحمل عنك .

فقال لي : لا أم لك يا أسلم . . أنا أحمله لأني أنا المسؤول عنهم في الآخرة . قال : فحمله على عنقه حتى أتى به منزل المرأة .
فقال : وأخذ القدر فجعل فيها شيئاً من دقيق . وشيئاً من شحم وتمر . وجعل يحركه بيده وينفخ في القدر .
قال أسلم : وكانت لحيته عظيمة . فرأيت الدخان يخرج من خلل لحيته حتى طبخ

لهم . ثم هل يقرف بيده ويطعمهم حتى شبعوا ثم خرج وربض بحذائهم كأنه سبع . وخفت منه أبداً كلمة . فلم يزل كذلك حتى لعبوا وضحكوا .

ثم قال أسلم : أتدري لم ربضت بحذائهم ؟

قلت : لا يا أمير المؤمنين .

قال : رأيتهم يبكون . فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون . فلما ضحكوا طابت نفسي »(١) .

ويصر الخليفة أن يعد الطعام . . بل ويعطيهم بيده . . وهو التفسير العملي لقوله سبحانه : ﴿ **ويطعمون الطعام . .** ﴾(٢) الآية . ولم تربطه بالبيت صفة شخصية تقلل من أهمية المعروف لكنه مجرد بيت يغيب في زحمة المدينة . .

وهي مشاركة وجدانية تتجلى فيها تربية الرسول ﷺ . . التي تنعكس اليوم على المجتمع كله أمنا ومواساة . فيتحقق في ظل ذلك نوع من تكافؤ الفرص . . يصوغ شخصية الجيل الجديد ليكون في الغد القريب مجاهداً في سبيل الله . وهذا الوطن الذي رعاه في صباه .

بل إن رعاية اليتيم لم تقف به عند هذا الحد وفي حياة أنس بن مالك رضي الله عنه ما يشير إلى مدى بعيد في رعاية اليتيم كان به في المجتمع شيئاً مذكوراً .

« عن أنس رضي الله عنه قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة ليس له خادم . فأخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله . . إن أنساً غلام كيس . فليخدمك .

قال : « **فخدمته في السفر والحضر ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا . ولا لشيء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا** »(٣) .

وهكذا . . يستحبه « زوج أمه » إلى أشرف بيت . . ونشأ أنس في تلك التربية الصالحة رجلاً . . وكان مقاتلاً يجيد الرمي . . وأيضاً كان أبناؤه رماة كذلك .

فانظر كيف نمت مواهب اليتيم الذاتية في التربية الصالحة ؟ . . وأين هذا مما يحدث اليوم من محاولات تستذل اليتيم . . وتقتل مواهبه ؟ . . الأمر الذي يفرض

---

(١) أسد الغابة ط . الشعب . مجلد ٤ ج ٢٤ ص ١٦٥ - ١٦٦ .
(٢) الإنسان : ٨ .
(٣) صحيح البخاري ط . الشعب مجلد ٢ .

علينا عودة مخلصة إلى الإسلام . . نستفتيه في أمر يرتبط به مستقبل الأجيال المقبلة .

* * *

*** اللقيط :**

وإذا حرص الإسلام على مصلحة من فقد واحداً من أبويه . . فإنه يحرص أيضاً على اللقيط . . الذي يستقبل الحياة في ظروف أصعب . . تقطعت به الأسباب . . وها هو ذا يستقبل الحياة وحده .

لقد فتح الإسلام صدره لهذا الكائن . . وفرض له من صور الرعاية ما يمكنه من ممارسة حقه في الحياة . .

ومن ذلك أن عمر رضي الله عنه « كان إذا أتى باللقيط فرض له مائة درهم وفرض له رزقاً يأخذه وليه كل شهر . .

وكان يوصي بهم خيراً . ويجعل رضاءهم ونفقتهم في بيت المال »[1] .

ومعنى ذلك تحول المجتمع ليصير أباً لهذا اللقيط . . فيملأ بذلك الفراغ الناشىء عن فقد والديه . . وما يترتب على ذلك من إعداده إعداداً يفيد المجتمع الذي جعل منه عضواً نافعاً .

« فاللقيط ومجهولو النسب يعيشون في رعاية الإسلام وذمته وهم إخوان المسلمين .

ومن هنا لا يجد المسلم مجهول النسب غضاضة في أن يعرف بذلك أو أن يعلن هو بنفسه ما دام المجتمع الإسلامي الذي يخضع في جميع صلاته بتعاليم الإسلام وإرشاداته . لأن هذا المجتمع الرحيم قد أصبح بمثابة أبيه ونسبه الذي لا يعدل نسباً .

إذاً فإن أبا بكرة نفيع بن الحارث ـ كما يسميه رجال الحديث ـ أعلن جهالة نسبه . وقال كما روي الطبري : أنا من لا يعرف أبوه فأنا أخوكم في الدين ومولاكم »[2] .

* * *

(١) الطبقات الكبرى ص ٢١٤ .

(٢) د . محمد سلام مذكور : مجلة الوعي الإسلامي العدد ١٠٢ .

فانظر كيف كانت مبادىء الإسلام تحكم المجتمع فجاءت بأطيب الثمار . . إلى حد وجد مجهول النسب في ظلها نفسه . . وحقق وجوده . . بـل وبرز ضمن المشتغلين بعلم الحديث . . مما يؤكد ضرورة الأخذ بهذه المبادىء وتحكيمها فيما شجر بين الناس من خلاف تحكيماً ينقيها من كل دخيل . . ليعود إلى البيئة صفاؤها الأول . . وتقبل ودها وخيرها ليكون في متناول الجميع . . الذين يتنافسون في العمل من أجلها . . ولا تتحرك في صدورهم رغبة في العدوان عليها . .

* * *

# الفصـــل الخـامـــس
# كيف ربى الرسول أصحابه

*** تمهيد :**

التحول العظيم في حياة الأمم ، يتم على يد رجل بلغ من شفافية الروح ، ويقظة الضمير ، وحكمة التدبير ، ما يمكنـه من البلوغ بالأمـة إلى ما قـدر لها من كمال . .

ولقد كان محمد ﷺ ذلك الرجل العـظيم الذي أخـرج الناس من الجـاهلية المحكومة بالغرائز ، حتى تكامل وعيها بالدين الجديد .

وإذا كانوا يقولون : إن عمل رجل . . في ألف رجل . . أشد تأثيراً من قول ألف رجل . . في رجل . . فإنا نقول : لقد كانت أفعاله ﷺ نموذجاً فريداً ، صار به القدوة الحسنة ، التي تقاس حياتنا عليها . .

* * *

إن صوت الأفعال أشد دوياً من صوت الأقوال دائماً . . وإذ يمـلأ زعماء الدنيا حياة الناس ضجيجاً لا مردود له . . فإن محمداً ﷺ لـم يغادر الدنيا . . إلا وقد خلف من ورائه من الأفعال والمواقف ما جسد سيرته بكل تفاصيلها ودقائقها . . ولـم يقل كلمة واحدة إلا وقد طبق مضمونها في حياة الناس . . على ما يقول الحق سبحانه : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾[1] .

ومن هنا كانت عظمته ﷺ . . وكان هذا الرعيل الأول ثمرة من ثمار هذه العظمة

(١) الأنعام : ١٦٣ .

الفريدة . على ما يقول ﷺ : « **أدبني ربي فأحسن تأديبي** »[1] .

ثم أدب به سبحانه أمته ، فكانت خير أمة أخرجت للناس . .

يقول ابن تيمية : « إن الإسلام لم يجيء لإزالة الفطرة الإنسانية . بل إنه يوجهها توجيهاً نافعاً . . فإن الفطرة لا تزول ، ولكن تحول .

لقد صرف محمد ﷺ شجاعة العرب من المنافسات القبلية ، والتقاتل . . وأخذ الثأر . . والأحقاد القديمة . . إلى الجهاد في سبيل الله .

وشغلهم عن الجاهلية بالإسلام ، وصرف تبذيرهم إلى الإنفاق في سبيل الله وأعطى النفس حظها من الترويح والنشاط »[2] .

ويعني ذلك أنه ﷺ لم يكبت الدوافع الفطرية . . كما وأنه لم يطلق لها العنان .

وإنما طوعها بالإستعلاء فربطها بالمثل العليا ، فاستجابت طائعة . لدين ارتفع بها إلى أعلى . . وفي نفس الوقت أتاح لها حظها من الرفاهية والترويح . . فالتقى الواقع بالمثال .

* * *

* عناصر الفلاح :

يروى أن الله تعالى نظر في قلوب العباد فاصطفى محمداً لنفسه . فبعثه برسالته . ثم نظر في قلوب العباد . بعد قلب محمد ﷺ ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون عن دينه .

وهذا يعني أن محمداً ﷺ استجمع خصائص القيادة . . التي أهلته للرسالة . .

وأن الصحابة الذين تربوا تحت إشراف الوحي الأعلى ، كانوا كذلك أهلاً لجندية تحقق بها القيادة سعادة الدارين .

فما هي عناصر النجاح في شخصيته ﷺ .

وكيف كان الصحابة رضوان الله عليهم حين تعرضوا لمساقط الغيث زرعاً **﴿ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾**[3] .

---

(١) الجامع الصغير ، ط مجمع البحوث ص ٣١٠ وقد رمز لصحته .
(٢) اقتفاء الصراط المستقيم .
(٣) الفتح : ٢٩ .

وقبل ذلك كله كيف كان العالم قبيل بعثته ﷺ لتعرف بعد النقلة الهائلة التي حققها الإسلام . . وبضدها تتميز الأشياء .

ذلك ما نحاول الإجابة عنه فيما يلي . .

* * *

## العالم . . قبل الإسلام

وفي هذا الصدد نقرأ تحليلاً دقيقاً لحالة العالم قبل الإسلام « للسيد أبي الحسن الندوي » في كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين »[1] :

« بعث محمد بن عبد الله ﷺ والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزاً عنيفاً ، فإذا كل شيء فيه في غير محله .

فمن أثاثه ومتاعه ما تكسر . ومنه ما التوى وانعطف . ومنه ما فارق محله اللائق . وشغل مكاناً آخر . ومنه ما تكدس وتكوم .

نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته : رآه يسجد للحجر والشجر والنهر . وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر . رآه إنساناً محكوماً قد فسدت عقليته . لم تعد تسيغ البديهات وتعقل الجليات .

وفسد نظام فكره . فإذا النظري عنده بديهي . وبالعكس : يستريب في موضع الجزم . ويؤمن في موقع الشك . وفسد ذوقه . فسار يستحلي المر . ويستطيب الخبيث . ويستمرىء الوخيم .

وبطل حسه . .

فأصبح لا يبغض الظالم . ولا يحب الصديق الناصح . رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم :

كل شيء ، فيه في غير شكله . أو في غير محله . قد أصبح فيه الذئب راعياً . والخصم الجائر قاضياً . وأصبح المجرم فيه سعيداً حظياً . والصالح محروماً شقياً .

لا أنكر في هذا المجتمع من المعروف ، ولا أعرف من المنكر .

---

(١) ص ٧٨ ، ٧٩ .

ورأى عاداته فاسدة تستعجل فناء البشرية ، وتسوقها إلى هوة الهلاك .

رأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان .

والخلاعة والفجور إلى الاستهتار .

وتعاطي الربا إلى حد الإغتصاب واستلاب الأموال .

ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع والنهامة .

ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد .

رأى ملوكاً اتخذوا بلاد الله دولاً . وعباد الله خولاً .

ورأى أحباراً ورهباناً أصبحوا أرباباً من دون الله : يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائفة . لم ينتفع بها . ولم توجه التوجيه الصحيح .

فعادت وبالاً على أصحابها وعلى الإنسانية .

قد تحولت الشجاعة فتكاً وعنجهية .

والجود تبذيراً وإسرافاً .

والأنفة حمية جاهلية .

والذكاء شطارة وخديعة .

والعقل وسيلة لابتكار الجنايات . والإبداع في إرضاء الشهوات .

رأى أفراد البشر . والهيئات البشرية كخامات بصانع حاذق ينتفع بها في هيكل الحضارة .

وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة .

رأى الامم قطعاناً من الغنم ليس لها راع . والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه[1] .

---

(١) الغارب : ما بين العنق والسنام ، وهو الذي يلقي عليه خطام البعير إذا أرسل ليرعى حيث يشاء .. ثم استعير للمرأة وجعل كناية عن طلاقها فقيل لها : « حبلك على غاربك » أي : إذهبي حيث شئت كما يذهب البعير . ( عن المصباح المنبر مادة « ضرب » ) .

والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه .. ويجرح به إخوانه .

وما كتبه العلامة الندوي يفسر الحياة إذا ما تحكمت فيها الشهوات .. في غيبة الإيمان بالله عز وجل .

لقد فقد الإنسان حينئذٍ توازنه المحقق لوجوده . وضل الطريق إلى سعادته في غمرة من تسلط غرائزه التي لو أحسن قيادها لكانت هي نفسها طريقة إلى سعادة الدارين .

وهو نفسه الضلال المبين . الذي جاء محمد ﷺ ليكشف غمته . استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام حين قال :

**﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾**(١) . واستجاب الله تعالى للدعوة المباركة . يقول سبحانه :

**﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾**(٢) .

**﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾**(٣) .

وفي هذه الآيات الكريمة بيان لرسالة الرسول ﷺ . وخطته المثلى في قيادة الحياة والأحياء على سواء الصراط . بعد بيان أنها منة عظمى على الخلائق أجمعين وهي في نفس الوقت مظهر الخلق العظيم .. الذي اختصه الله تعالى به .. وعناصر هذه الوظيفة تتمثل فيما يلي :

تلاوة الآيات .

تعليم الكتاب .

تعليم الحكمة .

التزكية .

* * *

---

(١) البقرة : ١٢٩ .

(٢) آل عمران : ١٦٤ .

(٣) الجمعة : ٢ .

* أساس البناء :

وأساس هذه الرسالة المباركة هو : الخلق العظيم .

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1] .

والحق سبحانه وتعالى يؤكد بأن . . واللام . . ترسيخاً له .

ثم إنه ﷺ . . على . . خلق . . يعني : مستعلياً متمكناً فيه . . وليس هو بالمتكلف أو المستورد . .

وهو خلق حذفت لام التعريف منه . . كأنه خلق بلا حدود . . يسع الحياة كلها . . ويغطي « ضلالاً مبيناً » انتشر في أرجاء المعمورة حينئذٍ . .

وهو مع اتساعه « عظيم » ضارب الجذور في نفسه . . يبهج الحياة بآثاره وثماره . .

وفوق ذلك كله : فهي شهادة ربنا العظيم . . وناهيك بها من شهادة !

وإذن . . فأساسّ الصلاح عميق في نفسه ﷺ . . وهو به قادر على الإصلاح .

ونحب أن نقف قليلاً أمام وصف الخلق بالعظمة . . دون الكرم مثلاً . . فنقول :

إن الله تعالى وصف نفسه بأنه الرحمن الرحيم . . ثم ذكر بعد ذلك أنه : مالك يوم الدين .

الأول يشير إلى الكرم . . والثاني مظهر الجلال :

ولقد كان خلقه ﷺ القرآن . كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها .

وإذن . . فوصفه بالعظمة التي هي مزيج من الشدة واللين . . يجعله أقرب إلى أخلاق الله من الكرم الذي هو لين ورأفة . . على ما يقول الآلوسي عند تفسيره للآية الكريمة :

« في هذه الجملة : إنه ﷺ تخلق بأخلاق الله عز وجل بقوله : ﴿ عظيم ﴾ .

ومن ثم فهو أقدر على أخذ الناس بفضائله التي صارت له سجية بعيدة عن التكلف . يراها البشر دائماً ماثلة للعيان : لا يصلون إلى قمتها مهما اجتهدوا . لكنهم يقتربون منها كلما اجتهدوا .

---

(١) القلم : ٤ .

يقول الرازي في تفسيره للآية الكريمة :

« ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لا جرم وصفها الله بأنها عظيمة . ولهـذا قال : ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾[1] أي لست متكلفاً فيما يظهر لكم من أخلاقي . لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلاً . بل يرجع إلى الطبع .

وبهذه الفضيلة العملية توفر له ﷺ عنصر القدوة الضروري لنجاح المربي في أداء رسالته .

وبها أيضاً يستجمع خصائص الإنسان الكامل القادر على التأثير . بعد استكمال قوتيه النظرية والعملية معاً .

وذلك ما يشير إليه الفخر الرازي أيضاً حين قال : « إن الله تعالى وصف ما يرجع إلى قوته النظرية بأنه عظيم فقال : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[2] .

ووصف ما يرجع إلى قوتـه العملية بـأنه عـظيم فقال : ﴿ وإنـك لعلى خلق عظيم ﴾[3] .

فلم يبق للإنسان بعد هاتين القوتين شيء .

وهنا موطن الأسـوة في شخصية الـرسول ﷺ . لمن أراد أن ينجـح في باب التربية والتعليم . .

لقد انعكس عليه ﷺ من صفات الجلال والجمال ما أعـده لتحمل مسؤوليـة البلاغ العالمي :

شدة في غير عنف . ولين في غير ضعف . هما لحمة العظمة وسداها . وهما أيضاً عدة الوالد والمعلم حين يتصدى لتربية النشء على ما يقول الشاعر :

فقسـا ليـزدجـروا ومن يـك حـازمـاً فـليـقس أحيـانـاً عـلى مـن يـرحـم

* * *

---

(١) سورة ص : ٨٦ .

(٢) النساء : ١١٣ .

(٣) القلم : ٤ .

وقد بدت هذه العظمة في دنيا الناس إذ ذلك سلوكاً عملياً . . سمحاً كريماً إلا أن تنتهك حرمات الله . فإنه يغضب . .

ثم هو في كرمه وغضبه يطبق مبادىء القرآن أمراً ونهياً . يقول ابن كثير كاشفاً عن هذه الطبيعة :

« ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه . إلا أن تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله عز وجل » .

ثم يقول : « ومعنى هذا أنه عليه السلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له . وخلقاً تطبعه . وترك طبعه الجبلي . . فما أمره القرآن فعله . وما نهاه عنه تركه .

وبهذا الالتزام الصارم بكلمات الله صار عليه السلام كمثل الكامل فلا يدرك أحد شأوه في هذا الباب . . فمبلغ العلم فيه أنه بشر . . وأنه خير خلق الله كلهم .

فهذا الخلق العظيم ( إذن ) تعبير عن تكامل شخصيته ﷺ واستجماعها كل عناصر الرشد الإنساني . بحيث توفر له كل ما تفرق في قلوب الأنبياء من عناصر الكمال . كفاء دوره العظيم إلى يوم الدين .

أما كيف تحول هذا الخلق العظيم إلى قوة ربانية هادية . . ذلك ما تحكيه آيات القرآن الكريم . وتتحدث عنه سيرته العطرة . بين أصحابه حديث الواثق المطمئن إلى نجاح التربية الإسلامية في إعداد جيل جديد على أساس من الإيمان بالله عز وجل .

وهو القاعدة الصلبة . التي تمنح المرء الثبات في مواجهة الأحداث وليس أصدق أنباء من الواقع الذي يحكي قصة التحول الخطير في حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . . من حياة تحكمها الغرائز إلى حياة وجدوا فيها أنفسهم في ضوء الإيمان بالله . ورسوله العظيم .

فكانوا بذلك أمثلة حية لقاعدة الإسلام . وشاهد صدق على سبق الإسلام إلى تحرير الإنسان . وتقرير مبادىء رقيه . قبل أن يولد رواد التربية الحديثة بأزمنة متطاولة .

وإنها لشهادة صدق ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ تؤكد عظمة الرسالة التي جاء بها رسول عظيم . والذي لم تقف عظمته عند حد . . بل كانت لها أبعاد أخرى

تمثلت فيما تحكيه الآية الكريمة من رأفته ورحمته بأمته التي أخرجتها من الظلمات إلى النور . يقول سبحانه : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم** ﴾[1] .

إنه رسول من أنفسهم ـ بضم الفاء ـ فإذا كان منهم فهو أشفق وأرفق . . وأعرف بمواطن الضعف التي يحاول تخليصهم منها . . ومواطن القوة التي يرقبها وينميها . .

ومن ناحية قومه : فإن إيمانهم به يكون ألزم . . لما يشاهدونه من صدقه وأمانته ولما يتاح لهم من الأخذ عنه . . والوعي بما يقوله حتى إذا تولوا مع هذه الضمانات كان ذلك شذوذاً مردوداً إلى مرض في نفوس القوم . . لا إلى الرسول الذي استجمع عناصر الرشد الإنساني .

* * *

فإذا أضفنا إلى ذلك القراءة الأخرى : من أنفسهم ـ بفتح الفاء ـ تصورنا بعداً آخر في طبيعته ﷺ يجعل منه قمة في باب التربية والهداية . . يشتد به الإلـزام . فحين تكون المبادىء سامية . . يقوم بإبلاغها رسول من أشرف البيوت .

فكل محاولة للتفلت منها . . أو الإشراك بها تعتبر ظلماً للنفس التي ترى مطالع الضوء . ثم تدير لها ظهرها . . وتحس بنجاعة الدواء . . ثم تصر على بقاء علتها تشتد مع الزمن وذلك ما لا يقول به عاقل من الناس .

* * *

*** عظمة الرسالة :**

أشرنا آنفاً إلى الأيات الكريمة[2] وهي توضح أبعاد الرسالة العظمى . وخطته المثلى ﷺ لقيادة الحياة والأحياء إلى التي هي أقوم .

ونزيد الأمر هنا تفصيلاً حين نتأمـل هذه الآيـات في محاولـة لكشف نواحي العظمة في الرسالة الخالدة :

إذا ما ذهبنا نتأمل خصـائص الرسـول كداع إلى الله تعـالى . نطالـع وصف التلاوة . وقد احتفظ بالصدارة في الأيات الكريمة فهي إذن خطوة أولى في عملية

---

(١) التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٢) البقرة : ١٢٩ ، وآل عمران : ١٦٤ ، والجمعة : ٢ .

التربية والإعداد . . تنتقل بها المعاني إلى ذهن السامع ليتصورها أولاً . . حتى يجيء حكمه بعد ذلك سليماً . . ممكن التطبيق . . فضلاً عما يترتب على ذلك من عموم نفع التلاوة للعام والخاص وفي إيثار لفظ . . التلاوة . . على القراءة مثلاً . . ما يشير إلى اعتزاز التالي بما يقرأ . . ومغالاته به . . فهو يحس بأنه يملك كنزاً عظيماً . . يطل به على الناس من عل . . كأنما هو فوق ربوة أو تل تنزل منه مبادىء التربية معلمة هادية مستعلية . . مستغنية عن كل مذهب بشري يحاول فرض نفسه . . الأمر الذي يجعل اختيار مادة التلاوة دون القراءة حافزاً للقبول والالتزام . . من قبل الأمة .

يقول صاحب مفردات غريب القرآن :

« وهو أخص من القراءة : فكل تلاوة قراءة . . وليس كل قراءة تلاوة . لا يقال : تلون رقعتك . وإنما يقال في القرآن في شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه » .

وتشير الآية الكريمة إلى أن عمل الرسول ﷺ يتم في مجالين :

١ ـ داخل النفس .
٢ ـ وخارجها .

وإذا كانت مسؤولية الدعوة تتحملها الأمة بعد رسول الله فإن تعليمهم الكتاب وإعانتهم على إصابة الحكمة في القول والعمل يجيء إمتداداً لرسالته ﷺ . .

تتحول به المبادىء ، إلى سلوك عملي تستمر به الحياة . . وتسري عصارتها في جسد الأمة لتحيا بها المبادىء . وهذا هو المجال الخارجي . مجال الإرشاد إلى الفضائل والتدريب على القيام بها لتصير عادة لا يحس المرء معها بالتكلف أو المعاناة .

جاء في حاشية الجمل عند تفسير الآية الكريمة :

« الحكمة : الإصابة في القول والعمل ووضع كل شيء موضعه » وهو نفسه معنى التحلية . . تحلية الإنسان بالعمل الصالح بعد تخليته بالتزكية من خبائث العقائد والأعمال .

« ويزكيهم : إشارة إلى التخلية كما أن التعليم إشارة إلى التحلية » . .

ولكن الدور الخطير المنوط به ﷺ كان داخل النفس التي تعهدها بالتطهير وللتزكية . .

فتزكية النفس من الخبائث يعني إعدادها لتحمل مسؤوليتها . .

تماماً كهذه التربة التي ينقيها صاحبها من الأعشاب الطفيلية فإذا ما نجح في إنجاز هذه المهمة . . كانت نضارة الزرع وإثماره بعد ذلك أمراً محتملاً .

وقد أشار أبو السعود إلى ذلك بقوله :

« أي يحملهم على ما يصيرون به أزكياء من خبائث العقائد والأعمال » .

فتكوين الضمير الديني المستيقظ عنصر أساسي في تربية الأفراد . ومن ثم أفاض المفسرون في تبيان أهمية التزكية . . تزكية النفس . .

يقول أبو السعود أيضاً :

« ويعلمهم الكتاب والحكمة : صفة أخرى « لرسولاً » مترتبة في الوجود على التلاوة . وإنما وسط بينهما التزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب قوتها العملية . وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم على التلاوة . . للإيذان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حالها مستوجبة للشكر[1] .

« وإذا كان العلامة أبو السعود يرى في مخالفة الترتيب بياناً لأهمية كل نعمة على حدة » .

فربما جاز لنا أن نضيف إلى ذلك :

إن مجيء وصف « التزكية » على خلاف الترتيب الظاهر يؤكد أهميتها في مجال في التربية .

لا سيما وهي الوظيفة التي تطهر بها النفس . ثم تشتد بها القوة التي تعد للعمل وتحض عليه .

وهي الوظيفة الأصلية في عملية التربية . . بعد الخطوة النظرية الحاصلة بمعرفة الأحكام . . يتم بها إعداد الإنسان كفرد صالح في نفسه . . ومصلح لغيره . .

يقول صاحب « المنار » في تفسيره للآية الكريمة :

« علم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن تعليم الكتاب والحكمة لا يكفي في إصلاح الأمم وإسعادها .

---

(١) أبو السعود .

بل لا بد أن يقرن بالتربية على الفضائل . والحمل على الأعمال الصالحة بحسن الأسوة والسياسة فقال : « ويزكيهم » : أي يطهر نفوسهم من الأخلاق الذميمة . وينزع منها تلك العادات الرديئة . ويعودها الأعمال الحسنة . التي تطبع في النفوس ملكات الخير » .

الرسالة المحمدية : تعليم . . وتربية .

إن المعارف المجردة لا تغني عن الحق شيئاً . ما لم تشد من أزرها نفس طاهرة حية . مستعدة للإستجابة لأمر الله . . تأتمر بأمره . وتنتهي عما نهى عنه سبحانه .

وفي ضوء هذا المعنى يتبين لنا : كيف أن الإسلام يرفض معنى التزكية كما يفهمها بعض المسلمين . الذين يزعمون أن غاية الإنسان : أن يكون نظيف القلب . .

وما عليه من سبيل بعد ذلك إذا هو لم يؤد الصلاة . . ولم يلتزم بفرائض الإسلام .

لأن التزكية قوة عملية تنتصب في وعي الإنسان حارساً يقظاً يأمر بالخير وينهي عن الشر .

فهي طاعة إيجابية . لا يتم وجودها إلا بالعمل الصالح . . ترجمة لها . . ودليلاً عليها .

فإذا ما استجمع الإنسان قوته النظرية بالمعرفة . . ثم قوته العملية بالتزكية . . فقد تم صلاحه . وكان هذا الصلاح في نفس الوقت . . شهادة صدق على سلامة المنهج الإسلامي وضرورته لإسعاد الحياة .

يقول ابن كثير في تفسير آية آل عمران :

« وقوله : ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم** ﴾[1] أي : من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والإنتفاع به .

كما قال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها** ﴾[2] أي : من جنسكم .

---

(١) آل عمران : ١٦٤ .

(٢) الروم : ٢١ .

وقال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾[4] .

فهذا أبلغ في الإمتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه ولهذا قال : ﴿ يتلوا عليهم آياته ﴾[5] يعني : القرآن .

﴿ ويزكيهم ﴾ ، أي : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم . وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ يعني : القرآن والسنة . ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي : من قبل هذا الرسول ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي : لفي جهل ظاهر جلي بين لكل أحد .

وإذن . . قد كانوا في ضلال قبل القرآن . . فلما جاءهم بالهدى . . أخرجهم من الظلمات إلى النور . . فإذا لم نحتكم إليه الآن . وتؤسس القواعد منه . عدنا إلى هذا الضلال المبين مرة أخرى . مهما تقدمنا في مضمار الحضارة المادية . . لأن الحضارة من الداخل أولاً ! ! . .

يقول الرازي في تفسيره للآية الكريمة : « اعلم أن كمال الإنسان في أمرين :

**أحدهما** : أن يعرف الحق لذاته .

**والثاني** : أن يعرف الخير لأجل العمل به .

فإذا أخل بشيء من هذين الأمرين . . لم يكن طاهراً عن الرذائل والنقائص ، ولم يكن زكياً عنها .

---

(١) الكهف : ١١٠ .
(٢) الفرقان : ٢٠ .
(٣) يوسف : ١٠٩ .
(٤) من الإنس . . فهو من المجموع لا من الجميع ـ والآية من سورة الأنعام : ١٣٠ .
(٥) آل عمران : ١٦٤ .

فلما ذكر صفات الفضل والكمال أردفها بذكر التزكية عن الرذائل والتناقص فقال : ﴿ ويزكيهم ﴾ .

واعلم أن الرسول لا قدرة له على التصرف في بواطن المكلفين . وبتقدير أن تحصل له هذه القدرة . . لكنه لا يتصرف فيها . وإلا لكان ذلك الزكاء حاصلاً فيهم على سبيل الجبر لا على سبيل الاختيار .

ومفاد ذلك : أنه ﷺ لا يخلق فيهم التزكية : وإلا كان ذلك إجباراً .

ولكن موقفه كما يقول الرازي أيضاً في نفس الموضع :

« تقوية دوافعهم إلى الإيمان والعمل الصالح . ولذلك مدحه الله تعالى بأنه على خلق عظيم » .

وهكذا . . تتبدى لنا ـ من دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . . أهداف التربية الإسلامية البعيدة :

إنها لا تنحصر فيّ مسؤولية الفرد عن ولده فقط . .

بل إن اهتمامه ليمتد . . ويتخطى القرون بآمال عريضة شاملة شمول العقيدة الخالدة . . حتى يرنو إلى حفدة تجيء طبق مبادىء الإسلام : زكية صالحة .

ولا تقف الآمال بالوالد عند حدود التمني . . بل إنه ليعمل ويشيد البناء . ثم يتجه برجائه من مكان عمله . . في صحبة ولده الذي يراه فينسج على منواله . . ويجيء حقاً إمتداداً لحياته . وهي التربية العملية في الإسلام طبق مبادىء لا تتم التربية بدونها والتي منها :

١ ـ دعوة الناس بلسانهم لتؤتي الدعوة ثمرتها .
٢ ـ وذلك عن طريق داع يعرفهم ويعرفونه .
٣ ـ يرعى فيهم ملكاتهم النظرية والعملية معاً .
٤ ـ وذلك بالقدوة الحسنة لا بالكلام وحده .

* * *

## نماذج وصور

إن مبادىء التربية لا تنجح فقط لأنها تطابق الواقع . . ولا تفشل ـ حين تفشل ـ لأنها تخالف الواقع . .

لكنها تنتصر لأنها وجدت رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . فانتقلوا بها من هاجس في الضمير . . إلى عمل تراه العين . . وتلمسه اليد . . فكانت بهم دليل عمل . . ومنهاج حياة . .

وبهذا المقياس . نستطيع أن نقرر مطمئنين : أن التربية الإسلامية قد آتت أكلها كل حين بإذن ربها .

لا لأنها فقط نجحت في بناء الإنسان النفسي والروحي على أقوى ما يشاد عليه البناء . .

بل إنها في ذات الوقت صارت أعمالاً جساماً سجلها التاريخ لهذا النفر الكريم الذين تربوا في أطهر بيئة عرفتها الدنيا . . على يد الرسول ﷺ . . فكانوا دليلاً حياً على صدق العقيدة الإسلامية .

وقد حان الوقت لنضرب الأمثال للناس لعلهم يهتدون إلى ما أثمرته هذه التربية من أخلاق عز نظيرها في كل مجال من مجالات الحياة . . على النحو الذي تتم به صورة التربية الإسلامية نظرياً وعملياً . .

« وإذا كانت الفلسفة التربوية الحديثة في غاية تطوراتها . وأحدث أساليبها توجه جهودها إلى الجانب العملي للنشاط الإنساني . . فإن أساتذة هذا الجانب المخلصين له . المجتهدين فيه بسيرتهم النموذجية وعقيدتهم الرفيعة . وبسلوكهم الكريم . وشخصيتهم المتكاملة ، هم الذين قادوا هذا الجانب التربوي العلمي المثالي في البشرية على يد معلمهم العظيم محمد بن عبد الله ﷺ .

وإذا كانت التربية كما يقول عالمها الكبير « جون ديوي » أن يصبح الفرد وريثاً للحضارة الإنسانية .

فليدلني واحد من الباحثين على حضارة إنسانية أرقى من الحضارة العربية وأغنى بالقيم المثالية القوية . والنماذج السلوكية الفردية والاجتماعية من هذه الحضارة . التي تنخلت وتنقحت . ثم تمثلت كل ما سبقها من حضارات .

وأصبحت بعد ذلك « أستاذاً » لما يدعى بعدها بالحضارة الحديثة »(١) .

---

(١) دكتور محمد الدش . مجلة الوعي الإسلامي العدد ٤٢ .

إن « العلم بالفضيلة حسب تعاليم الإسلام يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل :

الإسلام لا يوافق أبداً على الفصل الأفلاطوني . . والتفريق النظري البحت بين الفضيلة والرذيلة .

بل يرى أنه من الوقاحة والرذيلة أن يميز الإنسان نظرياً بين الحق والباطل . ولا يجاهد لارتقاء الحق وإزاحة الباطل . فإن الفضيلة ـ كما يقول الإسلام ـ تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض . وتموت إذا خذلها وتقاعد عن نصرتها »[1] .

وما ذكره الباحث الألماني توكيداً لما ذكرناه . . سبق إليه علماؤنا مثل : الرازي رحمه الله . . بما قرروه من ضرورة استكمال الإنسان للقوتين النظرية والعملية معاً . . ليتمكن من تكميل غيره . .

وفي عرضنا لبعض النماذج المثالية التي رباها رسول الله ﷺ ما يؤكد تحول النظرية التربوية الإسلامية إلى رجال كانوا حجة الله البالغة على أن هذا الدين حقاً من عند الله .

وأن الذي رباهم ـ ﷺ ـ حقاً ـ هو رسول الله .

* * *

*** أساس البناء :**

يقول عبد الله بن جندب رضي الله عنه :

« أوتينا الإيمان قبل أن نعلم القرآن . ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيماناً »[2] .

« فالإيمان بالله عز وجل هو أساس البناء حتى يتحرر الفرد من كل مؤثر خارجي ويكون خضوعه للحق وحده .

وهذا هو التحرر الكامل من كل قيد . والذي هو سر العقيدة الإسلامية التي تدفع إلى الحياة بلا خوف . وإلى تقبل الشدائد بلا يأس أو حزن . وهو نفسه الدرس البليغ في حياة ابن عباس رضي الله عنه حين أراد الرسول ﷺ أن يربطه بالخالق لأهمية الإيمان بالله سبحانه كأساس للبناء .

---

(١) من مقال الباحث الألماني عن كتاب « ماذا خسر العالم » ص ٢١ .

(٢) أخرجه النسائي .

يجيء من بعده السلوك الفاضل بلا معاناة .

قال ابن عباس : « كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال : « **يا غلام . . إني أعلمك كلمات : إحفظ الله يحفظك . . إحفظ الله تجده تجاهك . . إذا سألت فاسأل الله . . وإذا استعنت فاستعن بالله . . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء . لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك . . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء . لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك . . رفعت الأقلام وجفت الصحف** »[1] .

وحتى تستقر هذه العقيدة على أساس سليم . ينهى الإسلام عن التقليد الذي لا تثبت معه العقيدة على النقد الصحيح .

ذلك بأن العقائد لا تكتسب بالتلقين . وإنما تكتسب عن طريق التأمل الواعي في آفاق الكون .

ومن هنا اختلف العلماء في أول الواجبات على المكلف : هل هو معرفة الله تعالى بصفاته لأنها أساس معرفة الدين[1] . أم هو : النظر المؤدي إلى المعرفة لأنها تبنى عليه[2] ؟ . .

ولكن الفريقين متفقان على وجوب الأمرين معاً وعلى أن العقيدة لا يكتفي فيها بالتقليد .

وإذا كانت معرفة الأحكام الشرعية لا تتحقق إلا برسول يوحى إليه . . فإن النظر في مشاهد الكون لم يغفله القرآن . . بل أمر به وحث عليه . . ليتوفر للإنسان بذلك من الأدلة النقلية والعقلية ما يشد من أزر العقيدة الإسلامية .

« لا بد من النظر إذن لإدراك العلائق بين الكائنات . . لينتقل المرء من الكون . . إلى المكون سبحانه .

على أن بعض الناس لم يكلف نفسه مؤونة النظر في دقائق صنع الله تعالى . . ووقف به النظر عند مظاهر الكون . . فعبد الشجر أو البقر .

---

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) كما رأى الأشعري .

(٣) كما ذهب إليه الإسفراييني ( راجع جوهرة التوحيد ) .

فكان في هذه النظرة القاصرة قضاء على صلاحية العقل وحده لإدراك حقائق الأشياء كما هي . . فضلوا ضلالاً صاروا به إلى شقوة الأبد . ولكن القرآن الكريم يقودها بمنهجه الراشد إلى نظرة أعمق وأشمل .

وقد تكفلت الآيات المكية بلفت الأنظار إلى آفاق النفس . تأسيساً للعقيدة بهذا الأسلوب المأنوس لكل راغب في المعرفة الصادقة :

**﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾**[1] .

**﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾**[2] .

**﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾**[3] .

**﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت ﴾**[4] .

فالأمر هنا بالنظر إلى « الكيفية » . . لا إلى الأجرام والأحجام . عن طريق البصيرة النافذة إلى حقائق الأمور . وهو ما توضحه آية الحج :

فإنها لا تعترف بعمى البصر إذا كانت البصيرة المدركة قادرة على النفاذ إلى أسرار الكون .

بقدر ما تزري بالعين الباصرة إذا ما انطمس قلب الإنسان فلم يعد قادراً على ربط المسببات بأسبابها .

لأن صاحبه ما زال طفلاً في بشريته . . تقف به طفولته عند النظرة الأولى .

على أن للبصيرة مدى تقف عنده لا تعداه . . فلا ينبغي أن تكلف نفسها فوق طاقتها حين تحاول التفكير في ذات الحق سبحانه . لأن ذلك مزلق خطر . فضلاً عن جدواه في تحصيل الإيمان . وقد يضل صاحبه عن سواء الصراط .

---

(١) الأعراف : ١٨٥ .
(٢) الأنعام : ٩٩ .
(٣) الحج : ٤٦ .
(٤) الغاشية : ١٧ ـ ٢٠ .

ودوام التأمل في مشاهد الكون يخلق في النفس انطباعات صادقة . يزداد المرء بها قرباً من الله سبحانه وتعالى .

فأنت إذا جلست إلى حكيم ساعة من الزمن . . تأثرت بأخلاقه بمقدار ما جلست إليه ، وكلما اختلفت إليه . زاد تعلقك به .

ولا تزال تطلع على صفاء نفسه رويداً . . حتى تصير مثله عالماً . مخلصاً . ورعاً .

وكذلك الإنسان في نظرته إلى الحياة :

إن صور الحب الإلهي التي ترسبت في أعماق النفس الإنسانية . . تصوغ الضمير الخلقي النقي فحيث انعقد القلب على الإيمان فإنه يعرف من صفات الحق سبحانه :

القدرة .
والحكمة .
والكرم .
والعلم .
والعزة .

وهكذا يترقى الإنسان في سلم الكمال . . وفي نفس الوقت تنعكس هذه المعارف على صلة الإنسان بالناس والحياة . . فيكون صورة لهذه المعارف جميعاً :

قوياً في الحق .
حكيماً في معاملته .
كريماً من غيره .
عزيزاً لا يذل لأحد سواه .

وكان الله وحده هو المسؤول . وهو المأمول . . الباسط . القابض . المعز المذل .

كل ذلك جاء ثمرة طبيعية مباركة لصحة نظر الإنسان إلى الآفاق . . تلك النظرة التي تخطت القشرة البادية . ثم نفذت إلى الأعماق . إلى أسرار صنع الله تعالى وصفاته وتجلياته . .

وإنها لأعماق بلا قرار . . وقمم بلا نهاية ـ تنقل الإنسان من عالم المادة المضطرب إلى عالم روحي خصيب تجد فيه كل نفس قرارها وأمنها . في الوقت

الذي ترسو فيه على معنى التوحيد . . توحيد الله سبحانه من خلال ما طالعت النفس من آثار عظمته وحكمته سبحانه . .

* * *

*** على سواء السبيل :**

من سعي الإنسان اللاغب يستنفد بعض خلاياه .

فهو إذن في حاجة إلى تعويض ما تحلل منها .

وهذا ما تتكفل به الغرائز .

فهي بهذا المعنى طاقات تدفع للعمل المثمر . والانتاج المستمر .

فإذا ما سعى الإنسان . . ثم راح يبني ما تهدم من كيانه فأسرف في إشباع غرائزه . انتقل إلى مرحلة الإفراط أو الإسراف .

وهنا يتعرض الإنسان لإمتحان عسير يجد فيه نفسه بين غريزة ناشز وعقل عاجز .

وهنا أيضاً يأتي دور الإسلام بتشريعاته التي تحد من هذا التهور لتقيم الإنسان على سواء الصراط . . بلا تفريط أو إفراط :

و « يمتاز التشريع الإسلامي بأنه تشريع وسط يقوم على أساس من الاعتدال . . في كل شيء :

في التعبد . بحيث لا يتطرف المسلم ولا يتحلل : « إن الدين متين فأوغل فيه برفق . . وفي الحياة المعيشية . بحيث لا يسرف ولا يبخل : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط** ﴾[1] .

وفي الأكل والشرب . بحيث لا يبالغ الإنسان فيهما مبالغة تصيبه بالتخمة التي تنشأ الأمراض عنها .

ولا يقتصد إقتصاداً يلحق به العنت والزوال . في كل شؤون الحياة يتطلب الإسلام الاعتدال ليكون بمثابة تطبيق للأساس الذي قام عليه بناء الأمة الإسلامية :

﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾[2] .

---

(١) الأسراء : ٢٩ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

هكذا يقف الإسلام ديناً وسطاً .

لا يجنح إلى المثالية الخيالية . لأنها أشبه ما تكون بضرب من ضروب المحال . ولأنها تكليف للنفس فوق طاقتها . وضد غرائزها وطبائعها . كما لا يميل إلى الواقعية المتزمتة. لأن فيها عزوفاً عن المثل العليا . ولأنها تطبع النفس بطابع التزمت الممجوج .

وإنما يقف وسطاً . فهو يأخذ من المثالية . ما تستوعبه من المثل العليا . ويأخذ من الواقعية ما تتضمنه من حزم وعدل وعزم . .

إن الإسلام يرغب في الواقعية الحازمة تطبيقاً لمبدأ العدل ، كما يرغب في المثالية المعتدلة . تطبيقاً لمبدأ الإحسان . وهذا ما عناه القرآن حين قال : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[1] .

وفي الآيات القرآنية تأكيد لهذا المعنى : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين** ﴾[2] .

﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً** ﴾[3] .

﴿ **ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين** ﴾[4] .

كما أن الإسراف إنطلاق مع الشهوات في كل اتجاه . إنه تفلت من التزام للإنسان إزاء مجتمعه ودينه .

كذلك . فإن البخل بالمال حجر عليه . وتحويله إلى كنز مدفون لا يجني منه المجتمع ثمراً .

وقد نعى القرآن على بعض البخلاء من أرباب هذا الإتجاه المادي في الحياة .

﴿ **ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالاً وعدده . يحسب أن ماله أخلده** ﴾[5] .

---

(١) النحل : ٩٠ .
(٢) الأعراف : ٣١ .
(٣) الفرقان : ٦٧ .
(٤) الأسراء : ٢٦ ، ٢٧ .
(٥) الهمزة : ١ ـ ٣ .

فهو يعده . . يعني يواصل سعيه كي يضيف إليه جديداً . حتى يظل معدوداً في جيبه حبيساً لا يسهم في تعمير الحياة .

ويشدد القرآن من ناحية أخرى على كل مسرف في حياته باسم التفاخر والسمعة .

﴿ **يقول أهلكت مالاً لبداً . أيحسب أن لم يره أحد** ﴾[*] .

« يقول : أي : على سبيل الفخر أهلكت أي : أنفقت على عداوة محمد . . واللبد : جمع لبدة ، وهي ما تلبد أي : كثر واجتمع . وفي أبي مسعود يقول أهلكت مالاً لبداً :

يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونه مكارم ويدعونه معالي ومفاخر »[1] .

وإذا كان القرآن الكريم يشخص الداء . فإنه يصف الدواء . ليقوم الناس بالقسط . ومن أعظم مفاخر الإسلام ما وضعه من تشريع يعالج به هذا اللون من الإسراف الذي كان طابع الحياة حينئذٍ .

## الكرم والسخاء والجود

ليس في القرآن كله ذكر الإنفاق بلفظ « الكرم أو السخاء أو الجود » وهي الألفاظ الثلاثة التي أكثر من استعمالها العرب .

ولكن فيه آيات لا تحصى عن الإنفاق في سبيل الله على الوالدين وذي القربى واليتامى والفقراء والمساكين وابن السبيل والأسير .

فما هو هذا الشيء الذي نفهمه من هذا الترك للفظ الكرم والسخاء والجود في مخاطبة قوم كان أعظم مفاخرهم بالكرم والسخاء والجود الذي أفهمه . وأرجو أن أكون مصيباً أن هذا الترك لذكر الكرم باسمه قد كان من أجل ذلك « التفاخر نفسه » وهو الذي كان يحمل أكثر العرب على الكرم .

---

(*) البلد : ٦ ، ٧ .

(١) حاشية الجمل ـ تفسير سورة البلد .

ثم كان من أجل إعلاء نفس المسلم نحو الخير الأسمى والإخلاص الأصفى وتحويله من زهو المفاخر والتعالي وحب الظهور إلى جهة أقرب إلى التضامن الاجتماعي . وأدنى إلى الرحمة وأدعى إلى مرضاة الله .

ذلك أن أكثر أعمال الكرم وأعظمها وأفخمها بذخاً كانت تبذل لغير الفقراء من باب التفاخر .

فإذا جاء دور الفقراء والمساكين كان البذر ضعيفاً هزيلاً على الغالب .

وهذا ما يعكس الحكمة من الإنفاق في سبيل الله عن غاياتها العليا . وهي : إيجاد التضامن والتراحم والمحبة بين الناس . إلى غاية دنيوية حقيرة وهي حب الظهور والتفاخر بالأموال والتعالي والترف . التي منها يأتي الحسد والتباغض والتناحر بين الفقراء والأغنياء . ومنها تأتي الفرقة والقتل في الأمة .

ولذلك دعا القرآن إلى أن يكون الإنفاق في سبيل الله وحده . وذم الذين ينفقون أموالهم ﴿ **رئاء الناس** ﴾ ولو كان هذا الإنفاق على الفقراء . بل إنه بلغ من عناية القرآن بإعلاء نفس المسلم في هذا الباب أنه لا يعد الإنفاق الذي يأتي جزاء من المنفق لنعمة سابقة خالصاً في سبيل الله . فخص أعظم المدح وأوثق الوعد والرضوان والنجاة من نار جهنم بالأتقى الذي ينفق إكراماً لوجه ربه الأعلى . لا من أجل نعمة سابقة تجزى .

﴿ **فأنذرتكم ناراً تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى . الذي يؤتي ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى** ﴾[1] .

وعلى هذا الأساس القرآني ـ أساس الاعتدال ـ أقامهم الرسول ﷺ .

وظهرت آثار تلك التربية المحمدية في مجال الدوافع التي ربطها بالمثل الأعلى فتحولت إلى البناء والتعمير على نحو ما ذكرنا آنفاً . بعيداً عن الإفراط والتفريط :

« جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ . فلما أخبروا كأنهم تقالوها . فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

---

(١) الليل : ١٤ ـ ٢١ .

فقال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج .

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : « **أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ . . أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكني أصوم وأفطر . وأصلي وأرقد . وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني** »[1] .

وفضلاً عن الخسارة التي تلحق بالمجتمع إذا توقف نشاط هذه الدوافع البالية . فإن أثرها المباشر على الفرد نفسه لا يقل خطراً عن ذلك . لأن الكبت يرد الرغبات المرفوضة إلى اللاشعور . لتتحول إلى عقد تهز الشخصية وتضر المجتمع . ثم تنتهز كل فرصة متاحة للإشباع ولو على حساب أمن المجتمع وسلامته .

من أجل ذلك يرفض الرسول ﷺ تلك الرهبانية التي ابتدعوها . دون أن يكتبها الله عليهم . كاشفاً لهم عن أمثل طريق يفضي بهم إلى مرضاة الله سبحانه . ليكونوا مثله على حد الاعتدال . الذي يفي بحاجات البدن . وهو عماد الحياة .

وفي قوله : « **أنتم الذين قلتم كذا ؟** » صورة من أدب النبوة الرفيع . يشير إلى ضرورة التثبت قبل الحكم : حتى لا تنساق وراء ظنون تقف من ورائها غريزة حب الاستطلاع وهي التي تتلقى بالقبول كل ما تسمعه دون استيثاق . إشباعاً لرغبتها في الوقوف على أسرار الناس . دون تحر للحقائق .

وقد واصل الرسول حملته ضد هذه النزعات المتشددة كلما وجد إلى ذلك سبيلاً .

« وروى ابن ماجه . عن عبد الله بن عمر قال : جمعت القرآن . فقرأته كله في ليلة . فقال رسول الله ﷺ : « **إني أخشى أن يطول عليك الزمان . وأن تمل . فاقرأه في شهر** » .

فقلت : دعني أستمتع من قوتي وشبابي .

قال : « **فاقرأه في عشرة** » .

قلت : دعني أستمتع بقوتي وشبابي . فأبى .

---

(١) رواه البخاري .

قال : « **فاقرأه في سبع** » .

قلت : دعني أستمتع بقوتي وشبابي . فأبى :

فإذا كان عبد الله رضي الله عنه يطيق قراءة القرآن كله في ليلة فإنه ـ فضلاً عن احتمال ملله ـ يفوت عليه دوره على مسرح الحياة العملية . .

ولعل عبد الله بن عمر كان يميل إلى التشدد في التعبد . من أجل ذلك كان في حاجة إلى توجيه أشد .

وفي رواية أخرى . قال له ﷺ : « **يا عبد الله . . لا تكن مثل فلان . . كان يقوم الليل . فترك قيام الليل** »(١) .

وهذا الحديث الشريف ، بيان لعاقبة الملل ، وما ينتهي إليه من ترك العبادة برمتها . من حيث تحمل الإنسان فوق ما يطيق .

أي أن النهي عن التشدد ليس تدليلاً للمسلم . . ولكنه حفاظ عليه كي يستطيع أن يقوم بواجبه في عبادة الله عز وجل .

والأصل في ذلك قوله تعالى : ﴿**فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تيسر منه**﴾(٢) .

فالسعي في طلب الرزق . والجهاد في سبيل الله . أمور هامة . لا بد أن تأخذ مكانها في حياة المسلم . إلى جانب قراءة ما تيسر من القرآن . . تجديداً للصلة بالله . وتقوية لطاقة الإنسان التي تتكفل بتحويل حقائق القرآن إلى واقع تراه العين . ويسجله التاريخ .

وكانت أوامره ﷺ طبق هذا المفهوم العادل المقدر لطاقة الإنسان .

روت عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم . . أمرهم من الأعمال بما يطيقون . قالوا : إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله . . إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول : « **أنا أتقاكم وأعلمكم بالله أنا** »(٣) .

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٧٠ .

(٢) المزمل : ٢٠ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان .

وقد تستبد بهم يوماً نزعة التشدد ـ فيتحول غضب الرسول ﷺ إلى عمل تأديبي يقيمهم على طريق الاعتدال :

عن أبي هريرة قال : نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم . قال رجل من المسلمين : إنك تواصل يا رسول الله .

قال : « وأيكم مثلي ؟ . . إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » .

فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال . واصل بهم يوماً . ثم يوماً . ثم رأوا الهلال فقال : « لو تأخر لزدتكم » كالتنكيل بهم حين أبوا أن ينتهوا[1] .

ثم يكشف الرسول ﷺ في حديث آخر عن خطة الإسلام في التكليف بالوسع رغبة في أن تصير العبادة عادة ملازمة يؤديها المرء بلا تكلف أو ضجر :

تروي عائشة رضي الله عنها : « أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها إمرأة قال : « من هذه » ؟

قالت : فلانة . تذّكر من صلاتها . قال : « مه . . **عليكم بما تطيقون . . فوالله لا يمل الله حتى تملوا . . كان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه** »[2] .

فالإفراط في الدين كالتفريط فيه : كلاهما تنكب عن الطريق المستقيم . يبدد أو يفسد الفطرة السليمة . بيد أن المطلوب الأهم أن تصير العبادة مستمرة لا تنقطع .

وهو معنى قوله ﷺ : « **أحب الأعمال إلى الله أدومها . . وإن قل** » .

وفي طلب الإسلام التتابع في الصوم فرضاً أو كفارة . عون للإنسان على تعود الفضيلة زمناً كافياً يترك طابعه في السلوك .

وإذ يقف الرسول العربي أمام نزعة كابتة للغرائز . فإنه ـ وبنفس القوة ـ يصد تيار الغريزة عندما تحاول الإنطلاق دون قيد . . فأسلوب فريد في بابه ينتزع الدواء من مكمن الداء .

روى أبو أمامة قال : « أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله . . ائذن لي بالزنا (!!) .

فأقبل عليه القوم فزجروه وقالوا : مه . . مه . .

---

(١) رواه البخاري في باب الصوم .
(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان .

فقال : « ادن » . فدنا منه قريباً .

قال : فجلس . قال : « **أتحبه لأمك** » ؟

قال : لا والله جعلني الله فداءك .

قال : « **ولا الناس يحبونه لأمهاتهم** » .

قال : « **أفتحبه لابنتك** » ؟

قال : لا والله يا رسول الله . . جعلني الله فداءك .

قال : « **ولا الناس يحبونه لبناتهم** » قال : « **أتحبه لأختك** » ؟

قال : لا . . جعلني الله فداءك .

قال : « **ولا الناس يحبونه لأخواتهم** » .

قال : « **أفتحبه لعمتك** » ؟

قال : لا والله . . جعلني الله فداءك .

قال : « **ولا الناس يحبونه لعماتهم** » . قال : « **أفتحبه لخالتك** » ؟

قال : لا والله . . جعلني الله فداءك .

قال : « **ولا الناس يحبونه لخالتهم** » .

قال : فوضع يديه عليه . وقال : « **اللهمّ اغفر ذنبه . وطهر قلبه . وحصن فرجه . فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء** »[1] .

لقد أسرع الصحابة رضوان الله عليهم إلى الأخذ بتّلابيب الفتى الجامح . لكنه ﷺ كان أسرع منهم إليه .

فكان معه لا عليه . حفاظاً على نفس قلقة حائرة توشك أن تزل .

فلم ينكر على الفتى أن يشتهي . لأن ذلك كيانه وطبيعته .

لكنه يضعه وجهاً لوجه حيال هذا الشريط الذي يلمس فيه مشاعر الأباء ويفتح أمام ناظريه أبواباً يرى منها أبعاد الجريمة التي يقدم عليها . فيعود إلى فطرته سالماً . . بفضل هذا الأسلوب النبوي الكريم الذي يعترف بالدافع . لكنه يناقشه بالحسنى ليصير في النهاية إلى ما يريد مدخراً هذا الدافع إلى حيث يجد أشباعه على ضوء من سنة الله ورسوله .

---

(١) مسند أحمد .

« وقياس التمثيل هنا منطق أعنف في رفقه ولينه من زجر الأصحاب وعنفهم بالفتى .

لأنه يلمس كرامة العربي في أزكى وتر . وأنفته وكبرياءه في أغلى ما يصان . وترديده على هذا الوجه من الوجه من الاستفهام التقريري هدم لنزوة الفتى واستئصال لحسه بالإشتهاء .

وعبارة الفتى في رده المهذب . تنضح بالخجل وتسفر عن الندم .

وفعل الرسول ودعاؤه مكافأة له وجبر . وحكمة وسداد .

وهكذا نراهﷺ لا يلتزم بالمنطق الجاف . والقياس الخشن . وإنما يلمس حبة القلب . ويحرك كامن الوجدان . ويثير الحاكم العاطفي مع الحاكم العقلي .

وقد يبدو الموقف هنا أقل شدة مما كان ينبغي . . فالجريمة التي يستأذن فيها الفتى . . بالذات من رسول الله ﷺ تفرض عقاباً رادعاً يجعله نكالاً وعبرة . .

ولكن الرسول ﷺ ـ كان ينظر بنور الله إلى المستقبل . . وإلى ما يحمله ذلك الفتى من طاقات لو أحسن استغلالها لأثمرت ألواناً من البر والخير .

بقدر ما تكون مقاومتها بالضغط داعية إلى الإنفجار . . ثم انفلات العيار . .

لقد كان ﷺ خبيراً بطوايا النفس . . يستثمر عوامل الخير في صدور صحابته لمصلحة الدعوة . . بقدر ما كان يواجه لحظات الضعف الإنساني بلون من الحكمة يستعيد بها المذنب رشده . . فإذا هو تائب إلى ربه . . عائد إلى الصف المستقيم . . عاملاً آملاً . .

وفي هذا المعنى يقول اللواء محمود شيت خطاب : « لقد وجد بالدراسة المستفيضة لسيرة النبي ﷺ : أن من كفايات النبي ﷺ المثمرة . . هو قابليته الفذة لاختيار الرجل المناسب للعمل المناسب .

وأستطيع أن أؤكد بكل وثوق . بأن قابليته الفذة على اختيار الرجل المناسب لعمل المناسب . هي من أهم الأسباب الدنيوية لنجاحه في السلم والحرب على حد سواء . كان عليه أفضل الصلاة والسلام يعرف أصحابه معرفة دقيقة مفصلة .

وكان يعرف ما يمتاز به كل صحابي من مزايا تفيد المجتمع الإسلامي الجديد . وكان يستغل تلك المزايا لخير هذا المجتمع . وللمصلحة العامة العليا للمسلمين .

وكان في الوقت نفسه يعرف ما يعاني كل صحابي من مثالب. وكان يتغاضى

عن تلك المثالب . ويغض الطرف عنها . ويذكر أصحابه بأحسن ما فيهم . ويأمر أيضاً بالتغاضي عن المثالب . والإشادة بأحسن ما في إخوانهم تقديراً وإعجاباً .

وكان عليه الصلاة والسلام بهذا السلوك الرائع الذي التزم به في كل حياته المباركة . يشيد بالمزايا وينتفع بها لخير المسلمين .

ويغض الطرف عن المثالب . ويقومها بالحسنى . ثم يداويها بما عرف عنه من حكمة وموعظة حسنة وتربية أبويه .

بهذه الخطة الرائعة والطريقة السليمة . والأسلوب الحصيف يبني النبي ﷺ الرجال . ولا يحطمهم . ويقوم المعوج ولا يكسره .

ويشيد للحاضر والمستقبل . لا للحاضر وحده »[2] .

ومن أدبه ﷺ في دعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ـ أنه كان يأخذهم بالرفق . تدرجاً بهم في طريق التهذيب . طبقاً لسنة الله تعالى في إنزال القرآن منجماً حسب الوقائع .

روى كدير الضبي قال : « أتى رجل النبي ﷺ . قال : يا رسول الله . . أخبرني بعمل يدخلني الجنة .

قال : « **قل العدل . وأعط الفضل** » .

قال : فإن لم أطق ذلك ؟

قال : « **أطعم الطعام . وأفش السلام** » .

قال : فإن لم أطق ذلك ؟

قال : « **هل لك إبل** » ؟ قال : نعم . قال : « **فانظر بعيراً منها وسقاء ، وانظر أهل بيت لا يشربون الماء إلا غبداً فاسقهم إذا حضروا . واكفهم إذا غابوا ، فلعله لا ينفق بعيرك . ولا ينخرق سقاؤك حتى تجب لك الجنة** »[1] .

فحيث لم يطق الرجل أن يصل إلى المرتبة العليا . . فقد نقله الرسول ﷺ إلى مرتبة تالية . تدخل في حدود طاقته . وهي إطعام الطعام . وإفشاء السلام . فلما أعلن العجز عن ذلك . استقر به عند نوع من الخدمة العامة ليس فيه غرم مالي . . يتعلق بأسرة سهلة المؤونة .

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي ـ العدد ٦٦ .

(٢) أسد الغابة ط . الشعب مجلد ٤ جزء ٢٨ .

وقد يكون فرار الرجل من العدل والإحسان وليد ثقة ضعيفة لا تقوى على ربطه بمجتمع ربطه عدواً له . . فيعاديه .

فإذا نحن أخذناه بهذه الصورة الهينة . خرج في نفس الوقت من عزلته الاجتماعية ليجني عقبى ذلك العمل ثناء . وتجاوباً يحس أثره يتسع يوماً بعد يوم .

ثم ينعكس هذا الأثر على نفسه رضاً وقبولاً للعدل وإعطاء الفضل وإطعام الطعام وإفشاء السلام .

ويتضح لنا هنا هدي الرسول ﷺ الذي نجح في علاج أمراض الرجل الاجتماعية . وفي مقدمتها : الجفاء والعزلة . . مبتدئاً بهذا الأمر السهل . . فكان أساساً لتحول كبير في نفسه . . سار به نحو الكمال .

وأين هذا التدرج الواعي مما حدث في أمريكا : في أمر كتحريم الخمر مثلاً ؟ أنها فشلت في علاج هذا الداء لفقد الإيمان والمنهج الراشد .

لقد « منعت حكومة أمريكا الخمر وطاردتها في بلادها . واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين ضربها وبيان مضارها ومفاسدها .

ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار . وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ بلايين صفحة .

وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً ما لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه .

وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس وسجن ٥٣٢٣٣٥ نفساً . وبلغت الغرامات إلى ١٦ مليون جنيه .

وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر وعناداً في تعاطيها حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ م إلى سحب هذا القانون وإباحة الخمر في مملكتها إباحة مطلقة »[1] .

فالنفس الإنسانية إن لم تقتنع بشرعية السلطة ـ في ضوء الإيمان ـ تأبت على العلاج وسارت في طريق العناد . وهو ما حدث في أمريكا .

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي .

أما الوضع في الإسلام فقد سار على عكس ذلك تماماً : فعن طريق التربية الصحية القائمة على الإطمئنان للحق أمكن فطم الناس عن هذا الشراب . وهو الأمر الذي حكاه القرآن الكريم . والذي صار بعد ذلك درساً لكل جيل . يريد الإصلاح .

« عن عياض بن غنم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يوماً . فإن مات فإلى النار . وإن تاب قبل الله منه ، وإن شربها الثانية لم تقبل له صلاة أربعين يوماً . فإن مات فإلى النار وإن تاب قبل الله منه ، وإن شربها الثالثة أو الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من ردغة الخبال** » .

فقيل : يا رسول الله . . وما ردغة الخبال ؟

قال : « **عصارة أهل النار** »[1] .

فإذا كان الخوف ـ كما يقول علماء النفس ـ أقوى وازع يكف الناس عن الشرور . . فإن الرسول ﷺ يلوح به هنا .

وتبرز حكمة الرسول ﷺ حين يتدرج بهم تأسياً بالمنهج القرآني في تحريمها . ويلاحظ أنه يضم المرة الرابعة إلى الثالثة . وعند ذلك نسمع عنف التهديد والزجر . لأن الأمر يصبح حينئذٍ عادة توشك أن تمتلك زمام الإنسان . وتجره بعيداً عن الصواب . وعندئذٍ يجيء النذير قوياً . قبل أن تسير به الدوافع مع شياطين تستهويه في الأرض حيران .

* * *

وإذا كان الصدق يهدي إلى البر ـ وهو جماع الخير ـ فقد كان حرصه ﷺ على أخذ النشء به مضرب المثل . .

واستطاع بذلك أن يقوم اللسان . ويعوده قول الحق . فجاءت الأخلاق الفاضلة بعد ذلك ثمرة طبيعية . .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : إن الله عز وجل وعد فضل اللسان على سائر الجوارح . ورفع درجته . وأبان فضيلته بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده .

فلا يجب للعاقل أن يعود آلة خلقها الله للنطق بتوحيده الكذب . بل يجب عليه المداومة برعايته بلزوم الصدق »[2] .

---

(١) أسد الغابة مجلد ٤ جزء ٢٦ .

(٢) روضة العقلاء ص ٣٧ .

وإذا كانت العادة تنشأ في بواكير الحياة الأولى . . فقد كان إرشاده ﷺ حكيماً في أخذ الناشىء منذ البداية بالصدق لتتكون العادة على أساس متين .

عن عبد الله بن عامر قال : دعتني أمي يوماً ـ ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا ـ قالت : ها تعالى أعطك . .

فقال لها الرسول ﷺ : « **أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة** »[1] .

وفي تعليق للدكتور وجيه زين الدين على هذا الحديث بمجلة الوعي الإسلامي ( ذو القعدة ١٣٩٣ هـ ) يقول :

« لو لم يكن في الإسلام في تربيته للطفل السوى إلا هذا الحديث الشريف ، لكدت أن أقول إنه أعظم تعاليم سيدي المصطفى . وأنه يكفي وحده في وضع الأسس القويمة . . فليس إلا الصدق صفة تبني الثقة . فإذا كانت الثقة بين الطفل ووالديه سهل الطريق لتوجيه الطفل .

وما رأيت في خبرتي الطيبة صفة تبعد الولد عن أبويه . وتضع أساساً للتمرد على الأسرة . وعصيان الأبوين مثل صفة الكذب .

ولهذا المعنى . كان الكذب ـ على أية صورة من الصور ـ فسادا يجب تلافيه والتصدي له .

إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل . ولا أن يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له .

إن الصدق يهدي إلى البر . وإن البر يهدي إلى الجنة .

وإن الكذب يهدي إلى الفجور . وإن الفجور يهدي إلى النار »[2] .

ويمكننا أن نقرر بعد ذلك كله . أن الخلق الحميد كان نتيجة لازمة لتهذيب الغرائز التي وقف بها الإسلام عند حد الاعتدال . فاستقام الإنسان صحياً . وتهيأ للعمل المثمر .

واستقام اجتماعياً . فشاركه غيره فيما كان يسرف فيه . ووجد في الالتزام بحكم الله زاداً روحياً عوضه ما فاته من الإسراف الذي نهى عنه فانتهى .

---

(١) رواه أبو داوود والبيهقي .

(٢) جمع الجوامع ، الحديث رواه في المستدرك كتاب العلم ج ١ ص ١٢٧ . قال : هذا حديث صحيح الاسناد على شرط الشيخين .

وقد عالج القرآن الكريم هذا المعنى في الآيات الكريمة التي منها قوله تعالى : ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات . .** ﴾[1] .

وقوله سبحانه : ﴿ **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً** ﴾[2] .

ومفاد ذلك : أن الإسلام يعترف بطبيعة الإنسان ، ثم يتعهدها بالإعلاء . سيراً بها إلى الأفضل دائماً . . حتى يكون يومه أفضل من أمسه . وغده أفضل من يومه .

يعينه على ذلك : صحة معرفته التي تحول جهده وماله ووقته ليكون في سبيل الله والوطن . بعد أن كان يستأثر بذلك في خاصة نفسه .

ويظهر المسلم في أكمل خلق يجيء صورة لنفس سوية اصطلحت في كيانها الغرائز مع العقل وصولاً بالإنسان إلى السعادة الحقة .

ومن وراء ذلك كله :

المبدأ : الإيمان بالله تعالى .

والمنتهى : الإيمان باليوم الآخر .

الإيمان الذي يؤكد خلافة الإنسان عن الله في عمارة الأرض وترقية الحياة . .

والإيمان باليوم الآخر . . الذي هو حياة أبدية كاملة . . لا فناء لأهلها ولا يسعد فيها الإنسان إلا بزاده من التقوى والخلق القويم .

* * *

## كيف تربي النشء في ظلال هذه البيئة

صورة من تربية الصحابة لأبنائهم متأثرين بهذه التعاليم الجديدة تفخر التربية الحديثة بأنها وضعت أساس التربية الاستقلالية والحرية في التعليم وملاحظة الميول الفردية . . وتكافؤ الفرص . . إلى غير ذلك مما ادعت السبق إليه .

* **ولكننا نقرر :**

إن المتأمل في عصر النبوة . . وفي تاريخ النفر الكريم الذين صحبوه ﷺ يرى بما لا يدع مجالاً للشك أنهم تفردوا بكل هذه الحقائق التي يدل بها الغرب اليوم . ثم لم يكن هذا العصر عصر نظريات تقرر . ثم لا تصبر على التطبيق . بل كانت تلك

(١) آل عمران : ١٥ .

(٢) الكهف : ٤٦ .

النفوس التي صاغها الرسول على عينه جنداً تنفذ تعاليمه :

تتمثلها في ذواتها أولاً : لتكون بعد ذلك واقعاً ملموساً . . وبعيداً عن التفلسف الكاذب . . صار الصحابة عنوان هذه الحقائق .

وفي مجال تربيتهم لأولادهم دليل يكشف مدى التأثر البالغ برائدهم الذي لا يكذب أهله ﷺ . . ومدى التأثير البالغ أيضاً في مجرى الحياة على اتساعها . . وإلى يوم الدين .

* * *

وقد يكون من المفيد أن نتعرض بشيء من الإيجاز لوضع النشء قبل الإسلام على نحو يبرز فسحة النقلة على يد الإسلام . . الذي هيأ المناخ الملائم لتربية جيل لم يسبق له مثيل .

كان من عادات بعض القبائل المتوحشة :

١ ـ ما رواه الباحث « سبنسر » في كتابه « علم الاجتماع البشري » : كان إذا أعوز الأب الأسترالي الطعم لسنارته . فقد يقتل ابنه . ويقتطع من لحمه قطعاً ليصطاد بها .

٢ ـ ربما باعوهم كالأرقاء . وربما كان الثمن قليلاً من الخمر . كما حدث في قبائل « البنتاجون » بأمريكا . أعطوا أولادهم للإسبان مقابل بعض الخمر .

٣ ـ قد يقتلون الأولاد لهواً ولعباً .

٤ ـ لو تجرأ الابن وتزوج دون استشارة أبيه . . قتله .

٥ ـ لا يمكن للابن أن يتكلم في حضرة أبيه .

وفي الصين : ورغم أن الصين كانت قد أخذت بنصيب من المدنية إلا أن قتل البنات كان أمراً شائعاً بينهم .

وكما كان عند الإسرائيليين إباحة بيع البنات . ورجم الولد العاق .

وفي فرنسا : إلى عهد الثورة الكبرى ١٧٨٩ م ـ كانت حالة الأولاد بعيدة عن العطف .

يقول الفيلسوف الفرنسي « شاتوبريان » مصوراً حالة الأولاد عصره : « كنت أنا وأمي وأختي ننقلب في حضرة والدنا إلى تماثيل لا تتحرك . وما كنا نرجع إلى حالتنا

العادية إلا بعد أن يزايل الغرفة »(١) .

فإذا انتقلنا إلى البيئة العربية قبل الإسلام وجدنا فكرة التعلق بالذكر دون الأنثى بارزة . بناء على نوع الحياة الاجتماعية حينئذٍ .

« تسود أفراد القبيلة فكرة العصبية . فكل فرد يتعصب لقبيلته ويعني بحظ نسبه ويفخر به . ويحنو على من يشاركه فيه . ويسير على منهج قبيلته . سواء أصابت أم أخطأت . يقول شاعرهم :

وما أنا إلا من غزية : إن غوت غويت . . وإن ترشد غزية أرشد

والقبيلة تحميه من العدوان . وتطالب بدمه إن جنى عليه أحد . ولكل قبيلة رئيس هو سيدها وهو مرجع الأفراد في إقامة العدل بينهم على حسب عرفهم وتقاليدهم .

وعلاقة القبيلة بالقبيلة علاقة عداء غالباً ، تغير عليها . وتغنم من مالها ورجالها . والأخرى تتربص بها الدوائر لتنتقم منها(٢) .

وفي هذا الجو المشحون بالعداء والتربص يزداد التعلق بالذكر . من حيث كان هو الذي يحمل السلاح .

بينما يكون الزهد في الأنثى عاطفة سائدة لأنها ضعيفة من ناحية . . وخشية العار من ناحية أخرى .

وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

**﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون ﴾**(٣) .

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات الكريمة :

« أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ،

---

(١) من مقال للمرحوم الأستاذ محمد فريد وجدي بمجلة الأزهر ـ ربيع الأول سنة ١٣٢٣ هـ بتصرف .
(٢) جواهر الأدب ج ٢ ص ٧ ، ٨ .
(٣) النحل : ٥٧ ـ ٥٩ .

وجعلوها بنات الله وعبدوها معه . فأخطأوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث . .

فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً . ولا ولد له . ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات . وهم لا يرضونها لأنفسهم كما قال :

﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزي** ﴾[1] .

وقال ههنا : ﴿ **ويجعلون لله البنات سبحانه** ﴾[2] أي : عن قولهم ﴿ **ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون** ﴾[3] .

وقوله : ﴿ **ولهم ما يشتهون** ﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور . ويأنفون لأنفسهم التي نسبوها إلى الله . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فإنه ﴿ **إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً** ﴾ أي كئيباً من الهم ، ﴿ **وهو كظيم** ﴾ ساكت من شدة مما هو فيه من الحزن ، ﴿ **يتوارى من القوم** ﴾ أي : يكره أن يراه الناس ، ﴿ **من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب** ﴾ .

أي : إن أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها . ويفضل أولاده الذكور عليها »[4] .

ولقد كانت هناك ـ في هذا الجو المظلم ـ ومضت إنسانية تستهدف الإبقاء على البنات حية . اعترافاً بها . وإنكاراً لهذا المسلك المعيب .

« كان صعصعة بن ناجية عم الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلاً يستحييها بذلك . فقال الفرزدق يفخر :

وعمي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد[5]

لكن هذه اللمع المضيئة لم تشكل رأياً عاماً ضاغطاً يستطيع أن يضع حداً لهذا الوضع المزرى .

---

(١) النجم : ٢١ ، ٢٢ .
(٢) النحل : ٥٧ .
(٣) الصافات : ١٥١ ـ ١٥٤ .
(٤) ابن كثير ط الشعب ص ٤٩٦ .
(٥) تفسير القرطبي ط الشعب ص ٣٧٣٣ .

بيد أنها كانت في نفس الوقت دعاء إلى الحق سبحانه أن ينقذ هذا المخلوق الضعيف ويضع حداً لمحنته .

وجاء الإسلام في وقته المناسب . فوضع الأساس المتين لتربية جيل جديد يمشي على قدمين . . ويطير بجناحين .

ويستبعد الذكورة أو الأنوثة فلا تكون مرجحاً في ميزان التقدير . . ليرجع الأمر أولاً وأخيراً إلى الإيمان والعمل الصالح أساساً لمركز الإنسان . . يشير إلى ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

**﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى . بعضكم من بعض ﴾**[1] .

**﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾**[2] .

* * *

## نماذج وصور

« قال سعيد بن المسيب لابنه : لأزيدن في صلاتي من أجلك . . رجاء أن أحفظ فيك ، ثم تلا هذه الآية : **﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾**[3] .

يقول ابن كثير للآية الكريمة :

« فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته . وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم . وبرفع درجتهم إلى أعلى في الجنة لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن والسنة :

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس :

حفظا بصلاح أبيهما . ولم يذكر لهما صلاحاً ثم ذكر أنه لم يكن الأب المباشر . وإنما كان الأب السابع »[4] .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ .
(٢) النساء : ١٢٤ .
(٣) الكهف : ٨٢ .
(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٢١٥ ، تحقيق د . محمد الأحمدي أبو النور .

وعلى هذا الأساس كانت صلة الآباء بالأبناء :

فالولد أمانة بين يدي الأب . . تتفاضاه الاجتهاد في صيانتها بالتربية الصالحة . . التي تصل أحياناً إلى أن يستكثر من العبادة حرصاً عليه . . وإدخاراً لمستقبله .

وقد كان الرسول ﷺ مثلهم الأعلى في هذا الباب : تأثروا به . ودرجوا على طريقه في إعداد الذرية إعداداً يتحملون به الأمانة من بعدهم .

وقد جاشت صدورهم برغبة في ذرية صالحة تعبد الله سبحانه على ما يشير إليه قوله تعالى :

**﴿ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً . يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا﴾[1] .**

**﴿هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء ﴾[2] .**

**﴿ رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ﴾[3] .**

فالولد الطيب . . الصالح . . الحليم . . كان أملًا تجيش به صدور الأنبياء . . وعلى منوالهم نسخ الصحابة رضوان الله عليهم فاستهدفوا الولد الصالح . . وسلكوا في تربيته كل ما دعا إليه القرآن من مناهج رشيدة في السلوك .

وكان في تطبيق الرسول ﷺ لهذه المناهج قولاً وعملاً أثره البارز في نجاح التربية التي أثمرت جيلاً من الشباب المسلم صان الله تعالى به وجود الأمة الإسلامية . .

وتبدو خطوط التربية الإسلامية واضحة في سيرة الخليفة عمر رضي الله عنه .

ونختار من حياته جوانب كاشفة عن مدى توفيقه في إعداد ولده . . المرتكز أساساً على هدى رسول الله ﷺ :

يقول ﷺ : « **أرموا واركبوا . . وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا . . ومن**

---

(١) مريم : ٥ ، ٦ .
(٢) آل عمران : ٣٨ .
(٣) الصافات : ١٠٠ ، ١٠١ .

**تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا** » . وفي رواية : « **فهي نعمة جحدها** »[1] .

وتجيء الاستجابة واعية . . والتوجيه سديداً من قبل عمر رضي الله عنه . حين يضع الخطة المثلى لتربية الطفل مسترشداً بهذا التوجيه النبوي الكريم . .

« والمنهاج المبكر الذي وضع لتعليم الأطفال . كتبه عمر بن الخطاب وبعث به إلى ساكني الأمصار وهو :

« أما بعد . . فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر »[2] .

وفي رواية : « **ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا** » ولعلها الفروسية المجملة في النص السابق .

إن الولد ليس ملكاً لوالديه فحسب . لكنه ملك للأمة كلها . ومن ثم فإعداده بالسباحة والرماية وركوب الخيل تزكية للروح القتالية فيه . التي لا يبقى الإسلام إلا بها .

وإذا كان بعض الناس لا يؤمن بجدوى هذه التوجيهات في حياة الأمة . . فإنا ندعوهم إلى قراءة هذا التقرير الذي يؤكدها ويدعمها .

تحت عنوان « السباحة للأطفال مثل التطعيم ضد الكوليرا » كتبت السيدة عواطف عبد الجليل تقول :

« في دراسة قامت بها مراكز بحوث التربية والتعليم في بريطانيا وفرنسا وألمانيا أن تعليم الطفل السباحة منذ سنوات العمر الأولى أصبح ضرورياً لسلامته جسمانياً وعقلياً .

فقد ثبت من الإحصائيات في فرنسا وبريطانيا أن الأطفال الذين يتقنون السباحة ويمارسونها كرياضة يمتازون بالتفوق الذهني عن زملائهم الذين يمارسون أنواعاً أخرى من الرياضة .

ويتفوقون بدرجة أكبر على أولئك الذين لا يمارسون الرياضة على الاطلاق . والأطفال الذين يمارسون السباحة لا يعانون من اضطربات نفسية . أو عيوب ذات

---

(١) السياسة الشرعية ، ص ٢٦ ، والحديث رواه مسلم .

(٢) البيان والتبيين ص ٩٢ ـ كتاب « تاريخ التربية الإسلامية » للدكتور أحمد شلبي .

جذور نفسية أو اجتماعية مثل : الخجل والتأتأة . وهم مثابرون .

ونلاحظ عليهم فضائل الصبر وعدم اليأس . والاستفادة من أي فشل يقابلهم في حياتهم .

أما ألمانيا : فتضيف البحوث أن عدداً كبيراً من الأطفال يفقد حياته نتيجة لجهله بالسباحة . ولهذا يصير تعليم السباحة للأطفال ضرورة مثل التطعيم الإجباري ضد الأمراض المعدية مثل : الجدرى والدفتريا والسعال الديكي .

وقد بدأت بعض المدن الكبرى في ألمانيا فعلاً في فرض تعليم السباحة للأطفال منذ أول عام التحاقهم بدور الحضانة »[1] .

إن وصول الباحثين المحدثين لهذا القرار وهم الذين عاشوا فوق أثباج الماء ففتق فيهم هذه الحيلة . . يدعو للإعجاب بأسلافنا الذين سبقوهم إليه . . من خلال صحراء لا ماء بها ولا زرع . لكنه الإيمان بالله سبحانه هو الذي يعطي فهماً أرحب للحياة ماضيها ومستقبلها.

وإذا كان تعليم السباحة والرماية وركوب الخيل ضرورياً لتحقيق النصر . . فإنه يحق قبل ذلك انتصار الشباب على نفسه المتطلعة إلى التنعم والاستسلام للهوى وكفى بالترف داء يميت في النفس حماسها للحق واندفاعها لنصرته ومن أجل ذلك يضع رضي الله عنه منهجاً متكاملاً يصح به الجسم وتسلم به النفس حين يقول :

« ائتزروا[2] . وارتدوا[3] وانتعلوا[4] وألقوا الخفاف وارموا الأغراض وألقوا الركب[5] وانزوا[6] نزوا على الخيل . وعليكم بالمعدية[7] ـ أو يقال : « العربية » ـ

---

(١) الجمهورية في ١٩٧١/٦/٦ .

(٢) يقال : شددت لهذا الأمر مئزري : أي تشهرت له ( لسان العرب . حرف الراء ) . ومن معاني الإئتزار : الإحاطة والقوة .

(٣) ردي الفرس ـ ردياً ورديانا : رجم الأرض بحوافره في سيرة وعدوه . والغراب : حجل . والغلام : رفع رجلاً وقفز بالأخرى في اللعب ( المعجم الوسيط ) ، والرداء : ما يلبس فوق الثياب كالجبة ، والعباءة . والثوب يستر الجزء الأعلى .

(٤) يقال : انتعل الأرض : سافر راجلاً ، وانتعل أيضاً : لبس النعل .

(٥) جمع ركاب ، وهو ما يوضع فيه الرجل .

(٦) نزي ينزو : وثب .

(٧) تمعددوا : تشبهوا بمعد في خشونة المطعم والملبس ، وتصلبوا . ومن المجاز : تمعدد الصبي غلظ وصلب . وذهبت عنه رطوبة الصبا . قال : ربيته حتى إذا تمعددا .

ودعوا التنعم وزي العجم ولا تلبسوا الحرير . فإن رسول الله ﷺ نهي عنه إلا هكذا ورفع أصبعيه . . وقال أيضاً أن تخور قوى ما كان صاحبها ينزع وينزو . يعني ينزع في القوس . وينزو على الخليل من غير استعانة بالركب[1] .

وهذه أداة في الفروسية القائمة على طاعة الله ورسوله . . لو أخذنا بها النشء لوجد من فنونها ما يملأ فراغه . . ويقوي فيه النفس والجسم معاً . . حتى إذا جد الجد . . كان الجميع على قلب رجل واحد خفافاً وثقالاً . .

ويحسن بنا أن نقف قليلاً . . لنستبين ملامح هذه الفروسية . . ومدى فاعليتها في تكوين الشخصية :

أنه يأمر بالائتزار ومن معانيه : الإحاطة والقوة . . ومن معانيه أيضاً : الاستعداد للأمر . . وعقد العزم عليه . . كما كان يفعل رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر . . كان يوقظ أهله . . ويشد المئزر كناية عن اعتزال النساء . . والالتزام الصارم بما فرض على نفسه من عبادات يتقرب بها إلى الله تعالى . .

وإذا تصورنا أن الإرتداء هو الاشتمال بالثوب فوق الجزء الأعلى من الجسم . . أمكن لنا فهم التوجيه العمري . . وما يهدف إليه من استجماع الهمة . . بلا تردد . . ومواجهة المخاطر بلا خوف . . على أن تكون الملابس البسيطة التي تساعد على خفة الحركة شارة الإنسان . . بعيداً عن كل فضفاض . . يعطل السير . . ويخدر الهمة . . ويوقظ في النفس مشاعر الدعة والراحة .

على أن في الاستمساك بالزي الإسلامي العربي حفاظاً على الشخصية الإسلامية أن تذوب في معركة القيم . . كما وأنها مخالفة للأعاجم في زيهم .

هذه المخالفة التي لا بد أن تدخل في حسابها باسم الإسلام الذي يقرر في إحدى قواعده أنه إذا صارت السنة شعاراً لأهل البدعة وجب تركها . .

« وقد كان ملوك الفرس القدماء لا يربون أولادهم بين حشمهم . أو خواصهم خوفاً عليهم من الأحوال التي ذكرناها . . ومن سماع ما حذر منه .

وكان ينفذونهم مع ثقاتهم إلى النواحي البعيدة منهم .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ١٣٢ ط . التراث .

وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة العيش . ومن لا يعرف التنعم ولا الترفه »[1] .

ومن معاني الانتعال : السفر على القدمين . . وإذا كان الخليفة ينصح بإلقاء الخفاف ثم الانتعال . . فقد يكون المراد شد القدم بالنعل السميك . لتواصل المسير عبر المدى الطويل[2] . بدل الخفاف . التي لا تصبر معها الأقدام على مواصلة المشي . . فإذا مردت الأقدام على ذلك أهلها التدريب الطويل على مقابلة الأعداء . . وتحمل ما تفرضه المعارك من متاعب لا يلقاها إلا الذين صبروا .

والمسابقة في الرمي أمر جوهري يوصي به عمر رضي الله عنه . . وقد كان الإمام الشافعي يصيب الهدف عشرة من عشرة . ولم تشغله الأبحاث العلمية عن تعلم الرمي .

والأمر إذن بالنسبة للنشء واجب ديني . . قبل أن يكون إلزاماً وطنياً .

وقد يلجأ المترفون من الناس إلى وصل الركب بالسرج لتساعد على الركوب . . ولكن الحرب الخاطفة . . التي يكون للحظة فيها اعتبار . . تفرض أن يكون الجسم رياضياً غير مترهل . . يثب على ظهر الخيل وثباً دون لجوء إلى الركب المساعدة . . كسباً لعامل الزمن . وقدرة على حرية الحركة . . والكر والفر . . متحرفاً به المجاهد لقتال . . أو متحيزاً إلى فئة .

فلا مكان للركب . . وقت الحرب . ولا وقت يسمح لكل شارة من نعيم تنيم الهمة وتطفىء الحماس . .

على أن يكون هذا التقشف منهجاً ملزماً . . كما وضعه معد : خشونة مطعم . . وملبس . . ورياضة يتصلب بها الجسم . . ليزيد تحمله لمغارم الجهاد .

وعندما يصبح الإنسان ويمسي . بين نزو على الخيل . . ونزع في القوس صار الجهاد له يبذله بلا معاناة . . بل متعة يحس بها تغنيه عن كل متاع زهرة الحياة الدنيا . .

---

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ٢٢ .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : سمعت النبي ﷺ في غزوة غزوناها يقول : « استكثروا من النعال . فإن الرجل لا يزال راكباً ما انتعل » رواه مسلم و «معناه أنه شبه بالراكب في خفة المشقة عليه وقلة تعبه . وسلامة رجله مما يعرض الطريق من خشونة وشوك وأذى » ـ عن المنتخب من السنة النبوية الشريفة ٥٧ ج ٣ ص ١٠٢١ .

وإذا تصورنا أن في الحرب أهدافاً لا تنالها الأسلحة الثقيلة ولا بد لها من الإنسان .

أمكن لنا تصور الدور الخطير الذي ينتظر أمثال هؤلاء الشباب الذين باعوا أنفسهم لله تعالى . وصار الضرب بالسيف والطائرات . . بيئة لا يتنفسون الحياة إلا في رحابها تساعدهم على ذلك بنية صلبة عصية على الهزيمة . . يمنحها الإيمان بالله .

الأمر الذي يجعل من محاولة التنعم والإغراق فيه ضراراً لا يفسد الفرد ذاته بقدر ما يصيب الأمة كلها بشلل يفقدها أهم عناصرها في صراعها الطويل مع الأعداء . . وحينئذٍ فكل محاولة لإعداد الشباب جسمياً يأمر بها الإسلام ما دام ذلك إدخاراً للمعركة الفاصلة بين الحق والباطل . والتي لن تنتهي[١] .

لقد حرص آباؤنا على أخذ النشء بلون من الصرامة كانوا به جنداً للحق .

« قال المهاب لبنيه : يا بني . . لا يقعدن أحدكم في السوق . . فإن كنتم فاعلين . . فإلى زراد[٢] أو سراج[٣] أو وراق[٤] »[٥] .

فالوالد يحذر ولده من السوق وما فيه من أوضاع قد تخفف من قبضتهم على الأخلاق الفاضلة . حينما يرون الحق ضائعاً والإيمان بضاعة مزجاة .

ثم يختار لهم : إما الجلوس في مصنع الأسلحة . . أو مكتبة علمية . . وما يترتب على ذلك من معايشة تنمي فيهم الروح العسكرية . . وتغذي في أنفسهم تطلعها إلى المعرفة الشريفة النافعة . . على نحو يستقيم به تصورهم للحياة في أنبل مجالها . . ليحبوها ويرخصوا أرواحهم في سبيلها . .

ولم يكن ذلك وليد دوافع عدوانية . . بل إنه القوة المسلحة بالإيمان . . المزودة بالخبرة العملية . دفاعاً عن الحق أن تناله أيدي العابثين .

---

(١) يقول الثعالبي في الجواهر الحسان : ظاهر اللفظ أنه استعارة يراد بها الالتزام أبدا . وذلك أن الحرب بين المؤمنين والكافرين لا تضع أوزارها .

(٢) زراد : جيد الزرادة ، من زرد الدرع سردها .

(٣) سراج : صانع نوع معين من السيوف ومنه سيوف سريجية .

(٤) بائع كتب .

(٥) عيون الأخبار ج ٢ ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

« قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن : يا بني . . لا تدعون أحداً إلى البراز . . ولا يدعونك أحد إليه إلا أجبته . . فإنه بغى »[1] .

وهذا التقشف هو حق البدن عليك . .

أن العناية بسلامته عن طريق الرياضة والراحة اللازمة للجسم فإذا تراخى الإنسان وأسلم للنعيم زمامه . . كان شراً على نفسه وعلى أمته . .

يقول ﷺ : « **شرار أمتي الذين ولدوا في النعيم وغذوا به . . يأكلون من الطعام ألواناً . ويلبسون من الثياب ألواناً . ويركبون من الدواب ألواناً . يتشدقون في الكلام** »[2] .

ولا شك أن الإسلام لا يحرم طيبات أحلها الله . ولا زينة أخرجها لعباده .

لكنه يشدد النكير على صيرورة المتعة غاية في ذاتها . يستغرق فيها الإنسان . فتقعد به همته عن السعي إلى الكمال . والعمل لدار هي الحيوان . .

يقول النيسابوري : « والأشياء الطيبة اللذيذة غير منهي عنها لقوله تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾[3] . . ولكن التقشف وترك التكلف دأب الصالحين . . لئلا يشتغل بغير المهم عن المهم .

ولأن ما عدا الضروري ولا حصر له . . قد يجر بعضه بعضاً إلى أن يقع المرء في حد البعد عن الله »[4] .

وحتى لا يورط المؤمن نفسه في الوقوع فيما يغضب الله وهو يمارس حقه في تناول الحلال يوصي الثعالبي أيضاً بضرورة التقشف فراراً من عاقبة الكفار الذين أغواهم النعيم فوقفوا بين يدي الله تعالى خاسئين .

يقول رضي الله عنه : « والطيبات : هي الملاذ . . وهذه الآية : ﴿ **أذهبتم طيباتكم** ﴾ وإن كانت في الكفار . . فهي رادعة لأولي النهي من المؤمنين عن الشهوات واستعمال الملاذ .

---

(١) البغى راجع للجملة الأولى .
(٢) السراج المنير شرح الجامع الصغير حرف الشين . جاء فيه : عن أنس . قال الشيخ : حديث حسن .
(٣) الأعراف : ٣٢ .
(٤) النيسابوري في تفسير قوله تعالى : ﴿ أذهبتم طيباتكم . . ﴾ ( الأحقاف : ٢٠ )

ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه : أتظنون أنا لا نعرف طيب الطعام ؟ . . ذلك لباب البر بصغار المعزي . . ولكني رأيت الله تعالى نعي على قوم أنهمّ أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا »[1] .

ولقد كان ﷺ معرضاً عن الدنيا مع توافر أسباب النعيم بين يديه .

وكان هذا الأعراض في حياته إرتقاء منه بالإنسان إلى أرقى مستويات الحياة .

ولم يكن أبداً تهرباً أو إنزواء بقدر ما كان استصفاء لأرقى أنواع السلوك . وأشرف المواقف . يستعلي بها على متعة زائلة أن تصرف همته العالية من غاياته النبيلة :

دخل رسول الله ﷺ على جماعة من الفقراء . . وهم يرقعون ثيابهم بالأدم . . ما يجدون لها رقاعاً . قال : « **أنتم خير . . أو يوم يغدو أحدكم في حلة . ويروح في أخرى . ويغدى عليه بجفنة . ويراح عليه بأخرى . ويستر بيته كما تستر الكعبة** » ؟ قالوا : نحن يومئذٍ خير . قال : « **أنتم اليوم خير** »[2] .

فالخيرية كما بينها ﷺ مرتبطة بالقدرة على امتلاك زمام النفس أمام إغراء الشهوات . .

وليست في تتبع خطواتها . . على ما يقول الشاعر :

إن البطولة أن تموت من الظما ليس البطولة أن تعب الماء

إن الذين يتفننون في لذات العيش يفتحون على أنفسهم أبواباً من الفتنة لا يستطيعون ردها . . ولا يبقى لهم وجود إلا بالقدر الذي يحفظ أسماءهم في سجل الأحياء . . بينما هم في حقيقة الأمر : أسماء بلا مسميات . . لأنها باعت جوهرها النفيس بثمن بخس . . دراهم معدودة . .

ولهذه الشخصية التي يصوغها الإسلام حدودها ولها سماتها التي يجب أن تبقى فلا تغيب في زحمة التقاليد الوافدة .

لقد يئس الكفر المتربص من عبادة غير الله في الأرض . ولكنه ما زال يستحدث الخطى لطمس معالم هذه الشخصية . . بتزيين لباسه الذي يصدره إلينا كل يوم .

(١) الجواهر الحسان للثعالبي في تفسيره للآية الكريمة .
(٢) الطبري في تفسيره للآية الكريمة .

حتى إذا أطعنا هؤلاء الخبثاء وسرنا وراءهم شبراً شبراً . . إنحلت شخصيتنا عروة . دون أن تحس لذلك أثراً . إلا بعد فوات الأوان .

لقد رضي الاستعمار بما تحقر من أعمال : كالتقاليد في باب الزي مثلاً . . وقد نجح فعلاً في هذا الباب .

ووجدنا شباباً ينساقون وراءه دون وعي . أو إحساس بخطر ما يرتكبون . وصار بعض الشباب اليوم خليطاً ومزقاً . . في عصر تعتز فيه كل أمة بقوميتها ورمزها وعلمها .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى شباباً يطبقون مظاهر الغرب في ذات أنفسهم . حتى إذا أصدرت إليهم بيوت الأزياء أمرها بتغير قد يستر العورة إلتزموا به . . لا لأن الإسلام يرضيه ذلك . . بل طاعة لعدو الله وعدو رسوله من حيث لا يشعر . .

وما موقف « فورد » ببعيد . .

إنه يغير ألوان السيارات في كل عام مرة أو مرتين . . ثم يفتن به بعضهم . . ولا يذكرون أن في الاستجابة له ضياعاً للشخصية . قبل أن يكون ضياعاً للمال .

وإذا كان الإسلام يقرر : « أن لبدنك عليك حقاً » . . وكان شعرك من البدن . . فله نفس الحق . . لكن ما حق هذا الشعر ؟ . . هل هو التطويل تشبيهاً بالنساء ؟ ولماذا لا يكون حقه التنظيف مثلاً ؟

ولما كان ولا بد من الإثنين فلم لا يكون التنظيف أولاً ؟ . .

إنه التقليد الأعمى . . والذي لا يتم إلا في غيبة الإيمان الجامع على الحق . . المانع من الإنهيار . .

وإن هذا التقليد ليبدو اليوم عدواناً على الدين نفسه إذا تبينا أنه وافد من إسرائيل نفسها .

وقد رأى معاوية بعض شباب المدينة يرخي شعره فقال : « أين علماؤكم يا أهل المدينة ؟ . . سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن هذه القصة ويقول : « **إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم** »[1] .

---

(١) أسد الغابة : باب الميم والعين .

فإذا صار أمر النساء هكذا مع ما تبيحه الأنوثة من ألوان الزينة . . فكم يكون أمر الشباب مر المذاق إذا هم فعلوا ذلك .

وحينئذٍ فالتقليد في الملبس معصية لله . . من حيث كان تهاوناً يفضي في النهاية إلى الهزيمة في معركة المبادىء . .

وحكم القرآن هنا صارم . . يتعقب هذا التقليد في مظانه . . حفاظاً على كيان الأمة . . التي يجب أن تكون عند حسن الظن بها . . وسطاً بين الأمم . . شهيدة عليها . .

فلا تنماع شخصيتها بين الكفر الصريح . . والمقنع على ما يقول سبحانه : **﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ، إن الله كان عليماً حكيماً ﴾**[1] .

وكل تفلت من رتبة السيادة التي أقام الله عليها الأمة . . ولو عن طريق التقليد في الملبس والمأكل وغير ذلك . . إلحاد في الدين من حيث آثاره الخطيرة في مستقبل الناشئة . .

يقول سبحانه : **﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾**[2] .

يقول الخطيب الشربيني في تفسيره للآية الكريمة : **﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾** :

أي لا تميلوا إلى الذين ظلموا أدنى ميل فتمسكم النار . . أي تصيبكم بحرها .

والنهي متناول للإنحطاط في هواهم . والانقطاع إليهم . ومصاحبتهم ومجالستهم . وزيارتهم . ومراقبتهم . والرضا بأعمالهم والتشبيه بهم . ومد العين إلى زهرتهم . وذكرهم بما فيه تعظيماً لهم .

وتأمل قوله تعالى : **﴿ ولا تركنوا . . ﴾** فإن الركون هو الميل اليسير .

وما أجمل أن يستجيب شبابنا طائعاً لهذا التوجيه العمري الكريم . . اعتزازاً منهم بالدين وآدابه . . ومغالاة بما يملكون من ثروة أخلاقية تزري بكل ما يدلي به الظالمون .

---

(١) الأحزاب : ١ .

(٢) هود : ١١٣ .

ليجهد الظالمون أنفسهم إختراعاً وإبتداعاً . فإن لنا في ديننا من الكنوز ما يغني عن كل ذلك .

* * *

وقد كان تطبيق عمر صارماً في خاصة نفسه وبين أهله . . لينشأ ناشىء الشبان على ما كان عوده أبوه . وقد روي «أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمعصر وذهب به أخوه إلى أمير مصر عمرو بن العاص ليجلده الحد . جلده الحد سراً . ـ وكان الناس يجلدون علانية ـ فبعث عمر بن الخطاب إلى عمرو ينكر عليه ذلك . ولم يعتمد عمر بذلك الجلد . حتى أرسل إلى ابنه فأقدمه إلى المدينة . فجلده الحد علانية . ولم ير الوجوب سقط بالحد الأول ، وعاش ابنه بعد ذلك مدة . ثم مرض ولم يمت من ذلك الجلد ولا ضربه بعد الموت كما يزعمه الكذابون»[1] .

ومهما حاول المغرضون تشويه ذلك المثل الرائع في التربية . . فإن محاولاتهم لا تقوى على تجاهل ما يوحي به من حقائق تدمغهم بالبهتان . . بقدر ما تكشف عن عمق النظرة لدى الخليفة العادل . . ومدى تأثره بالرسول ﷺ القائل : «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**» . .

ومن هذا الموقف نستخلص الحقائق الآتية :

١ ـ أبناء الخليفة يغتربون تحملاً لمسؤوليتهم في بناء الدولة الجديدة .

٢ ـ ومع ذلك فليست لهم مناعة تحميهم من العقاب لو أخطأوا .

٣ ـ حين شرب عبد الرحمن الخمر . . يجيء به شقيقه ليقيم عليه الحد .

٤ ـ يرفض الخليفة أن يحابي في كيفية الحد .

٥ ـ يتولى بنفسه إقامة الحد من جديد . وكان ذلك . قسوة حازمة . . من لدن أب رحيم . .

وإذا كان ابنه قد مات بعد ذلك . . فقد بقي الموقف بمعانيه صورة فريدة بقي بها الإسلام حتى اليوم وإلى أن تقوم الساعة .

ومن هذه المعاني البارزة ـ والمتصلة بموضوعنا ـ هذا اللون من الشجاعة الأدبية لدى أخيه الذي ساقه بنفسه إلى ساحة القصاص . تماماً كما عودهم أبوهم . وما كان

---

(١) تفسير سورة النور لأبي العباس أحمد بن تيمية ـ تحقيق صلاح عزام ص ١٥ .

لهذه الفضائل أن تمارس وجودهالولا هذا الجو الموصل حتماً إليها . إن ركوب الولد ثبج البحر . أو متن الهواء مسافراً تدريب له عن مشاق الحياة واغتراب به كنف أمه وأبيه فلا يعيش مدللاً .

وبذلك . . يتحمل المسؤولية منذ نعومة أظفاره . وفي حياة والده . حتى إذا جنح عمر الوالد إلى مغيب . خلف من ورائه ذرية أقوياء بما غرسه فيهم من استعداد . . وقدرة على مواصلة الجهاد .

وهذا أساس لما نصح به العلماء بعد من ضرورة اغتراب طالب العلم عن أهله ليحمل إلى جانب العلم :

(أ) إعراضه عن مشاغل الدنيا .

(ب) ليتعود على خدمة نفسه .

(ج) ليعمق في نفسه الشعور بأنه مع غيره من الناس سواء . .

لا يفضلهم إلا بالعمل والتقوى .

لا بحماية أب يخف لنجدته كل حين . أي أن الاغتراب لون من التربية ، وقد برز هذا المعنى حين اعتدى ابن لعمر على مصري . . فأمر الخليفة هذا المضروب ليأخذ حقه من ابنه قائلاً : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار » .

فلم يكتف بالقصاص بل إنه ليضع هذه القواعد التي تجعل من الحرية قاسماً مشتركاً ينتظم كل الناس ، وفي مثل هذا الجو المتراحب تنمو الشخصية وتستقل .

وفي سوق عبد الرحمن بيد أخيه إلى ساحة القصاص نموذج للولاء للحق والصرامة في إقامة حدود الله بغض النظر عن لحمة الدم .

ويقف من وراء ذلك توجيه عمر . وسداد تربيته التي يحاول المغرضون النيل منها . . وهيهات .

ويكفي دليلاً على نجاح التربية العمرية ما كان من ابنه عبد الله الذي لم يلتزم بها إلتزاماً كاملاً ذات يوم فلامه أبوه :

« عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « **إن مثل المؤمن مثل شجرة لا يسقط ورقها فما هي** » ؟

قال : فقالوا وقالوا ولم يصيبوا ، وأردت أن أقول هي النخلة فاستحيت .

فقال النبي ﷺ : « **هي النخلة** »[١] .

وفي رواية أخرى : « قال ابن عمر : فذكرت ذلك لعمر فقال : لأن تكون قلتها كان أحب إلي من كذا وكذا »[٢] .

وفي رواية ثالثة : ما منعك أن تتكلم ؟

إن الشجاعة الأدبية والاستقلال بالرأي من ثمرات الإحساس بالحرية . والحرية لا تنشأ إلا في بيت هادىء أقيم على أسس إسلامية سليمة تستوعب الأسرة كلها .

وإذا كنا روينا عن أحد الباحثين في أوروبا قوله : أنه كان قطعة من الخشب في حضرة أبيه . فإن الأمر بالنسبة للخليفة على العكس تماماً . حتى إذا كان موضوع الحديث يتعلق بالجنس فإن الموقف لا يختلف . والصراحة في معالجته لا تتخلى عنه .

وقد جاء ذلك في قصة الجارية بائعة اللبن . . التي عرض زواجها على ولده ولم يكن غريباً أن يقول لهمّ صراحة :

لو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقني إليها منكم أحد ![٣] .

وإذا كان الفتى قد تهيب الموقف فلم يسبق غيره إلى الجواب حين عقد الحياء لسانه . فلقد بقيت لديه بقية من تلك الشجاعة مكنته من الجلوس بين يدي أشياخ بدر يتابع حديثهم وينقل عنهم . . في مجلس تحفة الرهبة ويغشاه جلال الشيوخ .

وبهذا يضع الخليفة قاعدة أنه : لا كبير في العلم . فالحقيقة بنت البحث أنى وجدها المسلم التقطها ثم بلغها . وكانت تلك طبيعة عمر دائماً : يتعهد النشء حيث كان برعايته . . ليفسح أمام كل موهبة تريد أن تأخذ مكانها اللائق بها :

« روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر . فكان بعضهم وجد في نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا . ولنا أبناء مثله ـ أي في مثل سنه ـ فقال : إنه من حيث علمتم .

فدعاه ذات يوم فأدخله معهم . . فما رؤيت أنه دعاني يومئذٍ إلا ليريهم . قال :

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣١ .
(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٦١ .
(٣) القصة في « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن عبد الحكم صفحة ١٧ ، ١٨ .

ما تقولون في قوله الله تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾[1] ؟

فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله . ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً .

فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟

فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له . قال : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا** ﴾ .

فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول .

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : قال المهاجرون لعمر : ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس ؟

فقال : ذاكم فتى الكهول ، إن له لساناً سؤولاً . وقلباً عقولاً .

لقد استجمع ابن عباس حينئذٍ خصائص التلميذ النابه . . أحسن الفهم . . فأحسن الجواب . لتصفو له بعد ذلك معلومات تبقى في ذاكرة واعية .

معلومات لم يتقبلها جافة مجردة جاهزة . . لكنه وصل إليها على جسر من التعب . . على يد أستاذ ماهر يبحث عن المواهب . . يتلقاها بالقبول . إعداداً لجيل جديد يتحمل الأمانة في المستقبل .

وما كان لابن عباس أن يرقى إلى هذه المنزلة العالية . . لولا توجيهات أبيه العباس التي هيأته لهذه المنزلة الرفيعة : قال له أبوه يوماً : « إن هذا الرجل ـ يريد عمر ـ يدنيك فلا تفش له سراً . ولا تغتابن عنده أحداً . ولا يسمع منك كذباً . ولا تبتدئه بشيء حتى يسألك عنه » . . وفي هذه الوصية تبدو ملامح التربية الناجحة :

١ ـ فالعباس يوصي ابنه أن يحسن صلته بأستاذه ليمكن له أن يتلقى عنه فلا يفشي له سراً إبقاء على الثقة متبادلة قوية .

٢ ـ ثم يوصيه بحسن صلته بزملائه . . فقد يسبقه زميل إلى جواب يريد هو أن يكون أسبق إليه منه . . وقد يحمله ذلك الحرص إلى ارتكاب أخطاء منها : الغيبة وتجريح هذا الزميل .

---

(١) النصر : ١ .

وحينئذٍ فالاحتفاظ بصفاء النفس أدخل في باب التربية من النجاح في الامتحان .

٣ ـ أن يلتزم الأدب فلا يقول كل الذي يعرف إبقاء على زمام المبادرة في يد أستاذ هو أحق بالتوجيه والطلب في الوقت المناسب .

وبذلك يظهر تجاوب البيت مع المعلم في إعداد الطالب . . ليصبح الدرس مجالاً للتدريب على الخلق الفاضل . . الذي هو مقصود العلم الأصلي .

وفوق هذا . . يقف توجيه الرسول ﷺ في وعي ابن عباس حين ربطه بالله سبحانه وتعالى في وصيته الآنفة . . فكان له منها ذلك الحس المرهف والوعي الكامل . . لقد علمه الإيمان . . فأثمر بدوره العلم الذي سبق به قوماً آخرين .

* * *

وفي باب الحنان على الأطفال يضرب ﷺ المثل الأعلى في الرفق بهم .

« روى العلاء بن يزّيد الثمالي بن غضيف بن الحارث الكندي أنه قال : كنت صبياً أرمي نخل الأنصار . فأتوا بي رسول الله ﷺ . فمسح رأسه وقال : « **كل ما يسقط . . ولا ترم نخلهم** »[1] .

فهذا صبي يساق إلى رسول الله ﷺ متهماً برمي نخل الأنصار . . ومعلوم أن الأعصاب حينئذٍ مشدودة . . فأصحاب النخل يريدون العقاب الرادع . . والصبي بين أيديهم يرجف فؤاده : ولكن الرسول ﷺ يمسح على رأسه فتهدأ خواطره . . ويستعد ذهنه القلق لتلقي الدرس من رسول الله . .

ثم يحدد العلاقة في مثل هذا الموقف بما يضبط السلوك . ويمنع الاعتداء مرة أخرى لتحفظ حقوق الناس .

فما يسقط هكذا تلقائياً يباح له أخذه . . ولا يباح له أن يستنزل الثمر من فوق النخل بالحجر مثلاً .

وفي إطار هذا الحنان يتحدد في ذهن الطفل معنى الحل والحرمة . . والمدى الذي يجب أن تقف عنده غريزة التملك . . حتى لا تحاول الانطلاق في السن الباكرة . . فتتعود ذلك .

---

(١) أسد الغابة مجلد ٤ : ٢٦ ص ٣٤٠ ، وأخرجه الثلاثة ، ورواه أحمد وابن ماجه في كتاب التجارات .

ويجيء هذا التحديد عاماً دون إبراز معنى الحرمة تدرجاً في تربيته . . وحفاظاً على كيان ينبغي تقويمه بالحسنى . . لا كسره بالعنف . بحيث تصبح الواقعة مجالاً . . تمارس فيه دوافع الصبي نشاطها . . وبين يديها . . ومن خلفها رقابة واعية تتعقبها في الوقت المناسب مؤدبة مهذبة . . بعيداً عن أسلوب الأمر والنهي المجردين . .

وتأثراً بهذا الدرس البليغ نرى عمر رضي الله عنه يستلهمه التوجيه في مثل هذا الموقف على نحو تبرز فيه معالم الأخلاق الإسلامية . . في حياة النشء . . في ظل البيئة الطاهرة التي تصقلهم . . وتصنعهم على عينها . .

جاء في عبقرية عمر للمرحوم الأستاذ عباس العقاد : « وبلغ من حنانه ـ أي عمر ـ على الأطفال أنه كان يشفق عليهم أن يحزنوا في لهوهم ولعبهم . فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه . . تحدث سنان بن سلمة : أنه كان في صبيان يلتقط البلح في أصول النخل مع بعض الصبية . . إذ أقبل عمر فتفرق الغلمان . وثبت هو في مكانه . . فلما دنا منه أسرع قائلاً : يا أمير المؤمنين . . إنما هذا ما ألقت الريح .

قال : أرني أنظر . . فإنه لا يخفي على .

فنظر في حجره . ثم قال : صدقت .

إلا أن الصبي لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين إلى بيته فقال : يا أمير المؤمنين . . أترى هؤلاء الآن ؟ ـ وأشار إلى الصبية الهاربين ـ ثم قال : والله لئن انطلقت لأغاروا علي فانتزعوا ما معي . فمشى معه عمر حتى بلغه بيته »[1] .

فاللعب هنا مباح . . يحس فيه الغلام بالأنس مع رفاقه . . إلا أن يتحول إلى عدوان على فضائل يراد نشرها . . فحينئذٍ لا بد من متابعته . . ما أمكن حتى لا تزل به الأقدام . . شريطة أن يتم ذلك بعيداً عن الخوف المرجف . .

ولا عجب أن يتميز « سنان » بالشجاعة الأدبية . . فالصدق المترتب عليها . . دون رفاقه الهاربين بفضل تربيته الناجحة . .

وإذا كان هو قد أبدى مخاوف من غارات يشنها عليه أقرانه . . حسبما يعرف

(١) عبقرية عمر للأستاذ عباس محمود العقاد ص ١٣٠ ، ١٣١ .

من أحوال لهوهم . . فإنه في ذات الوقت يعرف من واردات الحق أن ما ألقت الريح وحده . . هو الحلال . .

وهو المعلم البارز الذي رسخه الرسول في ضمائر الناس من قبل . . وأن في صحبة الخليفة له . . لتقديراً كاملاً للحق ولو في يد طفل صغير . . ولا شك أن هذه الصورة التي تدارسوها . . ووقفوا على أسرارها . . إلى الرفاق الهاربين . . الذين عرفوا فاعترفوا بالتقصير . . ثم اتجهوا نحو الكمال المنشود . . من باب الحنان لا من باب الخوف .

ومن ناحية أخرى . . فقد كان هذا الموقف رد فعل يتفادى به عمر أخطاء ارتكبت في حقه ينبغي ألا تتكرر حين كان يعيش في كنف أبيه القاسي :

يقول رضي الله عنه تواضعاً :

« لقد رأيتني في هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب . . وكان غليظاً يتعبني . ثم أصبحت وليس فوقي أحد .

وضايقت هذه الكلمة ابنه فقال له : ما حملك على ما قلت يا أمير المؤمنين ؟

قال : إن أباك قد أعجبته نفسه فأحب أن يضعها .

وانظر هنا إلى كلمة « أمير المؤمنين » يقولها الابن ، ثم أنظر إلى كلمة « أباك » يقولها أمير المؤمنين »[1] .

وانظر إلى شجاعة الولد في مواجهة أبيه ـ وهو يعلم من هو أبوه ـ شدة وصرامة ، وكيف لم يرد عليه الوالد بدرته ليدمي رأسه . . بل أنه ليلفت نظره إلى درس يجب أن يذكره ، وتجربة عليه أن يعد إرادته لخوضها . . تجربة النفس المتطلعة من خلال السلطة أو حجرة الدراسة إلى التكبر . . فيكون له في أبيه أسوة حسنة . . وقد كان الخليفة منطقياً مع مبادئه التي كان له منها قوله : « أحب أن يكون الرجل في أهله كالصبي . . فإذا احتيج إليه كان رجلاً »[2] .

وهذا الحنان فطرة فطر الله الناس عليها . . يكشف الرسول ﷺ مرجعها حين يقول له عمر : « يا رسول الله . . ما بالنا نرق على أولادنا . ولا يرقون علينا ؟ فأوجز

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٢٨ .

لـه الرسـول سبب الرقـة والحنان في كلمـات عندمـا أجابـه : « **لأنا ولـدناهم ولم يلدونا** »[1] .

وهذا لون من التربية يختصر به الوالد مسافة العمر ليعيش مع ولده في عصره . وليس هذا هو الحنان السلبي . الذي يتحول إلى تدليل تبرد به حماسة الصبي للجد وتحمل المسؤولية . .

إنه الحزم الواعي في إطار من الرحمة : تنمو به مواهب الطفل سوية عاقلة . . بلا إفراط أو تفريط .

وهو الحنان الوارد في الحديث الشريف والذي صـار فضيلة تتميز بهـا نساء قريش .

فيما يروى « عن أبي هريرة أن النبي ﷺ خـطب أم هانيء بنت أبي طـالب فقالت : يا رسول الله . . إني كبرت . ولي عيال . . قال النبي ﷺ : « **خيـر نساء ركبن نسـاء قـريش . . أحنـاه على ولـد في صغـره . وأرعـاه على زوج في ذات يده** »[2] .

* * *

*** دور المرأة :**

وفي قصة أنس بن مالك شاهد آخر على نجاح التربية الإسلامية في المجتمع الإسلامي الأول . . بما وضعتـه من أسس . وقعدت من قـواعد . لا تـزال تحتفظ ـ وإلى الأبد ـ بصلاحيتها الفذة في إعداد جيل جديد على تقوى من الله ورضوان :

يقول رضي الله عنه : « أخذت أم سليم بيدي . فـأتت بي رسول الله ﷺ . فقالت : يا رسول الله . . هذا ابني وهو غلام كاتب . قال : « **فخدمته تسع سنين . فما قال لي لشيء قط صنعته أسأت . أو بؤس ما صنعت** »[3] .

« وكان نقش خاتمه صورة أسد رابض . وكان يشد أسنانه بالذهب ـ وكان أحد الرماة المصيبين . ويأمر ولده أن يرموا بين يديه . وربما رمى معهم فيغلبهم بكثرة إصابته » .

---

(١) عبقرية عمر للعقاد .

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ص ١٥٢ .

فأنت ترى إمرأة هي أم سليم قد فقدت زوجها . وخلف من بعده ذرية ضعافاً . من بقية الرجال . . أنها نسيت أنوثتها . وما تمليه حياة الفراغ بعد موت الصاحب . . لتملأ حياتها بولدها . . ليملأ من بعدها الحياة كلها علماً وجهاداً في سبيل الله . . فتولت تعليمه أولاً فصار يجيد الكتابة والقراءة . .

وقبل هذا : تعهدته التربية : فقومته بالخلق الفاضل حتى يكون لتعليمه فائدة . .

ومن صور هذه التربية : أنه « كانت له ذؤابة [1] فأراد أن يعجرها [2] فنهته أمه . وقالت : كان النبي يمدها ويأخذ بها . وداعبه النبي ﷺ فقال له : « **يا ذا الأذنين** » [3] ـ لقد أراد الصبي أن يلف شعره الطويل حول رأسه . وأدركت أمه أثر هذه البادرة على خلقه . لأنها بداية فتونه بنفسه فحذرته لتبقى له شخصيته التي تسير به إلى تمام الرجولة . . ويمتثل الصبي لتوجيه أمه . .

ولعمري إن مثل هذه اللفتات الرشيدة في مستهل حياة الطفل لها أثر خطير في حياته المقبلة . . تقيم عوجه . . وتطبعه بطابع الجد والصرامة في تناوله للأمور . .

وهي وإن كانت خطوطاً يسيرة في صورته العامة . . إلا أنها تشكل أخيراً شخصيته التي صار التزام الحق عادة لها . .

ويخطيء الذين يتجاهلون مثل هذه الأمور . . بل إنهم ليجرمون في حق أنفسهم ودينهم حينما يواجهون مثل هذه الأخطاء بالضحك . . بل بالإعجاب أحياناً ! كما قد يحدث اليوم . . حتى إذا مرد الصبي على مثل هذه الهفوات واستمرأها . . استحالت عودته إلى سواء الصراط . .

فإذا اشتكى الآباء اليوم من أولادهم حين شبوا . . فليعلموا جيداً أنهم هم الذين وضعوا بذرة هذا التمرد . . ويجب أن يعلموا أخيراً أن الصرامة في إعداد الولد صغيراً توفر عليهم وعليه كثيراً من المتاعب .

وقد آمن أسلافنا بالله ورسوله فمنحهم الإيمان نوراً يمشون به على نهج مستقيم . . فاهتدوا . . وهدوا غيرهم . .

---

(١) الذؤابة : الشعر المرسل .
(٢) الإعتجار : لف العصابة على الشعر على استدارة الرأس .
(٣) أسد الغابة لابن الأثير ـ المرجع السابق .

وإذن فالعودة إلى تراثنا الإسلامي كفيلة بتزويدنا بأصول التربية السديدة . . في مواجهة الميوعة الوافدة إلينا من أناس حدد القرآن الكريم غايتهم في قول الحق سبحانه : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[1] .

ومن وسائلهم لتحقيق غايتهم ما يحقره المسلمون من أعمالهم . . ومنها هذا التقليد المفضي إلى كيانات هشة . لا تقوى على تكاليف الدين . وتقصر همتها فلا تدافع عنه . ولسنا نريد للبيت أن يكون سجناً صارم التقاليد . . لأن البيت الإسلامي ليس كذلك . لقد كان الرسول ﷺ يداعب أنساً . . ويمسك بهذه الخصلة المدلاة يمازحه . . بل إنه لم يكن لينهره على خطأ في البيت . . كما حكى ذلك أنس . . لكن الدعاية لا يصح أن تكون على حساب الحق . . والخطأ في إعداد شؤون البيت ليس كالخطأ في ترك الصلاة مثلاً ! !

ذلك ما لا يصح فيه تهاون . . بل ولا يقبل فيه عذر إلا في الإطار الذي حدده الإسلام . .

ورغم أن الصبي هنا يقيم في حجر أمه . . وما يترتب على ذلك من تدليل يعوضه حنان الوالد الغائب . . إلا أن أمه ترقبه بحذر . . وعندما حاول هواه أن يميل به إلى تقليد يخرج به عن طبيعته قطعت عليه الطريق . . لا كبتاً وتسلطاً . . بل إنه الحرص على المستقبل وما يفرضه من حذر ويقظة دائمين . .

ولله در الأم التي لم تسلم ولدها إلا بعد أن صار يجيد العمل . . فلم تتخلص منه رضيعاً تتقاذفه دور الأحداث . . لتبحث لنفسها عن صاحب جديد . .

أي أنها استكملت بناءه . . ثم قذفت به إلى أطهر بيت على الاطلاق . . ليتم إعداده فيه . . بيت رسول الله ﷺ . . إنها أكرم دار للحضانة ـ إذا صح التعبير ـ تدفعه أمه فيها . . لا بحثاً عن العمل . . ولا جرياً وراء المنصب . . بل لتعطي للأمومة حقها . . فإذا جاء اليوم خاطب يطرق الباب . . كانت النفس مستعدة . . والبال خالياً . . في محاولة جديدة لاستئناف حياة يظللها الإيمان بعد أن قدمت للدنيا رجلاً مثل أنس . . وما أكثر ما تساق إلى مثله معركة الحق والباطل . .

* * *

---

(١) البقرة : ٢١٧ .

* خطر القدوة :

وقد أثمرت هذه التربية الرشيدة ثمرتها . . وجاء أنس بن مالك كما أرادت أمه . . بل طبق ما أخذته به من قواعد . . وما رباه عليه الرسول من تجاوب ورأفة لا تعاقب على كل ذنب . . ولا تؤنب لكل بادرة . . فكانت خدمته للرسول ﷺ شرفاً إلى حد « كان يتسمى بـ ـ خادم رسول الله ـ ويفتخر بذلك »[1] وحق له أن يفتخر بهذه الصحبة الكريمة . . صحبة سيد لا يميت في قلب خادمه دوافع الطموح . . كما يفعل بعض الناس اليوم . .

لكنه ينميها في صدره . . ويسمح لها بالتطبيق في مجال الواقع . لقد شهد أنس بدراً . . بل كان نقش خاتمه صورة أسد رابض مهيب !

وإذن فقد رباه الرسول ﷺ . . ليربي به ولده . . وتخرج أولاده من مدرسته أبطالاً :

فتحوا أعينهم على صورة الأسد الرابض على خاتم أبيهم . . فتحركت في أفئدتهم همة الأسود !

ولم يروا فوق الجدران صور العراة . . والمخنثين لتجرفهم بعيداً إلى حياة المجون . . ولم يكتف الوالد بذلك . . بل أشرف بنفسه على تدريبهم عسكرياً . . وكان يسابقهم إلى إصابة الهدف فيسبقهم . . وفي غمرة هذا النجاح الكبير لا ننسى أم سليم التي تعهدت البذرة سقياً ورعاية . .

وأهم من ذلك لا ننسى رجع ذلك كله إلى المنهج القرآني في إعداد النفس . وإلى سنة رسول الله ﷺ . . الذي صار بها هذا المنهج أمثلة حية تحملت الأمانة . . وبلغت الرسالة . . وما زال إلى يوم القيامة قادراً على إخراج الحياة من الظلمات إلى النور .

ولم تكن هذه الصور حوادث فردية ترتبط بأسماء معينة قد يذهبون فتذهب معهم . . بل إن ذلك كان سمة عامة للمجتمع الإسلامي كله . . الذي كان تنشئة الولد عندهم غاية يتقربون إلى الله تعالى بإنجازها . . لا ليكون فقط إمتداد الحياة . . وعدة المستقبل . . بل ليصير الولد بها المراس . . صلب الإرادة . . حيث يرشحه ذلك لينال شرف الدفاع عن الدين وحراسة مبادئه . طاعة لله ورسوله . .

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ـ مرجع سابق .

« عن الربيع بنت معوذ قالت : أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار : « **من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه . ومن أصبح صائماً فليصم** » .

قالت : فكنا نصومه بعد . ونصوم صبياننا . ونجعل لهم اللعبة من العهن . فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذلك حتى يكون عند الإفطار »[1] .

* * *

(١) أخرجه البخاري ، واللفظ لمسلم « كتاب الصوم » .



# محتويات الكتاب

## الفصل الثاني: مع الناشىء في مهده
## (٥٧ - ١٧٩)

## الفصل الثالث: دور المدرسة في تربية النشء
## (١٨٢ - ٢٦٣)

## الفصل الرابع: صور من التربية العملية
## (٢٦٤ - ٣٨٠)

## الفصل الخامس: كيف ربى الرسول أصحابه
## (٣٨١ - ٤٥٦)